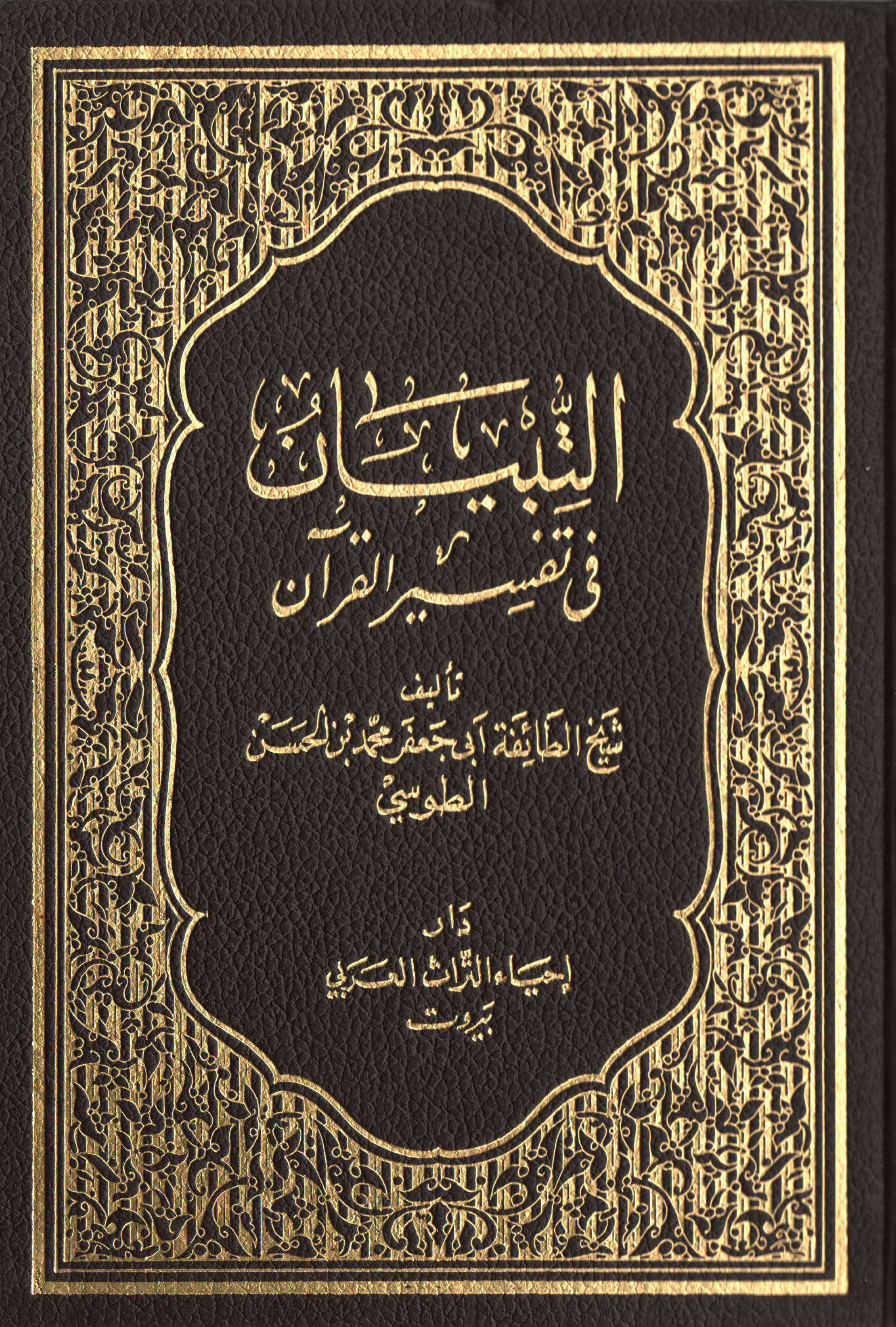


الطوسي

التبيان في تفسير القرآن

١٠

دار إحياء التراث العربي



التّبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي

٣٨٥-٤٦٠ هـ

تحقيق وتصحيح

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلّد العاشر

دار
إحياء التراث العربي

٦٢ ـ سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرٰيةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ (٥) خمس آيات بلاخلاف .

لا خلاف بين القراء في هذه السورة إلا ما روي عن الأعمش انه قرأ « الجمعة » بسكون الميم. الباقون بضمها . وقد بينا معنى قوله « يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض » وبينا وجه التكرار فيه . وإنما جاء ـ ههنا ـ على لفظ المضارعة . وقوله « الملك » يعني المالك للاشياء كلها ليس لاحد منعه منها « القدوس » المستحق

للتعظيم بتطهير صفاته من كل صفة نقص « العزيز » معناه القادر الذي لا يقهر ولا يغلب « الحكيم » فى جميع افعاله .

وقوله « هو الذي بعث » يعني الله الذي وصفه بالصفات المذكورة هو الذي أرسل « في الاميين » قال قتادة ومجاهد : الاميون العرب . وقال قوم : هم أهل مكة ، لانها تسمى أم القرى ، والامي منسوب إلى انه ولد من أمه لا يحسن الكتابة . ووجه النعمة فى جعل النبوة في أمي موافقة ما تقدمت البشارة به في كتب الأنبياء السالفة ، ولما فيه من انه أبعد من توهم الاستعانة على ما أتى به من الحكمة .

وقوله « رسولا » مفعول « بعث » و « منهم » يعني من سميتهم الأميين ومن جملتهم « يتلو عليهم » أي يقرأ عليهم « آياته » أي حججه وبيناته من القرآن وغيرها « ويزكيهم » أي ويطهرهم من دنس الشرك بما يهديهم إلى الايمان فيجعلهم أزكياء . وإنما يجعلهم كذلك بأن يدعوهم إلى طاعة الله التي يقع فيها الاجابة لانه لو دعاهم ولم يجيبوا لما قيل : إنه زكاهم « ويعلمهم الكتاب والحكمة » قال قتادة : يعلمهم القرآن والسنة ، والحكمة تعم الكتاب والسنة ، وكل ما أراده الله ، فان الحكمة هي العلم الذي يعمل عليه فيما يخشى او يجب من أمر الدين والدنيا . « وإن كانوا من قبل » يعني من قبل أن يبعث فيهم ويتلو عليهم القرآن « لفي ضلال مبين » أي في عدول عن الحق جائرين عن الصراط المستقيم مبين أي ظاهر .

وقوله « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » قال ابن زيد ومجاهد : هم كل من بعد الصحابة إلى يوم القيامة ، فان الله بعث النبي منهم وشريعته تلزمهم ، وإن لم يلحقوا بزمان الصحابة . « وآخرين » نصب على تقدير ويزكي آخرين منهم ، لما يلحقوا بهم . ويجوز ان يكون جراً ، وتقديره هو الذي بعث في الأميين وفي آخرين ، « وهو العزيز » الذي لا يغالب « الحكيم » في جميع أفعاله وما يأمر به .

وقوله ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ (ذلك) إشارة إلى بعث الرسول بين الله تعالى ان إرساله الرسول ﴿ فضل ﴾ من ﴿ الله ﴾ ونعمة ﴿ يؤتيه ﴾ أي يعطيه ﴿ من يشاء ﴾ بحسب ما يعلمه من صلاحه ببعثة ، وتحمل أعباء الرسالة ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ على عباده بما يفعل بهم من التفضل والاحسان ساعة بعد ساعة .

وقوله ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ﴾ معنا ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ﴾ يعني العمل بها وبما فيها ، فحفظوها ودّونوها في كتبهم ثم لم يعملوا بما فيها ﴿ كمثل الحمار يحمل اسفاراً ﴾ قال ابن عباس : الاسفار الكتب واحدها سفر ، لانها تكشف عن المعنى باظهار حاله ، يقال : سفر الرجل عن عمامته إذا كشف ، وسفرت المرأة عن وجهها . وهي سافرة ، وإنما مثلهم بالحمار لأن الحمار الذي يحمل كتب الحكمة على ظهره لا يدري بما فيها ، ولا يحس بها كمثل من يحفظ الكتاب ولا يعمل به ، وعلى هذا من تلا القرآن ولم يفهم معناه وأعرض عن ذلك اعراض من لا يحتاج اليه كان هذا المثل لاحقاً به . وإن من حفظه وهو طالب لمعناه وقد تقدم حفظه فليس من أهل هذا المثل .

وقوله ﴿ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ﴾ معناه بئس القوم قوم هذا مثلهم ، وهم الذين كذبوا بحجج الله وبيناته .

ثم قال ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ يعني الذين يظلمون نفوسهم بارتكاب المعاصي لا يحكم بهدايتهم ولا يرشدهم إلى طريق الجنة .

قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ

أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً ٱنْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَارَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ ﴾(١١)

ست آيات .

هذا أمر من الله تعالى النبي ﷺ أن يخاطب اليهود ، فيقول لهم ﴿ إن زعمتم انكم أولياء لله ﴾ فالزعم قول عن ظن او علم ، ولهذا صارت من أخوات (ظن) في الظن والعلم وعملت ذلك العمل من الاعراب قال الشاعر :

فان تزعميني كنت أجهل فيكم　　　فأني شريت الحلم بعدك بالجهل (١)

والاولياء جمع ولي ، وهو الحقيق بالنصرة التي يوليها عند الحاجة ، فالله ولي المؤمنين ، لأنه يوليهم النصرة عند حاجتهم . والمؤمن ولي الله لهذه العلة . ويجوز أن يكون لأنه يولي المطيع له بنصرته عند جاجته ، فقال الله لهؤلاء اليهود : إن كنتم تظنون على زعمكم أنكم انصار الله وأن الله ينصركم ﴿ فتمنوا الموت ان كنتم

(١) مر في ٨ / ١٦٨

صادقين ﴾ في ادعائكم أنكم أولياؤه دون الناس ، فالتمني هو قول القائل ـ لما كان ـ ليته لم يكن ، ولما لم يكن : ليته كان . وهو من صفات الكلام . وقال بعضهم : هو معنى في النفس .

ثم اخبر تعالى عن حالهم وكذبهم واضطرابهم في دعواهم ، وانهم غير واثقين بما يدّعونه فقال ﴿ ولا يتمنونه ابداً بما قدمت ايديهم ﴾ ومعناه لا يتمنون الموت أبداً فيما بعد ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ مما لا يرجعون فيه إلى ثقة من التكذيب بالنبي ﷺ والتحريف لصفته في التوراة ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ أي عالم بأحوالهم وافعالهم ، لا يخفى عليه شيء منها .

وفي الآية دليل على النبوة لأنه اخبر بأنهم لا يتمنون الموت ابداً ، وما تمنوه فكان ذلك اخباراً بالصدق قبل كون الشيء ، وذلك لا يعلمه إلا الله تعالى . وفيها بطلان ما ادعوه من انهم أولياء الله .

ثم قال للنبي ﷺ ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ إن الموت الذي تفرون منه ﴾ أي تهربون منه ﴿ فانه ملاقيكم ﴾ وإنما قال ﴿ فانه ﴾ بالفاء ، وسواء فروا منه او لم يفروا منه فانه ملاقيهم ، مبالغة في الدلالة على أنه لا ينفع الفرار منه لانه إذا كان الفرار منه بمنزلة السبب في ملاقاته فلا معنى للتعرض له لانه لا يباعد منه قال زهير :

ومن هاب اسباب المنايا ينلنه   ولو رام أن يرقى السماء بسلم (١)

وهن ينلنه هابها او لم يهبها ، ولكنه إذا كانت هيبته بمنزلة السبب للمنية كان لا معنى للهيبة . وقال قوم : تقديره قل إن الموت هو الذي تفرون منه فجعلوا (الذي) في موضع الخبر لاصلة . ويكون (فانه) مستأنف .

وقوله ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ معناه ثم ترجعون الى الله تعالى

(١) مر في ٥ / ٥٢٦

يوم القيامة الذي يعلم سركم وعلانيتكم وظاهركم وباطنكم ، لا يخفى عليه شيء من أحوالكم ﴿ فينبئكم ﴾ أي يخبركم «بما كنتم تعملون» في دار الدنيا ويجازيكم بحسبها على الطاعة بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب . ثم خاطب المؤمنين فقال ﴿ يا ايها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ معناه إذا سمعتم أذان يوم الجمعة فامضوا إلى الصلاة . قال قتادة : معناه امضوا إلى الصلاة مسرعين غير متثاقلين وبه قال ابن زيد والضحاك . وقال الزجاج : المعنى فامضوا إلى السعي الذي هو الاسراع قال وقرأ ابن مسعود (فامضوا) إلى ذكر الله ثم قال : لو علمت الاسراع لأسرعت حتى يقع ردائي عن كتفي . قال : وكذلك كان يقرأ ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ﴾ (١) يريد مضى فيه دون الاسراع . ومثله قوله ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ (٢) وفرض الجمعة لازم على جميع المكلفين إلا صاحب العذر : من سفر او مرض او عمى او عرج او آفة وغير ذلك . وعند اجتماع شروط وهي : كون سلطان عادل او من نصبه السلطان للصلاة ، وتكامل العدد - عندنا - سبعة ، وعند قوم اربعين . وعند آخرين أربعة ، وثلاثة . وقد بينا الخلاف في ذلك في (خلاف الفقهاء) .

وظاهر الآية متوجه إلى المؤمنين وإنما يدخل فيه الفاسق على التغليب ، كما يغلب الذكر على المؤنث ، هذا على قول من يقول إن الفاسق ليس بمؤمن . فأما من قال : إنه مؤمن مع كونه فاسقاً ، فالآية متوجهة اليهم كلهم . وقال مجاهد وسعيد ابن المسيب : المراد بالذكر موعظة الامام في خطبته . وقال غيرهما : يعني الصلاة التي فيها ذكر الله .

وقوله ﴿ وذروا البيع ﴾ معناه إذا دخل وقت الصلاة اتركوا البيع والشراء

(١) سورة ٥٣ النجم آية ٣٩　　(٢) سورة ٩٢ الليل آية ٤

قال الضحاك : إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء . وقال الحسن : كل بيع تفوت فيه الصلاة يوم الجمعة فانه بيع حرام ، لا يجوز ، وهو الذي يقتضيه ظاهر مذهبنا ، لان النهي يدل على فساد المنهي عنه . ثم قال ﴿ ذلكم ﴾ يعني ما ذكره من السعي الى الصلاة ﴿ خير لكم ﴾ فى دينكم وانفع لكم عاقبة ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ صحة ما قلناه أي اعلموه .

وقوله تعالى ﴿ فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض ﴾ أي إذا صليتم الجمعة فانتشروا فى الأرض طلباً لرزق الله. وصورته صورة الأمر وهو إباحة وإذن ورخصة ـ فى قول الحسن والضحاك وابن زيد وغيره ـ ﴿ وابتغوا من فضل الله ﴾ أي اطلبوا من فضل الله بعمل الطاعة والدعاء به ﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ يا محمد على إحسانه وبالشكر على نعمه والتعظيم لصفاته ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ ومعناه لتفلحوا وتفوزوا بثواب النعيم .

ثم اخبر تعالى عن حال جماعة كانوا مع النبي صلى الله عليه وآله وهو يخطب وهم معه يصلي بهم ، فقال ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها ﴾ قال جابر بن عبد الله والحسن : قدم عير لدحية الكلبي فيها طعام المدينة بعدما أصابتهم مجاعة ، فاستقبلوه باللهو والمزامير والطبول ـ فى قول جابر بن عبد الله ومجاهد ـ وكانوا مع النبي صلى الله عليه وآله فى الصلاة فلما سمعوا صوت الطبول والمزامير ﴿ انفضوا ﴾ أي تفرقوا إلى العير يبصرونه وتركوا النبي صلى الله عليه وآله وحده قائماً ، فقال الله لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ قل ﴾ لهم يامحمد ﴿ ما عند الله ﴾ من الثواب على سماع الخطبة وحضور الموعظة ﴿ خير من اللهو ومن التجارة ﴾ وانفع واحمد عاقبة « والله خير الرازقين » أى ليس يفوتهم بترك البيع شيء من رزق الله . والتقدير وإذا رأوا تجارة او لهواً انفضوا اليها وتركوك

أى اليه ، وإنما قيل (اليها) لانها كانت أهم اليهم،ذكره الفراء . وقيل : تقديره وإذا رأوا لهواً او تجارة انفضوا اليها ، فرد الضمير الى اقرب المذكورين ، لأنه كان أهم اليهم، وكذلك قرأ ابن مسعود فى مصحفه .

٦٣ ـ سورة المنافقون

مدنية بلا خلاف وهو قول ابن عباس وعطا والضحاك وهي احدى عشرة آية بلا خلاف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ

رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٥)

خمس آيات .

قرأ « خشب » خفيفة ابن كثير وابو عمرو والكسائي . وقرأ الباقون « خشب » مثقل . وقرأ نافع وروح وزيد « لووا رؤسهم » خفيفة . الباقون « لوّوا » مشددة .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ « إذا جاءك » يا محمد « المنافقون » وهم الذين يظهرون الايمان و يبطنون الكفر « قالوا نشهد إنك لرسول الله » أى اخبروا بأنهم يعتقدون إنك رسول الله . فقال الله تعالى لنبيه « والله يعلم انك لرسوله » على الحقيقة « والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » في قولهم إنهم يعتقدون إنك لرسول الله ، وكان إكذابهم فى اعتقادهم وأنهم يشهدون ذلك بقلوبهم ولم يكونوا فيما يرجع الى ألسنتهم ، لانهم شهدوا بها بألسنتم وهم صادقون في ذلك وفي ذلك دلالة على بطلان قول من يقول إن المعرفة ضرورية . وكسرت (إن) لأجل اللام التي هي لام الابتداء التي فى الخبر ، لان لها صدر الكلام. وإنما زحلقت عن موضعها إلى موضع الخبر لئلا تجمع بين حرفي تأكيد ، وكانت احق بالتأخير ، لانها غير عاملة . وإنما كان لها صدر الكلام ، لانها نقلت الجملة إلى معنى التأكيد وكل حرف نقل الجملة عن معنى إلى معنى كان له صدر الكلام ، لئلا تختلط الجمل .

ثم اخبر تعالى عن هؤلاء المنافقين فقال « اتخذوا أيمانهم جنة » أى سترة يتسترون بها من الكفر لئلا يقتلوا ولا يسبوا ولا تؤخذ أموالهم . والجنة السترة المتخذة لدفع الأذية كالسلاح المتخذ لدفع الجراح ، فالجنة السترة ، والجنة البستان الذى يجنه الشجر . الجنه والجنون الذى يغطي على العقل . واصل ذلك كله الستر « فصدوا عن سبيل الله » أى منعوا غيرهم عن اتباع سبيل الحق . وقال الضحاك :

أيمانهم حلفهم إنهم لمنكم. وقرى، « إيمانهم » بكسر الهمزة بمعنى أنهم اتخذوا تصديقهم ظاهراً جنة ، فقال تعالى « انهم ساء ما كانوا يعملون » ومعناه بئس الذى يعملونه من اظهار الايمان مع إبطان الكفر والصد عن السبيل . وقال زيد بن أرقم : نزلت الآية في عبد الله بن ابي بن سلول ، لما قال : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا وقال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ، فلما وقف على ذلك جحده وحلف انه ما قاله حتى نزلت السورة . وقوله « ذلك بأنهم آمنوا » بألسنتهم عند الاقرار بـ(لا إله إلا الله محمد رسول الله) « ثم كفروا » بقلوبهم لما كذبوا بهذا وهو قول قتادة « فطبع على قلوبهم » أى ختم عليها بسمة تميز الملائكة بينهم وبين المؤمنين على الحقيقة « فهم لا يفقهون » ذلك بجحدهم توحيد الله ونفاقهم وإنكارهم نبوة رسوله الذى دعاهم الى الحق .

ثم قال « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم » بحسن منظرهم وجميل زيهم « وان يقولوا » يعنى هؤلاء المنافقون « تسمع لقولهم » أى تصغى اليهم وتسمع ما يقولون بحسن بيانهم وبلاغة لسانهم ، فقال تعالى « كأنهم خشب مسندة » فشبههم الله بالخشب المسندة ، قيل : إنهم شبهو بخشب نخرة متأكله لاخير فيها إلا أنها مسندة يحسب من يراها أنها صحيحة سليمة . وخشب جمع خشبة مثل بدن وبدنة فيمن سكن . ومن ضم قال : مثل ثمرة وثمر . ثم وصفهم بالخور والهلع فقال « يحسبون كل صيحة عليهم » أي يظنون أنها مهلكتهم ، وأنهم المقصودون بها جبناً وخوراً. ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « هم العدو » لك وللمؤمنين « فاحذرهم » وتوقهم « قاتلهم الله » وقيل : معناه أخزاهم الله . وقيل : معناه أحلهم الله محل من يقاتله عدو قاهر له ، وهذا اشد ما يكون من الذم والبلاء الذي ينزل بهم وأبلغ ما يكون فى البيان عن مكروههم « أنى يؤفكون » أي كيف يصرفون عن الحق . وإنما قال « فاحذرهم »

لانهم كانوا ينقلون الاسرار إلى الكفار ويحيون من قدروا عليه من أهل الكفر .

ثم اخبر تعالى فقال « وإذا قيل لهم » يعني لهؤلاء المنافقين « تعالوا » أي هلموا « يستغفر لكم رسول الله لووا رؤسهم » ومعناه أكثروا تحريكها بالهز لها استهزاء بدعائهم الى ذلك .

فمن شدد أراد تكثير الفعل . وممن خفف فلانه يدل على القليل والكثير . ثم قال : ورأيتهم يا محمد « يصدون » عن سبيل الحق ﴿ وهم مستكبرون ﴾ أي يطلبون الكبر ويتجبرون عن إتباع الحق .

قوله تعالى :

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلهِ خَزَائِنُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٩) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ (١٠)

وَلَنْ يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١١)

ست آيات .

قرأ ابو عمرو وحده (وأكون) بالواو . الباقون ﴿ وأكن ﴾ وفي المصاحف بلاواو فقيل لابي عمرو : لم سقطت من المصاحف؟ . فقال كما كتبوا :(كلهن) وقرأ يحيي عن أبي بكر ﴿يعملون ﴾ بالياء . الباقون بالتاء . ومن قرأ بالياء فعلى الخبر،ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب .

لما اخبر الله تعالى عن حال المنافقين ، وانه « إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله» حركوا رؤسهم استهزاء بهذا القول ، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ﴾ أي يتساوى الاستغفار لهم وعدم الاستغفار ﴿ فلن يغفر الله لهم ﴾ لانهم يبطنون الكفر وإن اظهروا الايمان . وبين انه تعالى ﴿ لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ الى طريق الجنة : فلهذا يجب ان ييأسوا من المغفرة بالاستغفار .

وقال الحسن : اخبر الله تعالى أنهم يموتون على النفاق ، فلم يستغفر لهم بعد . وقيل : المعنى لا يحكم الله بهدايتهم ، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله يستغفر لهم على ظاهر الحال بشرط حصول التوبة وأن يكون باطن المستغفر له مثل ظاهره ، فبين بها أن ذلك لا ينفع مع أبطانهم الكفر والنفاق .

ثم حكى تعالى عنهم فقال ﴿ هم الذين يقولون ﴾ يعني بعضهم لبعض لا تنفقوا على من عند رسول الله صلى الله عليه وآله من المؤمنين المحتاجين ﴿ حتى ينفضوا ﴾ عنه ومعناه حتى يتفرقوا عنه لفقرهم وحاجتهم . والانفضاض التفرق ، وفض الكتاب إذا فرقه ونشره ، وسميت الفضة فضة لتفرقها في اثمان الاشياء المشتراة .

فقال الله تعالى ﴿ ولله خزائن السموات والارض ﴾ بمعنى له مقدوراته فى السموات والارض ، لان فيها كل ما يشاء إخراجه ، وله خزائن السموات والارض يخرج منهما ما يشاء . وهي داخلة فى مقدوراته ، والخزانة ـ بكسر الخاء ـ موضع يخبأ فيه الامتعة ، وإذا كان لله خزائن السموات والارض ، فلا يضرك يا محمد ترك انفاقهم بل لا يضرون إلا أنفسهم دون اولياء الله والمؤمنين الذين يسبب الله قوتهم ولو شاء الله تعالى لأغنى المؤمنين ، ولكن فعل ما هو اصلح لهم وتعبدهم بالصبر على ذلك لينالوا منزلة الثواب ﴿ ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ ذلك على الحقيقة لجهلهم بعقاب الله تعالى .

ثم اخبر عنهم فقال ﴿ يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز ﴾ يعنون نفوسهم ﴿ منها الاذل ﴾ يعنون رسول الله والمؤمنين . وقيل : إن القائل لذلك في غزوة المريسيع ، كان عبد الله بن ابي بن سلول ، فقال الله تعالى ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ دون المنافقين والكفار ﴿ ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ ذلك فيظنون ان العزة لهم ، وذلك بجهلهم بصفات الله وما يستحقه أولياؤه وما يعمل بهم . والاعز الأقدر على منع غيره وأصل الصفة المنع فلذلك لم يكن أحد اعز من الله ولا أذل من المنافق .

ثم خاطب المؤمنين فقال ﴿ يا ايها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ﴾ أي لا تشغلكم أموالكم ﴿ ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ قال قوم : الذكر المأمور به هو ذكر الله بالحمد والشكر والتعظيم بصفاته العليا واسمائه الحسنى ، ويقال : ألهيته عن الأمر اذا صرفته عنه بما يمنعه قال امرؤ القيس :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ... فألهيتها عن ذي تمائم محول (١)

(١) ديوانه (السندوبى) ١٤٧

وقال قوم : ذكر الله جميع فرائضه ثم قال { ومن يفعل ذلك } أى من شغله ماله او ولده عن ذكر الله { فاولئك هم الخاسرون } الذين خسروا ثواب الله وحصل لهم عقابه . ثم أمرهم بأن ينفقوا مما رزقهم الله فيما تجب عليهم النفقة فيه من الزكاة والجهاد والحج والكفارات وغير ذلك من الواجبات . وفي ذلك دليل على ان الحرام ليس برزق من الله ، لان الله لا يأمر بالمعصية بالانفاق ، ولأنه ينهى عن التصرف فيه بلا خلاف { من قبل ان يأتي احدكم الموت فيقول لولا أخرتني الى اجل قريب } اى هلا . وقيل : معناه إنه يتمنى أن يرد الى دار الدنيا ، وانما جاز التمني بـ (لولا) ، لأن اصلها التقدير ، والتمني تقدير الخير للاستمتاع { فاصدق } ومعناه فأتصدق ، وانفق في سبيل الله { وأكن من الصالحين } أى من الذين يعملون الأفعال الحسنة . وفي ذلك دليل على ان المقدرة قبل الفعل ، لانهم تمنوا ان يؤخروا ليعملوا ما كانوا قادرين عليه متمكنين منه . ودليل على ان الله تعالى لايخلق الكفر والنفاق فيهم ، لانه لو فعل ذلك كان لا معنى لتمني التأخير والرد بل الواجب أن يطلبوا منه تعالى ان يكف عنهم الكفر ويخلق فيهم الايمان وقدرته بدل الكفر وقدرته .

وقوله { فاصدق } انتصب بأنه جواب التمني بالفاء ، وكل جواب بالفاء نصب ، إلا جواب الجزاء ، فانه رفع على الاستئناف ، لان الفاء في الجزاء وصلة الى الجواب بالجملة من الابتداء والخبر . وانما نصب الجواب بالفاء للايذان بأن الثاني يجب بالأول بدلالة الفاء في الجواب ، وليس يحتاج الى ذلك في الجزاء من قبل ان حرف الجزاء يكفي في الدلالة . ومن قرأ { واكن } لجزم عطف على موضع الفاء ، لانها في موضع جزم . ومن قرأ { واكون } عطف على لفظ { فأصدق } .

ثم قال { ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء أجلها } يعني الأجل المطلق الذى

حكم بأن الحي يموت عنده . والأجل المفيد هو الوقت المحكوم بأن العبد يموت عنده ان لم يقتطع عنه او لم يزد عليه او لم ينقص منه على ما يعلمه الله من المصلحة . ثم قال ﴿ والله خبير ﴾ اى عالم ﴿ بما يعملون ﴾ فمن قرأ بالياء أراد عالم بعملهم على لفظ الغيبة . ومن قرأ بالتاء أراد بعملكم على الخطاب أى قل لهم .

٦٤ ـ سورة التغابن

مدنية بلا خلاف ـ في قول ابن عباس وعطاء والضحاك ـ وهي ثمان عشرة آية بلا خلاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٥) خمس آيات .

قد فسرنا معنى قوله « يسبح لله ما فى السموات وما فى الارض » وأن المراد بها ما فى خلق السموات والارض ، وما فيها من الادلة الدالة على توحيده وصفاته التي باين بها خلقه ، وأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء وأنه منزه عن القبائح وصفات النقص ،فعبر عن ذلك بالتسبيح من حيث كان معنى التسبيح التنزيه لله عما لا يليق به .

وقوله « له الملك » معناه انه المالك لجميع ذلك والمتصرف فيه بما شاء ، ولا أحد يمنعه منه ، وله الحمد على جميع ذلك ، لأن خلق ذلك جمع للاحسان إلى خلقه به والنفع لهم فاستحق بذلك الحمد والشكر « وهو على كل شيء قدير » يعني مما يصح أن يكون مقدوراً له ، فلا يدخل فى ذلك مقدور العباد ، لانه يستحيل أن يكون مقدوراً لله .

وقوله « هو الذي خلقكم » معناه هو الذي اخترعكم وأنشأكم بأن أخرجكم من العدم إلى الوجود « فمنكم كافر ومنكم مؤمن » معناه فمنكم من يختار الكفر بسوء اختياره ومنكم مؤمن بحسن اختياره للايمان . وقال الحسن : فيه محذوف وتقديره فمنكم كافر ومنكم مؤمن ومنكم فاسق . وقال غيره : ليس فيه حذف ، لأن الغرض ذكر الطرفين لا المنزلة بين المنزلتين كما أن قوله « خلقكم » خطاب يتوجه إلى جميع الخلق . وإن كان منهم الاطفال والمجانين الذين لاحكم لهم بالايمان ولا بالكفر . وقال الزجاج : معناه « فمنكم كافر » بالله بأن الله خلقه « ومنكم مؤمن » بذلك .

وقوله « والله بما تعملون بصير » معناه ـ ههنا ـ أنه خلق الكافر ، وهو عالم بما يكون منه من الكفر ، وكذلك خلق المؤمن وعلم بما يكون منه من الايمان ، وكل ذلك على وجه الاحسان فى الفعل الذي يستحق به الحمد والشكر . ثم قال « خلق السموات والارض » بمعنى اخترعها وانشأها « بالحق » أي الحق وهو انه

خلق العقلاء تعريضاً لهم للثواب العظيم، وما عداهم خلق تبعاً لهم لما فيه من اللطف. وهذا الغرض لا يتأتى إلا على مذهب العدل، وأما على مذهب الجبر فلا. «وصوركم» متوجه الى البشر كلهم «فأحسن صوركم» معناه من الحسن الذي يقتضيه العقل لا في قبول الطبع له عند رؤيته، لان فيهم من ليس بهذه الصفة. وقال قوم: لا بل هو من تقبل الطبع لأنه إذا قيل: حسن الصورة لا يفهم منه إلا تقبل الطبع، وسبيله كسبيل قوله «لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم» (١) وإن كان فيهم المشوه الخلق لأن هذا عارض لا يعتد به في هذا الوصف، والله تعالى خلق الانسان على أحسن صورة الحيوان كله. والصورة عبارة عن بنية مخصوصة كصورة الانسان والفرس والطير وما أشبه ذلك.

ثم قال «واليه المصير» يعني اليه المرجع يوم القيامة واليه المآل. ثم قال «يعلم» يعني الله تعالى يعلم «ما في السموات والارض» من الموجودات «ويعلم ما تسرون وما تعلنون» أي ما تظهرونه وما تخفونه. وقيل: ما يسره بعضكم إلى بعض وما تخفوه في صدوركم عن غيركم. والفرق بين الاسرار والاخفاء أن الاخفاء أعم لانه قد يخفي شخصه وقد يخفي المعنى في نفسه والاسرار والمعنى دون الشخص «والله عليم بذات الصدور» معناه وهو عالم باسرار الصدور وبواطنها.

ثم خاطب نبيه صلى الله عليه وآله والمؤمنين فقال «ألم يأتكم نبؤ الذين كفروا من قبل» يعني من قبل هؤلاء الكفار «فذاقوا وبال أمرهم» أي بما سلطه الله عليهم بأن أهلكهم الله عاجلا واستأصلهم «ولهم عذاب اليم» أي مؤلم يوم القيامة.

قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا

---

(١) سورة ٩٥ التين آية ٤

أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١٠) خمس آيات .

قرأ رويس عن يعقوب « نجمعكم » بالنون على الاخبار من الله عن نفسه . الباقون بالياء على تقدير يوم يجمعكم الله .

(أبشر) لفظه لفظ الواحد والمراد به الجمع بدلالة قوله ﴿ يهدوننا ﴾ لأنه على طريق الجنس الذي لا يجمع ولا يثنى .

لما قرر الله تعالى خلقه بأنهم جاءهم اخبار من مضى من الكفار وأن الله تعالى أهلكهم بكفرهم ، بين لم أهلكهم فقال ﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم ﴾ أي تجيئهم رسلهم من الله بالحجج الواضحات ﴿ فقالوا ﴾ لهم ﴿ أبشر يهدوننا ﴾ وقد بينا أن لفظ (بشر) واحد والمراد به الجمع ، ومعناه أخلق مثلنا يهدوننا إلى الحق ؟! متعجبين من ذلك مستهزئين به ﴿ فكفروا ﴾ بالله وجحدوا رسله ﴿ وتولوا ﴾ أي اعرضوا عن القبول منهم ﴿ واستغنى الله ﴾ ومعناه أن الله لم يدعهم الى عبادته لحاجته اليهم ، لأن الله تعالى غني عنهم وعن غيرهم ، وإنما دعاهم لما يعود عليهم بالنفع حسب

ما تقتضيه حكمته في تدبيرهم ﴿ والله غني ﴾ عن جميع خلقه ﴿ حميد ﴾ على جميع افعاله لانها كلها إحسان . وقيل (حميد) يدل على أنه يجب على عباده أن يحمدوه .

ثم حكى ما يقول الكفار فقال ﴿ زعم الذين كفروا بالله ﴾ وجحدوا رسله فقال المؤرج: (زعم) معناه كذب في لغة حمير . وقال شريح (زعم) كنية الكذب والحدة كنية الجهل ﴿ أن لن يبعثوا ﴾ أي لا يحشرهم الله في المستقبل للحساب والجزاء فـ ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد صلى الله عليه وآله ﴿ بلى وربي ﴾ أي وحق ربي ، على وجه القسم ﴿ لتبعثن ﴾ أي لتحشرن ﴿ ثم لتنبؤن ﴾ أي لتخبرن ﴿ بما عملتم ﴾ من طاعة ومعصية ﴿ وذلك على الله يسير ﴾ سهل لا يتعذر عليه ذلك ، وإن كثروا وعظموا فهو كالقليل الذي لا يشق على من يأخذه لخفة أمره ، ومثله قوله ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ (١) واصله من تيسير الشيء بمروره على سهولة .

ثم قال « فآمنوا بالله » معاشر العقلاء « ورسوله » أي وآمنوا برسوله « والنور الذي أنزلنا » يعني القرآن ، سماه نوراً لما فيه من الادلة والحجج الموصلة الى الحق فشبهه بالنور الذي يهتدى به على الطريق « والله بما تعملون خبير » أي عالم بأعمالكم لا يخفى عليه خافية منها .

وقوله ﴿ يوم يجمعكم ﴾ تقديره واذكروا يوم يجمعكم ﴿ ليوم الجمع ﴾ وهو يوم القيامة . وقوله ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ والتغابن هو التفاوت في اخذ الشيء بدون القيمة ، والذين اخذوا الدنيا بالآخرة بهذه الصفة في أنهم اخذوا الشيء بدون القيمة ، فقد غبنوا أنفسهم بأخذ النعيم المنقطع بالدائم واغبنهم الذين اشتروا الآخرة بترك الدنيا المنقطع اليها من هؤلاء الذين تغابنوا عليها ، وقال مجاهد وقتادة : يوم التغابن غبن أهل الجنة أهل النار .

ثم قال ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً ﴾ أي من يصدق بالله ويعترف

(١) سورة ٣١ لقمان آية ٢٨

بوحدانيته وإخلاص العبادة له ويقرّ بنبوة نبيه ويضيف إلى ذلك افعال الطاعات ﴿ يكفر عنه سيئآته ﴾ أي يكفر عنه سيئاته التي هي دونها ، ويتفضل عليه باسقاط عقاب ما دونها من المعاصي ﴿ ويدخله جنات تجري من تحتها الانهار ﴾ يعني بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مؤبدين لا يفنى ماهم فيه من النعيم أبداً ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ أي النجاح الذي ليس وراءه شيء من عظمه .

ثم قال ﴿ والذين كفروا ﴾ بالله وجحدوا وحدانيته وأنكروا نبوّة نبيه وكذبوا بمعجزاته التي هي آيات الله ﴿ أولئك اصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ﴾ أي بئس المآل والمرجع . وقرأ (نكفر ، وندخله) بالنون أهل المدينة واهل الشام على وجه الاخبار من الله تعالى عن نفسه . الباقون بالياء على تقدير يكفر الله عنهم ويدخلهم .

قولــه تعــالى :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ (١٢) ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٥) خمس آيات .

يقول الله تعالى مخاطباً لخلقه انه ليس يصيبكم مصيبة إلا باذن الله . والمصيبة

المضرة التي تلحق صاحبها كالرمية التي تصيبه . ومنه الصواب بأنه أصابه الحق كالرمية في أصابة الغرة . وقيل : إنما عم قوله ﴿ ما اصاب من مصيبة إلا باذن الله ﴾ وفي المصائب ما هو ظلم ، والله لا يأذن في الظلم ، لانه لا يحسن في الحكمة ، ألا ترى انه ليس منها إلا ما أذن الله في وقوعه او التمكن منه وذلك أذن الملك الموكل به كأنه قيل له لا تمنع من وقوع هذه المصيبة . وقد يكون ذلك بفعل التمكن من الله كأنه يأذن له ان يكون . وقال البلخي : معناه إلا بتخلية الله بينكم وبين من يريد فعلها . وقال قوم : هو خاص فيما يفعله الله تعالى او يأمر به ، ويجوز ايضاً ان يكون المراد بالأذن ـ ههنا ـ العلم ، فكأنه قال لا يصيبكم من مصيبة إلا والله تعالى عالم بها . ثم قال ﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ أي من يصدق بالله ويعترف بوحدانيته ﴿ يهد قلبه ﴾ أي يحكم بهدايته . ويجوز ان يكون المراد يشرح صدره للايمان . وقيل : معناه يهدي قلبه بأن المصيبة باذن الله ـ ذكره ابن عباس وعلقمة ـ قال هو الرجل تصيبه المصيبة فيسلم ويرضى ويعلم أنها من عند الله ، وقال الفراء : هو أن يقول : إنا لله وإنا اليه راجعون ، وقال غيره : معناه إذا ابتلي صبر ، وإذا انعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفر .

وقرأ ابو بكر ﴿ يهد قلبه ﴾ ـ بفتح الدال ـ بمعنى يسكن قلبه ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك . ثم أمرهم فقال ﴿ واطيعوا الله ﴾ فيما أمركم به ﴿ واطيعوا الرسول ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿ فان توليتم ﴾ أي فان أعرضتم عن القبول منه وتوليتم عن الحق فليس على رسولنا قهركم الى الرد إلى الحق ﴿ فانما على الرسول البلاغ المبين ﴾ الظاهر ، وحذف ايجازاً ثم قال ﴿ الله ﴾ الذي يحق له العبادة ﴿ لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ فالتوكل هو تفويض الامر الى الله بأنه يتولاه على الحق فيه وقد أمر الله بالتوكل عليه فينبغي للمسلم أن يستشعر

ذلك فى سائر احواله وقال قوم : التوكل تفويض الأمر إلى مالكه لتدبره بالحق فيه . والوكيل المالك للتدبير فيمن فوض الامر اليه فيه .

ثم خاطب تعالى المؤمنين فقال ﴿يا ايها الذين آمنوا إن من أزواجكم واولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ قال ابن عباس: نزلت الآية فى قوم اسلموا بمكة وأرادوا الهجرة فمنعوهم من ذلك ، وقال عطاء بن بشار : نزلت فى قوم أرادوا البر فمنعهم هؤلاء . وقال مجاهد : هي فى قوم إذا أرادوا طاعة الله منعهم أزواجهم واولادهم فبين الله تعالى أن فى هؤلاء من هو عدوّ لكم فى الدين فاحذروهم فيه . و (من) دخلت للتبعيض لأنه ليس حكم جميع الأزواج والأولاد هذا الحكم . والعداوة المباعدة من الخير بالبغضة ونقيضها الولاية وهي المقاربة من الخير بالمحبة . والاذن الاطلاق فى الفعل ، تقول : يسمع بالاذن ، فهذا أصله ، ثم قد يتسع فيه بما يقارب هذا المعنى .

ثم قال ﴿ وإن تعفوا ﴾ يعني تتركوا عقابهم ﴿ وتصفحوا ﴾ وتعرضوا عما كان منهم ﴿ وتغفروا ﴾ أي تستروا ذنوبهم إذا تابوا واقلعوا عنها « فان الله غفور » أي ستار على خلقه « رحيم » بهم .

ثم قال « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » أي محنة وابتلاء . وقال قتادة : يعني بلاء . والفتنة المحنة التي فيها مشقة تمنع النفس عما تدعو اليه الشهوة « والله عنده أجر عظيم » أي ثواب جزيل على الصفح والعفو وغيرهما من الطاعات .

قولــه تعــالى :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ

تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٨) ثلاث آيات ٠

هذا أمر من الله تعالى للمكلفين يأمرهم بأن يتقوه بأن يتركوا معاصيه ويفعلوا طاعاته . فالاتقاء الامتناع من الردى باجتناب ما يدعو اليه الهوى ٠ يقال : اتقاه بالترس إذا امتنع منه بأن جعله حاجزاً بينه وبينه . وقوله « ما استطعتم » معناه اتقوه بحسب طاقتكم ، فان الله تعالى لا يكلف نفساً ما لاتطيقه ، وإنما يكلفها ماتسعه له ، ولا ينافي هذا قوله « اتقوا الله حق تقاته » (١) لان كل واحد من الأمرين إنما هو إلزام ترك جميع معاصيه فمن ترك جميع المعاصي فقد اتقى عقاب الله ، لان من لم يفعل قبيحاً ولا أخل بواجب فلا عقاب عليه إلا أن في احد الكلامين تبيين أن التكليف لا يلزم العبد إلا فيما يطيق ٠ وهذا يقتضي أن اتقاءه فيما وقع من القبيح ليس بأن لا يكون وقع وإنما هو بالندم عليه مع العزم على ترك معاودته ٠ وكل أمر يأمر الله به فلا بد من أن يكون مشروطاً بالاستطاعة ، فان كانت الاستطاعة غير باقية على مذهب من يقول بذلك ، فالامر بما يفعل في الثالث ٠ وما بعده مشروط بأن يفعل له إستطاعة قبل الفعل بوقت وإلا لا يكون مأموراً بالفعل ، وإن كانت ثابتة فالامر على صفة الاستطاعة ، لانه لا يصح الشرط بالموجود ، لان الشرط يحدث ،فليس يخلو من ان يكون على شريطة وقوع القدرة او على صفة وجود القدرة وقال قتادة قوله تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم » ناسخ لقوله « اتقوا الله حق تقاته » كأنه يذهب إلى أن فيه رخصة لحال التقية وما جرى مجراها مما يعظم فيه المشقة

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٠٢

وإن كانت معه القدرة على الحقيقة . وقال غيره : ليس بناسخ ، وإنما هو مبين لامكان العمل بهما جميعاً . وهو الصحيح ، لأن تقديره : اتقوا الله حق تقاته فيما استطعتم

وقوله « واسمعوا » أي اصغوا إلى ما يأمركم الله به « واطيعوا » فيما آمركم به « وانفقوا » فيما أمركم بالانفاق فيه من الزكاة والانفاق فى سبيل الله وغير ذلك « خيراً لانفسكم » انتصب (خيراً) بفعل محذوف يدل عليه (انفقوا) وتقديره وأنفقوا الانفاق خيراً لانفسكم ، ومثله انتهوا خيراً لكم ، وهو كقولهم : وذاك أوسع لك لأنك إذا أمرته بشيء فهو مضمن بأن يأتي خيراً له .

وقوله « ومن يوق شح نفسه » أي من منع ووقى شح نفسه . والشح منع الواجب فى الشرع . وقيل : الشح منع النفع على مخالفة العقل لمشقة البذل ، ومثله البخل يقال : شح يشح شحاً فهو شحيح وشحاح . وقال ابن مسعود : من الشح أن تعمد الى مال غيرك فتأكله .

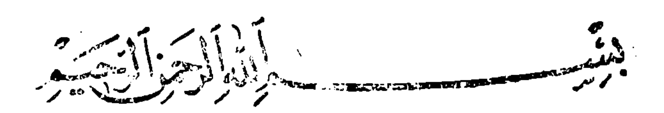
وقوله « فاولئك هم المفلحون » معناه إن من وقى شح نفسه وفعل ما اوجبه الله عليه فهو من جملة المنجحين الفائزين بثواب الله . وقوله « إن تقرضوا الله قرضاً حسناً » والقرض أخذ قطعة من المال بتمليك الآخذ له على رد مثله وأصله القطع : من قرض الشيء يقرضه قرضاً إذا قطع منه قطعة . وذكر القرض فى صفة الله تلطفاً فى الاستدعاء إلى الانفاق فى سبيل الله ، وهو كالقرض فى مثله مع اضعافه ولايجوز أن يملك الله ـ عز وجل ـ لانه مالك للاشياء من غير تمليك ولأن المالك لا يملك ما هو مالكه . وقوله « يضاعفه لكم » أي يضاعف ثوابه لكم بامثاله . ومن قرأ « يضعفه » بالتشديد ، فلان الله تعالى بذل بالواحد عشرة إلى سبعين وسبعمائة « ويغفر لكم » أي ويستر عليكم ذنوبكم ولا يفضحكم بها « إن الله شكور حليم » أي يجازي على الشكر « حليم » لا يعاجل العباد بما يستحقونه من العقاب . وقوله

« عالم الغيب والشهادة » أي يعلم السر والعلانية وهو « العزيز » الذي لا يغالب « الحكيم » في جميع افعاله و (الشكور) في صفة الله مجاز ومعناه إنه يعامل المطيع في حسن الجزاء معاملة الشاكر و (الحلم) ترك المعاجلة بالعقوبة لداعي الحكمة . و (الغيب) كون الشيء بحيث لا يشاهده العبد . و (الغائب) نقيض الشاهد وهو « الحكيم » في جميع أفعاله .

وقرأ « يضعفه » بالتشديد ابن كثير وابن عامر. الباقون « يضاعفه » وقد مضى تفسيره .

٦٥ ـ سورة الطلاق

مدنية في قول ابن عباس وعطاء والضحاك وغيرهم وهي اثنتا عشرة آية في الكوفي والمدنيين وعشر في البصري .



﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً (١) فَإِذَا

بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (٣) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾ (٥) خمس آيات .

قرأ حفص عن عاصم ونافع « بالغ أمره » على الاضافة . الباقون « بالغ » منون « أمره » منصوب . وقد بينا نظائر ذلك فيما مضى . وقيل : إنه إذا نون معناه انه تعالى بالغ مراده ، وإذا اضيف فمعناه أن امره تعالى يبلغ ، فيكون اضافة الى الفاعل .

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيه والمراد به أمته « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء » ومعناه إذا أردتم طلاق النساء ، كما قال « إذا قمتم الى الصلاة » (١) وروي عن ابن عباس انه قال : نزل القرآن بإياك أعني واسمعي يا جارة ، فيكون الخطاب للنبي والمراد به الأمة من ذلك . وقال قوم : تقديره يا أيها النبي قل لأمتك إذا طلقتم

(١) سورة ٥ المائدة آية ٧

النساء ، فعلى هذا القول : النبي يكون خارجاً من الحكم . وقال آخرون : هو على خطاب الرئيس الذي يدخل فيه الاتباع ، فعلى هذا حكم النبي حكم أمته في هذا الحكم وأجمعت الأمة على أن حكم النبي حكم الامة في الطلاق . والطلاق في الشرع عبارة عن تخلية المرأة بحل عقدة من عقد النكاح بأن يقول : أنت طالق يخاطبها او يقول هذه طالق ويشير اليها أو فلانة طالق بنت فلان . وعندنا لا يقع الطلاق إلا بهذا اللفظ المخصوص ، ولا يقع بشيء من الكنايات طلاق أراد بها الطلاق أو لم يرد . وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف . واما الفراق فقد يحصل بغير الطلاق ، كالارتداد واللعان والخلع ـ عند كثير من أصحابنا ـ وإن لم يسم ذلك طلاقاً . وأما فسخ النكاح بالرد بالعيب . فقد يحصل بأشياء ولا يسمى طلاقاً . ومن شرط وقوع الطلاق ـ عندنا ـ أن تكون المراة طاهراً طهراً لم يقربها فيه بجماع بمحضر من شاهدين، ويقصد به ايقاع الطلاق ، ويتلفظ بما قدمناه . فحينئذ يقع طلاقه تطليقة واحدة وهو أملك برجوعها ما لم تخرج من العدة . فان خرجت قبل ان يراجعها كان كواحد من الخطاب . ومتى تلفظ بثلاث تطليقات ، فان كانت المرأة طاهراً مع باقي الشروط وقعت واحدة . وخالف جميع الفقهاء في ذلك . وقالوا : يقع الثلاث . ثم اختلفوا فقال الشافعي ، ومن وافقه : ويكون ذلك مسنوناً . وقال اهل العراق : المسنون ان يطلقها طلقة واحدة بلفظ واحد ، ومتى اوقع ثنتين او ثلاثاً وقع . وأما غير المدخول بها فعند جميعهم يقع الثلاث ، ولا عدة عليها . وعندنا لا يقع إلا واحدة . وفي أصحابنا من يقول : من تلفظ بالثلاث لا يقع شيء . والاعتماد على ما قلناه أولا . ومتى طلقها ثلاثاً أو واحدة ، وهي حائض وكان قد دخل بها ولا يكون غائباً عنها شهراً فصاعداً لا يقع عندنا شيء اصلا . وقال جميع الفقهاء : هو بدعة . وتبين المرأة بذلك .

وقوله تعالى « فطلقوهن لعدتهن » معناه أن يطلقها وهي طاهر من غير جماع ويستوفي باقي الشروط . وقال ابن عباس : هو أن يطلقها طاهراً من غير جماع. وبه قال مجاهد والحسن وابن سيرين وقتادة والضحاك والسدي ، فعلى هذا متى طلقها في الحيض فلا يقع طلاقها ، لانه خلاف المأمور به ، وهو منهي عنه ، والنهي يدل على فساد المنهي عنه وعند الفقهاء إنه يقع الطلاق ، وإن كان بدعة .

ثم قال « واحصوا العدة » فالعدة قعود المرأة عن الزواج حتى تنقضي المده المرتبة في الشريعة ، وعدة المرأة على ضروب :

احدها - عدة التي لم تبلغ المحيض ، ومثلها لا تحيض ، وهي التي لم تبلغ تسع سنين ، فهذه لاعدة عليها - عند اكثر اصحابنا - وفيهم من قال عدتها بالشهور ، وبه قال باقي الفقهاء . وعدة التي لا تحيض ومثلها تحيض ثلاثة اشهر بلا خلاف .

وعدة التي تحيض ثلاثة أقراء وهي الاطهار - عندنا وعند كثير من الفقهاء - وعند قوم انها الحيض .

وعدة التي ارتفع حيضها ومثلها تحيض ثلاثة اشهر بلا خلاف . وقد حد ذلك أصحابنا بأن يكون سنها أقل من خمسين سنة .

وعدة الآيسة من المحيض ومثلها لا تحيض ، فلا عدة عليها - عند اكثر اصحابنا - وقال قوم : عدتها بالاشهر ، وحد ذلك أصحابنا بأن يزيد سنها على خمسين سنة ، والقرشية حدّوها بستين سنة فصاعداً .

وعدة الحامل وضع ما في بطنها إذا كانت عدة الطلاق ، فان كانت عدة الوفاة فأبعد الأجلين من وضع الحمل او مضي أربعة اشهر وعشرة أيام . وهو مذهب علي عليه السلام وابن عباس . وقال الفقهاء عدة المتوفى عنها زوجها وضع مافي بطنها

وقوله « واحصوا العدة » يعني مدة زمان العدة .

ثم قال « واتقوا الله ربكم » بان لا ترتكبوا المعاصي « لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن » يعني زمان العدة ، لانه لا يجوز إخراجها من بيتها ـ وعندنا وعند جميع الفقهاء ـ يجب عليه السكنى والنفقة والكسوة إذا كانت المطلقة رجعية ، فان كانت بائناً فلا نفقة لها ولا سكنى . وقال الشافعي : فلا نفقة لها ولا سكنى إذا كانت بائناً . وقال أهل العراق : لها السكنى والنفقة .

وقوله « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » من فتح الياء أراد فاحشة أظهرت . ومن خفض الياء أراد بفاحشة ظاهرة . وقال عطاء والضحاك وقتادة : لا يجوز ان تخرج من بيتها حتى تنقضي عدتها إلا عند الفاحشة . وقال الحسن وعامر والشعبي ومجاهد وابن زيد : الفاحشة ـ ههنا ـ الزنا تخرج لاقامة الحد . قال ابن عباس : الفاحشة النداء على أهلها . وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام وقال قتادة : الفاحشة هو النشوز . وقال ابن عمر : هو خروجها قبل انقضاء العدة ـ وفي رواية عن ابن عباس ـ ان كل معصية لله ظاهرة فهي فاحشة .

وقوله « وتلك حدود الله » يعني ما تقدم ذكره من كيفية الطلاق والعدة وترك إخراجها عن بيتها إلا عند فاحشة حدود الله ، فالحدود نهايات تمنع أن يدخل في الشيء ما ليس منه او يخرج منه ما هو منه ، فقد بين الله بالأمر والنهي الحدود في الطاعات والمعصية بما ليس لأحد ان يدخل في شيء من ذلك ما ليس منه او يخرج عنه ما هو منه .

وقوله تعالى « ومن يتعد حدود الله » معناه من يجاوز حدود الله بأن يخرج عن طاعته الى معصيته ، فقد تعدى حداً من حدود الله وكذلك من دخل في معصية ، فقد خرج عن الطاعة . وليس كل من دخل في طاعة فقد خرج اليها عن معصية ، لأنها قد تكون نافلة . ثم بين تعالى فقال : ومن يجاوز حدود الله

« فقد ظلم نفسه » بأن فعل ما يستحق معه العقاب ويحرم معه الثواب

وقوله « لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » قال قوم : معناه لاتدري لعل الله يغير رأي الزوج في محبة الطلاق ، فتكون مطلقة على ما أمر الله به ويملك الرجعة فيما بين الواحدة والثانية وما بين الثانية والثالثة . وقال الضحاك والسدي وابن زيد « لعل الله يحدث بعد ذلك امراً » يعني الرجعة في العدة . وقيل معناه « لعل الله يحدث بعد ذلك » شهوة المراجعة .

وقوله « فاذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف » معناه فاذا قاربن أجلهن الذي هو الخروج عن عدتهن ، لانه لا يجوز ان يكون المراد فاذا انقضى أجلهن ، لانه عند انقضاء اجلهن لا يملك رجعتها . وقد ملكت نفسها وقد بانت منه بواحدة ، ثم تتزوج من شاءت هو او غيره . وإنما المعنى إذا قاربن الخروج من عدتهن فامسكوهن بأن تراجعوهن بمعروف بما يجب لها من النفقة والكسوة والمسكن وحسن الصحبة « أو فارقوهن بمعروف » بأن تتركوهن حتى يخرجن من العدة .

وقوله « واشهدوا ذوي عدل منكم » فعند أصحابنا أن الاشهاد شرط في وقوع الطلاق ، لأن ظاهر الامر بذلك يقتضيه . والامر عندنا على الوجوب . وقال قوم : إن ذلك راجع الى الرجعة ، وتقديره واشهدوا على الامساك إن أمسكتم ذوي عدل منكم وهو الرجعة - في قول ابن عباس . وقال الشافعي : الاشهاد على الرجعة أولى . ويجوز عند اكثرهم بغير إشهاد ، وإنما ذكر الله الاشهاد كما ذكر في قوله « واشهدوا إذا تبايعتم » (١) وهو على الندب ، وهذا ترك الظاهر ومتى حملنا الاشهاد على الفراق ، وهو الطلاق حملناه على ظاهره من الوجوب وجعلناه

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٢

شرطاً في وقوع الطلاق . ثم قال « واقيموا الشهادة لله » إذا طولبتم باقامتها « ذلكم » معاشر المكلفين « يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » فالوعظ معنى يدعو الى الحق بالترغيب والترهيب . وإنما اضاف الوعظ إلى من يؤمن بالله واليوم الآخر دون غيره، لانه الذي ينتفع به دون الكافر الجاحد لذلك، فالطاعة الواجبة فيها وعظ بالترغيب فيها باستحقاق الثواب وفي تركها بالعقاب . والمندوبة فيها وعظ باستحقاق المدح والثواب على فعلها والمعاصي فيها وعظ بالزجر عنها والتخويف من فعلها باستحقاق العقاب والذم على فعلها والترغيب في تركها بما يستحق على الاخلال به من الثواب .

ثم قال « ومن يتق الله » يعني باجتناب معاصيه ﴿ يجعل له مخرجا ﴾ من عقابه ﴿ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ أى من حيث لا يتوقعه ولا يظنه ﴿ ومن يتوكل على الله ﴾ أى من اسند أمره الى الله ووثق بحكمه وسكن إلى رحمته ﴿ فهو حسبه ﴾ أى كافيه جميع ذلك ﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ أى يبلغ ما يريد ويشاء من أمره وتدبيره ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ أى قدر الله لكل شيء مقداراً واجلا ، لا زيادة فيه ولا نقصان .

ثم بين كيفية العدد باختلاف احوال النساء ، فقال ﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهم ثلاثة اشهر ﴾ يعني ان اليائسة من المحيض إذا كانت ترتاب بنفسها ولا تدري أرتفع حيضها لكبر او عارض ﴿ فعدتها ثلاثة اشهر ﴾ وهي التي قلنا اولا أن مثلها تحيض ، لأنها لو كانت في سن من لا تحيض لم يكن لريبتها معنى . وقول الزهري وعكرمة وقتادة ﴿ إن ارتبتم ﴾ فلم تدروا : للكبر او لدم الاستحاضة ، فالعدة ثلاثة اشهر . وقال قوم : ان ارتبتم فلم تدروا الحكم في ذلك فعدتهن ثلاثة اشهر .

وقوله ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ تقديره واللائي لم يحضن إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة اشهر ، وحذف لدلالة الكلام الأول عليه والكلام فيها كالكلام في اليائسة . وقال قتادة : اللائي يئسن الكبار ، واللائي لم يحضن الصغار .

ثم قال ﴿ واولات الأحمال أجلهن ان يضعن حملهن ﴾ بين ان عدة الحامل من الطلاق وضع الحمل الذي معها ، فان وضعت عقيب الطلاق فقد ملكت نفسها ، ويجوز لها أن تعقد لغيره على نفسها ، غير أنه لا يجوز له وطؤها . لان نفاسها كالحيض سواء ، وإذا طهرت من نفاسها حل له ذلك ، فان كانت حاملا باثنين ووضعت واحداً لم تحل للازواج حتى تضع جميع الحمل ، لقوله تعالى ﴿ أن يضعن حملهن ﴾ فاما انقطاع الرجعة ، فقد روى أصحابنا أنها إذا وضعت واحداً انقطعت عصمتها من الاول ، ولا يجوز لها العقد بغيره حتى تضع الآخر . فاما إذا توفى عنها زوجها ، فعدتها - عندنا - أبعد الأجلين إن وضعت قبل الأربعة أشهر وعشر استوفت اربعة اشهر وعشرة أيام ، وإن مضى بها أربعة اشهر وعشر ولم تضع انتظرت وضع الحمل . وقال ابن عباس : الآية في المطلقة خاصة ، كما قلناه . وقال ابن مسعود وابي بن كعب وقتادة والسدي واكثر الفقهاء : إن حكم المطلقة والمتوفى عنها زوجها واحد في أنها متى وضعت حلت للازواج . والذي اخترناه هو مذهب علي عليه السلام .

ثم قال ﴿ ومن يتق الله ﴾ باجتناب معاصيه ﴿ يجعل له من أمره يسراً ﴾ يعني سهولة في أموره ولا يعسر عليه أمره .

وقوله ﴿ ذلك أمر الله أنزله اليكم ﴾ يعني حكم الطلاق والرجعة والعدة فيما أنزله الله وحكم به وأمركم بالعمل به .

ثم قال ﴿ ومن يتق الله ﴾ باجتناب معاصيه وفعل طاعاته ﴿ يكفر عنه سيئاته ﴾ التي هي دونها ويتفضل عليه باسقاط عقابها ﴿ ويعظم له اجراً ﴾ على ذلك يعني ثوابه

ونعيمه في الجنة .

قوله تعالى :

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً ﴾ (١٠) .

خمس آيات في الكوفي والبصري والمدني الأخير : وست آيات في المدني الاول . عدّوا ﴿ يا أولى الالباب ﴾ رأس آية .

قرأ ﴿ من وجدكم ﴾ بكسر الواو ، روح . الباقون بضمها ، وهما لغتان . وحكى الفراء ـ فتح الواو ـ لغة ولم يحك الكسر . وحكى الزجاج : الكسرة ولم يحك بالفتحة . وقرأ ابن كثير ﴿ وكاين ﴾ خفيفة على وزن (كاهن) الباقون

﴿ كأين ﴾ مشددة الياء ، والأصل (أي) إلا انه حذف للتضعيف ، كما يحذف من رب ، وقدمت الياء وأخرت الهمزة نحو شاك وشائك . ثم قلبت الياء ألفاً لانها فى موضع حركة وقبلها فتحة نحو : رمي ، وإنما احتمل هذا التغيير للعدول به عن معنى الاستفهام إلى معنى (كم) فى التكثير على وجه الابهام . وقال قوم : فى (كأين) لغتان (كأين) مشددة الياء و (كاين) على وزن (قايل) وقد قرئ بهما . وحكي ان أهل الحجاز يقولون : بكاين تبيع هذا الثوب . أي بكم تبيعه .

يقول : الله تعالى مخاطباً لمن طلق زوجته يأمره أن يسكنها حيث يسكنه ، وقد بينا أن السكنى والنفقة يجب للرجعية بلا خلاف . فاما البائنة فلا سكنى لها ولا نفقة ـ عندنا ـ وهذا مذهب الحسن . وقد روت فاطمة بنت قيس عن النبي ﷺ انه قال : لا نفقة للمبتوتة . وقال الشافعي ومالك لها السكنى والنفقة وهو قول معاوية وابن مسعود وعمر بن الخطاب .

وقوله ﴿ من وجدكم ﴾ قال السدي معناه من ملككم . وقال ابن زيد : هو إذا قال صاحب المسكن لا أترك هذه فى بيتي فليس من وجده . ويجوز له حينئذ أن ينقلها إلى غيره ، والوجد ملك ما يجده المالك ، وذاك أنه قد يملك المالك ما يغيب عنه . وقد يملك ما هو حاضر له ، فذلك وجده ، يقال : وجدت فى المال وجداً ووجدة ، ووجدت الضالة وجداناً ، ووجدت الرجل صالحاً وجوداً .

وقوله ﴿ ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾ معناه لا تدخلوا الضرر عليهن بالتقصير فى النفقة والسكنى والكسوة وحسن العشرة لتضيقوا عليهن فى السكنى والنفقة ، وأمر بالسعة . والمضارة المعاملة بما يطلب به ايقاع الضرر والمضارة المعاملة بما يطلب به إيقاع الضرر بصاحبه . وقد تكون المضارة من واحد كما يقال : طارقت النعل ، وعافاه الله ، ويمكن أن يكون من كل واحد منهما لصاحبه . والتضيق تقليل

ما يحتاج إلى التصرف فيه عن مقدار الكفاية . وقد يكون التضييق فى الرزق وفى المكان وفى الأمر . و « ان كنّ » يعني النساء المطلقات ﴿ أولاتِ حمل فانفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ﴾ أمر من الله تعالى بالانفاق على الحامل المطلقة سواء كانت رجعية او مبتوتة ، ولا خلاف فى ذلك ، وإنما يجب ان ينفق عليها بسبب ما فى بطنها ، وإنما تسقط نفقتها بالوضع . والحمل ـ بفتح الحاء ـ يكون على الظهر وفى البطن ، ويقال للعدل ـ الحِمل ـ بكسر الحاء .

وقوله ﴿ فان ارضعن لكم فآتوهن اجورهن ﴾ أمر من الله تعالى بأن الأم المطلقة متى ولدت ورغبت فى رضاع ولدها ، كان على الأب أجرة الرضاع أجرة المثل ، فان رضيت الاجنبية بشيء معلوم لاجرة الرضاع ورضيت بمثله الأم كانت الأم أولى ، وإن لم ترض الأم بذلك القدر كان للأب تسليمه الى الاجنبية ، وان كان الولد لا يقبل إلا لبن الأم أجبرت عليه . وإلا أدّى الى هلاك الولد .
والرضاع سقي المرأة من لبنها للولد . ومنه قول النبي ﷺ (يحرم من الرضاع مايحرم من النسب) يعني ان المرضعة تصير بمنزلة الام ، وأمها بمنزلة الجدة واختها خالة ، وبنتها اختاً وابنها اخاً ، وهكذا سائر المحرمات .

وقوله ﴿ واتمروا بينكم بمعروف ﴾ فالائتمار أمر كل واحد لصاحبه بفعل من الافعال كالائتمار بالمعروف الذي يصطلحان عليه .

وقوله ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾ خطاب للرجل ولزوجته المطلقة أنهما متى اختلفا فى رضاع الصبي واجرته أرضعته امرأة اخرى فالتعاسر التمانع يتعذر من الأمر كالتمانع بما يتعسر به رضاع الام ، فمتى كان كذلك فالحكم فيه أن ترضعه امرأة اخرى ثم امر تعالى فقال « لينفق ذو سعة من سعته ... » ومعناه ان كل انسان يجب عليه النفقة بحسب حاله فالغنى ينبغي ان يوسع فى النفقة والفقير بحسب حاله.

وقوله ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ معناه من ضيق عليه ، لأنه أتى على مقدار البلغة التي تضيق عن غيره ، فمن هذه صورته « فلينفق مما آتاه الله » على حسب امكانه وطاقته ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ يعني إلا بقدر ما أعطاها من الطاقة . وفي ذلك دلالة على انه تعالى لا يكلف أحداً مالا يقدر عليه ولا يطيقه . ثم قال ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ أي سيفعل الله بعد شدة سهولة ، فاليسر اتيان الأمر من غير مشقة ، وهو سهولة الأمر ، وضده العسر ، وهو صعوبة الأمر .

وقوله ﴿ وكأين من قرية ﴾ معناه و (كم من قرية) على التكثير ، لانه يخبر بـ (كم) عن الكثرة ﴿ عتت عن امر ربها ﴾ والعتو الخروج إلى فاحش الفساد . والمعنى كم من أهل قرية كفروا بالله وتجبروا عن طاعته وخرجوا بذلك الى الفحش الفساد ﴿ ورسله ﴾ معناه عتوا عن امر الله وامر رسوله ﴿ فحاسبناها حساباً شديداً ﴾ فالحساب الاعمال مقابلة ما يستحق على الطاعة وبما يستحق على المعصية والحساب الشديد مقابلة ذلك من غير تجاوز عن صغيرة ولا عفو عن ذنب ، وذلك أن الكافر يعاقب على كل صغيرة وكبيرة من حيث انه لاطاعة معه تكفر معاصيه . وقوله ﴿ وعذبناها عذاباً نكراً ﴾ معناه عذبنا أهل تلك القرية العاتية عذاباً نكراً ، وهو الذي ينكره الطبع وتأباه النفوس لصعوبته وشدته . والأمر النكر الذي ينكره العقل . وقوله ﴿ فذاقت وبال أمرها ﴾ فالوبال عاقبة السوء ، أسند الفعل الى القرية ، فلذلك أنث قوله ﴿ فذاقت ﴾ ولو قال : (عتوا ، عن أمر ربهم ، وعذبناهم فذاقوا) على المعنى كان جائزاً . والوبال ثقل العائد من الضر . وقيل : ان معنى نكر أنه متجاوز في الشدة لكل ما عرفوه في الدنيا من العقوبة ﴿ وكان عاقبة أمرها خسراً ﴾ أي وكان آخر أمر تلك القرية العاتية خسراً أي هلاك أنفسهم ، وأصله هلاك رأس المال . ثم بين ما لهم في الآخرة ، فقال ﴿ اعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ من عذاب النار

يعاقبهم به على طريق التأبيد موجعاً شديد الألم ﴿ فاتقوا الله ﴾ يا معاشر العقلاء ﴿ يا اولوا الالباب الذين آمنوا ﴾ يعني المؤمنين منهم ، وخصهم بالذكر والخطاب ، لانهم المنتفعون بذلك دون الكفار . وقوله تعالى ﴿ قد أنزل الله اليكم ذكراً ﴾ قال قوم : أراد بالذكر القرآن لانه سماه ذكراً في قوله ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ (١) ذهب اليه السدي وابن زيد ، فعلى هذا تقديره انزل الله اليكم ذكراً وارسل اليكم رسولا ، وسماه ذكراً لانه يتذكر به مايجب العمل به والانتهاء عنه . وقيل إن معنى الذكر الشرف كأنه قال : أنزل الله اليكم شرفاً . وقيل : المراد بالذكر الرسول لقوله ﴿ فاسألوا أهل الذكر ﴾(٢) ذهب اليه الحسن ، فعلى هذا يكون (رسولا) بدلا منه ، وتقديره أنزل الله اليكم ذكراً هو رسوله . قال الزجاج : تقديره فأنزل الله اليكم ان ذكر رسولا هو جبرائيل عليه السلام .

قوله تعالى :

﴿ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ ٱللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ ٱللهُ لَهُ رِزْقاً (١١) ٱللهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾(١٢) آيتان .

---

(١) سورة ١٥ الحجر آية ٩ (٢) سورة ١٦ النحل آية ٤٣ وسورة ٢١ الانبياء آية ٧

قرىء ﴿ ندخله ﴾ مدني وشامي على وجه الاخبار من الله تعالى عن نفسه . الباقون بالياء بمعنى يدخل الله . والياء أشبه بما قبله .

قيل في انتصاب قوله ﴿ رسولا ﴾ وجهان :

احدهما ـ أن يكون بدلا من ذكر ، وهو بدلا الاشتمال ، ويكون الذكر القرآن ، كأنه قال رسولا ذكراً .

الثاني ـ ان يكون الذكر بمعنى الشرف ، فيكون الذكر هو الرسول ، كما قال ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ (١) .

وفيه وجه ثالث وهو أنه لما قال : انزل ذكراً دل على انه جعل رسولا ، وكأنه قيل وبعث رسولا كما قال الشاعر :

يا رب غير آيهن مع البلى   إلا رواكد جمرهن هباء
ومشجج اما سواء قذاله   فبدا وغيب ساره المعزاء(٢)

لانه لما قال : إلا رواكد دل على ان بها رواكد فحمل مشجج على المعنى . وقال الزجاج : يحتمل ان يكون نصباً بذكر ، كأنه قال ذكر رسول ، بمعنى أن ذكراً رسولا ، يكون ذكر مصدر ، والذي انزل جبرائيل لقوله « نزل به الروح الأمين » (٤)

وقوله ﴿ يتلو عليكم ﴾ أي يقرأ عليكم آيات الله يعني دلائله وحججه مبينات أي واضحات في من يفتح الياء ومن كسرها أراد انها تبيين الآيات والتلاوة . من قولهم جاء فلان ثم تلاه فلان أي جاء بعده ، ومنه قوله تعالى ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ (٣) أي يأتي بعده ، فالتلاوة جعل كلمة بعد كلمة على ما وضعت عليه من المرتبة في اللغة . والقراءة جمع كلمة الى كلمة بما يسمع من الحروف المفصلة ، وهو قولهم

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٤٤   (٢) قد مر في ٢/١٢٥
(٣) سورة ١١ هود آية ١٧   (٤) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٩٣ .

قرأت النجوم إذا اجتمعت وظهرت ، ويقولون : ما قرأت الناقة سلا قط أي ما جمعت رحمها على ولد . والبيان هو الأدلة . وقيل : هو ما أبان المعنى للنفس بما يفصل من غيره ، وهو من قولهم : أبان العضو من غيره إذا قطعه منه .

وقوله ﴿ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات ﴾ يعني ظلمات الكفر إلى نور الايمان ، وذلك يدل على فساد قول المجبرة: إن الله تعالى بعث الانبياء ليكفر بهم قوم ويؤمن آخرون . وإنما خص (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بالاخراج ، لانهم الذين خرجوا بدعائهم من الكفر إلى الايمان . والنور ـ ههنا ـ نور الحق الذي يهدي إلى الرشد والجنة ، كما يهدي نور الشمس إلى المواضع المقصودة والظلمة ـ ههنا ـ الباطل الذي يعود إلى الغي ، كما يعود الظلام من مر فيه من غير دليل الى الهلاك .

ثم قال ﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ أي من يصدق بوحدانيته وإخلاص العبادة له ﴿ ويعمل صالحاً ﴾ أي يعمل الاعمال الصالحات ﴿ يدخله جنات تجري من تحتها الانهار ﴾ جزاء على ذلك وثواباً عليه ﴿ خالدين فيها ﴾ نصب على الحال ﴿ أبداً ﴾ أي مؤبدين لا آخر لنعيمهم ﴿ قد أحسن الله لهم رزقاً ﴾ أي اجزل الله لهم ما ينتفعون به ولا يمنعون منه ، فالرزق النفع الجاري في الحكم ، فلما كان النفع للمؤمنين في الجنة جارياً في حكم الله كان رزقاً لهم منه .

وقوله ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ﴾ اخبار من الله تعالى انه الذي انشأ سبع سموات ﴿ ومن الأرض مثلهن ﴾ أي وخلق من الارض مثلهن في العدد لا في الكيفية ، لأن كيفية السماء مخالفة لكيفية الأرض . والمثل ما سدّ مسدّ غيره فيما يرجع الى ذاته .

وقوله ﴿ يتنزل الامر بينهن ﴾ معناه يتنزل الأمر بالتدبير من الله بين السموات و بين الارضين ، بحياة بعض وموت بعض ، وغنى إنسان وفقر غيره ، وسلامة حي وهلاك آخر ، وتصريف الأمور على الحكمة لا يكون إلا من قادر عالم وهو معنى قوله ﴿ لتعلموا ان الله على كل شيء قدير ﴾ فالقادر ، هو من كان له مقدور يصح منه إيقاعه على بعض الوجوه كما ان السامع هو من له مسموع موجود والقدير عبارة عمن يجب أن يكون قادراً على ما يصح ان يكون مقدوراً له ك‍ (سميع) يفيد أنه على صفة يجب ان يسمع لأجلها ما يصح ان يكون مسموعاً .

وقوله ﴿ وإن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ معناه إن معلوماته متميزة له بمنزلة ما قد أحاط به فلم يفته منه شيء ، ومثله ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ (١) أي إنه ليس بمنزلة ما يحضره العلم بمكانه ، فيكون كأنه قد احاط به وقوله ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ (٢) معناه ولا يحيطون بشيء من معلومه إلا بما شاء أن يضطرهم اليه أو يدلهم عليه ، فهو تذكير بالنعمة أي لا ينالون هذه المنزلة إلا بمشيئة ، ولولا ذلك لا يعلمون شيئاً من معلوماته إلا بما شاء ، لكن لما دخل التذكير بالنعمة حسن من هـــذه الجهة وليس في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع ، غير هذه - ذكره الجبائي - وقوله ﴿ لتعلموا ان الله على كل شيء قدير ﴾ دليل على بطلان مذهب المجبرة في أن الله أراد من قوم أن يجهلوا كونه على هذه الصفة، لانه تعالى بين انه ذكر ما تقدم وصفه ليعلم المكلفون أجمعون ﴿ أن الله على كل شيء قدير وانه ﴾ تعالى قادر ﴿ قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ وعلى مذهب المجبرة إن الله تعالى أراد من جماعة الكفار خلاف ذلك وأراد منهم ان يجهلوه ويجهلوا صفاته وذلك خلاف الظاهر . وقوله ﴿ علماً ﴾ نصب على المصدر ودل عليه قوله تعالى

(١) سورة ٢٠ طه آية ١١٠		(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٥

﴿ أحاط بكل شيء علماً ﴾ كأنه قال : علم كل شيء علماً .

٦٦ ـ سورة التحريم

مدنية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما وهي اثنتا عشرة آية بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحرِّمُ ما أحلَّ اللهُ لكَ تبتغي مرضاتَ أزواجكَ واللهُ غفورٌ رحيمٌ (١) قد فرضَ اللهُ لكُم تحِلَّةَ أيمانكُم واللهُ مولاكُم وهو العليمُ الحكيمُ (٢) وإذْ أسرَّ النَّبيُّ إلى بعضِ أزواجهِ حديثاً فلمَّا نبَّأت به وأظهرهُ اللهُ عليهِ عرَّفَ بعضَهُ وأعرضَ عنْ بعضٍ فلمَّا نبَّأها بهِ قالت منْ أنبأكَ هذا قالَ نبَّأني العليمُ الخبيرُ (٣) إنْ تتوبا إلى اللهِ فقدْ صغتْ قلوبُكما وإنْ تظاهرا عليهِ فإنَّ اللهَ هوَ مولاهُ وجبريلُ وصالحُ المؤمنينَ والملائكةُ بعدَ ذلكَ ظهيرٌ (٤) عسى ربُّهُ إنْ طلَّقكُنَّ أنْ يُبدلَهُ أزواجاً خيراً منكُنَّ مُسلماتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابداتٍ سائحاتٍ ثيِّباتٍ

وَأَبْكَاراً ﴾ (٥) خمس آيات .

قرأ اهل الكوفة ﴿ تظاهرا ﴾ خفيفة . الباقون بالتشديد ، يعني (تتظاهرا) فأدغم . ومن خفف حذف أحداها . وقرأ الكسائي وحده ﴿ عرف بعضه ﴾ خفيفاً وهي قراءة الحسن وابي عبد الرحمن ، وكان أبو عبد الرحمن إذا قرأ إنسان بالتشديد خطأه . وقرأ ابن كثير ﴿ جبريل ﴾ بفتح الجيم وكسر الراء من غير همزة . وقرأ ـ بكسر الجيم والراء من غير همز ـ نافع وابو عمرو وابن عامر وحفص عن عاصم . وقرأ بفتح الجيم والراء وكسر الهمزة مقصور على وزن (جحمرش) أبو بكر عن عاصم . وقرأ بفتح الجيم والراء مهموزة بين الراء والياء على وزن (خزعيل) حمزة والكسائي وقد بينا الوجه فى ذلك في سورة البقرة . قال ابو علي : جبريل ـ بكسر الجيم ـ بلا همزة على وزن (قنديل) وبفتح الجيم والراء والهمزة مع المد على وزن (عنديب) وبفتح الجيم والراء وكسر الهمزة على وزن(جحمرش) وليس في العربية على وزن (قنديل) بفتح القاف غير أنه جاء خارجاً على أوزان العربية .

هذا خطاب من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله وعتاب له على تحريم ما أباحه الله له وأحله له ، ولا يدل على انه وقعت منه معصية ، لان العتاب قد يكون على أمر قد يكون الأولى خلافه ، كما يكون على ترك الواجب .

وقيل في سبب نزول قوله ﴿ يا ايها النبي ﴾ قولان :

احدهما ـ قال زيد بن أسلم ومسروق وقتادة والشعبي وابن زيد والضحاك: أن النبي صلى الله عليه وآله حرم على نفسه مارية القبطية بيمين انه لا يقربها طلباً لمرضاة حفصة زوجته ، لانها غارت عليه من أجلها . وقال الحسن : حرم رسول الله أم ولده إبراهيم ، وهي مارية القبطية على نفسه فأسر بذلك الى زوجته حفصة فأفضت به إلى

عائشة وكانت حفصة بنت عمر قد زارت عائشة ، فخلا بيتها ، فوجه رسول الله الى مارية القبطية ، وكانت معه وجاءت حفصة فأسر اليها التحريم .

والقول الثاني ـ ما رواه عبد الله بن شداد بن الهلال : ان النبي ﷺ كان شرب عند زينب شراب عسل كانت تصلحه له ، فكان يطول مكثه عندها فكره ذلك عائشة وحفصة ، فقالت له إنا نشم منك ريح المغافير ، وهي بقلة متغيرة الرائحة ـ في قول المفسرين ـ وقال الزجاج : هي بقلة منتنة ، فحرم النبي ﷺ شراب العسل الذي كان يشربه عند زوجته زينب بنت جحش . وقيل : ذكرت ذلك له حفصة ، فحرمه النبي ﷺ على نفسه . ومن قال : انها نزلت بسبب مارية قال : انه قال: هي علي حرام ، فجعل الله فيه كفارة يمين ـ ذكره ابن عباس والحسن ـ ومن قال : إن التحريم كان في شراب كان يعجبه قال : إنه حلف على انه لا يشربه فعاتبه الله على تحريم ما أحل الله له .

والتحريم تبيين ان الشيء حرام لا يجوز ، ونقيضه الحلال . والحرام هو القبيح الممنوع بالنهي عنه ، والحلال الحسن المطلق بالاذن فيه . وعندنا أنه لا يلزم بقوله أنت علي حرام شيء ، ووجوده كعدمه ، وهو مذهب مسروق . وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف . وإنما اوجب الله الكفارة ، لانه ﷺ كان حلف ألا يقرب جاريته أو لا يشرب الشراب المذكور ، فعاتبه الله على ذلك وأوجب عليه ان يكفر عن يمينه ويعود الى استباحة ما كان يفعله . وبين أن التحريم لا يحصل إلا بأمر الله ونهيه ، وليس يصير الشيء حراماً بتحريم محرم ، ولا باليمين على تركه ، فلذلك قال « لم تحرم ما أحل الله لك » .

وقوله « تبتغي مرضات أزواجك » معناه إنك تطلب رضاء أزواجك في تحريم ما أحله الله لك . فالابتغاء الطلب ، ومنه البغي طلب الاستعلاء بغير حق .

والبغية معتمد الطلب والبغيّ الفاجرة لطلبها الفاحشة .

وقوله « والله غفور رحيم » معناه ارجع الى الأولى والأليق ، فان الله يرجع للتائب الى التولي ، لانه غفور رحيم .

وقوله « قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم » أي قد قدر الله تعالى ما تحلون به يمينكم إذا فعلتموه ، وذلك يدل على انه صلى الله عليه وآله كان حلف دون ان يكون قال : هي عليّ حرام ، لان ذلك ليس بيمين ـ عند اكثر الفقهاء ـ وقال الحسن : فرض الله تحلة اليمين في الكفارة المؤمنين . فأما النبي صلى الله عليه وآله فلا كفارة عليه ، لان الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وتحلة اليمين هو فعل ما يسقط تبعته في اليمين إما بكفارة او بتناول شيء من المحلوف عليه ، فمن حلف ألا يأكل من هذا الطعام ، فمتي أكله حنث ، ولزمته كفارة ، وينحل اليمين بها ، ومن حلف أنه يأكل من هذا الطعام وأكل منه شيئاً قليلا فقد انحلت يمينه ، فلذلك سمي تحلة اليمين .

وقوله « والله مولاكم » معناه الله ناصركم ، وهو أولى بكم منكم بأنفسكم ، ومن كل احد « وهو العليم » بجميع الاشياء « الحكيم » في جميع أفعاله .

وقوله « وإذ أسرّ النبي » معناه واذكروا حين أسر النبي « إلى بعض أزواجه حديثاً » فالاسرار القاء المعنى إلى نفس المحدث على وجه الاخفاء عن غيره ، يقال : أسر اليه كذا وكذا إسراراً والاسرار نقيض الاعلان . وقيل : إنه كان أسر إلى حفصة ألا تخبر عائشة بكونه مع مارية في يوم عائشة وقال إنه حرمها على نفسه ، فأطلعت عليه عائشة . وقيل : إنه كان يوم حفصة ، فأطلعت عليه عائشة فاستكتمها النبي فأخبرت حفصة بذلك فانتشر الخبر فعاتبهم الله على ذلك . وقال الزجاج والفراء : أسر اليها بأنه سيلي الأمر بعده أبو بكر وعمر وعثمان فتباشروا بذلك فانتشر الخبر . وروى أصحابنا انه أسر الى عائشة بما يكون بعده من قيام من

يقوم بالأمر ورفع علي عليه السلام عن مقامه فبشرت بذلك أباها فعاتبهم الله على ذلك.

وقوله « فلما نبأت به واظهره الله عليه عرف بعضه واعرض عن بعض » معناه لما أخبرت التي اسر اليها الذي خبرها به الى غيرها وأعلم الله تعالى نبيه ذلك واظهره له « عرف بعضه وأعرض عن بعض » فمن قرأ بالتخفيف قال الفراء : معناه إنه عاتب على بعض ذلك وصفح عن الباقي . وروي انه طلق حفصة تطليقة جزاء على ذلك ثم راجعها بأمر الله تعالى ، وقيل : معنى قراءة من شدد أراد انه صلى الله عليه وآله أعلمها جميع ذلك وعرفها إياه ، فلما نبأها به يعني لما أخبر النبي صلى الله عليه وآله ، زوجته بذلك وعرفها أنها افشت سره « قالت » له في الجواب « من أنبأك هذا » أي من اخبرك بهذا فقال النبي صلى الله عليه وآله « نبأني » أي اخبرني بذلك واعلمني « العليم » بجميع المعلومات « الخبير » بسرائر الصدور الذي لا يخفى عليه شيء من أمور عباده ظاهراً وباطناً .

ثم خاطبهما يعني عائشة وحفصة وقال قل لهما « إن تتوبا الى الله » وترجعا الى طاعته « فقد صغت قلوبكما » قال ابن عباس ومجاهد : معناه زاغت قلوبكما إلى الاثم . وقال عمر بن الخطاب وجميع أهل التأويل : انه عنى عائشة وحفصة ، وقال بعضهم: معناه مالت قلوبكما الى ما كرهه الله من تحريم ما حرمه . وقوله « فقد صغت قلوبكما » من صلة (إن تتوبا الى الله) والجواب محذوف ، وتقديره إن تتوبا الى الله قبلت توبتكما ، وقال قوم (فقد صغت قلوبكما) جواب كقول القائل إن تتابع المجيء الي فلقد جفوتني وقطعتني دهراً أي يحق لك ان تفعل ذلك ، فقد صرمت فيما قبل . وإنما قال (قلوبكما) مع أن لهما قلبين ، لأن كلما تثبت الاضافة فيه معنى التثنية ، فلفظ الجمع أحق به ، لأنه أمكن واخف باعراب الواحد وقلة الزائد . وذلك في كل شيئين من شيئين ، ويجوز التثنية لأنها الاصل ، كما قال الراجز :

ظهراهما مثل ظهور الترسين (١)

فجمع المذهبين . وقوله « وإن تظاهرا عليه » معناه وإن تعاونا على خلافه « فان الله هو مولاه » يعني الله الذي يتولى حفظه وحياطته ونصرته « وجبريل » ايضاً معين له وناصره « وصالح المؤمنين » قال الضحاك : يعني خيار المؤمنين . وقال قتادة : يعني أتقياء المؤمنين . وقال الزجاج : « صالح المؤمنين » واحد في موضع الجمع ، وقال أبو مسلم محمد بن بحر الاصفهاني : هو صالحوا المؤمنين على الجمع ، غير انه حذفت الواو للاضافة ، وهذا غلط ، لأن النون سقطت للاضافة ، فكان يجب ان يثبت الواو في الخط ، وفي المصاحف بلا واو .

وروت الخاصة والعامة أن المراد بصالح المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وذلك يدل على انه أفضلهم ، لان القائل إذا قال : فلان فارس قومه او شجاع قبيلته او صالحهم ، فانه يفهم من جميع ذلك انه افرسهم واشجعهم واصلحهم .

وقوله « والملائكة بعد ذلك ظهير » معناه إن الملائكة بعد من ذكره معينون له ، فالظهير المعين الذي هو كالظهر له في القوة .

وقوله « عسى ربه إن طلقكن » معاشر نساء النبي « ان يبدله أزواجاً خيراً منكن » فمن خفف الدال ، فلأنه يدل على القليل والكثير ، ومن شدد أراد ان الله يبدلهن اكثر منهن . ومعنى « خيراً منكن » أي افضل منكن وأصلح له . ثم وصفهن تعالى فقال « مسلمات » وهن اللواتي يظهرن الاسلام والشهادتين مستسلمات لما أمر الله به « مؤمنات » أي مصدقات بتوحيد الله واخلاص العبادة له مقرات بنبوة نبيه صلى الله عليه وآله وقيل : معناه مصدقات في قولهن وفعلهن « قانتات » أي خاضعات متذللات لله تعالى . وقيل : معنى « قانتات » راجعات الى الله بفعل ما يجب له

---

(١) مر في ٣ / ٥١٣

- عز وجل - « عابدات » لله بما تعبدهن به من العبادات متذللات له « سائحات » معناه ماضيات في طاعة الله . وقال ابن عباس وقتادة والضحاك : معنى سائحات صائمات . وقال زيد ابن اسلم : معنى « سائحات » مهاجرات ، وهو اختيار الجبائي وقيل : للصائم سائح ، لانه يستمر في الامساك عن الطعام والشراب ، كما يستمر السائح في الارض « ثيبات » وهن الراجعات من عند الأزواج بعد افتضاضهن مشتق من ثاب يثوب اذا رجع « وابكاراً » جمع بكر ، وهي التي على أول حالها قبل الافتضاض .

قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ ٱللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى ٱللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ ﴾ (١٠)

قرأ « نصوحاً » بضم النون حماد ويحيى . الباقون بفتحها ، وهما لغتان . وقال قوم : من فتح النون جعله نعتاً للتوبة وحمله على الكثرة . ومن ضمه جعله مصدراً

هذا خطاب من الله تعالى المؤمنين الذين صدقوا بتوحيد الله واخلاص العبادة له وأقروا بنبوة نبيه ﷺ يأمرهم بأن يقوا أنفسهم أي يمنعونها ، ويمنعون أهليهم ناراً ، وإنما يمنعون نفوسهم بأن يعملوا الطاعات ، ويمنعون أهليهم بأن يدعوهم اليها ويحثوهم على فعلها ، وذلك يقتضي أن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ينبغي ان يكون للأقرب فالاقرب . وقال مجاهد وقتادة : معنى « قوا انفسكم واهليكم ناراً » مروهم بطاعة الله وانهوهم عن معصيته .

ثم وصف تعالى النار التي حذرهم منها فقال « وقودها الناس والحجارة » قيل حطب تلك النار الناس والحجارة كوقود الكبريت وهو اشد ما يكون من العذاب « عليها ملائكة غلاظ » في الاخلاق وإن كانوا رقاق الاجسام ، لان الظاهر من حال الملك انه روحاني فخروجه عن الروحانية كخروجه عن صورة الملائكة « شداد » في القوى « لا يعصون الله ما أمرهم » به . وفي ذلك دلالة على ان الملائكة الموكلين بالنار وبعقاب العصاة معصومون عن فعل القبيح لا يخالفون الله في أمره ويمتثلون كل ما يأمرهم به ، وعمومه يقتضي انهم لا يعصونه في صغيرة ولا كبيرة . وقال الرماني : لا يجوز أن يعصي الملك في صغيرة ولا كبيرة لتمسكه بما يدعو اليه العقل دون الطبع . وكل من تمسك بما يدعو اليه العقل دون الطبع ، فانه لا يقع

منه قبيح . وقد اختارهم الله على ما في المعلوم منهم وقيل : هم غلاظ شداد يعذبون على قدر قواهم بأنواع العذاب . وقال الجبائي قوله « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » يعني ـ في دار الدنيا ـ لان الآخرة ليست دار تكليف . وإنما هي دار جزاء . وإنما أمرهم الله بتعذيب اهل النار على وجه الثواب لهم بأن جعل سرورهم ولذاتهم في تعذيب أهل النار ، كما جعل سرور المؤمنين ولذاتهم في الجنة .

ثم حكى ما يقال للكفار يوم القيامة فان الله تعالى يخاطبهم فيقول « يا ايها الذين كفروا » نعمتي وجحدوا ربوبيتي وأشركوا في عبادتي من لا يستحقها ، وكذبوا أنبيائي ورسلي « لا تعتذروا اليوم » فان اليوم دار جزاء لا دار توبة واعتذار « إنما تجزون » على قدر « ما كنتم تعملون » في الدنيا على الطاعات بالثواب ولا طاعة معكم ، وعلى المعاصي بالعقاب ودخول النار ، وانتم مستحقون لذلك .

ثم عاد الى خطاب المؤمنين في دار التكليف فقال « يا ايها الذين آمنوا توبوا إلى الله » من معاصيه وأرجعوا إلى طاعته « توبة نصوحاً » أي توبة خالصة لوجه الله . فمن قرأ ـ بضم النون ـ وهو أبو بكر عن عاصم أراد المصدر . ومن فتح النون جعله صفة للتوبة ونعتاً لها . والتوبة النصوح هي التي يناصح فيها الانسان نفسه باخلاص الندم مع العزم على ألا يعود إلى مثله في القبح . وقوله « عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئآتكم » معناه متى تبتم توبة نصوحاً كفر الله عنكم سيئآتكم ، وغفر لكم فان (عسى) من الله راجبة « ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار » مضافاً إلى تكفير السيئآت والعفو عنها « يوم لا يخزي الله النبي » ولا يخزي « الذين آمنوا معه » أي لا يذلهم ولا يعاقبهم بل يعزهم بادخال الجنة .

ثم وصف النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين معه فقال « يسعى نورهم بين أيديهم وبايمانهم » قال ابن عباس : معناه يسعى نور كتابهم الذي فيه البشرى « يقولون ربنا » في

موضع الحال ، وتقديره قائلين « ربنا أتمم لنا نورنا » قال : يقول ذلك المؤمنون حين يطفىء نور المنافقين ويبقون في الظلمة فيسأل المؤمنون حينئذ إتمام نورهم « واغفر لنا » أي استر علينا معاصينا ولا تهلكنا بها « إنك على كل شيء قدير » لا يعجزك شيء .

ثم خاطب النبي ﷺ فقال « يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين » قيل : معناه جاهد الكفار بالقتال والحرب ، والمنافقين بالقول الذي يردع عن القبيح لا بالحرب إلا أن فيه بذل المجهود ، فلذلك سماه جهاداً . وفي قراءة اهل البيت « جاهد الكفار بالمنافقين » لأنه ﷺ كان يجاهد الكفار وفي عسكره جماعة من المنافقين يقاتلون معه. وقوله « واغلظ عليهم » أي اشدد عليهم . قال الحسن : اكثر من كان يصيب الحدود في ذلك الزمان المنافقون . فأمر الله أن يغلظ عليهم في إقامة الحدود . ثم قال « ومأواهم » يعني مأوى الكفار والمنافقين ومستقرهم « جهنم و بئس المصير » لما فيها من أنواع العقاب .

وقوله « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين » قال ابن عباس: كانت امرأة نوح وامرأة لوط منافقتين « فخانتاهما » قال ابن عباس : كانت امرأة نوح كافرة ، تقول للناس انه مجنون ، وكانت امرأة لوط تدل على أضيافه ، فكان ذلك خيانتهما لهما، وما زنت امرأة نبي قط ، لما في ذلك من التنفير عن الرسول وإلحاق الوصمة به ، فمن نسب أحداً من زوجات النبي إلى الزنا ، فقد أخطأ خطاء عظيماً ، وليس ذلك قولا لمحصل . ثم قال « فلم يغنيا عنهما » أي لم يغن نوح ولوط عن المرأتين « من الله شيئاً » أي لم ينجياهما من عقاب الله وعذابه « وقيل » لهما يوم القيامة « ادخلا النار مع الداخلين » من الكفار . وقال الفراء : هذا مثل ضربه الله تعالى لعائشة وحفصة ، وبين انه لا يغنيهما ولا

ينفعهما مكانهما من رسول الله إن لم يطيعا الله ورسوله ، ويمتثلا أمرهما ، كما لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط كونهما تحت نبيين . وفي ذلك زجر لهما عن المعاصي وامر لهما أن يكونا كآسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران في طاعتهما لله تعالى وامتثال أمره ونهيه .

قوله تعالى :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ (١٢) آيتان .

قرأ اهل البصرة وحفص عن عاصم ونافع في رواية خارجة « وكتبه » على الجمع . الباقون « وكتابه » على واحد ، لانه إسم جنس يقع على القليل والكثير . والفائدة في هذه الآية ، وفي الآية التي قبلها : أن احداً لا ينفعه إلا عمله ولا يؤخذ بجرم غيره ، ولا يثاب على طاعة غيره ، وإن كان خصيصاً به وملازماً له . وتبين ان امرأة نوح وامرأة لوط لم ينفعهما قربهما من نبيين واختصاصهما والتصاقهما بهما ، لما كانتا كافرتين عاصيتين لله تعالى بل عاقبهما الله بالنار بكفرهما وسوء أفعالهما .

وبين في هذه الآية أن كفر فرعون لم يتعد إلى زوجته لما كانت مؤمنة طائعة لله تعالى خائفة من عقابه ، بل نجاها الله من عقابه وأدخلها الجنة على إيمانها وطاعتها ، فضرب المثل الاول للكفار لما كانت المرأتان كافرتين ، وضرب المثل

الثاني للمؤمنين ، لما كانت امرأة فرعون مؤمنة ، فقال « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون » واسمها آسية . والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالاول . فهذه الآية فيها قول فيه تشبيه حال المؤمنة التي زوجها كافر بحال امرأة فرعون في انه لا يضرها كفره مع قربها منه ، كما أن امرأة نوح وأمرأة لوط ، لم ينفعهما نبوتهما وإيمانهما حين كانتا كافرتين .

وقوله « إذ قالت » أي حين قالت امرأة فرعون داعية الله « رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني » أي وخلصني « من فرعون وعمله » يعني من مثل سوء عمله « ونجني من القوم الظالمين » يعني الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله واستحقوا لذلك العقاب . وإنما دعت بالخلاص من عمل الكفار بأن سألت الله تعالى أن يلطف لها في التمسك بالايمان ، وألا تغتر بتمكين الله لفرعون وكفار قومه وطول سلامته وسوابغ نعمته عليهم والانس به لطول مخالطته وصحبته ، فربما أفتنت من هذه الوجوه ، فدعت بهذا ليلطف الله لها في ذلك وتبقى على التمسك بالايمان .

وقوله ﴿ ومريم ابنت عمران ﴾ يحتمل ان يكون عطفاً على قوله ﴿ امرأة فرعون ﴾ فلذلك نصبه . والعامل (وضرب) فكأنه قال : وضرب مثلا مريم ابنت عمران ، ويحتمل ان يكون نصباً على تقدير واذكر أيضاً مريم بنت عمران ﴿ التي احصنت فرجها ﴾ فاحصان الفرج منعه من دنس المعصية يقال : أحصن يحصن إحصاناً ، ومنه الحصن الحصين ، لأنه بناء منيع ، والفرس الحصان الذي يمنع من ركوبه إلا مقتدراً على تلك الحال ، وامرأة حصان - بفتح الحاء - لأنها تمنع من لمس الحرام .

وقوله ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ قال قتادة معناه فنفخنا في جيبها من روحنا وقال الفراء : كل شق فهو فرج فاحصنت فرجها منعت جيب درعها من جبرائيل عليه السلام والظاهر انه أراد الفرج الذي يكنى عنه . وقوله ﴿ فيه ﴾ يعني في الفرج ، فلذلك

ذكر في الانبياء (فيها) لأنه رده إلى التي أحصنت فرجها . وقيل : إن جبرائيل عليه السلام نفخ في فرجها ، فخلق الله ـ عز وجل ـ فيه المسيح ﴿ وصدقت بكلمات ربها ﴾ يعني بما تكلم الله به ، وأوحاه إلى انبيائه وملائكته ﴿ وكتبه ﴾ أي وصدقت بكتبه التي أنزلها على انبيائه . فمن قرأ (وكتبه) جمع لانها كتب مختلفة . ومن وحد ذهب إلى الجنس ، وهو يدل على القليل والكثير ﴿ وكانت من القانتين ﴾ وإنما لم يقل من القانتات لتغليب المذكر على المؤنث ، فكأنه قال من القوم القانتين ، فالقانت المقيم على طاعة الله . وقيل : معناه الداعي لله في كل حال . وقال الحسن : رفع الله آسية إمرأة فرعون إلى الجنة ، فهي تأكل وتشرب وتنعم فيها إلى يوم القيامة ، فنجاها الله أكرم النجاة . وروي عن النبي صلى الله عليه وآله انه قال (حسبك من نساء العالمين أربع : مريم ابنت عمران ، وآسية إمرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله) وروي أن فرعون امر ان تسمر آسية بأربع مسامير ويرفع فوقها حجر الرخام ، فان رجعت عن قولها وإلا أرسل عليها الحجر فأراها الله منزلها من الجنة ، فاختارت الجنة فنزع الله روحها ، فلما ارسل الحجر وقع على جسد ميت .

٦٧ ـ سورة الملك

مكية في قول ابن عباس والضحاك وعطاء وغيرهم وهي ثلاثون آية في الكوفي والبصري والمدني الاول واحد وثلاثون في المدني الاخير وقال الفراء: سورة الملك تسمى المنجية لانها تنجي قاريها من عذاب القبر وروي إن في التوراة مثل (سورة الملك)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ (٢) ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (٥) خمس آيات.

قرأ حمزة والكسائي ﴿ من تفوّت ﴾ بتشديد الواو بلا ألف. الباقون ﴿تفاوت﴾ على وزن تفاعل. ومعناهما واحد. وهو مثل: تصعر وتصاعر، وتعهد وتعاهد. والتفاوت إختلاف التناقض، وهو تباعد ما بين الشيئين في الصحة. والتباين

امتناع كل واحد من المعنيين ان يصح مع الآخر .

يقول الله تعالى مخبراً عن عظمته وعلو شأنه ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ فمعنى تبارك بأنه الثابت الذي لم يزل ولا يزال . وأصل الصفة من الثبوت من البرك وهو ثبوت الطائر على الماء . ومنه البركة ثبوت الخير بنمائه . وقيل : معناه تعاظم بالحق من لم يزل ولا يزال ، وهو راجع إلى معنى الثابت الدائم . وقيل : المعنى تبارك من ثبوت الاشياء به إذ لولاه ابطل كل شيء لانه لا يصح شيء سواه إلاّ مقدوره او مقدور مقدوره ، الذي هو القدرة ، لان الله تعالى هو الخالق لها . وقيل : إن معناه تبارك لان جميع البركات منه ، إلا ان هذا المعنى مضمن فى الصفة غير مصرح به ، وإنما المصرح به تعالى باستحقاق التعظيم .

وقوله ﴿ الذي بيده الملك ﴾ معناه الذي يجب كونه قادراً وانه السلطان العظيم الذي كل ملك له ، ليس من ملك إلا داخل فيه لان الله تعالى مالك الملوك ، وممكنهم منها . والملك هو إتساع المقدور لمن له السياسة والتدبير .

وقوله ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ معناه إن الذي بيده الملك والسلطان القادر على كل شيء يصح ان يكون مقدوراً له وهو أخص من قولنا : وهو بكل شيء عليم ، لأنه تعالى يعلم كل ما يصح أن يكون معلوماً فى نفسه ، ولا يوصف بكونه قادراً إلا على ما يصح ان يكون مقدوراً له ، لان مقدور القدرة لا يصح أن يكون مقدوراً له ، وكذلك ما تقضى وقته مما لا يبقى لا يصح ان يكون مقدوراً فى نفسه .

ثم وصف تعالى نفسه فقال ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ أي خلق الموت للتعبد بالصبر عليه ، والحياة للتعبد بالشكر عليها . وقيل : وجه خلق الموت والحياة للابتلاء هو ما فيها من الاعتبار المؤدي إلى تثبيت قادر على الاضداد مع التحذير

في كل حال من مجيء الموت الذي ينقطع به استدراك ما فات ، ومع التسوية بين الغني والفقير والملك والسوقة في الموت بما يقتضي قاهراً للجيمع قد عمهم بحسن التدبير فقد أذل الله ابن آدم بالموت ليكون أبعد من الطغيان في حال التمكين من العصيان. وفي كون الموت معنى خلاف بين الشيخين : أبي ، وأبي هاشم .

وقوله ﴿ ليبلوكم ﴾ معناه ليعاملكم معاملة المختبر بالامر والنهي فيجازي كل عامل على قدر عمله . والابتلاء الاختبار . وقال الفراء والزجاج : في الكلام اضمار وتقديره ليبلوكم فيعلم أيكم ، لأن حروف الاستفهام لا تشغل إلا بفعل يتعلق بالجملة على تقدير المفرد كقولك : علمت أزيد في الدار أم عمرو ، وتقديره وقد علمت ان احدهما في الدار (وعرفت ، ونظرت) بمنزلة (علمت) في هذا ، لانها توافقها في (عرفت انه في الدار) و (نظرت بقلبي انه في الدار) ومثله ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ (١) أي سؤال من يطلب ان يعلم ايهم بذلك زعيم ، ولو قلت اضرب ايهم ذهب لم يكن إلا نصباً ، لانه بمعنى الذي . والقديم تعالى وإن كان عالماً بالاشياء قبل كونها ، فانما يبتلي الخلق ويختبرهم اختبار من يطلب العلم ، حتى يجازي على الفعل بحسبه ، ولما كان لم يحسن الثواب والعقاب والتعظيم والاجلال إلا بعد وجود الطاعة والمعصية لم يكن بدّ من التكليف ، والأمر والنهي فأجرى عليه الاختبار مجازاً .

وقوله ﴿ وهو العزيز ﴾ في انتقامه من اعدائه والكافرين لنعمه ، لا يقدر أحد على مغالبته ومقاهرته ، غفور لمن تاب اليه ، او إن يريد التفضل باسقاط عقابه ولا يصح التكليف إلا مع الترغيب والترغيب ، لأن التمكين من الحسن والقبيح يقتضي ذلك ، والتكليف تحميل المشقة في الأمر والنهي .

ثم عاد إلى صفات نفسه فقال ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ﴾ أي انشأ

(١) سورة ٦٨ القلم آية ٤٠

واخترع سبع سموات واحدة فوق الأخرى ﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴾ يعني من اختلاف وتناقض ، وذلك يدل على ان ما فيه تفاوت من الكفر والمعاصي ليس من خلق الله ، لانه نفى نفياً عاماً أن يكون فيما خلقه تفاوت . وتفاوت وتفوت مثل تصاعر وتصعر .

ثم نبه تعالى العاقل على صحة ما قاله من انه ليس فى خلق الله تفاوت . فقال ﴿ فارجع البصر ﴾ أي فرد البصر وأدرها فى خلق الله من السموات ﴿ هل ترى من فطور ﴾ أي من شقوق وصدوع يقال : فطره يفطره ، فهو فاطر إذا شقه ومنه قوله ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ (١) أى يتصدعن . وقال ابن عباس : معناه هل ترى من وهن ، وقال قتادة : من خلل . وقال سفيان : من شقوق . ثم أكد ذلك بقوله ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ أي دفعة ثانية ، لان من نظر فى الشيء كرة بعد أخرى بان له ما لم يكن بايناً له .

ثم بين انه إذا فعل ذلك وتردد بصره فى خلق الله انقلب اليه بصره ورجع اليه خاسئاً يعني ذليلا صاغراً ـ فى قول ابن عباس ـ وذلك كذلة من طلب شيئاً لم يجده وأبعد عنه « وهو حسير » قال قتادة : معناه كالّ معيي ، فالحسير الكليل ، كما يحسر البعير .

ثم أقسم الله تعالى بقوله ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا ... ﴾ لان لام (لقد) هي التي يتلقى بها القسم بأنه زين السماء أي حسنها وجعلها أي السماء الدنيا بالمصابيح ، يعني الكواكب وسميت النجوم مصابيح لاضاءتها ، وكذلك الصبح . والمصباح السراج وواحد المصابيح مصباح . قال قتادة : خلق الله تعالى النجوم لثلاث خصال : احدها زينة السماء . وثانيها رجوماً للشياطين . وثالثها علامات يهتدى بها ، فعلى هذا يكون

---

(١) سورة ١٩ مريم آية ٩١

تقديره وجعلنا فيها .

وقوله ﴿ واعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ معناه إنا جعلنا الكواكب رجماً للشياطين أعتدنا لهم وادّخرنا لأجلهم عذاب السعير يعني النار المسعرة، فالسعير النار المسعرة المشتعلة . وقيل : ينفصل من الكواكب شهاب بأن يكون رجوماً للشياطين ، فأما الكوكب نفسه ، فليس يزول إلى أن يريد الله فناءه ، ففي هذه الآيات بيان مايجب من تعظيم الله تعالى لم يزل ولا يزال ، وأن له الملك الكبير ، وانه على كل شيء قدير . وفيها بيان ما يجب اعتقاده من أن جميع ما خلقه الله فللابتلاء بما يصح معه التكليف للعمل الذي يوجب الثواب جزاء على الاحسان مع رحمة من تاب بالغفران وشدة الانتقام ممن أقام على معصيته . وفيها بيان ما يجب اعتقاده من أن جميع ماخلقه الله محكم لا تفاوت فيه ، لأنه على ما تقتضيه الحكمة في المتعة والعبرة وما يصح به الزجر من السيئة . وفيها بيان ما يجب اعتقاده مما اقتضت الحكمة فيه التلاؤم من غير فطور ، ولا عدول عن الصواب من أمر السموات والافلاك والنجوم ، وماخلق فيها من المصابيح زينة لها ورجوماً للشياطين مع ان عاقبتهم إلى عذاب السعير .

قولــه تعــالى :

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي

أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (١١)

ست آيات ٠

قرأ ابو جعفر والكسائي ﴿ فسحقاً ﴾ بضم الحاء مثقل ٠ الباقون بالتخفيف ، وهما لغتان ٠

لما ذكر الله تعالى ما أعد للشياطين من عذاب السعير ، ذكر عقيبه وعيد الكفار وما أعد لهم لاتصال ذلك بوعيد النار ، فقال ﴿ والذين كفروا ﴾ يعني بتوحيد الله وإخلاص عبادته وجحدوا نبوة رسله وما جاءوا به ﴿ عذاب جهنم ﴾ ثم قال ﴿ وبئس المصير ﴾ أي بئس المآل والمرجع ٠ وإنما وصفه بـ (بئس) وهي من صفات الذم ، والعقاب حسن ، لما في ذلك من الضرر الذى يجب على كل عاقل أن يتقيه بغاية الجهد واستفراغ الوسع ومع هذا ليس يخفى المراد فى ذلك على أحد٠ ولا يجوز قياساً على ذلك أن يوصف به الفاعل ، لأنه لا يوصف به الفاعل إلا على وجه الذم ، لانه لا يقال : بئس الرجل إلا لمن كان مستحقاً الذم من حيث أن القادر قادر على الضدين ٠

ووجه الحكمة في فعل العقاب ما فيه من الزجر المتقدم للمكلف ، ولا يمكن ان يكون مزجوراً إلا به ولولاه لكان مغرى بالقبيح ٠

ثم قال تعالى ﴿ إذا ألقوا فيها ﴾ ومعناه إذا طرح الكفار فى النار ﴿ سمعوا لها ﴾ يعني للنار ﴿ شهيقاً ﴾ وصوتاً فظيعاً بنفس كالنزع ، فاذا اشتد لهيب النار سمع لها ذلك الصوت كأنها تطلب الوقود ، قال رؤبة :

حشرج فى الجوف سحيلا او شهق حتى يقال ناهق وما نهق (١)

(١) مر فى ٦ / ٦٧

وقال ابو العاليـة : الشهيق في الصدر ، والزفير في الحلق وقوله ﴿ وهي تفور ﴾ أي ترتفع ، فالفور ارتفاع الشيء بالغليان ، يقال : فارت القدر تفور فوراً ومنه الفوارة لارتفاعها بالماء ارتفاع الغليان . وفار الدم فوراناً، وفار الماء يفور فوراً .

وقوله ﴿تكاد تميز من الغيظ﴾ أي تكاد النار تتفرق وتنقطع من شدتها ،وسمى شدتهاوالتهابهاغيظاً لأن المغتاظ هو المتقطع بما يجد من الألم الباعث على الايقاع لغيره، فحال جهنم كحال المغتاظ ، فالتميز التفرق والتمييز التفريق . وقال ابن عبـاس (تميز) أي تفرق ، وهو قول الضحاك وابن زيد ،

وقوله ﴿ كلما القي فيهافوج ﴾ يعني كلما طرح في النارفوج من الكفار ﴿ سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴾ يعني تقول لهم الملائكة الموكلون بالنار على وجه التبكيت لهم في صيغة الاستفهام : ألم يجئكم مخوف من جهة الله يخوفكم عذاب هـذه النار ؟ ! فيقولون في جوابهم ﴿ بلى قد جاءنا نذير ﴾ أي مخوف معلم ﴿ فكذبنا ﴾ ولم نصدقه ولم نقبل منه ﴿ وقلنا ما أنزل الله من شيء ﴾ مما تدعوننا اليه وتحذروننا منه فتقول لهم الملائكة ﴿ ان أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ أي لستم اليوم إلا في عذاب عظيم . ﴿ وقالوا ﴾ أيضاً يعني الكفار ﴿ لو كنا نسمع ﴾ من النذر ما جاؤنا به ﴿ او نعقل ﴾ ما دعونا اليه وعملنـا به ﴿ ما كنا في أصحاب السعير ﴾ فقال الله تعالى ﴿ فاعترفوا بذنبهم ﴾ يعني أقر اهل النار بمعاصيهم في ذلك الوقت الذي لم ينفعهم الاعتراف . فالاعتراف هو الاقرار بالشيء عن معرفة ، وذلك ان الاقرار مشتق من قرّ الشيء يقرّ قراً إذا ثبت ، فالمقر في المعنى مثبت له والاعتراف مأخوذ من المعرفة . فقال الله تعالى ﴿ فسحقاً لاصحاب السعير ﴾ أي بعداً لهم عن الخير وعن ثواب الله ونعمه، فكأنه قال اسحقهم الله سحقاً او ألزمهم الله سحقاً عن الخير فجاء المصدر على غير

لفظه ، كما قال الله تعالى ﴿ والله أنبتكم من الارض نباتاً ﴾ (١) وتقديره فأسحقهم الله إسحاقاً لأنه مأخوذ منه فأما سحقته سحقاً فمعناه باعدته بالتفريق عن حال اجتماعه بما صار اليه كالغبار . وليس لأحد أن يقول : ما وجه اعترافهم بالذنب مع ما عليهم من الفضيحة به ؟ ! وذلك أنهم قد علموا انهم قد حصلوا على الفضيحة اعترفوا او لم يعترفوا وانهم سواء عليهم أجزعوا أم صبروا ، فليس يدعوهم إلى أحد الأمرين إلا بمثل ما يدعوهم إلى الآخر في أنه لا فرج فيه ، فلا يصلح أن يقال لم جزعوا إلا بمثل ما يصلح أن يقال لم صبروا ، وكذلك لم اعترفوا بمنزلة لم لم يعترفوا على ما بيناه . والذنب مصدر لا يثنى ولا يجمع ، ومتى جمع فلاختلاف جنسه ، كما يقال غطاء الناس واغطيتهم .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (١٤) هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (١٥) أربع آيات .

لما وصف الله تعالى الكفار وما أعده لهم من أليم العقاب ، ذكر المؤمنين وما أعده لهم من جزيل الثواب ، فقال ﴿ إن الذين يخشون ربهم ﴾ أي يخافون عذاب ربهم باتقاء معاصيه وفعل طاعاته ﴿ بالغيب ﴾ أي على وجه الاستسرار بذلك

(١) سورة ١٧ نوح آية ١٧

لان الخشية متى كانت بالغيب على ما قلناه كانت بعيدة من النفاق، وخالصة لوجه الله . وخشية الله بالغيب تنفع بأن يستحق عليها الثواب ، والخشية في الظاهر وترك المعاصي لا يستحق بها الثواب وإنما لا يستحق عليها العقاب . وإنما الخشية في الغيب أفضل لا محالة .

وقوله ﴿ لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ أي لمن خشي الله واتقاه بالغيب ستر الله على معاصيه ولهم ثواب كبير لافناءله . وقيل : معنى ﴿ يخشون ربهم بالغيب ﴾ أي يخافونه ، وهم لا يرونه . وقيل ﴿ بالغيب ﴾ أي في سرهم وباطنهم ، ومن علم ضمائر الصدور علم إسرار القائل إلى غيره . وقال الحسن : معناه يخشون ربهم بالآخرة لانها غيب يؤمنون به ، وكل من خشي ربه بالغيب خشيه بالشهادة ، وليس كل من خشيه بالشهادة يخشى بالغيب .

ثم قال مهدداً للعصاة ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به ﴾ ومعناه إن شئتم أظهروه وإن شئتم ابطنوه فانه عالم بذلك . ﴿ انه عليم بذات الصدور ﴾ فمن علم ضمائر الصدور علم إسرار القول .

وقوله ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ معناه من خلق الصدور يعلم ما في الصدور ويجوز ان يكون المراد ألا يعلم من خلق الاشياء ما في الصدور . وقيل تقديره ألا يعلم سر العبد من خلقه يعني من خلق العبد ، ويجوز أن يكون المراد ألا يعلم سر من خلق ، وحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه . ولا يجوز أن يكون المراد ألا يعلم من خلق افعال القلوب ، لأنه لو أراد ذلك لقال ألا يعلم ما خلق ، لانه لا يعبر عما لا يعقل بـ (من) ولا يدل ذلك على أن الواحد منا لا يخلق أفعاله من حيث أنه لا يعلم الضمائر ، وإنا بينا أن المراد ألا يعلم من خلق الصدور أي خلق الاشياء والواحد منا لا يخلق ذلك فلا يجب أن يكون عالمًا بالضمائر .

وقوله « وهو اللطيف الخبير » معناه هو اللطيف بعباده من حيث يدبرهم بلطف التدبير ، فلطيف التدبير هو الذي يدبر تدبيراً نافذاً لا يخفو عن شيء يدبره به « الخبير » معناه العالم بهم و بأعمالهم .

ثم قال تعالى ممتناً على خلقه ومعدداً لأنواع نعمه عليهم « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا » يعني سهلا سهلها لكم تعملون فيها ما تشتهون « فامشوا في مناكبها » قال مجاهد : مناكبها طرقها وفجاجها . وقال ابن عباس وقتادة : مناكبها جبالها « وكلوا من رزقه » صورته صورة الأمر والمراد به الاباحة والأذن ، أذن الله تعالى أن يأكلوا مما خلقه لهم وجعله لهم رزقاً على الوجه الذي أباحه لهم « واليه النشور » أي إلى الله المرجع يوم القيامة واليه المآل والمصير فيجازي كل واحد حسب عمله . وفي ذلك تهديد .

قوله تعالى :

«أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور (١٦) أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير (١٧) ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير (١٨) أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير (١٩) أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور (٢٠) أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في

عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾(٢١) ست آيات .

قرأ ابن كثير ﴿ واليه النشور وأمنتم ﴾ بواو في الوصل قلباً لهمزة الاستفهام واواً لضم ما قبلها . وقرأ اهل الكوفة واهل الشام بهمزتين على أصولهم . الباقون بتحقيق الأولى وتخفيف الثانية .

يقول الله تعالى مهدداً المكلفين وزاجراً لهم عن إرتكاب معاصيه والجحد لربوبيته على لفظ الاستفهام والمراد به تفخيم الامر وتعظيم التبكيت ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ فالأمن هو اطمينان النفس إلى السلامة من الخوف ، والأمن علم بسلامة النفس من الضرر يقال أمن يأمن أمناً وأمنه يؤمنه إيماناً وأماناً . والمعنى أأمن من في السماء سلطانه وامره ونهيه . كما قال ﴿ وهو الله في السموات وفي الارض يعلم سركم وجهركم ﴾ (١) أي وهو الله في السموات وفي الأرض معلوم ، لا يخفى عليه شيء منه . وقيل : ايضاً يجوز ان يكون المراد ﴿ أأمنتم من في السماء ﴾ يعني الملك الكائن في السماء ﴿ ان يخسف بكم الارض ﴾ بأمر الله ، فاذا هي تمور أي تردد ، فالمور هو التردد في الذهاب والمجيء ، يقال : مار يمور موراً فهو مائر ، ومثله ماج يموج موجاً .

وقوله ﴿ أأمنتم من السماء أن يرسل عليكم حاصباً ﴾ فالحاصب الحجارة التي يرمى بها كالحصباء ، حصبه بالحصباء يحصبه حصباً إذا رماه بها . ويقال الذى يرمى به حاصب أي ذو حصب كأن الحجر هو الذي يحصب . وقيل : تقديره آمنوا قبل ان يرسل عليكم حاصباً ، كما أرسل على قوم لوط حجارة من السماء .

وقوله ﴿ فستعلمون كيف نذير ﴾ فيه تهديد أي ستعرفون كيف تخويفي

(١) سورة ٦ الانعام آية ٣

وترهيبي إن عصيتموني إذا صرتم إلى عذاب النار . ثم قال مقسماً ﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم ﴾ أي جحد من قبل هؤلاء الكفار من الأمم وحدانيتي واشركوا بي غيري في العبادة وكذبوا رسلي ﴿ فاهلكتهم ﴾ واستأصلتهم ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أى ألم اهلكهم بضروب النقمات والمثلات ،

ثم قال منبهاً لهم على توحيده ﴿ او لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ﴾ أي مصطفاة فوق رؤسهم في الجو باسطات أجنحتهم ﴿ ويقبضن ﴾ أي يضربن بها . أى من الطير ما يضرب بجناحيه فيدف ، ومنه الصفيف والدفيف ﴿ ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾ أى ليس يمنعهن من السقوط إلى الارض إلا الرحمن الذى خلق لهم الالات التي يصفون بها ويدفون ، وما خلق فيها من القدرة على ذلك ، ولولا ذلك لسقطت إلى الارض . وقيل معنى ما يمسكهن إلا الرحمن بتوطئة الهواء لها ، ولولا ذلك لسقطت ، وفي ذلك أكبر دلالة ، وأوضح عبرة بأن من سخر الهواء هذا التسخير هو على كل شيء قدير . والصف وضع الاشياء المتوالية على خط مستقيم ، والقبض جمع الشيء من حال البسط . والامساك اللزوم المانع من السقوط .

وقوله ﴿ إنه بكل شيء بصير ﴾ اخبار منه تعالى انه عالم بجميع الاشياء لايخفى عليه شيء منها ﴿ بصير ﴾ بما للخلق من النفع والضر . ثم قال ﴿ أمّن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ﴾ أى من لكم معاشر الكفار يدفع عنكم عذاب الله إذا حل بكم ﴿ إن الكافرون إلا في غرور ﴾ معناه ليس الكافرون بالله العابدون الاوثان إلا في غرور أى يتوهمون أن ذلك أنفع لهم والأمر على خلاف ذلك من المكروه .

ثم قال ﴿ أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك ﴾ الله ﴿ رزقه ﴾ بأن يزيله ويمنعه منكم ، فينزل عليكم رزقه ﴿ بل لجوا في عتو ونفور ﴾ فاللجاج تقحم الامر

كثيراً رداً للصارف عنه ، يقال لجج في الأمر يلج لجاجاً ، وقد لاجه ملاجة ولجج فلان في الحرب فهو يلج تلجيجاً . ولما كان لهؤلاء المشركين صوارف كثيرة من عبادة الأوثان وهم يتقحمون على ذلك العصيان كانوا قد لجوا في عتوهم . والعتو الطغيان وهو الخروج الى فاحش الفساد ، يقال : عتا يعتو عتواً فهو عات وجمعه عتاة . والنفور الخروج عن الشيء هرباً من الشعور بضرره ، ونقيض النفور القبول وقال الجبائي : قوله ﴿ أمن هذا الذى ﴾ إلى قوله ﴿ إن امسك رزقه ﴾ تعريف حجة عرفها الله لعباده فعرفوا وأقروا بها ، ولم يردوا لها جواباً فقال الله ﴿ بل لجوا في عتو ونفور ﴾ .

قولــه تعــالى :

﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٢٦)

خمس آيات .

قوله ﴿ أفمن يمشي .... ﴾ مثل ضربه الله قال ابن عباس : هو مثل ضربه الله عز وجل للكافر وشبهه بمن يمشي مكباً على وجهه . والمؤمن شبهه بمن يمشي سوياً على صراط مستقيم . وقال قتادة : الكافر يحشر يوم القيامة يمشي على وجهه مكباً ، والمؤمن يمشي على صراط مستقيم .

وفي الآية دلالة على وجوب النظر في الدين ، لأنه تعالى ضرب المثل بالناظر في ما يسلكه حتى خلص إلى الطريق المستقيم فمدحه بهذا وذم التارك للنظر مكباً على وجهه لا يثق بسلامة طريقه ، يقال : اكب يكب اكباباً فهو مكب في مالا يتعدى قال الاعشى :

مكباً على روقيه يحفر عرقها على ظهر عريان الطريقة أهيما (١) .

فاذا تعدى قيل : كببت فلاناً على وجهه ، وأكبه الله لوجهه . ثم قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قل ﴾ لهؤلاء الكفار إن الله تعالى ﴿ هو الذي أنشأكم ﴾ بأن أخرجكم من العدم إلى الوجود واخترعكم ﴿ وجعل لكم السمع والابصار ﴾ تسمعون بالسمع المسموعات وتبصرون بالبصر المبصرات ﴿ والافئدة ﴾ يعني القلوب تعقلون فيها أي بما فيها من المعلوم تعلمون بها وتميزون بها ، فهذه نعم من الله تعالى يجب عليكم أن تشكروها وتحمدوا الله عليها فانتم ﴿ قليلا ما تشكرون ﴾ أي قليلا شكركم ، ويجوز أن يكون المعنى إنكم تشكرون قليلا .

ثم قال ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ هو ﴾ الله تعالى ﴿ الذي ذرأكم في الارض ﴾ أي خلقكم أولا وأوجدكم ﴿ واليه تحشرون ﴾ أي تبعثون اليه يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب . ثم حكى تعالى ما كان يقوله الكفار فانهم كانوا ﴿ يقولون ﴾ مستهزئين مكذبين بأنه من عند الله ﴿ متى هـــذا الوعـد ﴾ الذي تعدوننا به من العذاب والهلاك ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ معاشر المؤمنين والمسلمين ، فقال الله تعالى ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ إنما العلم عند الله ﴾ يعني علم وقت قيام الساعة على اليقين عند الله لم يطلع عليه احداً من البشر ، كما قال ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ (٢) ﴿ وإنما أنا نذير ﴾ لكم مخبر مخوف من عقاب الله تعالى

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٨٨ (٢) سورة ٣١ لقمان آية ٣٤

﴿ مبين ﴾ مما لكم فيه من الصلاح والنجاة من العقاب . والنذير هو الدال على موضع المخافة فكل من دعا إلى حق إما رغبة أو رهبة فهو نذير إلا انه صار علماً في صفات الانبياء عليهم السلام .

قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ ٱلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ (٣٠)

أربع آيات .

قرأ يعقوب ﴿ تدعون ﴾ خفيفة. الباقون بالتشديد . وقرأ الكسائي ﴿ فسيعلمون من هو ﴾ بالياء على الغيبة . الباقون بالتاء على الخطاب ، أي قل لهم .

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم استبطؤا عذاب الله واهلاكهم مستهزئين بذلك ، فقالوا متى هذا الوعد ، قال الله تعالى حاكياً عنهم إذا رأوا ما يوعدون به ﴿ فلما رأوه زلفة ﴾ قال الحسن : معناه معاينة . وقال مجاهد : يعني قريباً . والزلفة المنزلة القريبة والاصل فيه القرب ، يقال : أزدلف اليه أزدلافاً إذا تقرب اليه ، ومنه (مزدلفة) لانها منزلة قريبة من مكة ، وجمع زلفة زلف ، قال العجاج :

ناج طواه الاين مما وجفا طي الليالي زلفا فزلفا

سماوة الهلال حتى احقوقفا (١)

وقوله «سيئت وجوه الذين كفروا» أي ظهر فيهاما يفهم من الكآبة والحزن تقول: ساء يسوء سوأ، ومنه السوأى، ومنه أساء يسيء إساءة، فهو مسيء إذا فعل قبيحاً يؤدي إلى الغم «وقيل هذا الذي كنتم به تدعون» أى ويقال لهؤلاء الكفار إذا شاهدوا العذاب «هذا الذي كنتم به تدعون» أي تطلبون به خلاف ما وعدتم به على طريق التكذيب بالوعد، كأنه قيل هذا الذى كنتم به تكذبون في إدعائكم انه باطل. والادعاء الاخبار بما يدعو اليه القائل دون المعنى، فاذا ظهر دليله خرج من الادعاء لانه حينئذ يدعو إليه المعنى، وكذلك الاخبار بما يدعو إلى نفسه في الفعل ليس بدعوى، قال الزجاج: «تدّعون» يجوز ان يكون يريد يفعلون من الدعاء، ويجوز أن يكون من الدعوى، قال الفراء: والتشديد والتخفيف واحد مثل تذكرون وتذكرون وتدخرون وتدخرون.

ثم قال للنبي صلى الله عليه وآله «قل» لهم يا محمد «أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي» بان يميتنا «أورحمنا» بتأخير آجالنا ما الذى ينفعكم من ذلك في رفع العذاب الذى استحققتموه من الله فلا تعللوا في ذلك بما لا يغني عنكم شيئاً. وقيل إن الكفار كانوا يتمنون موت النبي وموت أصحابه فقيل لهم «أرأيتم إن أهلكني الله» باماتتي وإماتة اصحابي فما الذى ينفعكم ذلك في النجاة من عذاب أليم. وقل لهم «فمن» الذى «يجير الكافرين من عذاب أليم» حتى لا يعذبوا ولا يعاقبوا، فلا يمكنهم الاحالة على من يجيرهم من الله ويخلصهم من عذابه.

ثم قال «قل» لهم على وجه الانكار عليهم والتوبيخ لهم على فعلهم «هو الرحمن» يعني الله تعالى هو الذي عمت نعمه جميع الخلائق واستحق الوصف بالرحمن

(١) مر في ٦ | ٧٩ و ٨ | ٢٩ و ٩ | ٢٨٠، ٣٧٠

« آمنا به » أي صدقنا بوحدانيته « وعليه توكلنا » أى اعتمدنا عليه وفوضنا أمورنا اليه ، فالتوكل الاعتماد على تفضل الله وحسن تدبيره وقل لهم « فستعلمون » معاشر الكفار « من » الذى « هو فى ضلال مبين » أى بين . ومن قرأ بالياء معناه فسيعلم الكفار ذلك .

ثم قال « قل » لهم يا محمد « أرأيتم» معاشر الكفار «إن أصبح ماؤكم غوراً» أى غائراً وصف الغائر بالغور الذى هو المصدر مبالغة ، يقال ماء غور ، وماآن غور ، ومياه غور كما يقال : هؤلاء زور فلان وضيفه ، لانه مصدر - فى قول الفراء وغيره - « فمن يأتيكم بماء معين » معناه من الذى يجيئكم بماء معين إذا غارت مياهكم . قال قوم : الماء المعين الذى تراه العيون . وقال قتادة والضحاك : هو الجارى ، فالاول مفعول من العين ، كمبيع من البيع ، والثاني من الامعان فى الجرى ، ووزنه (فعيل) كأنه قال ممعن فى الجرى والظهور ، وقال الحسن أصله من العيون . قال الجبائي قوله « قل أرايتم إن اصبح ماؤكم غوراً » تعريف حجة الله لعباده عرفوها وأقروا بها ولم يردوا لها جواباً .

٦٨ سورة القلم

مكية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما وهي اثنتان وخمسون آية بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ (١٦) ست عشرة آية .

قرأ الكسائي وابو بكر عن عاصم «ن والقلم» بالاخفاء . الباقون بالاظهار . والاظهار اقوى ، لان النية بها الوقف إذ هي حرف هجاء ويجوز ادغام النون الثانية

في الواو المقارنة على قياس (من واقد) ولم يقرأ به احد . وقرأ « آن كان ذا مال » بهمزة واحدة ممدودة يعقوب وابو جعفر وابن عامر - وبهمزتين - حمزة وابو بكر . الباقون بهمزة واحدة . واختلفوا في معنى (ن) في هـذا الموضع . فقال قوم : هو اسم من أسماء السورة مثل (حم ، والم وص ، وق) وما اشبه ذلك . وهو الذي قلنا إنه اقوى الأقوال . وقال ابن عباس - في رواية عنه - إن النون الحوت الذي عليه الارضون . وفي رواية أخرى عنه إن النون الدواة . وهو قول الحسن وقتادة ، وروي في خبر عن النبي ﷺ انه قال : (نون) لوح من نور . وقال قوم : تقديره ورب نون والقلم . والقلم آلة مبرية للكتابة . والمقلمة وعاء القلم ، وجمعه أقلام ، ومنه قلامة الظفر ، لانه يؤخذ منه كالأخذ بالقط . والجر القلم بالقسم . وقوله « وما يسطرون » (ما) في موضع جر بالعطف على (والقلم) وكان القسم بالقلم وما يسطر بالقـلم ، ويجوز ان تكون (ما) مصدرية ، وتقديره : ن والقلم وسطركم ، فيكون القسم بالكتابة ، وعلى الأول بالمكتوب والسطر الكتابة ، وهو وضع الحروف على خط مستقيم : سطر يسطر سطراً إذا كتب ، وأسطر إذا كتب . وجمع السطر سطور واسطار ، قال رؤبة :

انى وأسطار سطرن سطراً (١)

والمسطرة آلة التسطير . وقوله « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » هو المحلوف عليه ، وهو جواب القسم ، ومعناه لست يا محمـد بمجنون بنعمة ربك ، كما تقول ما انت بنعمة ربك بجاهل ، وجاز تقديم معمولها بعد الباء ، لأنها زائدة مؤكدة في ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وتقـديره انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، وإنما قال « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » مع ان الجنة قد تكون نعمة ، لأن الجنـة لا تكون

---

(١) مر في ٤ / ١١٠

نعمة من حيث هي جنة ، وإنما تكون نعمة من حيث تؤدي إلى مصلحة في الدين . والعافية تكون نعمة من حيث هي عافية ، فلهذا حسن ما أنت بنعمة ربك بمجنون والجنون غمور العقل بستره من الادراك به بما يخرج عن حكم الصحيح ، وأصله الستر من قوله « جن عليه الليل » (١) إذا ستره . وقيل إن قوله « ما انت بنعمة ربك بمجنون » جواب لقول المشركين حين قالوا « يا ايها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » (٢) فقال الله تعالى « ما انت بنعمة ربك بمجنون » .

وقوله « وإن لك » خطاب للنبي ﷺ يقول له « وإن لك » يا محمد « لأجراً » أى ثواباً من الله على قيامك بالنبوة وتحملك بأعبائها « غير ممنون » أى غير مقطوع من قولهم منه السير يمنه مناً إذا قطعه ، ويقال : ضعفت منني عن السفر ، ورجل منين أى ضعيف ، ويجوز ان يكون المراد به إنه غير مكدر بالمن الذى يقطع عن لزوم الشكر ، من قولهم : المنة تكدر الصنيعة . وقال الحسن : معناه لا يمن عليك بأجرك . ثم وصف النبي ﷺ فقال « وإنك » يا محمد « لعلى خلق عظيم » قال الحسن : على دين عظيم ، وهو الاسلام . وقيل أدب القرآن . وقال المؤرج : معناه على دين عظيم بلغة قريش . وقالت عائشة : كانت خلق النبي ﷺ ما تضمنه العشر الاول من سورة (المؤمنون) ، فالخلق المرور فى الفعل على عادة ، فالخلق الكريم الصبر على الحق وسعة البذل ، وتدبير الأمور على مقتضى العقل . وفي ذلك الرفق والأناة والحلم والمداراة . ومن وصفه الله بأنه على خلق عظيم فليس وراء مدحه مدح . وقيل : وإنك لعلى خلق عظيم بحكم القرآن وكل ذلك عطف على جواب القسم.

وقوله « فستبصر ويبصرون » معناه فستعلم يا محمد يوم القيامة ويعلمون ، يعني هؤلاء الكفار الذين يرمونك بالجنون تارة وبالكهانة أخرى « بأيكم المفتون »

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ٧٦ (٢) سورة ١٥ الحجر آية ٦

وقيل في معناه قولان :

احدهما - باي فرقكم المفتون بما يجري مجرى الجنون .

والثاني - ان يكون معنى « بأيكم المفتون » كما يقال : ليس له معقول أي عقل وتقديره ستعلم ويعلمون بمن منكم الجنون . وقيل : معنى الباء (في) وكأنه قال في أيكم الجنون المفتون المبتلى بتخييل الرأي كالمجنون ، وذلك كما يبتلى بشدة الهوى المجنون . فيقال : فتن فلان بفلانة ، وعلى هذا المعنى قال ابن عباس : بايكم المجنون وقال قتادة : معناه أيكم اولى بالشيطان جعل الباء زائدة كما قال الراجز :

نحن بنو جعدة اصحاب الفلج   نضرب بالسيف ونرجوا بالفرج (١)

ومعناه ونرجوا الفرج . وقال مجاهد : معناه أيكم المفتون كأنه قال في أيكم المفتون . ثم قال « ان ربك يا محمد هو أعلم بمن ضل عن سبيله » الذي هو سبيل الحق أي بمن عدل عنها وجار عن السلوك فيها « وهو اعلم بالمهتدين » أي بمن اهتدى اليها وعمل بموجبها . ثم نهى النبي صلى الله عليه وآله فقال له « فلا تطع المكذبين » بتوحيد الله والجاحدين لنبوتك ولا توافق ما يريدونه . وقوله « ودّوا لو تدهن فيدهنون » قال ابن عباس : معناه ودوا لو تكفر فيكفرون ، وهو قول الضحاك ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس : إن معناه ود هؤلاء الكفار لو تلين في دينك ، فيلينون في دينهم ، فشبه التليين في الدين بتليين الدهن . وقيل : معناه ودوا لو تركن إلى عبادة الأوثان فيمالونك . والادهان الجريان في ظاهر الحال على المقاربة مع إضمار العداوة . وهو مثل النفاق . ورفع « فيدهنون » بالعطف على قوله « لو تدهن » ولم يجعله جواب التمني .

ثم قال له صلى الله عليه وآله « ولا تطع » يا محمد « كل حلاف » أي من يقسم كثيراً

---

(١) مر في ٧ / ١١٨ ، ٣٥٨ و ٨ / ٨١

بالكذب « مهين » يعني مكثار في الشر ـ في قول الحسن وقتادة ـ والمهين الوضيع بإكثاره من القبيح ، ومن عرف بأنه يحلف على الكذب ، فهو مهين . وقال البلخي : المهين الفاجر ـ في هذا الموضع ـ .

وقوله « هماز مشاء بنميم » أي وقاع في الناس بما ليس له أن يعيبهم به . والاصل فيه الدفع بشدة اعتماد ، ومنه الهمزة حرف من حروف المعجم ، وهي همزة تخرج من الصدر بشدة اعتماد ، وقال ابن عباس : الهماز المغتاب . وقوله « مشاء بنميم » فالنميم التضريب بين الناس بنقل الكلام يغلظ لقلوب بعضهم على بعض ومنه النمام المشموم ، لأنه يجد ريحه كالمخبر عن نفسه ، والنميم والنميمة مصدران ، وهو نقل الاحاديث بالتضريب : نم ينم نميماً ونميمة « مناع للخير » أي يمنع خيره ونفعه ، فلا ينتفع أحد به « معتد » قال قتادة: معناه متجاوز للحد فى المعاملة « أثيم » أي آثم فهو (فعيل) بمعنى (فاعل) وهو الذي فعل ما يأثم به « عتل بعد ذلك » فالعتل الجافي الغليظ . ومنه قوله « خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم » (١) أي اذهبوا به بعنف وغلظة يقال : عتله يعتله ويعتله عتلا إذا زعزعه بغلظ وجفاء . وقال ذو الاصبع :

والدهر يغدو معتلا جذعاً (٢)

وقيل : العتل الفاحش اللئيم . وروي عن النبي صلى الله عليه وآله ذلك . و« الزنيم » الدعي وهو الملصق بالقوم ، وليس منهم . وأصله الزنمة وهي الهنية التي تتحرك تحت حلق الجدى وقال حسان :

وانت زنيم نيط فى آل هاشم ... كما نيط خلف الراكب القدح الفرد (٣)

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٧ (٢) مجاز القرآن ٢ | ٢٦٤

(٣) ديوانه ١٦٠ اللسان (زنم)

و (بعد) هاهنا معناه (مع) وقال آخر

زنيم ليس يعرف من أبوه بغي الأم ذو حسب لئيم (١)

ويقال للتيس : زنيم له زنمتان ، والزنيم الدعي - عن ابن عباس - وقيل : هو الذي يعرف بالشر ، كما تعرف الشاة بزنمتها .

وقوله « أن كان ذا مال وبنين » من قرأ على الاستفهام ، وهو حمزة وابو بكر عن عاصم أراد ، ألان كان ذا مال وبنين ؟ ! على وجه التوبيخ له « إذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين » ويحتمل ان يكون المراد لأن كان ذا مال وبنين يطاع . وقيل : كان له ألف دينار وعشرة بنين « إذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الاولين » أي أحاديث الأولين التي سطرت وكتبت لا أصل لها وواحد الاساطير أسطورة - في قول الزجاج . وقرأ حمزة وابو بكر عن عاصم « أأن كان ذا مال وبنين » بهمزتين . وقرأ ابن عامر بهمزة ممدودة . الباقون بهمزة واحدة . وقد فسرناه . فقال الله تعالى مهدداً له ومتوعداً « سنسمه على الخرطوم » أي سنعلم على أنفه علامة يعرف بها الملائكة انه من أهل النار ، فالسمة العلامة المفرقة بالرؤية بين الأشياء المختلطة ، كسمة الخيل إذا أرسلت في المروج ، وسمه يسمه وسماً وسمة ، فهو موسوم . والخرطوم الانف ، وهو الناتيء في الوجه الذي يقع به الشم . ومنه خرطوم الفيل ، وخرطمه إذا قطع أنفه وجعله خراطيم . وقال ابن عباس : معنى « سنسمه على الخرطوم » نحطمه بالسيف في القتال ، كما فعل بهم يوم بدر . وقال قتادة : معناه سنعلمه بشيء يبقى على الابد . وقال بعضهم معناه : سنسود وجهه فعبر عن الوجه بالخرطوم ، لانه فيه .

وقيل : نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة المخزومي ، وقيل : نزلت

(١) تفسير الطبري ٢٩ / ١٤ والقرطبي ١٨ / ٢٣٤

في الأخنس بن شريق الثقفي ، كانت به زنمة يعرف بها ـ ذكره ابن عباس ـ

قوله تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ (٢٥) تسع آيات .

يقول الله تعالى « إنا بلوناهم » يعني هؤلاء الكفار أي اختبرناهم « كما بلونا أصحاب الجنة » يعني البستان « إذ أقسموا » أي حين اقسموا فيما بينهم « ليصرمنها مصبحين » ووجه الكلام إنا بلونا أهل مكة بالجدب والقحط ، كما بلونا أصحاب الجنة بهلاك الثمار التي كانت فيها حين دعا النبي ﷺ عليهم ، فقال (اللهم أشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف) فالبلوى المحنة بشدة التعبد على ما يقتضيه الحال في صحة التكليف . والصرم قطع ثمر النخل : صرم النخلة يصرمها صرماً ، فهو صارم ، ومنه الصريمة القطيعة عن حال المودة . وهم عشرة أولاد كانوا لرجل من بني إسرائيل . وكان يأخذ من بستانه كفاية سنته ويتصدق بالباقي ، فقال أولاده : ليس يكفينا ، وحلفوا أنهم يصرمون بستانهم ليلا وابى عليهم ابوهم ، فأقسموا أنهم ليصرمون ثمر نخل البستان إذا اصبحوا ، ولم يستثنوا ، ومعناه لم يقولوا إن شاء الله فقول القائل : لأفعلن كذا إلا أن يشاء الله استثناء ومعناه إن شاء الله منعي او تمكين مانعي ، فقال الله تعالى « فطاف عليها » يعني على

تلك الجنة « طائف من ربك » أي طرقها طارق من أمر الله ، فالطائف الطارق ليلا ، فاذا قيل أطاف به صلح فى الليل والنهار ، وانشد الفراء :

أطفت به نهاراً غير ليلى　　والهي ربها طلب الرخال (١)

الرخال أولاد الضان واحدها رخل وفى الانثى رخلة « وهم نائمون » أي فى حال نومهم « فاصبحت » يعني الجنة « كالصريم » أي كالليل الأسود – فى قول ابن عباس – وانشد ابو عمرو بن العلا :

ألا بكرت وعاذلتي تلوم　　تجهلني وما انكشف الصريم (٢)

وقال :

تطاول ليلك الجون البهيم　　فما ينجاب عن صبح صريم

إذا ما قلت اقشع او تناهى　　جرت من كل ناحية غيوم (٣)

وقال قوم : الصريم هو المصروم . وقال سعيد بن جبير : الصريم أرض معروفة باليمين لانبات فيها تدعى صروان ، وإنما قيل لليل صروم ، لانه يقطع بظلمته عن التصرف في الامور . وقيل : إنما فعل الله بهم ذلك لانهم منعوا الحقوق اللازمة من ثمار هذه الجنة . والصرم قطع الثمر . والصريم المصروم جميع ثماره .

وقوله « فتنادوا مصبحين » اخبار عن حالهم أنهم لما اصبحوا نادى بعضهم بعضاً يا فلان يا فلان ، والتنادي دعاء بعض الناس بعضاً بطريقة يا فلان وأصله من الندى بالقصر ، لأن النداء الدعاء بندى الصوت الذي يمتد على طريقة يا فلان ، لان الصوت إنما يمتد للانسان بندى حلقه . والنادي مجلس الرفد وهو الندي « ان اغدوا على حرثكم » أي نادى بعضهم بعضاً بأن اغدوا ، او قالوا : « اغدوا على حرثكم » ، والحرث الزرع الذي قد حرثت له الأرض ، حرث يحرث حرثاً والحراث

(١ و ٢ ، ٣) تفسير الطبري ٢٩ / ١٧ واللسان (صرم)

الذى يحرث الأرض ، ومنه الحارث ، ومنه الحرث ، كناية عن الجماع . ويقال : احترث لأهله إذا اكتسب بطلب الرزق ، كما يطلب الحراث « إن كنتم صارمين » أى قاطعين لثماركم ، فالصارم قاطع ثمر الشجر على الاستئصال . واكثر ما يستعمل ذلك في النخل ، ويجوز في الشجر ، وأصله القطع . وقد تصرم النهار إذا مضى قطعة قطعة حتى انقضى . وقيل : معناه إن كنتم حاصدين زرعكم . ثم قال « فانطلقوا » أى ذهبوا ، وهم « يتخافتون » فالتخافت التقابل في اخفاء الحركة ، وأصله الخفاة من خفت فـلان يخفت إذا اخفى نفسه ومعناه ـ ههنا ـ يتسارون بينهم « ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » في ـ قول قتادة ـ وقوله ﴿ وغدوا على حرد ﴾ فالحرد القصد ، حرد يحرد حرداً فهو حارد . قال الشاعر :

اقبل سيل جاء من أمر الله يحرد حرد الجنة المغلة (١)

أى يقصد ، وقال الحسن : معناه على جهة من الفاقة . وقال مجاهد : معناه على جد من أمرهم ، وهو قول قتادة وابن زيد . وقال سفيان : معناه على حنق ، وذلك من قول الأشهب بن رميلة :

اسود شرى لاقت اسود خفية فساقوا على حرد دماء الاساود (٢)

أي على غضب . وقيل : معناه على منع من قولهم حاردت السنة إذا منعت قطرها ، وحاردت الناقة إذا منعت لبنها . والأصل القصد .

وقوله ﴿ قادرين ﴾ معناه مقدرين انهم يصرمون ثمارهم ، ويجوز ان يكون المراد وغدوا على حرد قادرين عند انفسهم على صرام جنتهم .

(١) مر في ٦ / ٢١٧

(٢) اللسان (حرد)

قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٣) ثمان آيات

يقول الله تعالى مخبراً إن أولئك الكفار بنعم الله لما نادى بعضهم بعضاً وانطلقوا إلى صرم ثمارهم وتساروا ألا يدخل عليهم مسكين يطلب منهم ﴿ فلما رأوها ﴾ أي حين جاؤا وجدوا البستان كالليل الأسود قالوا أهلكه الله وطرقه طارق من أمر الله فاهلكه ، فلما رأوا تلك الجنة على تلك الصورة ﴿ قالوا إنا لضالون ﴾ أي اعترفوا بأنهم قد عدلوا عن طريق الحق وجازوا عن سبيل الواجب وذهبوا عن طريق الرشاد . ثم استدركوا فقالوا ﴿ بل نحن محرومون ﴾ ما كان لنا في جنتنا ، وتقديره إنا لضالون عن الحق في أمرنا فلذلك عوقبنا بذهاب ثمرها ، والضلال الذهاب عن طريق الرشاد إلى طريق الهلاك بالفساد . والحرمان منع الخير الذي كان ينال لولا ما حدث من سبب الانقطاع ، يقال : حرمه يحرمه حرماناً فهو محروم في خلاف المرزوق . وقال قتادة : معنى قوله ﴿ إنا لضالون ﴾ أي اخطأنا الطريق ما هذه جنتنا ، فقال بعضهم لبعض ﴿ بل نحن محرومون ﴾ وقوله ﴿ قال اوسطهم ﴾ معناه قال أعدلهم قولا - في قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والضحاك - والاوسط

الكائن بين الاكبر والاصغر . والمراد ههنا بين الاكبر والاصغر فى الخروج عن القصد ﴿ ألم أقل لكم ﴾ على وجه التهجين لهم أما قلت لكم ﴿ لولا تسبحون ﴾ أى هلا تستثنون ، والتسبيح التنزيه لله عما لا يجوز عليه من صفة ، وهو التنزيه عن كل صفة ذم ونقص ، فلذلك جاز أن يسمى الاستثناء بأن يشاء الله تسبيحاً . وقيل معناه لولا تصلون .

ثم حكى انهم ﴿ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ ومعناه إنهم اعترفوا أن الله لم يظلمهم وانهم ظلموا انفسهم فى عزمهم على حرمان المساكين من حصتهم عند الصرام من غير استثناء ، فحرموا قطعها والانتفاع بها .

ثم قال ﴿ فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ أي يلوم بعضهم بعضاً ويذم بعضهم بعضاً . ثم ﴿ قالوا يا ويلنا ﴾ والويل غلظ المكروه الشاق على النفس ، والويس دونه ، والويح وسط بينهما ، وإنما نودي بالويل بياناً عن حال الشدة ، كأنه يقول يا ويل تعال فانه من أحيانك ﴿ إنا كنا طاغين ﴾ أي علونا فى الظلم وتجاوزنا الحد فيه ، فالطغيان العلو في الظلم والداعي اليه طلب الارتفاع بغير استحقاق بالقهر والاغتصاب . وقيل : الطاغي المتجاوز للحد في الفساد . وقال عمرو بن عبيد : يجوز أن يكون ذلك منهم توبة وإيماناً ، ويجوز أن يكون ذلك على حد ما يقول الكافر إذا وقع في الشدة . ثم قالوا ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها ﴾ أي لما تابوا ورجعوا إلى الله قالوا لعل الله تعالى يخلف علينا ويولينا خيراً من الجنة التي هلكت ﴿ إنا إلى ربنا راغبون ﴾ أي نرغب اليه ونسأله ونتوب اليه مما فعلناه . فالتبديل تثبيت شيء مكان غيره مما ينافيه ، بدّله تبديلا فهو مبدل . ومثله التغير إلا أن التبديل لا يكون إلا في شيئين والتغير قد يكون للشيء الواحد .

وقرىء بالتشديد والتخفيف ، فالتخفيف من الابدال ، والتشديد من التبديل

ومعناهما واحد.

وقوله ﴿ كذلك العذاب ﴾ معناه مثل ما فعلنا بهؤلاء هـذا العذاب عاجلا في دار الدنيا، ثم قال ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ إن هناك عقاباً وعذاباً. وخير من كذا أي اعظم نفعاً منه وأحسن في العقل، ومثله الاصلح والاولى والأجل: والاكبر هو الذي يصغر مقدار غير عنه بالاضافة اليه. وقد يكون أكبر شأناً واكبر شخصاً.

قوله تعالى:

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ (٤٠) سبع آيات

لما اخبر الله تعالى ما حل بالكفار، وما هو معد لهم في الآخرة أخبر بما للمؤمنين من أهل الطاعات، فقال ﴿ان للمتقين﴾ يعني الذين أمنوا عقاب الله باتقاء معاصيه وفعل طاعاته ﴿عند ربهم جنات النعيم﴾ أي بساتين يتنعمون فيها ويتلذذون بها. ثم قال على وجه الانكار على الكفار وانه لا يسوى بينهم وبين المؤمنين فقال ﴿افنجعل المسلمين﴾ الذين أسلموا لله وانقادوا لطاعته وامتثلوا ما أمرهم به ﴿ كالمجرمين ﴾ أي مثل من عصاه وخرج عن طاعته وارتكب ما نهاه عنه ؟! فهذا لا يكون أبداً. وقوله ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ تعجبن لهم وتوبيخ. ومعناه أعلى حال الصواب أم

على حال الخطاء؟ وعلى حال الرشاد أم الغي، فعلى أي حال تحكمون في الاحوال التي تدعون إلى الفعل أحال الباطل أم حال الحق؟ وقوله ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون ﴾ معناه ألكم كتاب تدرسون فيه خلاف ما قد قامت عليكم الحجة به فأنتم متمسكون به ولا تلتفتون إلى خلافه؟! وليس الأمر على ذلك فاذ قد عدمتم الثقة بما أنتم عليه، وفي هذا عليكم أكبر الحجة وأوكد الموعظة، لأن الكتاب الذي تقوم به الحجة حتى لايجوز خلافه إلى أن تقوم الساعة هو الذي تشهد له المعجزة من غير اجازة نسخ له في حال ثانية، وهو القرآن الذي فيه معنى الاعجاز من غير نسخ له فيما بعد في باقي الزمان.

وقوله ﴿ إن لكم فيه لما تخيرون ﴾ يحتمل امرين:

احدهما ـ أن يكون تقديره أم لكم كتاب فيه تدرسون بأن لكم ما تخيرون إلا انه حذفت الباء وكسرت (إن) لدخول اللام في الخبر.

الثاني ـ ان يكون ذلك خرج مخرج التوبيخ، وتقديره وإن لكم لما تخيرون عند أنفسكم، والأمر بخلاف ظنكم، لانه لا يجوز ان يكون ذلك خبراً مطلقاً.

وقوله ﴿ أم لكم أيمان علينابالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ﴾ كسرت (إن) لدخول اللام في الخبر، والحكم خبر بمعنى يفصل الأمر على جهة القهر والمنع وأصله المنع من قول الشاعر:

ابني حنيفة احكموا سفهاءكم إني اخاف عليكم ان اغضبا (١)

أي امنعوهم. ومنه الحكمة، لانها معرفة تمنع الفساد بصرفها عنه بما يذم به. والحكمة في الفعل المنعة من الفساد منه، ومنه حكمة الدابة لمنعها إياها من الفساد.

وقوله ﴿ سلهم ايهم بذلك زعيم ﴾ قال ابن عباس وقتادة: زعيم أي كفيل

(١) مر تخريجه في ٢ | ١٨٨

والزعيم والكفيل والضمين والقبيل نظائر . والمعنى سلهم أيهم زعيم ضامن يدعي علينا ان لهم علينا أيمانًا بالغة ؟ فلا يمكنهم ادعاء ذلك .

قولــه تعــالى :

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (٤٥)

خمس آيات .

قوله ﴿ أم لهم شركاء ﴾ توبيخ لهؤلاء الكفار وإنكار عليهم إتخاذ إله مع الله وتوجيه عبادتهم اليه ، فقال ﴿ أم لهم شركاء ﴾ في العبادة مع الله ﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ أي شركاؤهم الذين تقوم بهم الحجة ، فلا سبيل لهم إلى ذلك فالحجة لازمة عليهم لأن كل دعوى لم يمكن صاحبها أن يقيم البينة عليها فيلزمه أن يقيمها بغيره . والشريك عبارة عمن يختص بمعنى هو له ولغيره من غير إنفراد به . وإنما قلنا من غير إنفراد به لنفرق بين ما هو له ولغيره وهو له ايضًا كالغفران هو لهذا التائب ولتائب آخر ، ولهذا التائب مطلقًا ، فليس فيه شريك ، وكذلك هذا العبد هو ملك لله تعالى ، ولهذا المولى ، وهو لله على الاطلاق ، فليس في هذا شركة وإنما قيل الشركاء في الدعوى ، لانها مما لو انفرد بعضهم عن ان يدعيها لم يدعها الآخر ، كأنهم تعاونوا عليها ، فعلى هـذا يحتمل أن يكون المعنى في الآية أم لهم

شركاء يدعون مثل ما يدعيه هؤلاء الكفار « فليأتوا بهم إن كانوا صادقين أي شركاءهم الذين تقوم بهم الحجة ، ولا سبيل لهم إلى ذلك فهو لازم عليهم .

وقوله ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ قال الزجاج : هو متعلق بقوله « فليأتوا بشركائهم ... يوم يكشف عن ساق» وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك : معنا يوم يبدو عن الامر الشديد كالقطيع من هول يوم القيامة . والساق ساق الانسان وساق الشجرة لما يقوم عليه بدنها وكل نبت له ساق فهو شجر قال الشاعر :

للفتى عقل يعيش به حيث يهدي ساقه قدمه (١)

فالمعنى يوم يشتد الامر كما يشتد ما يحتاج فيه إلى ان يقوم على ساق ، وقد كثر في كلام العرب حتى صار كالمثل فيقولون : قامت الحرب على ساق وكشفت عن ساق قال [زهير بن جذيمة] .

فاذا شمرت لك عن ساقها فويها ربيع ولا تسأم (٢)

وقال جد ابي طرفة :

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح (٣)

وقال آخر :

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر غرد (٤)

وقوله ﴿ ويدعون إلى السجود ﴾ قيل: معناه إنه يقال لهم على وجه التوبيخ : اسجدوا ﴿ فلا يستطيعون ﴾ وقيل : معناه إن شدة الامر وصعوبة الحال تدعوهم

(١) اللسان (سوق) (٢) مجاز القرآن ٢ | ٢٦٦

(٣) اللسان (سوق) والقرطبي ١٨ /٢٤٨ (٤) القرطبي ١٨ | ٤٨

إلى السجود ، وإن كانوا لا ينتفعون به . ثم قال ﴿ خاشعة ابصارهم ﴾ أي ذليلة ابصارهم لا يرفعون نظرهم عن الارض ذلة ومهانة ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ معناه تغشاهم ذلة يقال : رهقه يرهقه رهقاً ، فهو راهق إذا غشيه ، ورهقه الفارس إذا أدركه ، وراهق الغلام إذا أدرك .

وقوله ﴿ وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ يعني دعاهم الله تعالى إلى السجود والخضوع له في دار الدنيا وزمان التكليف ، فلم يفعلوا ، فلا ينفعهم السجود فى ذلك الوقت .

وقوله ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ تهديد ، ومعناه ذرني والمكذبين أي اوكل أمرهم إلي كما يقول القائل :دعني وإياه .

وقوله ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ معناه سآخذهم إلى العقاب حالا بعد حال .

وقوله ﴿ واملي لهم ﴾ أي واطيل آجالهم وأؤخرها ﴿ إن كيدي متين ﴾ أي قوي ، فكانه قال سنستدرج أعمالهم إلى عقابهم وإن أطلناها لهم نستخرج ماعندهم قليلا قليلا . وأصله من الدرجة ، لان الراقي ينزل منها مرقاة مرقاة فأشبه هذا . ووجه الحكمة فى ذلك أنهم لو عرفوا الوقت الذي يؤخذون فيه لكانوا آمنين إلى ذلك الوقت ، وصاروا مغريين بالقبيح ، والله تعالى لا يفعل ذلك .

قوله تعالى :

﴿ أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجراً فَهُمْ مِن مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ

لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٥٢) ست آيات

قرأ نافع وحده ﴿ ليزلقونك ﴾ بفتح الياء من زلقت. الباقون بضمها من أزلقت، وهما لغتان: زلقت، وأزلقت. قال الفراء: يقولون: زلقت شعره وأزلقته إذا حلقته. والمعنى ليرمون بك ويلقونك.

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه التوبيخ للكفار ﴿ أم تسألهم ﴾ اي هل تسألهم ﴿ أجراً ﴾ يعني ثواباً وجزاء على دعائك إياهم إلى الله وتخويفك إياهم من المعاصي وأمرك إياهم بطاعة الله ﴿ فهم من مغرم ﴾ أي هم من لزوم ذلك ﴿ مثقلون ﴾ أي محملون، فالأجر القسط من الخير الذي يستحق بالعمل. والمغرم ما يلزم من الدين الذي يلج في اقتضائه. وأصله اللزوم بالالحاح، ومنه قوله ﴿ إن عذابها كان غراماً ﴾ (١) أي لازماً ملحاً قال الشاعر:

يوم الجفار ويوم النسار كانا عذاباً وكانا غراما (٢)

وقولهم دفع مغرم أي دفع الاقتضاء بالالحاح. والغرم ما يلزم بالاقتضاء على وجه الالحاح فقط. والمثقل المحمل للثقل وهو ما فيه مشقة على النفس كالمشقة بالحمل الثقيل على الظهر، يقال: هو مثقل بالدين، ومثقل بالعيال ومثقل بما عليه من

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٥ (٢) مر في ٧ / ٥٠٥ و ٩ / ٥٠٥

الحقوق اللازمة والأمور الواجبة .

وقوله ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ معناه هل عندهم علم أختصوا به لا يعلمه غيرهم ، فهم يكتبونه ويتوارثونه بصحة ما يدعونه فينبغي ان يبرزوه .

ثم قال للنبي ﷺ ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ الذي حكم عليك بالصبر وأمهلهم إلى وقت آجالهم ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ يعني ولا تكن فى استعجال عقابهم مثل يونس حين طلب من الله تقديم عقاب قومه وإهلاكهم ، ولا تخرج من بين ظهراني قومك قبل ان يأذن الله لك فى ذلك كما فعل يونس ﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾قال ابن عباس ومجاهد: معناه مغموم ، كأن الغم قد حبسه عن الانبساط فى أمره ، والمكظوم المحبوس عن التصرف فيالامور ، ومنه كظمت رأس القربة إذا شددت رأسها ، وكظم غيظه إذا حبسه بقطعه عما يدعو اليه . وقال قتادة : لاتكن مثله فى العجلة والمغاضبة ، حتى نادى يونس وهو ممنوع بقطعه عن شفاء غيظه ، والذى نادى به ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فجعله الله من الصالحين ، بما بين لعباده من صلاحه ، ويجوز بما لطف له حتى صلح فى كل ما امره الله به . وفي الكلام حذف ، وتقديره : ولا تكن كصاحب الحوت فى استعجاله الخروج من بين قومه انتظاراً لنزول العذاب بهم ، فلما رفع الله عنهم العذاب مضى على وجهه ، فعاتبه على ذلك وحبسه فى بطن الحوت ، فالجأ إلى الله تعالى . وقوله ﴿ إذ نادى ﴾ متعلق بتقدير : إذكر يا محمد حاله إذ نادى . ولا يجوز ان يكون متعلقاً بقوله ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ حين نادى ، لان الله لا ينهى نبيه أن يقول مثل ما قال يونس من الدعاء .

وقوله ﴿ لولا ان تداركه نعمة من ربه ﴾ معناه لولا أن الله رحم يونس ولحقته نعمة من جهته ﴿ لنبذ بالعراء ﴾ أي لطرح بالصحراء الواسعة ﴿ وهو مذموم ﴾ قالوا

هي الارض العارية من النبات والأبنية وكل حال ساترة . وقال الفراء : الفضاء من الأرض العاري ، قال الشاعر وهو قيس بن جعدة :

ورفعت رجلاً لا أخاف عثارها ونبذت بالبلد العراء ثيابي (١)

وقوله ﴿ وهو مذموم ﴾ قال ابن عباس : وهو مليم أي أتى بما يلام عليه ، ولكن الله تعالى تداركه برحمة من عنده ، فطرح بالعراء وهو غير مذموم . وقوله ﴿ فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ معناه اختار الله يونساً فجعله من جملة الصالحين المطيعين لله التاركين لمعاصيه .

وقوله ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ﴾ قال النحويون : (إن) هذه المخففة عن الثقيلة ، لانها لو كانت للشرط لجزم (يكد) وتقديره ، وإن يكاد الذين كفروا أي قارب الذين كفروا ﴿ ليزلقونك بابصارهم ﴾ أي يرمون بك عند نظرهم غيظاً عليك قال الشاعر :

يتلاحظون إذا التقوا في محفل نظراً يزيل مواقع الاقدام (٢)

ويكاد يصرعه بحدة نظره . وقيل كان الرجل إذا أراد ان يصيب صاحبه بالعين تجوّع ثلاثة أيام ثم نظره فيصرعه بذلك ، والمفسرون كلهم على ان المراد بازلاقهم له بأبصارهم من الاصابة بالعين . وقال الجبائي منكراً لذلك : إن هذا ليس بصحيح ، لان هذا من نظر العداوة وذلك عندهم من نظر المحبة على أن إصابة العين ليس بصحيح . قال الرماني : وهذا الذي ذكره ليس بصحيح ، لانه لا يمتنع أن يكون الله تعالى أجرى العادة بصحة ذلك لضرب من المصلحة ، فلا وجه للامتناع من ذلك ، وعليه اجماع المفسرين ، وهو المعروف بين العقلاء والمسلمين وغيرهم ، فينبغي ان يكون مجوّزاً . وروي أن اسماء بنت عميس قالت : يا رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) تفسير الطبري ٢٩ | ٣٠ (٢) القرطبي ١٨ | ٢٥٦ وهو مروي مع اختلاف

إن بني جعفر يصيبهم العين ، فأسترقي لهم ، قال : نعم ، فلو كان شيء سابق القدر سبقة العين .

وقيل : إنهم كانوا يقولون ما اظهر حججه ، وما افصح كلامه ، وما ابلغ خطابه ، يريدون بذلك ان يعينوه به ، قال البلخي : المعنى إنهم كانوا ينظرون اليه نظر عداوة وتوعد ، ونظر من يهم به ، كما يقول القائل : يكاد يصرعني بشدة نظره قال الشاعر :

يتعارضون إذا التقوا فى موطن   نظراً يزيل مواضع الاقدام (١)

أي ينظر بعضهم إلى بعض نظراً شديداً بالبغضاء والعداوة ، ونظر يزيل الاقدام عن مواضعها أي يكاد يزيل .

وقوله ﴿ لما سمعوا الذكر ﴾ يعني القرآن ﴿ ويقولون ﴾ مع ذلك ﴿ إنه لمجنون﴾ قد غلب على عقله ، قالوا ذلك فيه مع علمهم بوفارة عقله تكذيباً عليه ومعاندة له ، فقال الله تعالى رداً عليهم ﴿ وما هو ﴾ أي ليس هـذا القرآن ﴿ إلا ذكر للعالمين ﴾ أي شرف إلى ان تقوم الساعة .

(١) مر فى الصفحة التي قبلها .وقد روي في غير هذا الكتاب مع هذا الإختلاف فى الكلمات

٦٩ ـ سورة الحاقة :

مكية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما وهي اثنتان وخمسون آية في الكوفي والمدنيين . واحدى وخمسون في البصرى .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ألحاقّةُ (١) ما الحاقّةُ (٢) وما أدريك ما الحاقّةُ (٣) كذّبت ثمودُ وعادٌ بالقارعة (٤) فأمّا ثمودُ فأهلكوا بالطّاغية (٥) وأمّا عادٌ فأهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ (٦) سخّرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيّامٍ حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنّهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ (٧) فهل ترى لهم من باقيةٍ (٨) وجاء فرعونُ ومن قبلهُ والمؤتفكاتُ بالخاطئة (٩) فعصوا رسول ربّهم فأخذهم أخذةً رابيةً ﴾ (١٠) عشر آيات

قرأ أهل البصرة والكسائي ﴿ ومن قبله ﴾ بكسر القاف . الباقون بفتحها .

قال ابن عباس وقتادة والضحاك وابن زيد وغيرهم : إن الحاقة اسم من اسماء القيامة وسميت بذلك لانها الساعة التي يحق فيها الجزاء على الاعمال : الضلال والهدى . وقال الفراء : تقول العرب الحقة مني هربت والحقة والحاقة ، كل ذلك بمعنى واحد. والعامل في (الحاقة) أحد شيئين :

احدهما ـ الابتداء ، والخبر ﴿ ما الحاقة ﴾ كأنه قال : الحاقة أي شيء هي .

الثاني ـ أن يكون خبر ابتداء محذوف ، كأنه قيل هذه الحاقة ، ثم قيل أى شيء الحاقة ، تفخيماً لشأنها ، وتقديره هذه سورة الحاقة وقوله ﴿ ما أدراك ما الحاقة ﴾ قال سفيان: يقال للمعلوم ما أدراك ، ولما ليس بمعلوم : وما يدريك فى جميع القرآن . وإنما قال لمن يعلمها : ما أدراك لأنه إنما يعلمها بالصفة ، فعلى ذلك قال تفخيماً لشأنها أى كأنك لست تعلمها إذا لم تعاينها وترى ما فيها من الأهوال .

وقوله ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ اخبار من الله تعالى أن ثمود ـ وهم قوم صالح ـ وعاداً ـ وهم قوم هود ـ كذبوا بيوم القيامة فأنكروا البعث والنشور والثواب والعقاب . قال ابن عباس وقتادة : القارعة إسم من اسماء القيامة ، وسميت القارعة ، لأنها تقرع قلوب العباد بالمخافة إلى أن يصير المؤمنون إلى الأمن . وإنما حسن أن يوضع القارعة موضع الكناية لتذكر بهذه الصفة الهائلة بعد ذكرها بأنها الحاقة ، وإلا كان يكفي ان يقول: كذبت ثمود وعاد بها . وقوله الحاقة ، والطامة (١) والصاخة (٢) ، اسماء يوم القيامة . والوقف على الحاقة حسن وأتم منه ﴿ ما الحاقة ﴾ و ﴿ ما أدراك ﴾ كل ما فى القرآن بلفظ الماضي ، فقد أدراه صلى الله عليه وآله ، وما كان بلفظ يدريه ، فلم يعلمه ، يقال : دريت الشيء دراية أى علمته ، ودريت الصيد أى ختلته ودرأته دفعته .

ثم اخبر تعالى عن كيفية إهلاكهم ، فقال ﴿ فاما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ فالطاغية مصدر مثل العاقبة ، والمعنى فأهلكوا بطغيانهم ـ فى قول ابي عبيدة ـ وقيل : معناه أهلكوا بالخصلة المتجاوزة لحال غيرها فى الشدة ، أهلك الله تعالى بها اهل الفساد . وقد مضى فيما تقدم أن الله أهلك ثمود بالصيحة العظيمة التي اصبحوا بها

(١) سورة ٧٩ النازعات آية ٣٤   (٢) سورة ٨٠ عبس آية ٣٣

جاثمين (١) أي ميتين هالكين . قال الزجاج : تقديره فأهلكوا بالرجفة الطاغية .

ثم اخبر تعالى عن كيفية هلاك عاد ، فقال « وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر » فالريح عبارة عن الهواء إذا كانت فيها حركة باعتماد ظاهرة فاذا سكن لا يسمى ريحاً واشتقاقه من راح يروح روحاً إذا رجع إلى منزله. والصرصر الريح الشديدة الصوت بما يسمع لها من الصرير في شدة حركتها ، يقال : صر وصرصر ، كأنه مضاعف منه فالصرصر الشديد الموصوف المجاوزة لحدّها المعروف وقال قتادة : صرصر باردة فكأنه يصطل الاسنان بما يسمع من صوتها لشدة بردها ، ويقال : صرصر وصلصل إذا تكرر الصوت ، وهو مضاعف صر وصل - في قول الزجاج - .

وقوله ﴿ عاتية ﴾ قيل عتت تلك الرياح على خزّانها في شدة الهبوب . والعاتي الخارج الى غلظ الأمر الذي يدعو اليه قساوة القلب ، يقال: عتا يعتو عتواً فهو عات والريح عاتية تشبيهاً بحال العاتي في الشدة .

وقوله ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام ﴾ اخبار منه تعالى انه أهلكهم بهذه الريح في مدة سبع ليال ، وثمانية أيام ، لما في ذلك من الارهاب والتخويف ، وما يتعلق به من المصلحة لغيرهم في التكليف .

وقوله ﴿ حسوماً ﴾ أي قاطعة قطع عذاب الاستئصال ، واصله القطع حسم طمعه من كذا إذا قطعه ، حسم يحسم حسماً إذا قطع ، وانحسم الشر إذا انقطع . وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة : معنى ﴿ حسوماً ﴾ تباعاً متوالية مأخوذاً من حسم الداء بمتابعة الكي عليه ، فكأنه تتابع الشر عليهم حتى استأصلهم . وقيل ﴿ حسوماً ﴾ قطوعاً لم يبق منهم أحد ، ونصب ﴿ حسوماً ﴾ على المصدر أي يحسمهم حسوماً .

---

(١) انظر ٤ / ٤٨٥ و ٦ / ٢٢

ثم قال ﴿ فترى القوم فيها ﴾ أي تشاهد القوم الهلكى فى تلك الايام والليالي صرعى مطرحين ﴿ كأنهم اعجاز نخل خاوية ﴾ أي كأنهم أصول نخل نخرة ـ فى قول قتادة ـ وقال السدي : الخاوي الفارغ .

وقوله ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ أي من نفس باقية ، وقيل : معناه فهل ترى لهم من بقاء ، فالباقية بمعنى المصدر مثل العافية والطاغية . ومعناه فهل ترى لهم من بقية .

وقوله ﴿ وجاء فرعون ومن قبله ﴾ أي جاء فرعون ومن معه من قومه ، على قراءة من قرأ ﴿ قبله ﴾ بكسر القاف وفتح الباء ، ومن قرأ بفتح القاف وسكون الباء أراد والذين قبله من الكفار ﴿ والمؤتفكات ﴾ يعني وجاء اهل القرى المؤتفكات أي المنقلبات بأهلها ـ فى قول قتادة ـ وهي قرى قوم لوط ﴿ بالخاطئة ﴾ أى بالافعال الخاطئة أو بالنفس الخاطئة ، وقيل بالخاطئة أى اخطأت الحق إلى الباطل والفساد ﴿ فعصوا رسول ربهم فاخذهم ﴾ الله على كفرهم وعصيانهم ﴿ أخذة رابية ﴾ أى زائدة فى الشدة من ربا يربو إذا زاد . وقرأ ابوعمرو ، والكسائي ، وابو بكر عن عاصم ﴿ ومن قبله ﴾ بكسر القاف وفتح الباء . الباقون بفتح القاف وسكون الباء . وحجة أبي عمرو أن فى قراءة أبي (جاء فرعون ومن معه) . وقرأ ابو موسى (ومن تلقاه). وأراد الباقون انه جاء فرعون ومن قبل فرعون من الكفار .

قولـه تعـالى :

إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤)

فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾(١٨) ثمان آيات

قرأ ﴿ لايخفى ﴾ بالياء أهل الكوفة ، لان تأنيث ﴿ خافية ﴾ ليس بحقيقي . وقد فصل بينها وبين الفعل فاصل . الباقون بالتاء على لفظ التأنيث . والتقدير لايخفى عليه شيء منكم نفس خافية .

يقول الله تعالى مخبراً عما فعل بقوم نوح وفرعون وقومه على وجه الامتنان على خلقه بما فعل بهم من الهلاك الذي فيه زجر لغيرهم عن الكفر وإرتكاب المعاصي ﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ ومعناه لما تجاوز الماء الحد المعروف فى العظم حتى غرقت الأرض بمن عليها إلا من شاء الله نجاته ، وذلك فى زمن نوح عليه السلام وغرق فرعون وقومه بانطباق البحر عليهم ، وقال ابن عباس ومجاهد : معنى طغى الماء كثر ، وغرّق الله - عزوجل - قوم نوح . وقال قتادة : ارتفع على كل شيء خمس عشرة ذراعاً . وقوله ﴿ حملناكم فى الجارية ﴾ أي حملنا أباكم نوحاً ومن كان معه من ولده المؤمنين فى السفينة ، فالجارية السفينة التي من شأنها أن تجري على الماء ، ومنه قوله ﴿ وله الجوار المنشآت في البحر كالاعلام ﴾ (١) والجارية المرأة الشابة تسمى بذلك ، لانها يجري فيها ماء الشباب . والحمل امساك الشيء بالوضع على غيره ، تقول حملته حملا ، والحمل - بفتح الحاء - ما كان في البطن او الشجر - وبكسر الحاء - ما كان على الظهر .

(١) سورة ٥٥ الرحمن آية ٢٤

ووجه التذكرة بذلك أن نجاة من فيها وتغريق من سواهم يقتضي أنه من مدبر مختار وفي امر لم تجربه عادة ، فيلتبس انه من فعل الطبيعة . ثم بين تعالى الغرض بما فعله فقال ﴿ لنجعلها ﴾ يعني السفينة ﴿ لكم تذكرة ﴾ تتذكرون بها أنعم الله وتشكرونه عليها وتتفكرون فيها « وتعيها أذن واعية » أي وتحفظها اذن حافظة ، يقال : وعيت العلم ، وأوعيت المتاع في الوعاء ، ويقال : وعي قلبه العلم يعيه وعياً ، وقال الشاعر

إذا لم تكن واعياً حافظاً　　　فجمعك للكتب لا ينفع

فمعنى « واعية » ممسكة مايحصل فيها . وقال ابن عباس : حافظة . وقيل قابلة سامعة . وقيل : إنه لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وآله (اللهم اجعلها اذن علي عليه السلام) ورواه الطبري باسناده عن مكحول . ثم قال علي عليه السلام (فما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً فنسيته) وروى الحلواني عن ابن كثير « وتعيها » بسكون العين جعله مثل فخذ وفخذ . الباقون بكسرها ، لأنه مضارع وعى يعي . واصله يوعي فحذفت الواو لوقوعها بين فتحة وكسرة ، ومعنى الآية تحفظها كل أذن ليكون عظة لمن يأتي بعدهم . روى الطبري باسناده عن عكرمة عن بريدة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي عليه السلام (يا علي ان الله أمرني ان أدنيك ولا اقصيك وأن أعلمك)

وقوله « فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة » فهي النفخة الأولى التي يصعق لها من في السموات ومن في الأرض « وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة» قال : ابن زيد : ضرب بعضها على بعض حتى صارتا غباراً . وقيل : معناه بسطتا بسطة واحدة ، ومنه الدكان ، ويقال : اندك سنام البعير إذا انفرش في ظهره . وقيل: المعنى حملت الارض والجبال فصك بعضها على بعض حتى تندك ، وإنما قيل : فدكتا لأنه جعل الجبال جملة والارض جملة . ومثله « أن السموات والارض كانتا

رتقاً ، (١) لان السموات جملة واحدة .

ثم قال « فيومئذ » أي يوم تدك السموات والارض وتنفخ النفخة الواحدة « وقعت الواقعـة » يعني القيامة وسميت واقعة لشدة وقعتها بما ليس لغيرها مثل تلك الشدة .

ثم قال « وانشقت السماء » أي انفرج بعضها عن بعض ، يقال : انشق الشيء ينشق انشقاقاً ، وتشقق تشققاً إذا تفطر واشتق منه كذا إشتقاقاً ، ومنه اشتقاق الصفة من المصدر ، لان معناه وحروفه فيها دون صورته ، فهي مأخوذة منه على هذا الوجه .

وقوله « فهي يومئـذ واهية » أي شديدة الضعف بانتقاض بنيتها ولا ينظر أهول من رؤية السماء في هذه الهيأة ، يقال : وهى الشيء يهي وهياً ، فهو واه أي لا يستمسك لضعفه بنقض بنيته . وقيل : هو تغير السماء بعد صلابتها بمنزلة الصوف في الوهي والضعف ، وقيل : السماء مكان الملائكة ، فاذا وهت صارت في نواحيها .

وقوله « والملك على أرجائها » فالارجاء النواحي واحدها رجا ، مقصور وتثنى رجوان بالواو ، والرجا جانب البئر قال الشاعر :

فلا ترمي بي الرجوان اني أقل القوم من يغني مكاني (٢)

وهو من رجوت ، لان الجانب يرجى فيه السلامة مع خوف السقوط ، والملائكة ذلك اليوم على جوانب السماء تنتظر ما تؤمر به في اهـل النار من السوق اليها ، وفي اهل الجنة من التحية والتكرمة فيها .

وقوله « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » يعني فوق الخلائق « يومئذ » يعني يوم القيامة « ثمانية » من الملائكة . وقيل : على أرجائها ، لأن الناس إذا رأوا

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٣٠ (٢) تفسير القرطبي ١٨ \ ٢٦٦

جهنم بدروا هاربين فتردهم الملائكة - في قول الضحاك - وقال الحسن وقتادة وسفيان « على أرجائها » يعني نواحيها . وقال ابن عباس « يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله . وروي في خبر مرفوع عن النبي صلى الله عليه وآله أنه يحمل العرش ثمانية أملاك ، وهو قول ابن زيد ، والمعنى في حمل العرش بثمانية أملاك . هو الاخبار بأنه عظيم محتاج أن يحمله من كل زاوية ملكان ، لا يفي به لعظمه أقل من ذلك ، وبهذا يتصور عظمه في النفس .

وقوله « يومئذ تعرضون » يعني يوم القيامة تعرضون معاشر المكلفين « لا يخفى منكم خافية » فروى في خبر مرفوع - ذكره ابن مسعود وقتادة - ان الخلق يعرضون ثلاث عرضات اثنتان فيها معاذير وجدال ، والثالثة تطاير الصحف في الايدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله ، وليس يعرض الله الخلق ليعلم من حالهم ما لم يعلمه بل هو عالم بجميع ما كان منهم ، لانه عالم لنفسه لكن ليظهر ذلك لخلقه .

قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (٢٤) ست آيات

قال الفراء : نزلت هذه الآية في أبي سلمة بن عبد الأسود ، وكان مؤمناً ، وكان أخوه الأسود بن عبد الاسود كافراً ، نزلت فيه الآية التي بعدها .

قسم الله تعالى حال المكلفين يوم القيامة ، فقال « فأما من أوتي » أي اعطي

«كتابه» الذي فيه أعماله «بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا» قال ابن زيد: يقول المكلف تعالوا اقرأوا «كتابيه» ليعلمهم انه ليس فيه إلا الطاعات. فلا يستحيون أن ينظر فيها غيرهم، واهل الحجاز يقولون: ها يارجل وللاثنين هاؤما، وللجمع هاءموا، وللمرأة هاء - بهمزة - وليس بعدها ياء، وللمرأتين هاؤما، وللجماعة هاؤن يا نسوة. وتميم وقيس يقولون: ها يا رجل مثل قول أهل الحجاز، وللاثنين هاءا، و للثلاثة هاءوا، وللمرأة هائي، وربما قالوا: هاء يا هذه، وللثلاثة هان. وبعض العرب يجعل مكان الهمزة كافاً، فيقول: هاك بغير همزة، ويؤمر بها ولا ينهى و (هاء) بمنزلة خذ وتناول. ووقف الكسائي على «هاؤم» وابتدأ «اقرءوا كتابيه»

ويقول أيضاً «اني ظننت أني ملاق حسابيه» قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: معناه إني علمت، وإنما حسن هذا فيما يلزم العمل به لتأكد امره بالظن، كما يلزم بالعلم مع مقاومة الظن للعلم بالقوة فى النفس إلا أن العلم معه قوة ينتهي إلى الثقة الثابتة بسكون النفس. والمعنى اني كنت متيقناً فى دار الدنيا بأني ألقى حسابي يوم القيامة، واعلم أني اجازى على الطاعة بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب، وأعمل بما يجب عليّ من الطاعات واجتناب المعاصي.

ثم اخبر تعالى عن حال من أعطي كتابه بيمينه فقال «فهو في عيشة راضية» أي فى عيشة مرضية تقول: عاش يعيش عيشاً وعيشة، وهي الحالة التي تستمر بها الحياة ومنه المعاش الذي يطلب التصرف له بعائد النفع عليه، وراضية معناه مرضية. فـ (فاعلة) بمعنى (مفعولة) لأنه فى معنى ذات رضاً، كما قيل: لابن وتامر، أي ذو ابن وذو تمر. قال النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب　　　وليل اقاسيه بطيء الكواكب(١)

(١) مر فى ٥ | ٣٦٨ و ٦ | ٩٠، ٣٢٩ و ٨ / ١٢٢، ٥٦٧

أي ذو نصب ، فكأن المعيشة أعطيت حتى رضيت ، لانها بمنزلة الطالبة كما أن الشهوة بمنزلة الطالبة المشتهى . وقيل : هو كقولهم : ليل نائم وسر كاتم وماء دافق ، على وجه المبالغة في الصفة من غير التباس في المعنى ، فعلى هذا جاء عيشة راضية ولا يجوز على هذا القياس زيد ضارب بمعنى مضروب لانه يلتبس به .

وقوله « في جنة عالية » أي بستان أجنه الشجر مرتفعة ، فالعلو الجهة المقابلة لجهة السفل . والعلو والسفل متضمن بالاضافة فيكون العلو سفلا إذا أضفته إلي ما فوقه ، ويكون علواً إذا اضيف إلى ما تحته .

وقوله « قطوفها دانية » أي اخذ ثمرها، فالقطف اخذ الثمرة بسرعة من موضعها من الشجر ، وهو قطوفها ، كأنه قال دانيـة المتناول ، قطف يقطف قطفاً فهو قاطف ، وقطف تقطيفاً . والدنو القرب ، دنا يدنو دنواً فهو دان ، وتدانيا تدانياً وأحدهما أدنى الينا من الآخر . وقال قتادة : معناه قطوفها دانية لا يرد أيديهم عن ثمرها بعد ولاشوك .

ثم حكى تعالى ما يقـال لهم فانه يقـال لهم « كلوا واشربوا هنيئاً بما اسلفتم » وصورته صورة الأمر والمراد به الاباحـــة ، كما قال « وإذا حللتم فاصطادوا » (١) وقال قوم : انه أمر على الحقيقة ، لان الله يريد من أهل الجنة الأكل والشرب لما لهم في ذلك من زيادة السرور إذا علموا ذلك . وإنما لا يريد ذلك في الدنيا ، لانه عبث لا فائدة فيه .

وقوله « هنيئاً » معناه مريئاً ليس فيه ما يؤذي ، فليس يحتاج فيه الى اخراج فضل لغائط ولا بول .

وقوله « بما اسلفتم » أي جزاء على ما عملتموه من الطاعة « في الايام الخالية »

---

(١) سورة ٥ المائدة آية ٣

أي الماضية في دار التكليف .

قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ (٣٧) ثلاث عشرة آية .

لما حكى الله تعالى قصة أهل الجنة وشرح أحوالهم ، حكى ـ هينا ـ قصة أهل النار وشرح أحوالهم ، فقال « وأما من أوتي كتابه » يعني من أعطي كتابه الذي فيه أعماله مثبتة « بشماله » وإنما يعطي الله هؤلاء كتابهم بشمالهم ، لانه جعل ذلك إمارة للملائكة والخلائق على أن صاحبه من أهل النار ، فهو إذا اعطي كتابه في شماله يقول عند ذلك متمنياً متحسراً على ما فرط « ياليتني لم أوت كتابيه .... » أي ليتني لم اعط هذا الكتاب ، والتمني هو قول القائل لما كان : ليته لم يكن ، ولما لم يكن : ليته كان ، فهو من صفات الكلام . وقال قوم : هو معنى في النفس فهؤلاء الذين يعطون كتابهم بشمالهم يتمنون أن لم يعطوا كتابهم أصلا ، ولم يعلموا

مالهم وما عليهم ، لان اعمالهم كلها معاصي ، وهم يستحقون العقاب لاغير فلذلك يتمنون أن لا يعرفوا حسابهم ، والحساب اخراج الكثير مما تضمن معنى العدة ، وهو محتمل الزيادة والنقصان . والتمني في قول الكفار معناه التحسر والتندم وإن خرج مخرج التمني .

ثم حكى تعالى أنهم لعظم ما دفعوا اليه من العقاب والاهوال يتندمون ويتحسرون ويتمنون أن لو كانت القاضية بدلا مما هم فيه . قال الفراء : معناه ليت الموتة الأولى التي متناها لم نحيى بعدها . والقاضية الفاصلة بالامانة ، يقال : قضى فلان إذا مات ، واصله فصل الأمر ، ومنه قضية الحاكم ، وجمعها قضايا ، ومنه قضاء الله وهو الاخبار بأنه يكون على القطع ، والهاء في « ياليتها » كناية عن الحالة التي هم فيها ، وقيل كناية عن الموت . قال قتادة : يعني الموت ولم يكن عنده في الدنيا شيء اكره منه .

ثم حكى انه يقول « ما أغنى عني ماليه » ومعناه ما كفاني في صرف المكروه ولا صرف عني شيئاً من عقاب الله تعالى يقال : أغنى يغني غنى واغناء ، قال ابن زيد : معناه ما نفعني ملكي الذى كان لي في الدنيا .

وقوله « هلك عني سلطانيه » قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : هلك عني حجتي . وقال الحسن : قد جعل الله لكل إنسان سلطاناً على نفسه ودينه وعيشه . وقال قوم : معناه هلك عني تسلطي وأمري ونهيي في دار الدنيا على ما كنت مسلطاً عليه لا أمر لي ولا نهي ، فالهلاك ذهاب الشيء بحيث لا يقع عليه احساس ، هلك يهلك هلوكاً ، فهو هالك ، قال الزجاج : والوجه أن يوقف على هذه الهاآت ، ولا توصل ، لانها ادخلت للوقف ، وقد حذفها قوم . وفي ذلك مخالفة المصحف ، فلا احب حذفها . قال : ولا احب ان اصل وأثبت الهاء ، فان هذه رؤس الآي فالوجه

انوقف عندها . وكذلك قوله « وما ادراك ماهيه » وقد وصل بلا هاء الكسائي ٠ الباقون بالهاء في الحالين ٠

ثم حكى ما يقول الله تعالى للملائكة ويأمرهم به ، فانه يقول لهم « خذوه » يعني الكافر الذى أعطي كتابه بشماله « فغلوه » أى اوثقوه بالغل ، وهو أن يشد احدى يديه او رجليه إلى عنقه بجامعة « ثم الجحيم صلوه » فالجحيم هي النار الغليظة لأن النار قد تكون ضعيفة كنار السراج ونار القدح ، وقد تكون قوية كنار الحريق فلا يقال لنار السراج : جحيم ، وهو اسم علم على نار جهنم التي أعدها الله للكفار والعصاة ، والتصلية إلزام النار ، ومنه الاصطلاء وهو القعود عند النار للدفا ، واصله لزوم الأمر ، فمنه المصلي الذي فى أثر السابق ومنه قول الشاعر :

وصلى على دنها وارتسم (١)

أي لزم الدعاء لها . وقوله « ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » تقديره : ثم اسلكوه فى سلسلة طولها سبعون ذراعاً فاسلكوه فيها ، فالسلسلة حلق منتظمة كل واحدة منها فى الأخرى ، ومنه يقال : سلسل كلامه إذا عقده شيئاً بعد شيء ، وتسلسل إذا استمر شيئاًقبل شيء على الولاء والانتظام . والذرع اخذ قدر الذراع مرة او أكثر ، ذرع الرجل الثوب يذرعه ذرعاً ، فهو ذرّاع ، والثوب مذروع ، مأخوذ من الذراع وهو العضو الذي يكون فى طرف الكف من الانسان ٠ وقيل : اسلكوه في السلسلة ، لأنه يأخذ عنقه فيها ، ثم يجرّ بها . وقال الضحاك: إنها تدخل في فيه وتخرج من دبره . وقيل : المعنى ثم اسلك السلسلة فيه فقلب كما يقال : ادخلت القلنسوة في رأسي ، وإنما أدخل رأسه فيها ، وكما قال الاعشى :

(١) مر تخريجه في ٢ | ٤١

[غضوب من السوط زيّافة]　　إذا ماأرتدى بالسراه الاكم (١)

وإنما السراة ترتدي بالاكم ، ولكنه قلب ، فهو يجري مجرى التقديم والتأخير اتساعاً في اللغة من غير اخلال بالمعنى . ويقولون أيضاً : ادخلت الخاتم في يدي ، والخف في رجلي ، وإنما تدخل اليد والرجل في الخاتم والخف ، فقلب .

ثم بين تعالى لم فعل به ذلك ؟ وعلى أي شيء استحقه ، فقال « إنه كان لا يؤمن بالله » أى لم يكن يوحد الله في دار التكليف ولم يصدق بالله « العظيم » في صفاته التي لايشاركه فيها غيره « ولا يحض على طعام المسكين » أى لا يحث على ذلك مما يجب عليه من الزكاة والكفارات والنذور .

ثم قال تعالى « فليس له » يعني للكافر « اليوم ههنا » يعني يوم القيامة « حميم » وهو القريب الذى يحمي لغضب صاحبه « ولا طعام الامن غسلين » يعني من صديد أهل النار وما يجري منهم ، فالطعام هو ما هيء للأكل ، فلذلك لايسمى التراب طعاماً للانسان ، والخشب طعام الأرضة ، وليس من طعام أكثر الحيوان . فلما هيء الصديد لأكل أهل النار كان ذلك طعاماً لهم . والغسلين هو الصديد الذى يتغسل بسيلانه من ابدان أهل النار . ووزنه (فعلين) من الغسل . وقال ابن عباس : هو صديد أهل النار . وقيل : اهل النار طبقات منهم من طعامه الضريع ، ومنهم من طعامه الغسلين ، لانه قال في موضع آخر « ليس لهم طعام الامن ضريع » (٢) وقال قطرب : يجوز أن يكون الضريع هو الغسلين ، فعبر عنه بعبارتين ، وقال قوم : يجوز ان يكون المراد ليس لهم طعام إلا من ضريع ولا شراب الامن غسلين ، فسماه طعاماً كما قال الشاعر :

---

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٩٧

(٢) سورة ٨٨ الغاشية آية ٦

علفتها تبناً وماء بارداً (١)

ثم قال تعالى « لا يأكله » أي لا يأكل هذا الغسلين « إلا الخاطئون » وهم الجائرون عن طريق الحق عامدين . والفرق بين الخاطىء والمخطىء أن المخطىء قد يكون من غير تعمد لماوقع به من ترك اصابة المطلوب ، وخطىء يخطىء خطأً فهوخاطىء قال امرؤ القيس :

يالهف نفسي إذ خطئن كاهلا القائلين الملك الحلاحلا (٢)

فهؤلاء الكفار قد جاروا عن طريق الحق وضلوا عن الصراط المستقيم وتبعوا الضلال في الدين .

قوله تعالى :

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١)

(١) مر في ١ / ٦٥ و ٣ | ٤٥٦ و ٥ | ٤٦٩ وعجزه : حتى شتت همالة عيناها

(٢) ديوانه ١٧٦ واللسان (حلل)

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٥٢) خمس عشرة آية .

قرأ « قليلا ما يؤمنون ، ويذكرون » بالياء فيهما مكي شامي ويعقوب ، وسهل على الخبر عن الكفار . الباقون بالتاء على الخطاب لهم أي قل لهم .

وقيل في قوله « فلا اقسم » ثلاثة اقوال :

احدها ـ قول الفراء : انه رد الكلام قائل ، فكأنه قال : ليس الأمر على ما يقال أقسم إنه « لقول رسول كريم » .

والثاني ـ قال قوم (لا) صلة مؤكدة وتقديره فأقسم .

الثالث ـ قال قوم : إنها نفي للقسم ، ومعناه لا يحتاج إلى القسم لوضوح الحق في انه « لقول رسول كريم » وفي هذا الوجه يقع جوابه كجواب غيره من القسم . وقيل : هو كقول القائل : لا والله لأفعل ذاك ، ولا والله لأفعلن ذاك . وقال قتادة : أقسم تعالى بالاشياء كلها ما يرى وما لا يرى . وقال الجبائي : إنما أراد إنه لا يقسم بالاشياء المخلوقات ما يرى وما لا يرى ، وإنما يقسم بربها ، لأن القسم لا يجوز إلا بالله . وقوله « إنه لقول رسول كريم » جواب القسم ، قال الجبائي : هو قول الله على الحقيقة ، وإنما الملك وجبرائيل والرسول يحكون ذلك ، وإنما أسنده إليهم من حيث أن ما يسمع منهم كلامهم ولما كان حكاية كلام الله قيل : هو كلام الله على الحقيقة في العرف ، وقرىء « إنه من قول رسول كريم » جواب القسم . وقال الحسن : فالرسول الكريم محمد ﷺ الذي أتى بهذا القرآن . وقال غيره : هو جبرائيل عليه السلام والاول اظهر . والكريم الخليق بالخير الواسع من قبله ، يقال : كرم يكرم كرماً فهو كريم ، وضده لؤم يلؤم لؤماً ، فهو لئيم .

ولما اقسم تعالى أن هذا القرآن هو قول رسول كريم نفى بعده أن يكون

قول شاعر فقال « وما هو بقول شاعر » فالشاعر هو المبتدىء بانشاء الشعر ، ولا يكون حاكي الشعر شاعراً ، كما يكون حاكي الكلام متكلماً ، لانه يحكي شعراً انشاه غيره ، وإنما نزه الله تعالى نبيه عن الشعر ومنعه منه ، لان الغالب من حال الشاعر أنه يدعو إلى الهوى ، والرسول يأتي بالحكمة التي يدعو اليها العقل للحاجة إلى العمل عليها والاهتداء بها ، مع انه بين أن القرآن صنف من الكلام خارج عن الانواع المعتادة ، وذلك أدل على إعجازه لبعده عما جرت به العادة في تأليف الكلام . قال قتادة : طهر الله نبيه من الشعر والكهانة وعصمه منهما .

وقوله تعالى « قليلا ما تؤمنون » معناه قليلا بما ذكرناه إيمانكم (وما) مصدرية وقال قوم (ما) صلة ، وتقديره قليلا تؤمنون بما ذكرناه أي لستم تؤمنون به .

وقوله « ولا بقول كاهن » فالكاهن هو الذي يسجع في كلامه على ضرب من التكلف لتشاكل المقاطع ، وهو ضد ما توجبه الحكمة في الكلام ، لانها تقتضي أن يتبع اللفظ المعنى ، لانه إنما يحتاج إلى الكلام للبيان به عن المعنى ، وإنما البلاغة في الفواصل التي يتبع اللفظ فيها المعنى ، فتشاكل المقاطع على ثلاثة أضرب : فواصل بلاغة ، وسجع كهانة ، وقواف تتبع الزنة ، والكاهن الذي يزعم ان له خدمة من الجن تأتيه بضرب من الوحي . وقوله « قليلا ما تذكرون » أي تتفكرون قليلا فيما ذكرناه ، فلذلك لا تعلمون صحة ما قلناه ، ولو انعمتم النظر لعلمتم صحته .

ثم قال « تنزيل من رب العالمين » أي هو تنزيل نزله الله رب العالمين على رسوله .

وقوله « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل » اخبار من الله تعالى على وجه القسم أن هذا الرسول الذي حكى بأن القرآن نزل عليه من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وآله لو تقول على الله في بعض كلامه ، ومعناه لو كذب علينا في بعض ما لم يؤمر به ،

فالتقول تكلف القول من غير رجوع إلى حق ،والتقول والتكذب والتزيد بمعنى واحد «لأخذنا منه باليمين» جواب القسم ، ومعناه أحد وجهين :

احدها ـ لاخذنا بيده التي هي اليمين على وجه الاذلال ، كما يقول السلطان يا غلام خذ بيده فانه على وجه الاهانة ، قال الحسن : معناه لقطعنا يده اليمين .

والثاني ـ لاخذنا منه بالقوة كما قال الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين (١)

وقوله «لقطعنا منه الوتين» قال ابن عباس وسعيد بن جبير : الوتين نياط القلب . وقال مجاهد وقتادة والضحاك : هو عرق في القلب متصل بالظهر إذا قطع مات الانسان ، قال الشماخ بن ضرار الثعلبي :

إذا بلغتني وحملت رحلي عرابة فأشرقي بدم الوتين(٢)

وقوله «فما منكم من أحد عنه حاجزين» معناه ليس أحد يمنع غيره من عقاب الله بأن يكون حائلا بينه وبينه ، فالحاجز هو الحائل بين الشيئين . وإنما قال «حاجزين» بلفظ الجمع ، لان (أحداً) يراد به الجمع وإن كان بصيغة الواحد .

ثم قال «وانه لتذكرة للمتقين» قسم من الله تعالى أن هذا القرآن تذكرة وعظة للمتقين ، وهو قول قتادة ، وإنما اضافه إلى المتقين ، لانهم المنتفعون به ، فالتذكرة العلامة التي يذكر بها المعنى ، ذكره تذكرة ، فهو مذكر ، كقولك جزاه تجزية وجزاه تجزية ، فالمتقى يتذكر القرآن بأن يعمل عليه في أمر دينه في اعتقاد او عمل به فيتميز الجائز مما لا يجوز ، والواجب مما ليس بواجب ، والصحيح مما لا يصح .

وقوله «وإنا لنعلم أن منكم مكذبين» عطف على جواب القسم ، ومعناه

---

(١) مر في ٨ / ٥١٢ و ٩ / ٤٦ وقائله الشماخ

(٢) مجاز القرآن ٢ / ٢٦٨ والطبري ٢٩ / ٣٧

التحذير من التكذيب بالحق وأنه ينبغي أن يتذكر أن الله تعالى يعلمه ويجازي عليه .
وقوله « وانه لحسرة على الكافرين » معناه إن هـذا القرآن حسرة على الكافرين يوم القيامة حيث لم يعملوا به في الدنيا ، فالحسرة الغم من أجل ما انحسر وقته كيف فات العمل الذي كان ينبغي فيـه أن يفعل ، فيحسر السرور عن النفس إلى الغم بانحساره . وقيل: إن التكذيب به حسرة على الكافرين .

ثم اقسم تعالى فقال « وانه » يعني القرآن الذي انزله والاخبار بما اخبر به وذكره « لحق اليقين » ومعناه الحق اليقين ، وإنما اضافه إلى نفسه ، والحق هو اليقين ، كما قيل مسجد الجامع ودار الآخرة وبارحة الاولى ويوم الخميس وما اشبه ذلك ، فيضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلف لفظه كما اختلف الحق واليقين . والحق هو الذي معتقده على ما اعتقده ، واليقين هو الذي لا شبهة فيه .

ثم قال لنبيه « فسبح » يا محمد والمراد به جميع المكلفين ومعناه نزه الله تعالى « باسم ربك العظيم » ومعناه نزهه عما لا يجوز عليه من صفات خلقه و (العظيم) هو الجليل الذي يصغر شأن غيره في شأنه بما يستحق من أوصافه . وروي أنه لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ : اجعلوها في ركوعكم .

٧٠ ـ سورة المعارج :

مكية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما وهي أربع واربعون آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سأل سائل بعذاب واقع (١) للكافرين ليس له دافع (٢) من الله ذي المعارج (٣) تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (٤) فاصبر صبراً جميلاً (٥) إنهم يرونه بعيداً (٦) ونراه قريباً (٧) يوم تكون السماء كالمهل (٨) وتكون الجبال كالعهن (٩) ولا يسئل حميم حميماً ﴾ (١٠) عشر آية.

أهل المدينة وأهل الشام ﴿ سال ﴾ بغير همز وهو يحتمل أمرين :

[illegible] من سيل تقول : سال يسيل سيلا فهو سائل ، وسايل واد في جهنم ، كما قال ﴿ اعوذ برب الفلق ﴾ والفلق جب في جهنم. واجمعوا على همزة (سائل) لانه ولو كان من (سال) بغير همز ، فالياء تبدل همزة إذا وقعت بعد الالف مثل البائع والسائر من (باع ، وسار).

والثاني ـ بمعنى سأل بالهمزة ، لانها لغة يقولون سلت أسال ، وهما يتسالان

قال الشاعر:

سالت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما سالت ولم تصب(١)

فهي لغة أخرى، وليست مخففة من الهمزة الباقون بالهمز من السؤال الذي هو الطلب. وقرأ الكسائي وحده ﴿ يعرج ﴾ بالياء، لان تأنيث الملائكة ليس بحقيقي . الباقون ـ بالتاء . وقرأ ابن كثير ـ في رواية البزي ـ وعاصم في رواية البرجمي عن ابي بكر ﴿ ولا يسأل ﴾ بضم الياء . الباقون بفتح الياء اسندوا السؤال إلى الحميم .

حكى الله تعالى انه ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ قال الفراء: الداعي بالعذاب هو النضر بن كلدة أسر يوم بدر وقتل صبراً، هو وعقبة بن أبي معيط . وقال: تقديره سأل سائل بعذاب ﴿ واقع للكافرين ﴾ قال ابن: خالويه قال النحويون: إن الباء بمعنى (عن) وتقديره : سأل سائل عن عذاب واقع وانشد:

دع المعمر لا تسأل بمصرعه واسأل بمصقلة البكري مافعلا(٢)

أي لا تسأل عن مصرعه، وهذا الذي سأل العذاب الواقع إنما تجاسر عليه لما كذب بالحق ليوهم أنه ليس فيه ضرر، ولم يعلم انه لازم له من الله . وقال مجاهد: سؤاله فى قوله ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء ﴾ (٣) وقال الحسن: سأل المشركون، فقالوا: لمن هذا العذاب الذي يذكره محمد؟ فجاء جوابهم بأنه ﴿ للكافرين ليس له دافع ﴾ وقيل: معناه دعا داع بعذاب للكافرين، وذلك الداعي هو النبي صلى الله عليه وآله، واللام فى قوله ﴿ للكافرين ﴾ قيل في

(١) تفسير القرطبي ١٨ \ ٢٨٠ (٢) قائله الاخطل اللسان (صقل)

(٣) سورة ٨ الانفال آية ٣٢

معناها قولان :

أحدها ـ إنها بمعنى (على) وتقديره سأل سائل بعذاب واقع على الكافرين ، ذهب اليه الضحاك ٠

والثاني ـ إنها بمعنى (عن) أي ليس له دافع عن الكافرين ، وإنما ذكر وعيد الكافر ـ ههنا ـ مع ذكره فى غير هذا الموضع ، لأن فيه معنى الجواب لمن سأل العذاب الواقع، فقيل له: ليس لعذاب الكافرين دافع ، فاعمل على هذا ، وتقدم نظيره وتأخر ، والدافع هو الصارف للشيء عن غيره باعتماد يزيله ، عنه دفعه عن كذا يدفعه دفعاً ، فهو دافع وذاك مدفوع ٠

وقوله ﴿ من الله ذي المعارج ﴾ يعني مصاعد الملائكة ٠ وقيل : معناه ذي الفواضل العالية ، فيكون وصفاً لله تعالى ، وتقديره من الله ذي المعالي التي هي الدرجات التي يعطيها أولياءه من الانبياء والمؤمنين فى الجنة ، لانه يعطيهم درجات رفيعة ومنازل شريفة ، والمعارج مواضع العروج ، واحدها معرج، عرج يعرج عروجاً والعروج الصعود مرتبة بعد مرتبة ، ومنه الأعرج لارتفاع احدى رجليه عن الأخرى وقال قتادة : معنى ذي المعارج ذي الفواضل والنعم ، لأنها على مراتب ٠ وقال مجاهد : هي معارج السماء ٠ وقيل : هي معالي الدرجات التى يعطيها الله تعالى اولياءه فى الجنة ٠ وقال الحسن : معناه ذي المراقي إلى السماء ٠ والذي اقتضى ذكر المعارج البيان عن العقاب الذي يجب ان يخافه ، على خلاف هذا الجاهل الذي سأل العذاب الواقع على من كفر نعمته ٠

وقوله ﴿ تعرج الملائكة ﴾ معناه تصعد الملائكة ﴿ والروح ﴾ أي يصعد الروح أيضاً معهم ﴿ اليه ﴾ والمعنى تعرج الملائكة والروح الذي هو جبرائيل إلى الموضع الذي يعطيهم الله فيه الثواب في الآخرة ﴿ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ لعلو

درجاتهم ، وإنما قال ﴿ اليه ﴾ لانه هنالك يعطيهم الثواب ، كما قال فى قصة إبراهيم ﴿أني ذاهب إلى ربي ﴾ (١)أى الموضع الذى وعدني ربي ،وكذلك الموضع الذى وعدهم الله بالثواب فيه. وقيل :تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره من عروج غيرهم خمسين الف سنة ، وذلك من اسفل الأرضين السبع الى فوق السماوات السبع ـ ذكره مجاهد ـ وقوله ﴿ يدبر الامر من السماء إلى الارض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون ﴾ (٢) فهو لما بين السماء الدنيا والارض في الصعود والنزول الف سنة : خمسمائة صعوداً وخمسمائة نزولا ـ ذكره مجاهد ـ ايضاً . وقيل : المعنى ان يوم القيامة يفعل فيه من الامور ما لو فعل في الدنيا كان مقداره خمسين الف سنة . وقال قوم : المعنى إنه من شدته وهو له وعظم العذاب فيه على الكافرين كانه خمسون الف سنة ، كما يقول القائل : مايومنا إلا شهر أي في شدته ، وعلى هذا قول امرء القيس :

ألا ايها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الا صباح منك بأمثل

ويا لك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل (٣)

ويؤكد هذا ماروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه لما نزلت هذه الآية قيل له ما أطول هذا اليوم ؟ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله (والذي بعثني بالحق نبياً إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا) وقال الضحاك وقتادة : هو يوم القيامة . وقال الزجاج : يجوز أن يكون (يوماً) من صلة (واقع) فيكون المعنى سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين الف سنة وذلك العذاب يقع يوم القيامة . وقال الحسن : تعرج الملائكة بأعمال بني آدم في الغمام ، كما قال

---

(١) سورة ٣٧ ص آية ٩٩ (٢) سورة ٣٢ ألم السجدة آية ٥

(٣) ديوانه ١٥٢

﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ (١) وقال الزجاج : سماه يوماً ، لأن الملائكة تعرجه في مقدار يوم واحد . ثم أمر نبيه فقال ﴿ فاصبر صبراً جميلا ﴾ أي لا شكوى فيه على ما تقاسيه من أذى قومك ، وتكذيبهم إياك فيما تخبر به من أمر الآخرة . قال الزجاج : ذلك قبل أن يؤمر بالقتال .

وقوله تعالى ﴿ إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾ اخبار من الله تعالى أنه يعلم مجيء يوم القيامة وحلول العقاب بالكفار قريباً ، ويراه أي يظنه الكفار بعيداً ، لانهم لا يعتقدون صحته ، وكل ما هو آت قريب ، وهذا على وجه الانكار عليهم استبعادهم يوم الجزاء ، وتوهمهم أنه بعيد . وبين أنه تعالى يراه قريباً بما يعلمه من حصوله ، وإنما جاز أن يقال في توهمهم : يرونه لأنهم يتوهمونه ؛ وهم عند أنفسهم يرونه ، فجاء على مزاوجة الكلام الذي ينبيء عن المعنى من غير اخلال . وقيل : معنى إنهم يرون العذاب الذي سألوا عنه بعيداً ، لانهم لا يؤمنون به ، ونراه قريباً لان كل ما هو آت قريب .

ثم وصف الله تعالى يوم القيامة فقال ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ قال الزجاج: المهل دردي الزيت ، وقال مجاهد : هو عكر الزيت . وقال قوم : هو الصفر المذاب . وقال قوم : المهل هو الجاري بغلظة وعكرة على رفق : من أمهله إمهالا ، وتمهل تمهلا ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ فالعهن الصوف المنفوش ، وذلك ان الجبال تقطع حتى تصير بهذه الصفة ، كما أن السماء تشقق بالغمام وتكون كالمهل .

وقوله ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ فالحميم القريب النسب إلى صاحبه الذي يحمى لغضبه وأصله القرب قال الشاعر :

احم الله ذلك من لقاء أحاد احاد في الشهر الحلال (٢)

---

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٢٥ (٢) مر ٨ / ٥٠٣ ، ٥٧٥

وقال مجاهد : لا يسأل حميم حميماً لشغل كل إنسان بنفسه عن غيره . وقال الحسن : لا يسأله ان يحمل عنه من اوزاره ليأسه من ذلك في الآخرة . وقيل ﴿ لايسأل حميم حميماً ﴾ لانه ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ (١) ومن ضم الياء أراد لا يطالب قريب بأن يحضر قريبه كما يفعل أهل الدنيا بأن يؤخذ الحميم بحميمه والجار بجاره ، لأنه لاجور هناك ، ويجوز أن يكون المراد لا يسأل حميم عن حميمه ليعرف شأنه من جهته ، كما يتعرف خبر الصديق من جهة صديقه ، والقريب من قريبه . ثم يحذف الجار ويوصل الفعل إلى المفعول به ، ويقوي ذلك قوله ﴿ يبصرونهم ﴾ أي يبصر الحميم حميمه. والفعل فيه قبل تضعيف العين بصرت به ، كما قال حكاية عن السامري ﴿ بصرت بما لم يبصروا به ﴾ (٢) .

قوله تعالى :

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَٱلَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ

(١) سورة ٥٥ الرحمن آية ٤١ (٢) سورة ٢٠ طه آية ٩٦

وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ (٢٥) خمس عشرة آية .

قرأ ﴿ نزاعة ﴾ ـ بالنصب ـ حفص عن عاصم على الحال . الباقون بالضم جعلوه بدلا من (لظى) و (لظى) اسم من اسماء جهنم معرفة ، و (نزاعة) نكرة فلذلك نصبه حفص على الحال ومن جعلها بدلا من (لظى) وتقديره كلا إنها لظى ، كلا إنها نزاعة للشوى ، وضعف أبو علي نصبه على الحال ، قال : لانه ليس في الكلام ما يعمل فى الحال ، ولظى اسم معرفة لا يمكن أن يكون بمعنى التلظي ، فلا يعمل فيه الاعلى وجه ضعيف بأن يقال : مع انها معرفة فمناها بمعنى التلظي . قال والاجود أن ينصب بفعل آخر ، وتقديره أعني نزاعة .

لما وصف الله تعالى القيامة وأهوالها ، واخبر أن الحميم لا يسأل حميا لشغله بنفسه ، قال ﴿ يبصرونهم ﴾ قال ابن عباس وقتادة : يعرف الكفار بعضهم بعضاً ، ثم يفر بعضهم عن بعض ، وقال مجاهد : يعرفهم المؤمنون ، وقال قوم : يعرف اتباع الضلال رؤساءهم ، وقول ابن عباس أظهر ، لأنه عقيب ذكر الكفار . وقال هو كناية ينبغي ان يرجع اليهم .

وقوله ﴿ يوّد المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ﴾ أى يتمنى العاصي ، فالمودة مشتركة بين التمني وبين المحبة تقول : وددت الشيء إذا تمنيته ووددته إذا احببته أود فيهما جميعاً ، وصفة ودود من المحبة . وقوله ﴿ لو يفتدي ﴾ ، فالافتداء افتداء الضرر عن الشيء ببدل منه ، فهؤلاء تمنوا سلامتهم من العذاب النازل بهم باسلام كل كريم عليهم . والفرق بين (يود لو يفتدي) و (يود أن يفتدي) أن (لو) تدل على التمني من جهة أنها لتقدير المعنى ، وليس كذلك (أن) لانها لاستقبال الفعل و (لو) للماضي ، فلما كان الاعتماد على تصور المعنى صار في حكم

الواقع ، فلو قال قائل : حسبت أن يقوم زيد ، لما دل على التمنى ، ولو قال حسبت لو يقوم زيد لدل على التمني فبان الفرق بينهما .

وقوله ﴿ ببنيه ﴾ يعني بأولاده الذكور ﴿ وصاحبته ﴾ يعني زوجته ﴿ واخيه ﴾ يعني ابن أبيه وأمه ﴿ وفصيلته التي تؤويه ﴾ فالفصيلة هي المنقطعة عن جملة القبيلة برجوعها إلى ابوة خاصة ، وهي الجماعة التي ترجع إلى أبوة خاصة عن ابوة عامة ﴿ ومن في الارض جميعاً ثم ينجيه ﴾ أي يتمنى هذا الكافر بان يتخلص من عذاب الله بأن يفتدى بهؤلاء كلهم ، فقال الله تعالى ﴿ كلا ﴾ أي ليس ينجيه من عقاب الله شيء وقال الزجاج (كلا) ردع وتنبيه أي لا ينجيه احد من هؤلاء فارتدعوا .

وقوله ﴿ إنها لظى ﴾ فلظى اسم من اسماء جهنم مأخوذ من التوقد ، ومنه قوله ﴿ فانذرتكم ناراً تلظى ﴾ (١) وموضع (لظى) رفع ، لأنها خبر (ان) و (نزاعة للشوى) خبر آخر ـ على قول من رفع ـ ومن نصب جعله حالا ، ويجوز أن تكون الهاء في (إنها) عماداً ، و (لظى) ابتداء وخبرها (نزاعة) إذا رفع . قال الزجاج : ويجوز أن يكون كقولهم : هذا حلو حامض ، وتقديره النار لظى ، وهي نزاعة ايضاً ومعنى نزاعة كثيرة النزع وهو اقتلاع عن شدة . والاقتلاع أخذ بشدة اعتماد ، والشوى جلدة الرأس . والشوى الكوارع والاطراف ، والشوى ما عدا المقتل من كل حيوان ، يقال : رمى فأشوى إذا اصاب غير المقتل ، ورمى فأصمى إذا اصاب المقتل ، ومنه الشوي ، لان النار تأخذ الجلدة والاطراف بالتغير . والشوى الخسيس من المال . وقيل : ان جهنم تنزع جلدة الرأس واطراف البدن ، والشوى جمع شواة قال الاعشى :

قالت قتيلة ماله   قد جللت شيباً شواته (٢)

---

(١) سورة ٩٢ الليل آية ١٤   (٢) اللسان (شوا)

وقال ابن عباس : نزاعة للشوى للجلد وأم الراس . وقال ابو صالح : لحم الساق ، وقال قتادة : الهام والاطراف . وقال الفراء : كل ما كان غير مقتل فهو شوى . وقال ابو عمر الدوري : كان الكسائي لا يقف على (كلا) في شيء من القرآن إلا على هذين في هذه السورة . وقال ابن خالويه : أعلم أن في القرآن ثلاثاً وثلاثين موضعاً ﴿ كلا ﴾ فليس في النصف الأول منه شيء ، فمن وقف عليه جعله رد الكلام . ومن لم يقف جعله بمعنى حقاً ، قال الشاعر :

يقلن لقد بكيت فقلت كلا   وهل تبكي من الطرب الجليد (١)

فالطرب خفة تصيب الانسان لشدة الخوف قال الشاعر :

وأراني طرباً في أثرهم   طرب الواله أو كالمختبل (٢)

وقال في السرور :

اطربا وأنت قنسري   والدهر بالانسان دواري (٣)

يقول أطربا وأنت شيخ . وقوله تعالى ﴿ تدعو من أدبر وتولى ﴾ قيل في معناه قولان :

احدهما ـ إنه لا يفوت هذه النار كافر ، فكأنها تدعوه فيجيبها كرهاً .

والثاني ـ ان يخرج لسان من النار فيتناوله كأنها داعية بأخذها ، وهو كقوله ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ (٤) وقال الفراء وغيره : إن النار تدعو الكافر والفاسق ، فتقول إليّ اليّ ، وهذا يجوز إذا فعل الله تعالى فيها الكلام ، ويضاف اليها مجازاً . وقال قتادة : تدعو من أدبر وتولى عن طاعة الله . وقال مجاهد : من تولى عن الحق وقيل : معناه تدعو زبانيتها من أدبر وتولى عن طاعة الله . وقوله ﴿ وجمع فاوعى ﴾

(١) مقاييس اللغة ٣ / ٤٥٤ (٢) سرفي ٣ | ٢١ و ٥ | ٢٤٧

(٣) سرفي ٤ | ٣٧٧ ، ٥٠٥ و ٨ | ٦٣ (٤) سورة ٦٧ الملك آية ٨

معناه عمل لجمع المال في الدنيا وأدبر عن الحق وتولى، فالنار تدعوه بما يظهر فيها من انه أولى بها. وقال مجاهد ﴿ جمع ﴾ المال ﴿ فاوعى ﴾ ولم يخرج حق الله منه، فكأنه جعله في وعاء على منع الحقوق منه .

وقوله ﴿ إن الانسان خلق هلوعاً ﴾ اخبار منه تعالى بان الانسان خلق هلوعاً والهلوع هو الشديد الحرص، الشديد الجزع من الضجر ـ في قول ابن عباس وعكرمة ـ وقيل : معناه خلق ضعيفاً عن الصبر على الجزع والهلع، لانه لم يكن في ابتداء خلقه بهلع ولا يجزع ولا يشعر بذلك حال الطفولية، وإنما جاز ان يخلق الانسان على هذه الصفة المذمومة، لانها تجري مجرى خلق سهوه القبيح ليجتنب المشتهى، لان المحنة في التكليف لاتتم إلا بمنازعة النفس إلى القبيح ليجتنب على وجه الطاعة لله تعالى، كما لا يتم إلا بتعريف الحسن من القبيح في العقل ليجتنب أحدهما ويفعل الآخر ﴿ إذا مسه الشر جزوعاً ﴾ لو كان منقطعاً عن الاول لكان مرفوعاً، والجزع ظهور الفزع بحال تنبىء عنه ﴿ وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ معناه إذا نال الانسان الخير والسعة في الدنيا منع حق الله فيه من الزكاة وغيرها مما فرض الله عليه، فالمس الملاقاة من غير فعل، ويقال : مسه يمسه، وتماسا إذا التقيا من غير فعل، وماسه مماسة . والمنع هو القطع عن الفعل بما لا يمكن وقوعه معه، وهو على وجهين : احدهما ـ منع القادر ان يفعل . والآخر ـ منع صاحب الحق أن يعطى حقه . والبخل منع الحق صاحبه .

ولما وصف الله تعالى الانسان بالصفات المذمومة استثنى من جملتهم من لا يستحق الذم، لان الانسان عبر به عن الناس، فهو لعموم الجنس، كما قال ﴿ إن الانسان لفي خسر إلا الذين ﴾ (١) وكذلك ـ ههنا ـ قال ﴿ إلا المصلين الذين هم

(١) سورة ١٠٣ العصر آية ٢

على صلاتهم دائمون ﴾ ومعناه الذين يستمرون على اداء الصلاة التي أوجبها الله عليهم لا يخلون بها ولا يتركونها . وروي عن أبي جعفر عليه السلام أن ذلك فى النوافل يديمون عليها وقوله ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾(١) فى الفرائض والواجبات ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم ﴾ فالحق وضع الشيء في موضعه على ما يقتضيه العقل والشرع من قولهم : حق الشيء يحق حقاً ، وحقه كقولك تحققه . والمال عبارة في الشرع عن مقدار معين من العين أو الورق يتعلق به وجوب الزكاة واكثر ما يستعمل في اللغة في المواشي من الابل والبقر والغنم . وقال ابن عباس : الحق المعلوم هو البرّ الذي يخرج في صدقة أو صلة رحم . وقال قتـادة : هو الزكاة المفروضة ﴿ للسائل والمحروم﴾ والسائل هو الذي يسأل ويطلب . والمحروم ، قال ابن عباس : هو المحارف وقال الحسن : هو الذي حرم أن يعطى الصدقة بتركه المسألة . وقيل : هو الذي قد حرم الرزق وهو لا يسأل الناس .

وقوله ﴿ عذاب يومئذ ﴾ قرىء بالفتح والكسر من « يومئذ » فمن كسر الميم فعلى أصل الاضافة ، لان الذي أضيف اليه الاول مخفوض أيضاً بالاضافة فهذا مضاف إلى مضاف . ومن فتح فلأنه مضاف إلى غير متمكن مضاف إلى (إذ) و(إذ) مبهمة ومعناه يوم إذ يكون كذا ويكون كذا فلما كانت مبهمة وأضيف اليها بني المضاف اليها على الفتح وانشد :

لم يمنع الشرب منها غير ان نطقت　　حمامة في غصون ذات اوقال (٢)

لما اضاف (غير) إلى (ان) بناها على الفتح ، وهي في موضع رفع ، وروي (غير أن) نطقت بالرفع .

---

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٩　(٢) مر في ٤ / ٤٧٩ و٨ \ ٥١ و ٩ / ٣٨٣

قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٢٦) وَٱلَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٣١) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَٱلَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴾ (٣٥) عشر آيات .

قرأ ﴿ شهاداتهم ﴾ على الجمع حفص ويعقوب وعياش وسهل ، لاختلاف الشهادات . الباقون ﴿ بشهادتهم ﴾ على التوحيد ، لأنه لفظ جنس يقع على القليل والكثير . وقرأ ابن كثير وحده ﴿ لامانتهم ﴾ على التوحيد ، لانه اسم جنس . الباقون على الجمع لاختلاف الأمانات .

عطف الله تعالى على صفات المؤمنين وزاد في مدحهم ، فقال ﴿ والذين يصدقون بيوم الدين ﴾ أي يؤمنون بأن يوم الجزاء والحساب يوم القيامة حق ، ولا يشكون في ذلك ، والتصديق الاقرار بأن الخبر صادق ، فلما كان المؤمنون قد أقروا ان كل من اخبر بصحة يوم الدين فهو صادق ، كانوا مصدقين به ، فأما المصدق بيوم الدين تقليداً ، فمن الناس من قال : هو ناج . ومنهم من قال : لا يطلق عليه مصدق بيوم الدين ، لأنها صفة مدح ، وذلك أنه من أخلص هذا المعنى على جهة الطاعة لله تعالى ،

به استحق المدح والثواب ، والمقلد عاص بتقليده ، لانه لا يرجع فيه إلى حجة ،

وقوله ﴿ والذين هم من عـذاب ربهم مشفقون ﴾ فالاشفاق رقة القلب عن تحمل ما يخاف من الأمر ، فاذا قسا قلب الانسان بطل الاشفاق ، وكذلك إذا أمن كحال أهل الجنـة إذ قد صاروا إلى غاية الصفة بحصول المعارف الضرورية . وقيل : من اشفق من عذاب الله لم يتعد له حداً ولم يضيع له فرضاً .

وقوله ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ اخبار منه تعالى بأن عذاب الله لا يوثق بأنه لا يكون ، بل المعلوم أنه كائن لا محالة . والمعنى إن عـذاب الله غير مأمون على العصاة ، يقال : فلان مأمون على النفس والسر والمال ، وكل ما يخاف انه لا يكون ، ونقيضه غير مأمون .

وقوله ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ ومعناه إنهم يمنعون فروجهم على كل وجه وسبب إلا على الازواج وملك الايمان فكأنه قال:لا يبذلون الفروج إلا على الازواج أو ملك الايمان ، فلذلك جاز ان يقول ﴿ حافظون إلا على أزواجهم ﴾ وهم حافظون لها على الازواج ، فانما دخلت (إلا) للمعنى الذي قلناه . وقال الزجاج تقديره : إلا من أزواجهم فـ (على) بمعنى (من) او نحمله على المعنى ، وتقديره فانهم غير ملومين على أزواجهم ويلامون على غير أزواجهم ، وقال الفراء : لا يجوز أن تقول : ضربت من القوم إلا زيداً ، وانت تريد إلا أني لم اضرب زيداً . والوجه في الآية أن نحملها على المعنى ، وتقديره والذين هم لفروجهم حافظون ، فلا يلامون إلا على غير أزواجهم . ومثله أن يقول القائل : أصنع ما شئت إلا على قتل النفس ، فانك غير معذب ، فمعناه إلا إنك معذب في قتل النفس .

وقوله ﴿ فانهم غير ملومين ﴾ أي لا يلامون هؤلاء إذا لم يحفظوا فروجهم

من الازواج ، وما ملكت أيمانهم من الاماء على ما أباحه الله لهم .

ثم قال ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك ﴾ ومعناه فمن طلب وراء ما أباحه الله له من الفروج إما بعقد الزوجية أو بملك اليمين ﴿ فأولئك هم العادون ﴾ الذين تعدوا حدود الله وخرجوا عما أباحه الله لهم فالابتغاء الطلب ومعنى ﴿ وراء ذلك ﴾ ماخرج عن حده من أي جهة كان ، وقد يكون وراءه بمعنى خلفه نقيض أمامه إلا أنه ـ ههنا ـ الخارج عن حده كخروج ما كان خلفه . والعادي الخارج عن الحق ، يقال : عدا فلان فهو عاد إذا اعتدى ، وعدا في مشيه يعدو عدواً إذا أسرع فيه ، وهو الاصل . والعادي الظالم بالاسراع إلى الظلم .

وقوله ﴿ والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون ﴾ فالامانة المعاقدة بالطمأنينة على حفظ ما تدعو اليه الحكمة . وقيل : الأمانة معاقدة بالثقة على ما تدعو اليه الحكمة . وقد عظم الله أمر الامانة بقوله ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان ﴾ (١) ومن وحد لفظ الامانة، فلانها للجنس تقع على القليل والكثير ، ومن جمع أراد اختلاف ضروبها . وقال قوم : المراد بالأمانة الايمان وما أخذه الله على عباده من التصديق بما أوجب عليهم والعمل بما يجب عليهم العمل به ، ويدخل في ذلك الايمان وغيره . وقوله ﴿ راعون ﴾ معناه حافظون .

وقوله ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ مدح للمؤمنين بأنهم يقيمون الشهادة التي يلزمهم إقامتها . ومن وحد لفظ الشهادة ، فكما قلناه في الامانة سواء ، والشهادة الاخبار بالشيء على أنه على ما شاهده ، وذلك أنه يكون عن مشاهدة للخبر به ، وقد يكون عن مشاهدة ما يدعو اليه .

وقوله ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ وصف لهم بأنهم يحافظون على

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٧٢

صلاتهم فلا يضيعونها وقيل إنهم يحافظون على مواقيتها فلا يتركونها حتى تفوت ثم قال «أولئك» يعني المؤمنين الذين وصفهم بالصفات المتقدمة «في جنات» أي بساتين يجنها الشجر ﴿ مكرمون ﴾ أي معظمون مبجلون بما يفعل بهم من الثواب والاكرام وهو الاعظام على الاحسان، والاكرام قد يكون بالاحسان، وقد يكون بكبر الشأن في صفة العالم القادر الغني الذي لا يجوز عليه صفات النقص، فالاعظام بالاحسان وبكبر الشأن في أعلى المراتب لله تعالى لا يستحقه سواه.

قوله تعالى :

﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَارِقِ وَٱلْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (٤٤) تسع آيات.

قرأ ﴿ نصب ﴾ بضمتين أهل الشام، وحفص عن عاصم، وسهل، على انه جمع (نصب) مثل رهن ورهن - في قول ابي عبيدة - وقال غيره : هما لغتان، مثل ضَعف وضُعف. الباقون بفتح النون خفيفة. والنصب الصنم الذي كانوا يعبدونه،

سمي بذلك . وقيل : النصب نصب الصنم الذى كانوا يعبدونه . وقيل : معناه إلى علم يسبقون اليه قد نصب لهم . وقرأ الاعشى ﴿ يخرجون ﴾ بضم الياء . الباقون بفتحها أضافوا الخروج اليهم .

يقول الله تعالى على وجه الانكار على الكفار ﴿ فما للذين كفروا ﴾ ومعناه أى شيء للذين كفروا بتوحيد الله وجحدوا نبوتك ﴿ قبلك مهطعين ﴾ أى نحوك مسرعين - في قول ابي عبيدة - وقال الحسن : معناه منطلقين . وقال قتادة : عامدين وقال ابن زيد : معناه لا يطرفون أى شاخصون . وجميع ذلك بمعنى الاسراع الى الشيء ، فمرة بتشوقه ومرة بقصده ومرة بشخوصه . وقال الزجاج : المهطع المقبل ببصره على الشيء لا يزايله ، وذلك من نظر العدو ، وإنما أنكر عليهم الاسراع اليه لانهم أسرعوا اليه ليأخذوا الحديث منه ثم يتفرقون عزين بالتكذيب عليه - ذكره الحسن - وقيل : أسرعوا اليه شخوص المتعجب منه . وقيل : أسرعوا اليه لطلب عيب له . وقيل : معناه فما للذين كفروا مسرعين فى نيل الجنة مع الآقامة على الكفر والاشراك بالله فى العبادة .

وقوله ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ قال ابن عباس : عن اليمين والشمال معرضين يستهزؤن ، ومعنى (عزين) جماعات فى تفرقة نحو الكراريس واحدهم عزة ، وجمع بالواو والنون ، لأنه عوض مما حذف منه ، ومثله سنة وسنون . وأصل عزة عزوة من عزاه يعزوه إذا أضافه إلى غيره ، وكل واحدة من هذه الجماعة مضافة إلى الاخرى ، وقال الراعي :

أخليفة الرحمن إن عشيرتي أمسى سوامهم عزين فلولا (١)

وقوله ﴿ ايطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ﴾ فمن ضم الياء ،

(١) مجاز القرآن ٢ / ٢٧٠ والطبري ٢٩ / ٤٧

وهم أكثر القراء جعل الفعل لما لم يسم فاعله . وفتح الحسن الياء لانهم إذا أدخلوا فقد دخلوا . ومعنى الآية الانكار عليهم قولهم : إن دخل أصحاب محمد الجنة، فانا ندخلها قبلهم لا محالة ، فقيل وأي شيء لكم عند الله يوجب هذا ؟ ولم تحتقرون هؤلاء ؟ وقد خلقناهم جميعاً مما يعلمون أي من تراب .

وقوله ﴿ كلا إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ قال الحسن : خلقناهم من النطفة ، وقال قتادة : إنما خلقت من قذر يابن آدم فاتق الله . وقال الزجاج : أي من تراب ، ثم من نطفة ، فأي شيء لهم يدخلون به الجنة ، وهم لك على العداوة ، وهذا حجاج لأن خلقهم من ماء مهين يقتضى أنهم خلقوا للعبادة ، فجعل فى خلقهم من هذا عبرة ، ولولا ذلك لابتدأهم فى نعيم الجنة، ولم يكن لتنقلهم فى الصور والاحوال معنى فى الحكمة ، وقال بعضهم : المعنى خلقناهم من الذين يعلمون أو من الخلق أو الجنس الذي يعلمون ويفقهون ، وتلزمهم الحجة ، ولم يخلقهم من الجنس الذى لا يفقه كالبهائم والطير ، وإنما قال ﴿ مما يعلمون ﴾ فجمع ، لأنه قال قبل ذلك ﴿ خلقناهم ﴾ فجمع ﴿ يعلمون ﴾ ووجه أخر وهو أنه خلقهم من أجل ما يعلمون من الثواب والعقاب والتكليف للطاعات تعريضاً للثواب ، كما يقول القائل : غضبت عليك مما تعلم أى من أجل ما تعلم قال الاعشى :

أأزمعت من آل ليلى ابتكاراً وشطت على ذى هوى أن تزاوا (١)

على انه لم يزمع من عندهم ، وإنما أزمع من أجلهم للمصير اليهم .

وقوله ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ قسم من الله تعالى برب المطالع والمغارب ، و (لا) مفخمة وقد بينا القول فى ذلك . وقال ابن عباس : الشمس لها ثلثمائة وستون مطلعاً كل يوم مطلع لا تعود اليه إلا إلى قابل . وقوله ﴿ إنا لقادرون ﴾

(١) ديوانه ٨٠ واللسان (زمع)

جواب القسم وفيه إخبار من الله تعالى بأنه قادر ﴿ على أن نبدل ﴾ بالكفار ﴿خيراً منهم ﴾ فالتبديل تصيير الشيء موضع غيره، بدله تبديلا وأبدله إبدالا . والبدل الكائن في موضع غيره . وقوله ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ عطف على جواب القسم، ومعناه إن هؤلاء الكفار لا يفوتون بأن يتقدموا على وجه يمنع من لحاق العذاب بهم فلم يكونوا سابقين، ولا العقاب مسبوقاً منهم، فالسبق تقدم الشيء في وقت قبل وقت غيره . والتقدير وما نحن بمسبوقين بفوت عقابنا إياهم، وكأنه لو فاتهم عقابنا لكنا قد سبقنا، وما نحن بمسبوقين . وقيل : معناه وما أهل سلطاننا بمسبوقين . وقيل : وما نحن بمغلوبين بالفوت . ثم قال على وجه التهديد لهم بلفظ الامر للنبي صلى الله عليه وآله ﴿ فذرهم ﴾ أي اتركهم ﴿ يخوضوا ويلعبوا ﴾ فان وبال ذلك عائد عليهم والعقاب المستحق على كفرهم حال بهم، واللعب عمل للترويح عن النفس بما هو حقير في العقل، كلعب الصبيان ومن جرى مجراهم من ناقصي العقل، ولا يجوز من الحكيم أن يفعل اللعب لغيره، لانه عمل وضيع في الحكمة ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ ومعناه حتى يروا اليوم الذي يوعدون فيه بالعقاب على المعاصي والثواب على الطاعات

ثم بين صفة ذلك اليوم، فقال ﴿ يوم يخرجون من الاجداث ﴾ يعني من القبور وأحدها جدث وجدف . ونصب ﴿ سراعاً ﴾ على الحال، ومعناه مسرعين ﴿ كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ شبههم في اسراعهم من قبورهم إلى أرض المحشر بمن نصب له علم أو صنم يستبقون اليه . والايفاض الاسراع أوفض يوفض ايفاضاً إذا أسرع قال رؤبة .

يمشي بنا الجد على أوفاض (١)

---

(١) اللسان (وفض)

أى على عجلة . والنصب نصب الصنم الذى كانوا يعبدونه . وقيل اسم الصنم نصب وجمعه نصب مثل رهن ورهن - في قول ابي عبيدة - وأنشد الفراء في الايفاض :

لأنعتن نعامة ميفاضا خرجاء ظلت تطلب الا فاضا (١)

فخرجاء ذات لونين ، ويقال للقميص المرقع برقعة حمراء أخرج ، لانه خرج عن لونه ، والافاض طلب ملجأ يلجأ اليه ، وقال بشر بن ابي حازم :

أهاجك نصب أم بعينك منصب

وقال الاعشي :

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه لعافية والله ربك فاعبدا (٢)

وقوله ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ أى ذليلة خاضعة ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ أى يغشاهم ويركبهم ذل وصغار وخزي لما يرون نفوسهم مستحقة للعقاب واللعن من الله .

ثم قال تعالى ﴿ ذلك هو اليوم الذى كانوا يوعدون ﴾ به في دار التكليف فلا يصدقون به ويجحدونه ، وقد شاهدوه في تلك الحال .

وقوله ﴿ إنا لقادرون على ان نبدل خيراً منهم ﴾ لا يدل على أنه تعالى قادر على ان يبدل بالكفار من هو خيراً منه ولم يخلقهم ، فيكون قد أخل بالاصلح لأنه اخبر عن انه قادر على خير منهم وقد خلق قوماً آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وبذلوا نفوسهم وأموالهم .

(١) اللسان (وفض) (٢) مر في ١ | ٤٦٥ و ٤ | ١٨

٧١ ـ سورة نوح :

مكية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما . وهي ثمان وعشرون آية في الكوفي ، وتسع وعشرون في البصرى ، وثلاثون في المدنيين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً ﴾ (٦) ست آيات .

قرأ « ان اعبـدوا الله » بكسر النون عاصم وحمزة وابو عمرو ، على اصل التقاء الساكنين . الباقون بالضم اتباعاً للضمة على الباء فى (اعبدوا الله) وقرأ القراء « دعائي » ممدوداً إلا شبلا عن ابن كثير ، فانه قصر ، وفتح الياء مثل عصاي . قال ابو علي : فتح الياء وإسكانها حسنان ، فاما قصر الكلمة فلم اسمعها ، ويجوز أن

تكون لغة .

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه « إنا أرسلنا نوحاً » أي بعثنا نوحاً نبياً « إلى قومه أن انذر قومك » أي بأن انذر قومك ، فموضع (أن) نصب بسقوط الباء . وقال قوم : موضعه الجر لقوة حذفها مع (أن) . وقال آخرون : يجوز أن تكون (أن) بمعنى أي المفسره ، فلا يكون لها موضع من الاعراب . وقرأ ابن مسعود « أرسلنا نوحاً إلى قومه أنذر » بلا (أن) لأن معنى الارسال معنى القول فكأنه قال : قلنـــا له : أنذر قومك . والانذار التخويف بالاعلام بموضع المخافة ليتقى . ونوح عليه السلام قد انذر قومه بموضع المخافة وهي عبادة غير الله ، وإنتهاك محارمـه ، وأعلمهم وجوب طاعته وإخلاص عبادته . وقوله « من قبل أن يأتيهم عذاب اليم » معناه اعلمهم وجوب عبادة الله وخوفهم خلافه من قبل أن ينزل عليهم العذاب المؤلم ، فانه إذا نزل بهم العذاب لم ينتفعوا بالانذار ولا تنفعهم عبـادة الله حينئذ ، لأنهم يكونون ملجئين إلى ذلك . وقال الحسن : أمره بأن ينذرهم عذاب الدنيـا قبل عذاب الآخرة .

ثم حكى أن نوحاً عليه السلام امتثل ما أمره الله به و﴿ قال ﴾ لقومه « يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه » أي مخوفكم عبادة غير الله او أحذركم معصية الله مظاهر ذلك لكم ﴿واتقوه﴾ بترك معاصيه « وأطيعون » فيما أمركم به لأن طاعتي مقرونة بطاعة الله ، وتمسككم بطاعتي لطف لـكم في التمسك بعبادة الله ، واتقاء معاصيه ، فلذلك وجب عليكم ما أدعوكم اليه على وجه الطاعة ، وطاعة الله واجبة عليكم لمكان النعمة السابغة عليكم التي لا يوازيها نعمة منعم .

ثم بين لهم ما يستحقون على طاعة الله وطاعة رسوله فقال متى فعلتم ذلك « يغفر لـــكم من ذنوبكم » ودخلت (من) زائدة وقيل (من) معناها (عن)

والتقدير يصفح لكم عن ذنوبكم ، وتكون عامة . وقيل : إنها دخلت للتبعيض ، ومعناها يغفر لكم ذنوبكم السالفة ، وهي بعض الذنوب التي تضاف اليهم ، فلما كانت ذنوبهم التي يستأنفونها لايجوز الوعد بغفرانها مطلقاً ـ لما في ذلك من الاغراء بالقبيح ـ قيدت هذا التقييد . وقيل : معناها « يغفر لكم من ذنوبكم » بحسب ما تكون التوبة متعلقة بها ، فهذا على التبعيض إن لم يقلعوا إلا عن البعض . وهذا على مذهب من يقول : تصح التوبة من قبيح مع المقام على قبيح آخر يعلم قبحه . وقال الزجاج : دخلت (من) لتخص الذنوب من سائر الاشياء ، لا لتبعيض الذنوب .

وأكثر النحويين وأكثر القراء على إظهار الراء عند اللام في (يغفر لكم) وأختار ابو عمرو الادغام ، لان إذهاب التكرير لا يخل ، لان الثاني مثل الأول . وإنما يخل إذهاب ماله حس في المسموع ، كالذي لحروف الصفير وبحروف المدّ واللين

وقوله « ويؤخركم إلى أجل مسمى » عطف على الجزاء فلذلك جزمه ، والمعنى إنكم إن اطعتم الله ورسوله غفر لكم ذنوبكم وأخركم إلى الاجل المسمى عنده . وفي الآية دليل على الأجلين ، لان الوعد بالأجل المسمى مشروط بالعبادة والتقوى ، فلما لم يقع اقتطعوا بعذاب الاستئصال قبل الأجل الاقصى بأجل أدنى . وكل ذلك مفهوم هذا الكلام . وقيل تقديره إن الاجل الاقصى لهم إن آمنوا ، وليس لهم إن لم يؤمنوا ، كما أن الجنة لهم إن آمنوا وليست لهم إن لم يؤمنوا .

ثم اخبر « ان أجل الله » الأقصى اذا جاء لا يؤخر « لو كنتم تعلمون » صحة ذلك وتؤمنون به ، ويجوز ذلك أن يكون اخباراً من الله عن نفسه ، ويجوز ان يكون حكاية عن نوح أنه قال ذلك لقومه .

ثم حكى تعالى ما قال نوح لله تعالى فانه قال يا « رب اني دعوت قومي ليلا ونهاراً » الى عبادتك وخلع الانداد من دونك والى الاقرار بنبوتي « فلم يزدهم دعائي

الا فراراً » أي لم يزدادوا بدعائي الا فراراً عن قبوله و بعداً عن استماعه ، وانما سمي كفرهم عند دعائه زيادة في الكفر ، لأنهم كانوا على كفر بالله وضلال عن حقه . ثم دعاهم نوح إلى الاقرار به وحثهم على الاقلاع عن الشرك ، فلم يقبلوا ، فكفروا بذلك ، فكان ذلك زيادة في الكفر ، لأن الزيادة اضافة شيء إلى مقدار بعد حصوله منفرداً ، ولو حصلا ابتداء في وقت واحد لم يكن أحدهما زيادة على الآخر ، ولكن قد يكون زيادة على العطية . قيل : وإنما جاز أن يكون الدعاء الى الحق يزيد الناس فراراً منه للجهل الغالب على النفس ، فتارة يدعو الى الفرار مما نافره ، وتارة يدعو الى الفساد الذي يلائمه ويشاكله فمن ههنا لم يمتنع وقوع مثل هـــذا ، والفرار ابتعاد عن الشيء رغبة عنه او خوفاً منه ، فلما كانوا يتباعدون عن سماع دعائه رغبة عنه كانوا قد فروا منه .

قولـه تعـالى :

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ (١٤) ثمان آيات .

لما حكى الله تعالى عن نوح أنه قال يا رب اني دعوت قومي الى طاعتك ليلا ونهاراً فلم يزدادوا عند دعائي إلا بعداً عن القبول قال « وإني كلما دعوتهم » إلى اخلاص عبادتك « لتغفر لهم » معاصيهم جزاء على ذلك « جعلوا أصابعهم في آذانهم » لئلا يسمعوا كلامي ودعائي « واستغشوا ثيابهم » أي طلبوا ما يستترون به من الثياب ويختفون به لئلا يرونه . وقال الزجاج : معناه إنهم كانوا يسدون آذانهم ويغطون وجوههم لئلا يسمعوا كلامه . فالاستغشاء طلب الغشي ، فلما طلبوا التغشي بثيابهم فراراً من الداعي لهم ، كانوا قد استغشوا « وأصروا » أي اقاموا على كفرهم ومعاصيهم عازمين على فعل مثله ، فالاصرار الاقامة على الأمر بالعزيمة عليه فلما كانوا مقيمين على الكفر بالعزم عليه كانوا مصرين . وقيل إن الرجل منهم كان يذهب بابنه إلى نوح ، فيقول لابنه : احذر هذا لا يغوينك ، فان ابي قد ذهب بي اليه وأنا مثلك ، فحذرني كما حذرتك ، ذكره قتادة . وقوله « واستكبروا استكباراً » أي طلبوا بامتناعهم من القبول مني واخلاص عبادتك تجبراً في الارض وعلواً فيها . ثم حكى أنه قال « ثم اني دعوتهم جهاراً » أي اعلاناً « ثم اني أعلنت لهم » أي أظهرت الدعاء لهم الى عبادتك تارة « وأسررت لهم » أي وأخفيت لهم الدعاء الى مثل ذلك كرة أخرى « فقلت » لهم « استغفروا ربكم » أي اطلبوا المغفرة على كفركم ومعاصيكم من الله تعالى « إنه كان غفاراً » لكل من طلب منه المغفرة ويغفر فيما بعد لمن يطلب منه ذلك ومتى فعلتم ذلك واطعتموه ورجعتم عن كفركم ومعاصيكم « يرسل » الله تعالى « السماء عليكم مدراراً » أي كثيرة الدرور بالغيث والمطر ، وقيل : إنهم كانوا قحطوا وأجدبوا وهلكت اولادهم ومواشيهم ، فلذلك رغبهم في ترك ذلك بالرجوع الى الله ، والدرور تحلب الشيء حالا بعد حال على الاتصال يقال: درّ درّاً ودروراً فهو دار ، والمطر الكثير الدّرور مدراراً . وقيل:

ان عمر لما خرج يستسقي لم يزد على الاستغفار وتلا هذه الآية . وقوله « ويمددكم بأموال وبنين » عطف على الجزاء . وتقديره إنكم متى اطعتموه وعبدتموه مخلصين أرسل عليكم المطر مدراراً وأمدكم بأموال وبنين ، فالامداد إلحاق الثاني بالاول على النظام حالا بعد حال ، يقال : أمده بكذا يمده امداداً ، ومد النهر وأمده نهر آخر . والاموال جمع المال ، وهو عند العرب النعم . والبنون جمع إبن ، وهو الذكر من الولد « ويجعل لكم جنات » أي بساتين تجنها الأشجار « ويجعل لكم أنهاراً » وهو جمع نهر وهو المجرى الواسع للماء دون سعة البحر وفوق الجدول في الاتساع لان الجدول النهر الصغير يرى شدة جريه لضيقه ويخفى في النهر ضرباً من الخفاء لسعته

ثم قال لهم على وجه التبكيت « ما لكم » معاشر الكفار « لا ترجون لله وقاراً » أي عظمة - في قول ابن عباس ومجاهد والضحاك - والمراد - ههنا - سعة مقدوراته تعالى ، وأصل الوقار ثبوت ما به يكون الشيء عظيماً من الحكم والعلم الذي يمتنع معه الخرق . ومنه قرّه في السمع ووعاه في القلب إذا ثبت في السمع وحفظه القلب . وقيل : معنى ترجون تخافون . قال أبو ذؤيب :

اذا لسعته النحل لم يرج لسعها   وخالفها في بيت نوب عوامل (١)

أي لم يخف ، وكأنه قال : مالكم لاترجون لله عاقبة عظيمة من الثواب بالخلود في النعيم أو تخافون عاقبة عصيانه بالدخول في عذاب النار « وقد خلقكم أطواراً » فالاطوار انتقال الأحوال حالا بعد حال . وقيل : معناه صبياً ثم شاباً ثم شيخاً ثم غير عاقل ثم عاقلا وضعيفاً ثم قوياً . وقال : ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك وابن زيد : نطفة ثم علقة ثم مضغة . وقيل : معناه على ألوان مختلفة بيضاء وسوداء وشقراء وصفراء .

---

(١) مر في ٢ / ٢١٠ و ٣ / ٣١٥ و ٧ / ٤٩١ و ٨ / ١٨٧

قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾ (٢٠)

ست آيات .

يقول الله تعالى مخاطباً لخلقه المكلفين، ومنبهاً لهم على توحيده وإخلاص عبادته « ألم تروا » ومعناه ألم تعلموا « كيف خلق الله سبع سموات » أي اخترع سبع سموات « طباقاً » أي واحدة فوق الأخرى فالطباق مصدر طابقت مطابقة وطباقاً . والطباق منزلة فوق منزلة . ونصب (طباقاً) على احد وجهين :

احدهما ـ على الفعل وتقديره وجعلهن طباقاً .

والآخر ـ جعله نعتاً لـ (سبع) . وجعل « القمر فيهن نوراً » روي أن الشمس يضيء ظهرها لما يليها من السموات ، ويضيء وجهها لاهل الارض ، وكذلك القمر . والمعنى وجعل الشمس والقمر نوراً في السموات والارض . وقال قوم : معنى « فيهن » معهن ، وحروف الصفات بعضها يقوم مقام بعض . وقال قوم : معناه في حيزهن ، وإن كان في واحدة منها ، كما يقول القائل : إن في هذه الدور لبئراً وإن كان في واحدة منها ، وكذلك يقولون : هذا المسجد في سبع قبائل وإن كان في احداها . والجعل حصول الشيء على المعنى بقادر عليه . وقد يكون

ذلك بحدوث نفسه . وقد يكون بحدوث غيره له . والجعل على أربعة اوجه :

اولها - أحداث النفس ، كجعل البناء والنساجة وغير ذلك .

والثاني - بقلبه ، كجعل الطين خزفاً .

والثالث - بالحكم كجعله كافراً أو مؤمناً .

والرابع - بالدعاء إلى الفعل كجعله صادقاً وداعياً .

والنور جسم شعاعي فيه ضياء كنور الشمس ، ونور القمر ، ونور النار ، ونور النجوم ، وشبه بذلك نور الهدى الى الحق . فالله تعالى جعل القمر ضياء في السموات السبع - في قول عبد الله بن عمر - وقيل : جعله نوراً في ناحيتهن « وجعل الشمس سراجاً » فالسراج جسم يركبه النور الاستصباح به . فلما كانت الشمس قد جعل فيها النور الاستضاءة به كانت سراجاً ، وهي سراج العالم كما أن المصباح سراج هذا الانسان .

وقوله « والله أنبتكم من الارض نباتاً » فالانبات إخراج النبات من الارض حالا بعد حال . والنبات هو الخارج بالنموّ حالا بعد حال ، والتقدير في « أنبتكم نباتاً » أي فنبتم نباتاً ، لان أنبت يدل على نبت ، من جهة انه متضمن به .

وقوله « ثم يعيدكم فيها » فالاعادة النشأة الثانية ، فالقادر على النشأة الأولى قادر على الثانية ، لانه باق قادر على اختراعه من غير سبب يولده . والمعنى إن الله يردكم في الأرض بأن يميتكم فتصيروا تراباً كما كنتم أول مرة « ويخرجكم اخراجاً » منها يوم القيامة كما قال « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » (١)

ثم قال « والله جعل لكم الارض بساطاً » أي مبسوطة يمكنكم المشي عليها والاستقرار فيها . وبين أنه إنما جعلها ، كذلك « لتسلكوا منها سبلا فجاجاً » فالفجاج

(١) سورة ٢٠ طه آية ٥٥

جمع (فج) وهي الطريقة المتسعة المتفرقة ، وقيل : طرقاً مختلفة ـ ذكره ابن عباس ـ والفج المسلك بين جبلين ، ومنه الفج الذي لم يستحكم أمره ، كالطريق بين جبلين. وإنما عدد تعالى هذه الضروب من النعم امتناناً على خلقه وتنبيهاً لهم على استحقاقه للعبادة الخالصة من كل شرك، ودلالة لهم على انه عالم بمصالح خلقه ، ومدبر لهم على ما تقتضيه الحكمة، فيجب أن يشكروه على هذه النعمة ولا يقابلونها بالكفر والجحود .

قوله تعالى :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً (٢١) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً * وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً (٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً * فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللهِ أَنْصَاراً (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧) رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً ﴾ (٢٨) .

قرأ « ماله وولده » بالفتح نافع وعاصم وابن عامر . والباقون بضم الواو وسكون اللام ، وهما لغتان مثل حزن وحزن ونخل ونخل وعدم وعدم . وقال قوم : الولد ـ بالضم ـ جمع ولد مثل رهن ورهن وعرب وعرب وعجم وعجم . وقرأ نافع

« ودّاً » بضم الواو . الباقون بفتحها ، وهما لغتان ، وهو اسم الصنم . وقال قوم : بالضم المحبة ، وبالفتح الصنم . والسواع ـ ههنا ـ صنم ، وفي غير هذا الساعة من الليل . ومثله السواء . وقرأ ابو عمرو « خطاياهم » على جمع التكسير . الباقون « خطيئاتهم » على جمع السلامة .

حكى الله تعالى عن نوح أنه « قال » داعيا الله « يا رب انهم » يعني قومه « عصوني » فيما آمرهم به وأنهاهم عنه ، فالمعصية مخالفة المراد إلى المكروه المزجور عنه. ومخالفة ما أراده الحكيم تكون على وجهين :

احدهما ـ على المأذون فيه من غير أن يريده .

والآخر ـ إلى المكروه المزجور عنه، فهو بالأول مقصر عن ما هو الأولى فعله. وبالثاني عاص .

وقوله « واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً » تمام الحكاية عن نوح أنه وصف به قومه بأنهم عصوه فيما دعاهم اليه واتبعوا الذي لم يزده ماله وولده إلا خساراً يعني هلاكاً ، فالخسار الهلاك بذهاب رأس المال ففيه معنى الهلاك وليس كذلك الخسران ، لانه محتمل للقليل الذي لا يجحفه ذهابه والكثير الذي يجحف وأما الخسار ففيه معنى ذهاب الكثير ، ولهذا بني على صفة الهلاك .

وقوله « ومكروا مكراً كباراً » فالمكر الفتل بالحيلة الخفية إلى خلاف الجهة الموافقة بما فيها من المضرة ، مكر يمكر مكراً ، فهو ماكر ، والشيء ممكور به ، قال ذو الرمة :

عجزاء ممكورة خمصانة قلق   عنها الوشاح وتم الجسم والقصب (١)

أي ملتفة مفتولة . والكبار الكبير ـ في قول مجاهد وابن زيد ـ يقولون عجيب

---

(١) مر في ٤ / ٥١٣ ، ٥٤١ و ٥ / ١٢٨

وعجاب بالتخفيف والتشديد . ومثله جميل وجمال وجمال وحسن وحسان. «وقالوا» يعني الكفار بعضهم لبعض «لاتذرن آلهتكم» أي لا تتركوا عبادة أصنامكم «ولا تذرن وداً ولا سواعاً» وهما صنمان لهم كانوا يعبدونهما، فكانت (ود) الكلب (وسواع) لهمدان «ويغوث» لمذحج «ويعوق» لكنانة «ونسرا» لحمير ـ في قول قتادة ـ .

وقوله «قد أضلوا كثيراً» معناه ضل بهم خلق كثير . وقيل : معناه إن عبادتهم أضلت خلقاً عن الثواب لمن استحق العقاب ، وأضلهم بالذم والتحسر عن حال أهل الفلاح ، وإنما جمع الاصنام بالواو لما أسند اليها ما يسند إلى العالم من استحقاق العبادة ، ولم يصرفوا (يغوث) و (يعوق) لأنه على لفظ المضارع من الأفعال ، وهي معرفة ، وقد نونها الأعمش ، واخرجها مخرج النكرات أي صنماً من الاصنام .

ثم قال نوح «ولا تزد الظالمين إلا ضلالا» ومعناه إلا عذاباً وسمي العذاب ضلالا كقوله «إن المجرمين في ضلال وسعر» (١) وقيل : كانت هذه الاصنام المذكورة يعبدها قوم نوح ، ثم عبدتها العرب فيما بعد ـ في قول ابن عباس وقتادة والضحاك وابن زيد ـ ولا يجوز في صفة الحكيم الاضلال عن الايمان .

وقوله «مما خطاياهم» (ما) صلة وتقديره من خطاياهم بمعنى من أجل ما ارتكبوه من الخطايا والكفر «أغرقوا» على وجه العقوبة «فادخلوا» بعد ذلك «ناراً» ليعاقبوا فيها «فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً» أي من يدفع عنهم ما نزل بهم من العقاب المستحق على كفرهم .

ثم حكى ما قال نوح أيضاً فانه قال «رب لا تذر على الأرض من الكافرين

(١) سورة ٥٤ القمر آية ٤٧

دياراً » قال قتادة : ما دعا عليهم إلا بعد ما أنزل عليه « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » (١) فلذلك قال ﴿ إنك ﴾ يا رب ﴿ ان تذرهم ﴾ يعني تتركهم ولا تهلكهم ﴿ يضلوا عبادك ﴾ عن الدين بالاغواء عنه والدعاء إلى خلافه ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ وإلا فلم يعلم نوح الغيب ، وإنما قال ذلك بعد أن اعلمه الله ذلك وإنما جاز أن يقول ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ فيسميهم بالكفر والفجور قبل أن يعملوه ، لانه على وجه الحكاية والاخبار بما يكون منهم لو وجدوا لاعلى وجه الذم لهم ، لاقتضاء العقل على أنه لا يذم على الكفر من لم يكن منه كفر ، فكأنه قال ولا يلدوا إلا من إذا بلغ كفر ، و (الديار) فيعال من الدوران ، أي ولا تذر على الارض منهم أحداً يدور في الأرض بالذهاب والمجيء قال الشاعر :

وما نبالي إذاما كنت جارتنا   ألا يجاورنا إلاك ديار (٢)

أي إلا اياك ، فجعل المتصل موضع المنفصل ضرورة . وقال الزجاج : تقول ما في الدار أحد ، ولا بها ديار ، وأصله ديوار (فيعال) فقلبت الواو ياء ، وأدغمت احداهما في الاخرى . والفاجر من فعل الفجور ، وهي الكبيرة التي يستحق بها الذم . و (الكفار) من اكثر من فعل الكفر لانه لفظ مبالغة . وكافر يحتمل القليل والكثير .

ثم حكى ان نوحاً سأل الله تعالى فقال ﴿ رب اغفرلي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ قيل المراد بالبيت مسجده . وقيل أراد سفينته . وذلك على وجه الانقطاع اليه تعالى ، لانه لا يفعل معصية يستحق بها العقاب . فأما والداه والمؤمنون والمؤمنات الذين استغفر لهم فيجوز أن يكون منهم معاص يحتاج أن يستغفرها لهم .

---

(١) سورة ١١ هود آية ٣٦   (٢) أوضح المسالك ١ / ٦٠

وقوله ﴿ ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴾ فالتبار الهلاك والعقاب ، وكل من أهلك فقد تبر ، ولذلك سمي كل شيء مكسر تبراً ، ويجوز أن يكون معناه لا تزدهم إلا ضلالا أي عذاباً على كفرهم . وقال البلخي : لا تزدهم إلا منعاً من الطاعات عقوبة لهم على كفرهم ، فانهم إذا ضلوا استحقوا منع الألطاف التي يفعل بالمؤمنين فيطيعون عندها ، ويمتثلون أمر الله ، ولا يجوز أن يفعل بهم الضلال عن الحق ، لانه سفه فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

٧٢ ـ سورة الجن

مكية في قول قتادة وابن عباس والضحاك وغيرهم وهي ثمان وعشرون آية ليس فيها اختلاف . قال الحسن : نزلت هذه السورة فقرأها رسول الله ﷺ على نفر من الجن فآمنوا به فأتوا قومهم فقالوا « إنا سمعنا قرآناً عجباً » وكان يقول بعث الله محمداً إلى الجن والانس وقال غيره من المفسرين : لما رميت الشياطين بالشهب ومنعوا من صعود السماء ، قال لهم ابليس ما هذا الحادث ؟ فبث شياطينه في الأرض فبعث قوماً من جن اليمن فلقوا النبي ﷺ بمكة يصلي بأصحابه ويقرأ القرآن فاعجبهم ذلك وآمنوا به ، وأخبروا قومهم فقال ابليس لهذا رجمتم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ

فَزَادُوهُمْ رَهَقاً (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحداً (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ﴾ (١٠) عشر آيات.

قال الفراء: قرأ حوبة بن عابد ﴿ قل أحي إلي ﴾ أراد وحي اليّ مثل وعد فقلبت الواو همزة، كما قلبها فى قوله ﴿ وإذا الرسل اقتت ﴾ (١) وأصله وقتت. والعرب تقول: وحيت اليه، واوحيت بمعنى واحد ووماًت اليه وأومات، قال الراجز:

وحى لها القرار فاستقرت (٢)

وقرأ ابن كثير وابو عمرو ﴿ قل أوحي الي أنه استمع ﴾ و ﴿ أن لو استقاموا ﴾ ﴿ وأن المساجدلله ﴾ و ﴿ أنه لما قام عبد الله ﴾ أربعة أحرف ـ بفتح الالف ـ والباقي من أول السورة الى ههنا بكسر الالف. وقرأ نافع وعاصم فى رواية أبي بكر كذلك، إلا قوله ﴿وانه لما قام عبد الله﴾ فانه قرأ بالكسر. الباقون بفتح جميع ذلك إلا ما جاء بعد (قول) او (فاء جزاء) فانهم يكسرونه. من فتح جميع ذلك جعله عطفاً على ﴿ أوحي إلي انه ﴾ وأنه. ومن كسر عطف على قوله ﴿ إنا ﴾ وإنا. قال

---

(١) سورة ٧٧ المرسلات آية ١١

(٢) مر في ٢ | ٤٥٩ و ٣ | ٨٤ و ٤ | ٦١ و ٦ | ٤٠٣

قوم : ومن نصب فعلى تقدير آمنا به وبكذا فعطف عليه . قال الزجاج : إن عطف على الهاء كان ضعيفاً ، لان عطف المظهر على المضمر ضعيف ، ومن جعله مفعول (آمنا) فنصبه به كأنه قال : آمنا بكذا وكذا ، وأسقط الباء فنصب على المعنى ، لأن معنى (آمن) صدق ، فكأنه قال : صدقنا بكذا وكذا ، وحذف الجار . ومن كسر من هؤلاء بعد القول أوفاء الجزاء ، فلأنه لا يقع بعد القول والفاء إلا ما هو ابتداء ، أوما هو فى حكم الابتداء . ومن كسر جميع ذلك جعله مستأنفاً ، ولم يوقع (آمنا) عليه ، وما نصب من ذلك جعله مفعولا بايقاع فعل عليه . فأما قوله ﴿ أوحي الي انه استمع ﴾ فمفعول (أوحي) لا غير بلا خلاف . وقرأ ابو جعفر ﴿ أن لن تقوّل الانس ﴾ على معنى تكذب . الباقون بتخفيف الواو من القول .

يقول الله تعالى آمراً لمحمد نبيه ﷺ ﴿ قل ﴾ يا محمد لقومك ومن بعثت اليه ﴿ اوحي اليّ ﴾ فالايحاء القاء المعنى إلى النفس خفياً كالالهام ، وانزال الملائكة به لخفائه عن الناس إلا على النبي الذي انزل اليه كالايماء الذي يفهم به المعنى . والمراد - ههنا - انزال الملك به عليه . ثم بين ما أوحي اليه فقال ﴿ انه استمع نفر من الجن ﴾ فالاستماع طلب سماع الصوت بالاصغاء اليه ، وهو تطلب لفهم المعنى ، وتطلب ليستدل به على صاحبه . وقيل : ان الجن لما منعوا من استراق السمع طافوا فى الارض ، فاستمعوا القرآن ، فآمنوا به ، فانزل بذلك الوحي على النبي ﷺ ذكره ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم . والنفر الجماعة . والجن جيل رقاق الاجسام خفية على صور مخصوصة بخلاف صورة الملائكة والناس . وقيل : العقلاء من الحيوان ثلاثة اصناف : الملائكة ، والناس ، والجن . والملك مخلوق من النور ، والانس من الطين والجن من النار .

ثم ذكر انه قالت الجن بعضها لبعض ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ والعجب هو

كل شيء لا يعرف سببه . وقيل : هو ما يدعو إلى التعجب منه لخفاء سببه وخروجه عن العادة في مثله ، فلما كان القرآن قد خرج بتأليفه عن العادة في الكلام ، وخفي سببه عن الأنام كان عجباً .

وقوله ﴿ يهدي إلى الرشد ﴾ حكاية ما قالت الجن ووصفت به القرآن ، فانهم قالوا : هذا القرآن يهدي إلى ما فيه الرشاد والحق ﴿ فآمنا به ﴾ أي صدقنا بأنه من عند الله ﴿ ولن نشرك ﴾ فيما بعد ﴿ بربنا احداً ﴾ فنوجه العبادة اليه بل نخلص العبادة له تعالى ﴿ وانه تعالى جدّ ربنا ﴾ من كسر الهمزة عطفه على قوله ﴿ إنا سمعنا ﴾ وحكى أنهم قالوا (إنه) ويجوز أن يكون استأنف الاخبار عنهم . ومن فتح فعلى تقدير فآمنا بأنه تعالى جدّ ربنا ، ومعناه تعالى عظمة ربنا ، لانقطاع كل شيء عظمة عنها لعلوها عليه . ومنه الجد ابو الأب ، والجد الحظ لانقطاعه بعلو شأنه . والجد ضد الهزل لانقطاعه عن السخف ، ومنه الجديد لأنه حديث عهد بالقطع في غالب الأمر . وقال الحسن ـ في رواية ـ ومجاهد وقتادة : معناه تعالى جلالته وعظمته ، وفي رواية اخرى عن الحسن : تعالى غني ربنا ، وكل ذلك يرجع الى معنى وصفه بأنه عظيم غني . ويقال : جد فلان في قومه إذا عظم فيهم . وروي عن أحدهما عليهما السلام انه قال : ليس لله جدّ وإنما قالت ذلك الجن بجهلها فحكاه كما قالت . وقال الحسن : ان الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله إلى الانس والجن ، وانه لم يرسل رسولا قط من الجن ولا من أهل البادية ، ولا من النساء ، لقوله ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي اليهم من أهل القرى ﴾ (١) .

وقوله ﴿ ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ﴾ على ما قال قوم من الكفار .

وقوله ﴿ وانه كان يقول سفيهنا على الله شططاً ﴾ من كسر استأنف . ومن

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٩

نصب عطف على قوله ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ ونصب ذلك بتقدير آمنا ، وقدر للباقي فعلا يليق به ، ويمكن أن يعمل فيه ، كما قال الشاعر :

إذا ما الغانيات برزن يوماً وزججن الحواجب والعيونا (١)

على تقدير : وكحلن العيون، وقال مجاهد وقتادة : أرادوا بـ (سفيههم) ابليس و (الشطط) السرف فى ظلم النفس والخروج عن الحق ، فاعترفوا بأن ابليس كان يخرج عن الحد بما يغري به الخلق ويدعوهم إلى الضلال .

وقوله ﴿ وأنا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذباً ﴾ اخبار عن اعترافهم بأنهم ظنوا أن لا يقول أحد من الجن والانس كذباً على الله فى اتخاذ الشريك معه والصاحبة والولد ، وأن ما يقولونه من ذلك صدق حتى سمعنا القرآن وتبينا الحق به.

وقوله ﴿ وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن ﴾ قال البلخي: قال قوم : المعنى إنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الانس من أجل الجن ، لأن الرجال لايكون إلا فى الناس دون الجن . ومن قال بالأول قال فى الجن رجال مثل ما فى الانس . وقال الحسن وقتادة ومجاهد : كان الرجل من العرب إذا نزل الوادي في سفره قال : أعوذ بعزيز هذا الوادي من شر سفهاء قومه . ومعنى (يعوذون) يستجيرون ، وهذا اخبار من الله تعالى عن نفسه دون الحكاية عن الجن . والعياذ الاعتصام وهو الامتناع بالشيء من لحاق الشر . والرجال جمع رجل وهو الذكر البالغ من الذكران . والانسان يقع على الذكر والمرأة ، والصغير والكبير ثم ينفصل كل واحد بصفة تخصه وتميزه من غيره .

وقوله ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ أي اثماً الى اثمهم الذي كانوا عليه من الكفر والمعاصي ـ فى قول ابن عباس وقتادة ـ وقال مجاهد : يعني طغياناً . وقال الربيع وابن زيد:

(١) مر في ٩ | ٤٩٢

يعني فرقاً . وقيل سفهاً . قال الزجاج : يجوز ان يكون الجن زادوا الانس ، ويجوز أن يكون الانس زادوا الجن رهقاً . والرهق لحاق الاثم ، وأصله اللحوق . ومنه راهق الغلام إذا لحق حال الرجال قال الاعشى :

لا شيء ينفعني من دون رؤيتها   هل يشتفي وامق ما لم يصب رهقاً (١)

أي لم يعش اثماً . ثم حكى تعالى ﴿ وأنهم ظنوا كما ظننتم ﴾ معاشر الانس ﴿ ان لن يبعث الله احداً ﴾ أي لا يحشره يوم القيامة ولا يحاسبه . وقال الحسن : ظن المشركون من الجن ، كما ظن المشركون من الانس ﴿ ان لن يبعث الله احداً ﴾ لجحدهم بالبعث والنشور ، واستبعدوا ذلك مع اعترافهم بالنشأة الأولى ، لانهم رأوا إمارة مستمرة في النشأة الأولى ، ولم يروها في النشأة الثانية ، ولم ينعموا النظر فيعلموا أن من قدر على النشأة الأولى يقدر على النشأة الاخرى .

وقال قتادة : ظنوا أن لا يبعث الله احداً رسولا .

ثم حكى ان الجن قالت ﴿ إنا لمسنا السماء ﴾ أي مسسناها بايدينا . وقال الجبائي : معناه إنا طلبنا الصعود الى السماء ، فعبر عن ذلك باللمس مجازاً ، وانما جاز من الجن تطلب الصعود مع علمهم بأنهم يرمون بالشهب لتجويزهم أن يصادفوا موضعاً يصعدون منه ليس فيه ملك يرميهم بالشهب ، او اعتقدوا أن ذلك غير صحيح ، ولم يصدقوا من أخبرهم بأنهم رموا حين أرادوا الصعود ﴿ فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ﴾ نصب (حرساً) على التمييز و (شديداً) نعته و (شهباً) عطف على (حرساً) فهو نصب ايضاً على التمييز . وتقديره ملئت من الحرس . والشهب جمع شهاب ، وهو نور يمتد من السماء من النجم كالنار . قال الله تعالى ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ (٢) والحرس جمع

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٢٤   (٢) سورة ٦٧ الملك آية ٥

حارس . وقيل : إن السماء لم تحرس قط إلا لنبوة أو عقوبة عاجلة عامة .

ثم حكى أنهم قالوا ايضاً ﴿ إنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ أي لم يكن فيما مضى منع من الصعود فى المواضع التي يسمع منها صوت الملائكة وكلامهم ، ويسمع ذلك ، فالآن من يستمع منا ذلك يجد له شهاباًيرمى به ويرصد و ﴿ شهاباً ﴾ نصب على أنه مفعول به و ﴿ رصداً ﴾ نعته .

ثم حكى انهم قالوا ﴿ وإنا لاندري ﴾ بما ظهر من هذه الآية العجيبة ﴿ أشر أريد بمن فى الارض ﴾ من الخلق أي اهلاكاً لهم بكفرهم وعقوبة على معاصيهم ﴿ أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ وهداية إلى الحق بأن بعث نبياً ، فان ذلك خاف عنا وقال قوم : إن الشهب لم تكن قبل النبي صلى الله عليه وآله وإنما رموا به عند بعثه صلى الله عليه وآله وقال آخرون : الشهب معلوم أنها كانت فيما مضى من الزمان ، ولكن كثرت فى زمن النبي صلى الله عليه وآله وعمت لا أنها لم تكن أصلا . قال البلخي : الشهب كانت لا محالة غير انه لم تكن تمتنع بها الجن عن صعود السماء ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وآله منع الجن من الصعود

قوله تعالى :

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَنْ نُعجِزَهُ هَرَباً (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً (١٣) وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (١٤) وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (١٥) وَأَنْ لَوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ

يُعرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً ﴾ (٢٠) عشر آيات .

قرأ اهل الكوفة ويعقوب وسهل ﴿ يسلكه ﴾ بالياء بمعنى يسلكه الله . الباقون بالنون على وجه الاخبار منه تعالى عن نفسه بنون العظمة . وقرأ ابو جعفر وعاصم وحمزة ﴿ قل إنما ادعوا ربي ﴾ بلفظ الامر . الباقون ﴿ قال ﴾ على فعل ماض . وقرأ هشام بن عمار عن ابن عامر ﴿ لبداً ﴾ بضم اللام . الباقون بكسر اللام . واللبد واللبد بمعنى واحد ، وجمع اللبدة لبد ، مثل ظلمة وظلم . ويقال : لابد ولبد ، مثل راكع وركع .

يقول الله تعالى في تمام الحكاية عما قالته الجن الذين آمنوا عند سماع القرآن فانهم قالوا ﴿ وانا منا الصالحون ﴾ وهم الذين عملوا الصالحات وسمي صالحاً ، لأنه عمل ما يصلح به حاله في دينه . وأما المصلح فهو فاعل الصلاح الذي يقوم به أمر من الأمور ، ولهذا وصف تعالى بأنه مصلح ، ولم يجز وصفه بأنه صالح . والصلاح يتعاظم استحقاق المدح عليه والثواب كما يختلف استحقاق الشكر بالنعم ، ففي النعم ما يستحق به العبادة وفيها ما لا يستحق به ذلك وإن استحق به الشكر ، فلذلك قال ﴿ ومنا دون ذلك ﴾ والمعنى ان منا الصالحين في مراتب عالية ومنا دون ذلك في الرتبة .

وقوله ﴿ كنا طرائق قدداً ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : يعني على مذاهب مختلفة : مسلم ، وكافر ، وصالح ، ودون الصالح . والطرائق جمع طريقة وهي الجهة

المستمرة مرتبة بعد مرتبة . والمعنى فيها إنا كنا في طرق مختلفة . والقدد جمع قدة . وهي المستمرة بالقد في جهة واحدة . والقـدد مضمن بجعل جاعل ، وهو القادّ ، وليس كذلك الطريقة في تضمن الصفة ، وإنما هي كالمذهب الذي يمكن فيه على استمرار الى حيث انتهى اليه . والمعنى إنا كنا على طرائق متباينة كل فرقة يتباين صاحبها كما بين المقدود بعضه من بعض .

وقوله ﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الارض ﴾ فالظن - ههنا - بمعنى العلم والمعنى اعترافهم بأن علموا أنه لا يفوت الله شيء بذهب في الارض ، ولا إذا هرب منه بسائر ضروب الهرب ، واعترفوا ايضاً فقالوا ﴿ وانا لما سمعنا الهدى ﴾ يعنون القرآن الذي فيه هدى كل حي ﴿ آمنا به ﴾ أي صدقناه . ثم قالوا ﴿ فمن يؤمن بربه ﴾ أي من يصدق بتوحيد الله وعرفه على صفاته ﴿ فلا يخاف بخساً ﴾ أي نقصاناً فيما يستحقه من الثواب ﴿ ولا رهقاً ﴾ أي ولا يخاف ظلماً ، فالرهق لحاق السرف في الامر ، وكأنه قال لا يخاف نقصاً قليلا ولا كثيراً ، وذلك أن اجره وثوابه موفر على أتم ما يكون فيه . وقال ابن عباس : معناه لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادة في سيئاته ، وهو قول الحسن وقتادة وابن زيد ، والتقدير فمن يؤمن بربه فانه لا يخاف

ثم قالوا ايضاً ﴿ وانا منا المسلمون ﴾ يعني الذين استسلموا لما أمرهم الله به ، وانقادوا له ﴿ ومنا القاسطون ﴾ يعني الجائرون عن طريق الحق . والقاسط الجائر عن طريق الحق ﴿ فمن اسلم ﴾ أي استسلم لأمر الله ﴿فأولئك تحروا رشداً﴾ أي طلبوا الهدى إلى الحق ، ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ أي استحقوا بذلك أن يكونوا وقود النار يوم القيامة يحرقون بها . وقوله ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ اخبار من الله تعالى عن نفسه . وقيل (ان) يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة ، فيكون محمولا على الوحي ، فكانه قال ﴿ اوحي الي أن لو استقاموا ﴾ وفصل لو بينها وبين

الفعل ، كما فصل (السين) و (لا) في قوله ﴿ علم ان سيكون منكم مرضى ﴾ (١) وقوله ﴿ ان لا يرجع اليهم ﴾ (٢) ويحتمل أن تكون (لو) بمنزلة اللام في قوله ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ﴾ (٣) فيسقط مرة ويلحق أخرى ، لان (لو) بمنزلة فعل الشرط ، فكما لحقت اللام زائدة قبل (إن) الداخلة على الشرط قبل فعل الشرط ، كذلك لحقت (أن) هذه قبل (لو) ومعنى « وأن لو استقاموا » أحد أمرين :

احدهما ـ لو استقاموا على طريقة الهدى بدلالة قوله ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ (٤) وقوله ﴿ ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا ﴾ (٥) .

الثاني ـ لو استقاموا على طريقة الكفر بدلالة قوله ﴿ ولولا أن يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ﴾ (٦) وقيل : انه دخلت (ان) في ﴿ وأن لو استقاموا ﴾ لانه جواب القسم . ويجوز أن يحذف ، كما قال الشاعر :

فأقسم لو شيء أتانا رسوله ... سواك ولكن لم نجد لك مدفعا (٧)

وقال آخر :

---

(١) سورة ٧٣ المزمل آية ٢٠
(٢) سورة ٢٠ طه آية ٨٩
(٣) سورة ٣٣ الاحزاب ٦٠
(٤) سورة ٥ المائدة آية ٦٩
(٥) سورة ٧ الاعراف آية ٩٥
(٦) سورة ٤٣ الزخرف آية ٣٣
(٧) مر في ٥ / ٥٢٩ و ٦ / ٢٠٣ و ٧ / ٣٤١ و ٩ / ١٢

اما والله إن لو كنت حراً وما بالحرانت ولا العتيق (١)

والاستقامة الاستمرار في جهة العلو . والمستقيم من الكلام المستمر على طريقة الصواب . وهو نقيض المحال . والاستقامة على طريق الحق التي يدعو اليها العقل طاعة الله . والمعنى - ههنا - في قول أكثر المفسرين : إنه لو استقام العقلاء على طريقة الهدى واستمروا عليها وعملوا بموجبها لجازاهم على ذلك بأن اسقاهم ماء غدقاً ، يعني كثيراً . والغدق بفتح الدال المصدر ، وبكسرها اسم الفاعل ، وفي ذلك ترغيب فى الهدى . قال الفراء : معناه وأن لو استقاموا على طريقة الكفر لفعلنا بهم ما ذكرناه تغليظاً للمحنة فى التكليف ، ولذلك قال ﴿لنفتنهم فيه﴾ أي نختبرهم بذلك ونبلوهم به . وغدق المكان يغدق غدقاً إذا كثر فيه الماء والندى ، وهو غدق - فى قول الزجاج - وقوله ﴿لنفتنهم فيه﴾ معناه لنختبرهم ونعاملهم معاملة المختبر فى شدة التعبد بتكليف الانصراف عما تدعو شهواتهم اليه ، على ما تقتضيه الحكمة فى ذلك والفتنة المحنة الشديدة ، والمثوبة على قدر المشقة فى الصبر عما تدعو اليه الشهوة .

ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً ﴿ومن يعرض عن ذكر ربه﴾ والمعنى من يعدل عن الفكر فيما يؤديه الى معرفة الله وتوحيده واخلاص عبادته ، فالذكر حضور المعنى الدال على المذكور للنفس ، وضده السهو ، ومثله حضور المعنى بالقلب . والفكر في وجوه السؤال عن المعنى طلب الذكر له . والفكر فى البرهان طلب للعلم بصحة المعنى المذكور وأنه حق ونقيضه باطل . وقوله « يسلكه عذاباً صعداً » اى متصعداً في العظم . وقيل : متصعداً قد غمره وأطبق عليه . ومعناه عذاباً أشهد العذاب من قوله «سأرهقه صعوداً » (٢) فاما قول العرب: تنفس الصعداء على وزن (فعلاء) أكثر كلامهم ، ومنه قيل تنفس صعداً على وزن غرب والصعود العقبة الشاقة . وقال الفراء :

(١) تفسير القرطبي ١٨/١٧ (٢) سورة ٧٤ المدثر آية ١٧

الصعود صخرة ملساء في النار ويكلف الصعود عليها ، فكلما بلغ رأسها أحد هوى الى أسفلها وقوعاً .

وقوله « وان المساجد لله فلاتدعو مع الله احداً » عطف عند جميع المفسرين على قوله « أوحي » كأنه قال : أوحي الي أن المساجد لله ، وقال الخليل: التقدير، ولأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً مثل قوله « وأن هذه أمتكم » وتقديره : ولأن هذه أمتكم « أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (١) والمعنى الاخبار منه تعالى بأن لا يذكر مع الله في المساجد ـ وهي المواضع التي وضعت للصلاة ـ أحد على وجه الاشتراك في عبادته ، كما يدعوا النصارى في بيعهم والمشركون في الكعبة . وقال الحسن : من السنة إذا دخل المسجدأن يقول : لا إله الا الله ، لا أدعو مع الله أحداً .وقيل : معناه إنه يجب أن يدعوه بالوحدانية . وقال الفراء والزجاج : المساجد مواضع السجود من الانسان : الجبهة ، واليدان ، والرجلان. وزاد أصحابنا عيني الركبتين . والمعنى إنه لا ينبغي أن يسجد بهذه الأعضاء لأحد سوى الله تعالى .

وقوله « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً » معناه إنه لما قام محمد صلى الله عليه وآله يدعو الله ، فيقول : لا إله الا الله كادوا يكونون عليه جماعات متكاثفات بعضها فوق بعض ليزيلوه بذلك عن دعوته باخلاص الالهية . وقال ابن عباس والضحاك : معناه إن الجن كادوا يركبونه حرصاً على سماع القرآن منه . وقال الحسن وقتادة : معناه تلبدت الانس والجن على هذ الامر ليطفئوه فابي الله الا أن ينصره ويظهره على من ناواه ، كما قال « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » (٢) وقال ابن عباس : هذا من قول الجن ، لما رجعوا الى قومهم أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحاب رسول الله وإئتمامهم به في الركوع

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٩٢ (٢) سورة ٦١ الصف آية ٨

والسجود ، وهو قول سعيد بن جبير. واللبد القطع المتكاثفة على الشيء واحدها لبدة ، ومنه اللبد لتكاثف صفوفه بعضه على بعض. ولبد رأسه إذا ألصق بعض شعره ببعض قال عبد مناف بن ربع :

صابوا بستة أبيات واربعة حتى كأن عليهم جابياً لبدا . (١)

فالجابي الجراد الذي يجبي كل شيء يأكله .

ثم حكى ان النبي ﷺ قال « انما أدعوا ربي » ومن قرأ (قل) فمعناه إن الله أمره بأن يقول : إنما أدعو ربي وحده ولا أشرك به أحداً من الاصنام والاوثان . والمعنيان متقاربات ، لأن الله تعالى إذا أمره بأن يقول فانه يقول لا محالة فقد حصل الامران .

قولــه تعــالى :

﴿ قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً (٢١) قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ ٱللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٢) إِلاَّ بَلاَغاً مِنَ ٱللهِ وَرِسَالاَتِهِ وَمَنْ يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (٢٥) عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلاَّ مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ

(١) اللسان (لبد)

رَصَداً (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾ (٢٨) ثمان آيات ·

قرأ « ليعلم » بضم الياء يعقوب · الباقون بفتح الياء · أمر الله تعالى نبيه محمد ﷺ أن يقول للمكلفين « اني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً » ومعناه إني لا أقدر على دفع الضرر عنكم ولا إيصال الخير اليكم، وانما يقدر على ذلك الله تعالى · وانما أقدر على أن ادعوكم الى الخير وأهديكم الى طريق الرشاد ، فان قبلتم نلتم الثواب والنفع ، وان رددتموه نالكم العقاب وأليم العذاب · ثم قال ايضاً « قل » لهم يامحمد « اني لن يجيرني من الله احد » أي لا يقدر أن يجير على الله حتى يدفع عنه ما يريده به من العقاب « ولن اجد » أيضاً انا « من دنه » أي من دون الله « ملتحداً » يعني ملتجأ ألجأ اليه أطلب به السلامة مما يريد الله تعالى فعله من العذاب والألم . وأضافه الى نفسه ، والمراد به أمته ، لانه لا يفعل قبيحاً فيخاف العقاب . والمعنى ليس من دون الله ملتحد أي ملجأ ·

وقوله « الا بلاغ من الله ورسالاته » معناه لكن املك البلاغ من الله الذي هو بلاغ الحق لكل من ذهب عنه وأعرض عن اتباعه بأن أرشده الى الأدلة التي نصبها الله له وأمر بالدعاء إليها سائر عباده المكلفين ، كما أمر أنبياءه بتبليغ رسالاته ، فيكون التقدير لا أملك إلا بلاغاً من الله ورسالاته · وقيل يجوز ان يكون المراد لن يجيرني من الله أحد إن لم أبلغ رسالاته ، فيكون نصب البلاغ على اضمار فعل من الجزاء ، كقولك إن لا قياماً فقعوداً وان لاعطاء فرداً جميلاً فتكون (لا) منفصلة من (إن) وتقديره إن لا أبلغ بلاغاً من الله ورسالاته ·

ثم قال « ومن يعص الله ورسوله » بأن خالف ما أمراه به وارتكب مانهياه

عنه «فان له نار جهنم» جزاء على ذلك «خالدين فيها ابداً» أي مقيمين فيها على وجه التأبيد. والقراء على كسر (فان) على الابتداء. وروي عن طلحة بن مصروف انه فتح على تقدير فجزاءه أن له. وقال ابن خالويه : سألت ابن مجاهد عن ذلك ، فقال : هو لحن. وقال بعض أهل النظر : زعم ابو عبيدة : ان ما كان من قول الجن فهو مكسور نسقاً على قوله « إنا سمعنا » ومن فتح فعلى قوله « قل اوحي الي » وهو اختيار ابن خالويه.

وقوله « حتى إذا رأوا ما يوعدون » يعني ما يوعدون به من العقاب على المعاصي « فسيعلمون » عند ذلك « من اضعف ناصراً » يدفع عنه عقاب الله ومن « أقل عدداً » يستنصر بهم آالكفار أم المؤمنون ؟. وقيل معناه أجند الله أم الذين عبده المشركون ؟ وإنما قال « من أضعف ناصراً » ولا ناصر لهم في الآخرة ، لأنه جاء على جواب من توهم انه إن كانت لهم أخوة فناصرهم أقوى وعددهم اكثر.

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وآله « قل إن ادري » أي قل لهم لست اعلم « أقريب ما توعدون » به من العقاب « أم يجعل له ربي امداً » أي غاية ينتهي اليها بعينها أم يؤخره الله تعالى إلى مدة لا يعلمها بعينها إلا الله تعالى الذي هو « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً » ثم قال « إلا من ارتضى من رسول » فانه ربما أطلعه على ما غاب عن غيره من الخلائق بأن يوحي اليهم بما شاء من الغيب - ذكره قتادة - « فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » ومعناه إن الله إذا نزل الملك بالوحي ارسل معه رصداً يحفظون الملك من أن يأتي احد من الجن و يسمع الوحي ، ونصب «رصداً» على المفعول ، كأنه قال يجعل رصداً يسلك من بين يديه ومن خلفه « ليعلم ان قد ابلغوا » معناه ليظهر المعلوم من التبليغ. وقال قتادة : معناه ليعلم محمد أن الرسل قبله قد ابلغوا رسالات ربهم. وقال سعيد بن جبير : ليعلم الرسل أن قد ابلغوا رسالات

ربهم على احاطة بهم وتحصين لما بلغوا من رسالاته . وقال الزجاج: ليعلم الله أن قد ابلغوا .

وقوله « واحاط بما لديهم » معناه انه يعلم ما عندهم فيحيط بما لديهم فيصير في معلومه بمنزلة ما احيط به « وأحصى كل شيء عدداً » معناه انه يعلم الاشياء مفصلة بمنزلة من يحصيها ليعلمها كذلك . وقال الزجاج : نصب « عدداً » يحتمل شيئين :

احدهما ـ واحصى كل شيء في حال العدد ، فيكون العدد بمعنى المعدود ، كما يقال : المنقوص نقص ، فلا يخفى عليه شيء من الاشياء ، لا سقوط ورقة ، ولا حبة في ظلمات الارض .

والثاني ـ ان يكون بمعنى المصدر ، وتقديره وأحصى كل شيء احصاء. وقال الجبائي معنى « ليعلم ان قد ابلغوا » أي ليبلغوا ﴿ رسالات ربهم ﴾ فعبر عن المعلوم بالعلم كما يقال: ما علم الله مني ذلك أي مافعلته ، لأنه لو فعله لعلم الله ذلك ﴿ واحصى كل شيء عدداً ﴾ . معناه انه لا شيء يعلمه عالم او يذكره ذاكر إلا وهو تعالى عالم به ومحص له . والاحصاء فعل ، وليس هو بمنزلة العلم ، فلا يجوز ان يقال احصى مالا يتناهى كما يجوز ان يقال : علم ما لا يتناهى ، لان الاحصاء مثل المحصي لا يكون إلا فعلا متناهياً ، فاذا لم يجز ان يفعل مالا يتناهى لم يجز ان يقال يحصي مالا يتناهى . والفرق بينهما واضح .

٧٣ ـ سورة المزمل :

مكية في قول ابن عباس والضحاك وهي عشرون آية في الكوفي والمدني الاول وتسع عشرة في البصري وثماني عشرة في المدني الاخير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (٩) وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ (١٠) عشر آيات .

قرأ ابن عامر وابو عمرو « وطاء » بكسر الواو والمد جعله مصدراً ا (واطأ) يواطىء مواطأة ، ووطاء . ومعناه إن ناشئة الليل وعمل ناشئة الليل يواطىء لسمع القلب اكثر مما يواطىء ساعات النهار ، لأن البال افرغ للانقطاع عن كثير مما يشغل

بالنهار . الباقون ـ بفتح الواو ـ مقصورة ، وروي عن الزهري ـ بكسر الواو ـ مقصورة ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله : اللهم اشدد وطاءك على مضر ، وقرأ «رب المشرق» بالجر كوفي غير حفص ويعقوب بدلا من (ربك) . الباقون بالرفع على الاستئناف ، فيكون رفعاً بالابتداء وخبره (لا إله إلا هو) ويجوز أن يكون خبر الابتداء بتقدير هو رب المشرق .

هـذا خطاب من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله وقيل : إن المؤمنين داخلون فيه على وجه التبع . يقول الله له « يا أيها المزمل » ومعناه الملتف في ثيابه ، يقال تزمل في ثيابه ، فهو متزمل إذا التف . والاصل « متزمل » فأدغم التاء في الزاي . لان الزاي قريبة المخرج من التاء ، وهو ابدى في المسموع من التاء . وقال قتادة : معناه المتزمل بثيابه ، وقال عكرمة : المتزمل بعباء النبوة ، وكل شيء لفف ، فقد تزمل ، قال امرء القيس :

كأن ابانا في أفانين ودقه   كبير اناس في بجاد مزمل (١)

يعني كبير اناس مزمل في بجاد وهو الكساء ، وجره على المجاورة للبجاد .

وقوله « قم الليل إلا قليلا » أمر من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله بقيام الليل إلا القليل منه . وقال الحسن : إن الله فرض على النبي والمؤمنين أن يقوموا ثلث الليل فما زاد ، فقاموه حتى تورمت أقدامهم ، ثم نسخ تخفيفاً عنهم . وقال غيره : هو نفل لم ينسخ ، لانه لو كان فرضاً لما كان مخيراً في مقداره ـ ذكره الجبائي ـ وإنما بين تخفيف النفل . وقال قوم : المرغب فيه قيام ثلث الليل او نصف الليل او الليل كله إلا القليل . ولم يرغب بالآية في قيام جميعه لانه تعالى قال « إلا قليلا نصفه

(١) ديوانه (السندوبي) ١٥٨

او انقص منه قليلا او زد عليه» يعني على النصف . وقال الزجاج (نصفه) بدل من (الليل) كقولك ضربت زيداً رأسه . والمعنى : قم نصف الليل إلا قليلا او انقص منه قليلا . والمعنى قم نصف الليل او انقص من نصف الليل أو زد على نصف الليل ، وذلك قبل ان يتعبد بالخمس صلوات . وقال ابن عباس والحسن وقتادة : كان بين أول السورة وآخرها - الذي نزل فيه التخفيف - سنة . وقال سعيد بن جبير : عشر سنين . وقال الحسن وعكرمة : نسخت الثانية بالأولى . والاولى أن يكون على ظاهره ، ويكون جميع ذلك على ظاهره مرغباً في جميع ذلك إلا أنه ليس بفرض وإن كانت سنة مؤكدة . والنصف أحد قسمي الشيء المساوي للآخر في المقدار . والقليل من الشيء الناقص عن قسمه الآخر ، وكلما كان أنقص كان أحق باطلاق الصفة ، وما لا يعتد به من النقصان لا يطلق عليه .

« ورتل القرآن ترتيلا » أمر من الله تعالى له بأن يرتل القرآن والترتيل ترتيب الحروف على حقها في تلاوتها ، وتثبت فيها ، والحدر هو الاسراع فيها وكلاهما حسنان إلا أن الترتيل - ههنا - هو المرغب فيه . وقال مجاهد : معناه ترسل فيه ترسلا . وقال الزجاج : معناه بينه تبييناً أي بين جميع الحروف ، وذلك لايتم بأن يعجل في القراءة .

وقوله « انا سنلقي عليك قولا ثقيلا » اخبار من الله تعالى لنبيه أنه سيطرح عليه قولا ثقيلا . وقال الحسن وقتادة : إنه يثقل العمل به لمشقة فيه . وقال ابن زيد : معناه العمل به ثقيل في الميزان والأجر ، ليس بشاق . وقيل : معناه قول عظيم الشأن ، كما تقول هذا الكلام رزين ، وهذا قول له وزن إذا كان واقعاً موقعه .

وقوله « إن ناشئة الليل هي أشد وطأ » قال مجاهد : ناشئة الليل التهجد في الليل . وقال الحسن وقتادة : هو ما كان بعد العشاء الآخرة . وعن ابي جعفر

وابي عبد الله عليهما السلام أنهما قالا : هو القيام آخر الليل إلى صلاة الليل . وقال قوم : ناشئة الليل ابتداء عمل الليل شيئاً بعد شيء إلى آخره . والناشئة الظاهرة بحدوث شيء بعد شيء ، واضافته إلى الليل توجب انه من عمل الليل الذي يصلح أن ينشأ فيه .

وقوله « هي أشد وطأ » من قرأ ـ بالفتح ـ مقصوراً ، قال معناه : لقوة الفكر فيه أمكن موقعاً . وقيل : هو أشد من عمل النهار ، وقال مجاهد : معناه واطأ اللسان القلب مواطأة ووطاء . والوطاء المهاد المذلل للتقلب عليه ، فكذلك عمل الليل الذي هو أصلح له فيه تمهيد للتصرف في الدلائل وضروب الحكم ووجوه المعاني .

وقوله « واقوم قيلا » أي أشد استقامة وصواباً لفراغ البال ، وانقطاع ما يشغل القلب . والمعنى إن عمل الليل أشد ثباتاً من عمل النهار ، وأثبت في القلب من عمل النهار . والأقوم الأخلص استقامة ، لأنه القول يشمل المعنى على ما فيه استقامة وفيه اضطراب . وقد يقل ذلك ويكثر ، وهو في القول ظاهر كما هو في الخط ، ففيه الحرف المقوم وفيه الحرف المضطرب . وقال ابن زيد : معناه أقوم قراءة لفراغه من شغل الدنيا . وقال أنس : معناه أصوب . وقال مجاهد : معناه اثبت .

وقوله « إن لك في النهار سبحاً طويلا » قال قتادة : معناه إن لك يا محمد في النهار متصرفاً ومنقلباً أي ما تقضي فيه حوائجك . وقرأ يحيي ابن معمر بالخاء ، وكذلك الضحاك ، ومعناه التوسعة . يقال اسبخت القطن إذا وسعته للندف . ويقال لما تطاير من القطن وتفرق عند الندف سبائخ ، والسبح المر السهل في الشيء ، كالمر في الماء ، والسبح في عمل النهار هو المر في العمل الذي يحتاج فيه إلى الضياء . وأما عمل الليل فلا يحتاج فيه إلى ضياء لتمكن ذلك العمل كالفكر في وجوه البرهان وتلاوة القرآن . وقال الجبائي في نوادره « لك في النهار سبحاً » أي نوماً . وقال الزجاج :

معناه إن فاتك شيء بالليل فلك في النهار فراغ تقضيه .

ثم قال لنبيه ﷺ « واذكر اسم ربك » يعني اسماء الله الحسنى التي تعبد بالدعاء بها « وتبتل اليه تبتيلا » أي انقطع اليه انقطاعاً ، فالتبتل الانقطاع إلى عبادة الله ، ومنه مريم البتول وفاطمة البتول ، لانقطاع مريم الى عبادة الله ، وانقطاع فاطمة عن القرين ، ومنه قول الشاعر :

كأن لها في الارض نسياً تقصه　　إذا ما غدت وإن تكلمك تبلت (١)

أي يقطع كلامها رويداً رويداً ، وقيل : الانقطاع إلى الله تأميل الخير من جهته دون غيره ، وجاء المصدر على غير الفعل ، كما قال ﴿ انبتكم من الارض نباتاً ﴾ (٢) وقيل : تقديره تبتل نفسك اليه تبتيلا ، فوقع المصدر موقع مقاربه . وقوله ﴿ رب المشرق والمغرب ﴾ من رفع فعلى انه خبر مبتدإ محذوف ، وتقديره : هو رب المشرق ، ومن جر جعله بدلا من قوله ﴿ ربك ﴾ وتقديره إذكر اسم رب المشرق وهو مطلع الشمس موضع طلوعها ورب المغرب ، يعني موضع غروبها ، وهو المتصرف فيها والمدبر لما بينهما ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي لا احد تحق له العبادة سواه ﴿ فاتخذه وكيلا ﴾ أي حفيظاً للقيام بامرك فالوكيل الحفيظ بأمر غيره . وقيل : معناه اتخذه كافلا لما وعدك به .

ثم قال ﴿ واصبر ﴾ يا محمد ﴿ على ما يقول ﴾ هؤلاء الكفار من أذاك وما يشغل قلبك ﴿ واهجرهم هجراً جميلا ﴾ فالهجر الجميل اظهار الجفوة من غير ترك الدعاء إلى الحق على وجه المناصحة .

---

(١) مر في ٧ | ١١٧

(٢) سورة ٧١ نوح آية ١٧

قوله تعالى :

﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً (١٢) وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (١٨) إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ (١٩) تسع آيات .

لما امر الله تعالى النبي ﷺ بالصبر على اذى قومه ، وأن يهجرهم هجراً جميلا قال على وجه التهديد للكفار ﴿ وذرني ﴾ يا محمد ﴿ والمكذبين ﴾ الذين يكذبونك فيما تدعوهم اليه من التوحيد وإخلاص العبادة والاعتراف بالبعث والنشور ، والثواب والجزاء ، كما يقول القائل : دعني وإياه إذا أراد أن يهدده ، يقال : يذر بمعنى يترك ، ويدع ، ولا يستعمل ماضيه ، ولا ماضي (يدع) ولا يقال : وذر ، ولا ودع ، استغناء بقولهم ترك عن ذلك ، لان الابتداء بالواو عندهم مكروه ، ولذلك أبدلوا منها الهمزة فى قولهم (أقتت) والاصل (وقتت) ، وقالوا (تخمة) والاصل (وخمة) وكذلك كل ما يصرف منه مما فى أوله واو إلا قولهم : وادع من الدعة فلم يستغنوا عنه بتارك .

وقوله ﴿ اولي النعمة ﴾ معناه ذوي النعمة أي اصحاب النعمة ، والنعمة - بفتح النون - لين الملمس وضدها الخشونة ، ومعناه ﴿ وذرني والمكذبين ﴾ أي ارض بعقاب المكذبين لست تحتاج إلى اكثر من ذلك كما يقال : دعني وإياه ، فانه يكفيه ما ينزل به من غير تقصير مما يقع به ، وهذا تهدد شديد .

وقوله ﴿ ومهلهم قليلا ﴾ أي اخرهم فى المدة قليلا فالتمهيل التأخير فى المدة ، وقد يكون التأخير فى المكان ، فلا يسمى تمهيلا ، فاذا كان في المدة فهو تمهيل كما ان التأخير في الاجل تأجيل آخر .

وقوله ﴿ إن لدينا انكالا ﴾ أي قيوداً - في قول مجاهد وقتادة - واحدها نكل ﴿ وجحيماً ﴾ أي ناراً عظيمة ، وجحيم اسم من اسماء جهنم ﴿وطعاماًذا غصة﴾ قال ابن عباس معناه ذا غصة بشوك يأخذ الحلق ، فلا يدخل ولا يخرج . وقيل : معناه يأخذ بالحلقوم لخشونته وشدة تكرهه ﴿ وعذاباً اليما ﴾ أي عقاباً موجعاً مؤلما . ثم بين متى يكون ذلك ، فقال ﴿ يوم ترجف الارض ﴾ أي اعتدنا هذه الانواع من العذاب في يوم ترجف الارض أي تتحرك باضطراب شديد ﴿ والجبال ﴾ أي وترجف الجبال معها أيضاً ﴿ وكانت الجبال كثيباً مهيلا ﴾ قال ابن عباس : تصير الجبال رملا سائلا متناثراً ، فالكثيب الرمل المجتمع الكثير ، ومهيل مفعول من هلت الرمل اهيله وذلك إذا حرك اسفله فسال أعلاه ، ويقال : مهيول كما يقال مكيل ومكيول ، وانهال الرمل انهيالا و (الغصة) تردد اللقمة في الفم لا يسيغها الذي يروم أكلها قال الشاعر :

لو بغير المـــاء حلقي شرق ... كنت كالغصان بالماء اعتصاري (١)

---

(١) مر فى ١ / ١٣٠ ، ٤٢١ و ٦ / ١٥١

يقال غص بريقه يغص غصصاً ، وفي قلبه غصة من كذا ، وهي كالذغة التي لا يسيغ معها الطعام ولا الشراب .

وقوله ﴿ إنا أرسلنا اليكم رسولا شاهداً عليكم ﴾ اخبار من الله تعالى وخطاب للمكلفين في عصر النبي ﷺ ومن بعده بأنه أرسل اليهم رسولا يدعوهم إلى عبادته وإخلاص توحيده ﴿ شاهـداً عليكم ﴾ بقبولهم إن قبلوا وعليهم إن لم يقبلوا ﴿ كما أرسلنا ﴾ أي ارسلناه اليكم مثل ما أرسلنا ﴿ إلى فرعون رسولا ﴾ يعني موسى ابن عمران عليه السلام . ثم اخبر عن فرعون فقال ﴿ فعصى فرعون الرسول ﴾ يعني موسى ، فلم يقبل منه ما أمره به ودعاه اليه ﴿ فأخذناه أخذاً وبيلا ﴾ أي اخذاً ثقيلاً شديداً عقوبة له على عصيانه موسى رسول الله ، وكل ثقيل وبيل ، ومنه : كلأٌ مستوبل أي متوخم لا يستمرء اثقله ، ومنه الوبل ، والوابل ، وهو المطر العظيم القطر ، ومنه الوبال وهو ما يغلظ على النفس وأصله الغلظ قال طرفة :

فمرت كهاة ذات خيف جلالة عقيلة شيخ كالوبيل يلندد (١)

الوبيل ـ ههنا ـ الغليظ من العصى و (كهاة) ناقة مسنة و (الخيف) جلد الضرع و (يلندد) شديد الخصومة .

قوله ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾أي إن كفرتم بالله وجحدتم نعمه ، وكذبتم رسوله ، وإنمـا يجعل الولدان ، وهم الأولاد الصغار شيباً لشدته ، وعظم أهواله ، كما يقال : قد حـدث أمر تشيب منه النواصي . وقيل : ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ على وجه المثل ، والشيب جمع أشيب ، يقال : شاب الانسان يشيب شيباً إذا ابيض شعره . ثم زاد في صفة شدة ذلك اليوم أيضاً فقال ﴿ السماء منفطر به ﴾ أي متصدع بشدة ذلك اليوم ، وإنما لم يقل منفطرة ، لانه جرى

(١) ديوانه ٣٨ وتفسير القرطبي ١٨ | ٤٨

على طريق النسبة أي ذات انفطار ، ولم يجر على طريق (فاعلة) كما قالوا للمرأة : مطفل أي ذات طفل . وقال الزجاج : تقديره السماء منفطر باليوم مثقلة به . وقال الحسن : معناه السماء مثقل به . وقال غيره : السماء مثقلة بذلك اليوم من شدته . وقال قوم : معناه متشقق بالأمر الذي يجعل الولدان شيباً . والسماء يؤنث ويذكر ، فمن ذكر أراد السقف .

وقوله ﴿ كان وعده مفعولا ﴾ معناه إن ما وعد الله به فلا بد من كونه ، فلذلك عبر عنه بلفظ الماضي فكأنه قد وجد . ثم قال ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ أي هذه القصة التي ذكرناها وبيناها ﴿ تذكرة ﴾ أي عظة لمن انصف من نفسه وفكر فيها ، فالتذكرة التبصرة ، وهي الموعظة التي يذكر بها ما يعمل عليه .

وقوله ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ معناه إن من شاء من المكلفين اتخذ إلى ثواب ربه سبيلا ، لأنه قادر على الطاعة التي لو فعلها وصل الى الثواب . والله تعالى قد دعاه إلى ما يوصله اليه ورغبه فيه ، وبعث رسولا يدعوه ايضاً اليه . وإن لم يفعل فبسوء اختياره انصرف عنه .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ ٱللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَاقْرَؤُا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ

وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَآتُوا الزَّكَوةَ وَأَقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٠) آية واحدة .

قرأ نافع وابو عمرو وابن عامر ﴿ ونصفه وثلثه ﴾ بكسر الفاء والثاء بمعنى إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ومن نصفه ومن ثلثه أي وادنى من نصفه وأدنى من ثلثه .الباقون بالنصب بمعنى أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفه وثلثه . والثلث يخفف ويثقل ، لغتان ، ومثله ربع وعشر . وقال ابو عبيدة : الاختيار الخفض فى ﴿ ثلثه ونصفه ﴾ لانه قال ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ وكيف يقدرون على أن يقوموا نصفه أو ثلثه ، وهم لا يحصونه ، وقال غيره : ليس المعنى على ما قال وإنما المعنى علم أن لن يطيقوه ، يعني قيام الليل ، فخفف الله ذلك ، قال والاختيار النصب ، لا نها أوضح فى النظر ، لانه قال لنبيه ﷺ ﴿ قم الليل إلا قليلا ﴾ ثم نقله عن الليل كله إلا شيئاً يسيراً ينام فيه ، وهو الثلث . والثلث يسير عند الثلثين . ثم قال ﴿ نصفه ﴾ أي قم نصفه ﴿ أو انقص منه قليلا ﴾ أي قم نصفه ، واكتفى بالفعل الأول من الثاني ، لانه دليل عليه أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث ﴿ أوزد ﴾ هكذا إلى الثلثين جعله موسعاً عليه . وفى الناس من قال : هذه الآية ناسخة لما ذكره فى أول السورة من الأمر الحتم بقيام الليل إلا قليلا أو نصفه او انقص منه . وقال آخرون : إنما نسخ ما كان فرضاً إلى ان صار نفلا .

وقد قلنا : ان الأمر في أول السورة على وجه الندب ، فكذلك ـ ههنا ـ فلا وجه للتنافي حتى ينسخ بعضها ببعض يقول الله تعالى لنبيه ان ربك يا محمد ليعلم انك

تقوم اقل من ثلثي الليل واقل من نصفه ومن ثلثه فيمن جرّ ذلك ، ومن نصب فمعناه إنك تقوم أقل من ثلثي الليل وتقوم نصفه وثلثه وتقوم طائفة من الذين معك على الايمان ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ لتعملوا فيه بالصواب على ما يأمركم به ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ قال الحسن : معناه علم أن لن تطيقوه ﴿ فتاب عليكم ﴾ أي لم يلزمكم إثماً كما لا يلزم التائب أي رفع التبعة فيه كرفع التبعة عن التائب . وقوله ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم ان سيكون منكم مرضى ﴾ فتاب عليكم بما رغبتم فيه وذلك يقتضي التخفيف عنكم ﴿ وآخرون يضربون في الارض ﴾ أي ومنكم قوم آخرون يضربون أي يسافرون في الأرض ومنكم قوم ﴿ آخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ وكل ذلك يقتضي التخفيف عنكم ﴿ فاقرءوا ما تيسر منه واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ ومعناه اقيموا الصلاة بحدودها التي أوجبها الله عليكم واستمروا عليها وأعطوا ما وجب عليكم من الزكوة المفروضة ﴿ واقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ أي وانفقوا في سبيل الله والجهات التي أمركم بها وندبكم إلى النفقة فيها ، وسمي ذلك ﴿ قرضاً ﴾ تلطفاً في القول ، لان الله تعالى من حيث أنه يجازيهم على ذلك بالثواب ، فكأنه استقرض منهم ليرد عوضه وإنما قال ﴿ حسناً ﴾ أي على وجه لا يكون فيه وجه من وجوه القبح .

ثم قال ﴿ وما تقدموا لانفسكم من خير ﴾ أي ما فعلتم من الطاعات ﴿تجدوه﴾ أي تجدوا ثوابه وجزاءه ﴿ عند الله ﴾ وقوله ﴿ هو خيراً وأعظم أجراً ﴾ أي تجدوه خيراً لكم ، وهو أفضل واعظم ثواباً ، وهو عطف على (خير) . ثم قال ﴿ واستغفروا الله ﴾ على معاصيكم معاشر المكلفين ﴿ إن الله غفور ﴾ أي ستار لذنوبكم صفوح لاجرامكم إذا تبتم واقلعتم ورجعتم اليه ﴿ رحيم ﴾ بكم منعم عليكم . وقال ابن زيد : القرض في الآية النوافل سوى الزكاة .

٧٤ ـ سورة المدثر :

مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك هي مدنية وهي خمسون وست آيات في الكوفي والبصري والمدني الأول ، وخمس في المدني الاخير . وقال ابو سلمة ابن عبد الرحمن أول ما نزل من القرآن ﴿ يا أيها المدثر ﴾ وحكى ذلك ابو سلمة عن جابر بن عبد الله . قال قال رسول الله ﷺ (جاوزت بحراء فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً فنظرت عن شمالي فلم أر شيئاً فنظرت أمامي فلم أر شيئاً فنظرت خلفي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فلم أر شيئاً ، فاتيت خديجة فقلت دثروني وصبوا علي ماء بارداً قال فدثروني فصبوا علي ماء بارداً فنزلت ﴿ يا ايها المدثر ﴾ وقال الزهري : أول ما نزل قوله ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (١٠) عشر آيات ٠

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ يقول له ﴿ يا ايها المدثر ﴾ واصله المتدثر بثيابه ، فادغمت التاء في الدال ، لانها من مخرجها مع أن الدال اقوى بالجهر فيها ، يقال : تدثر تدثراً ودثره تدثيراً ، ودثر الرسم يدثردثوراً إذا محي أثره، فكأنه قال : يا ايها الطالب صرف الأذى بالدثار اطلبه بالانذار .

وقوله « قم فانذر » أمر من الله تعالى له أن يقوم وينذر قومه ، والانذار الاعلام بموضع المخافة ليتقى ، فلما كان لا مخافة أشد من الخوف من عقاب الله كان الانذار منه اجلّ الانذار ، وتقديره قم إلى الكفار فانذر من النار .

وقوله « وربك » منصوب بـ « كبر » والتكبير وصف الاكبر على اعتقاد معناه كتكبير المكبر في الصلاة بقوله الله اكبر ، والتكبير نقيض التصغير ، ومثله التعظيم . والكبير الشأن هو المختص باتساع المقدور والمعلوم من غير مانع من الجود . فالله تعالى قادر لا يعجزه شيء ، وعالم لايخفى عليه شيء لا يمنعه من الجود على عباده شيء ، فهو اكبر من كل كبير بما لا يساويه شيء ، واختصاصه بالمقدور والمعلوم بأنه ما صح من مقدور او معلوم فهو قادر عليه عالم به فهو لنفسه كبير واكبر من كل كبير سواه .

وقوله « وثيابك فطهر » أي وطهر ثيابك فهو منصوب به . والطهارة النظافة بانتفاء النجاسة ، لأن النظافة قد تكون بانتفاء الوسخ من غير نجاسة ، وقد تكون بانتفاء النجاسة . فالطهارة في الآية هو القسم الأخير . وقال ابن عباس « وثيابك فطهر » معناه من لبسها على معصيته ، كما قال سلامة بن غيلان الثقفي - انشده ابن عباس :

وإني بحمد الله لاثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع (١)

(١) سر في ٦ | ٤٨٩

وقال الزجاج : معناه لم أكن غادراً ، قال يقال : للغادر دنس الثياب أي لم أعص قط وقيل : معناه شمر ثيابك ـ وفي رواية عن ابن عباس وإبراهيم وقتادة ـ أن معناه وثيابك فطهر من الذنوب . وقال ابن سيرين وابن زيد : اغسلها بالماء . وقيل معناه شمر ثيابك ، وقيل : معناه وثيابك فطهر للصلاة فيها .

وقوله « والرجز » منصوب بقوله « فاهجر » وقال الحسن : كل معصية رجز وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والزهري : معناه فاهجر الاصنام . وقال ابراهيم والضحاك : الرجز الاثم . وقال الكسائي : الرجز ـ بكسر الراء ـ العذاب ، وبفتحها الصنم والوثن . وقالوا : المعنى اهجر ما يؤدي إلى العذاب ، ولم يفرق احد بينهما . وبالضم قرأ حفص ويعقوب وسهل . الباقون بالكسر إما لانهما لغتان مثل الذكر والذكر او بما قاله الكسائي . وقال قوم : الرجز بالضم الصنم . وقال : كان الرجز صنمين : أساف ونائلة ، نهى الله تعالى عن تعظيمها .

وقوله « ولا تمنن تستكثر » قال ابن عباس وابراهيم والضحاك وقتادة ومجاهد : معناه لا تعط عطية لتعطى أكثر منها ، وقال الحسن والربيع وانس : معناه لاتمنن حسناتك على الله مستكثراً لها ، فينفصل ذلك عند الله . وقال ابن زيد : معناه لا تمنن ما أعطاك الله من النبوة والقرآن مستكثراً به الأجر من الناس . وقال ابن مجاهد : معناه لا تضعف في عملك مستكثراً لطاعتك . وقال قوم : معناه لا تمنن على الناس بما تنعم به عليهم على سبيل الاستكثار لذلك . وقال جماعة من النحويين: إن (تستكثر) في موضع الحال ولذلك رفع. وأجاز الفراء الجزم على أن يكون جواباً للنهي ، والرفع هو الوجه . والمن ذكر النعمة بما يكدرها ، ويقطع حق الشكر بها ، يقال : منّ بعطائه يمنّ مناً إذا فعل ذلك ، فأما من على الاسير إذا أطلقه ، فهو قطع أسباب الاعتقال عنه . ويقال : لمن أنعم على وجه المن ، لأنه بهذه المنزلة . وأصله

القطع من قوله « فلهم أجر غير ممنون » (١) أى غير مقطوع . والاستكثار طلب الكثرة يقال : استكثر فلان من المال والعلم ، والمراد - ههنا - هو طلب ذكر الاستكثار للعطية .

وقوله « ولربك فاصبر » قال ابراهيم : من أجل ربك فاصبر على عطيتك . وقال مجاهد : لاجل الله فاصبر على أذى المشركين . وقيل : معناه « ولربك فاصبر » على ما أمرك به من أداء الرسالة وتعليم الدين ؛ وما ينالك من الاذى والتكذيب ، فاحتمله لتنال الفوز من الله بالنعيم والصبر الذى هو طاعة الله هو الصبر على الضرر الذى يدعو اليه العقل ، لان ما يدعو اليه العقل فخالق العقل يريده ، لأنه بمنزلة دعاء الأمر الى الفعل ، والسبب الذى يتقوى به على الصبر هو التمسك بداعي العقل دون داعي الطبع ، لان العقل يدعو بالترغيب فيما ينبغي أن يرغب فيه . والطبع داعي الهوى يدعو إلى خلاف ما في العقل .

وقوله ﴿ فاذا نقر فى الناقور ﴾ معناه إذا نفخ فى الصور ، وهو كهيأة البوق - فى قول مجاهد - وقيل : ان ذلك فى اول النفختين ، وهو أول الشدة الهائلة العامة . والناقور على وزن (فاعول) من النقر ، كقولك : هاضوم من الهضم وحاطوم من الحطم ، وهو الذي من شأنه أن ينقر فيه للتصويت به .

وقوله ﴿ فذلك يومئذ ﴾ يعني اليوم الذي ينفر فيه فى الناقور ﴿ يوم عسير ﴾ أى يوم شديد عسر « على الكافرين » لنعم الله الجاحدين لآياته « غير يسير » فاليسير القليل الكلفة ، ومنه اليسار وهو كثرة المال لقلة الكلفة به فى الانفاق ، ومنه تيسر الامر لسهولته وقلة الكلفة فيه . وقال الزجاج : قوله « يوم عسير » مرتفع بقوله « فذلك » والمعنى فذلك يوم عسير يوم النفخ فى الصور ، ويومئذ يجوز أن يكون

---

(١) سورة ٩٥ التين آية ٦

نصباً على معنى فذلك يوم عسير في يوم ينفخ في الصور ، ويجوز الرفع ، وإنما بني على الفتح لاضافته إلى (إذ) لأن (إذ) غير متمكنة .

قوله تعالى :

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (٢٥) خمس عشرة آية .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ على وجه التهديد للكافر الذي وصفه « ذرني ومن خلقت وحيداً » ومعناه دعني وإياه فاني كاف في عقابه كما تقول العرب : دعني وإياه لا أن الله تعالى يجوز عليه المنع حتى يقول : ذرني وإياه ، ولكن المعنى ما قلناه . وقوله « وحيداً » قال الزجاج : يحتمل ان يكون من صفة الخالق ، ويحتمل أن يكون من صفة المخلوق ، فاذا حملناه على صفة الخالق كان معناه دعني ومن خلقته متوحداً بخلقه لا شريك لي في خلقه وجعلته على الاوصاف التي ذكرتها ، وإذا حمل على صفه المخلوق ، كان معناه ومن خلقته في بطن أمه وحده لا شيء له ثم جعلت له كذا وكذا ـ ذكره مجاهد وقتادة ـ وقوله « وجعلت له مالا ممدوداً » أي مالا كثيراً له مدد يأتي شيئاً بعد شيء ، فوصفه بأنه ممدود يقتضي هذا المعنى . وقال مجاهد

وسعيد بن جبير : نزلت الآية في الوليد بن المغيرة المخزومي . وقالا : كان ماله الف دينار . وقال سفيان : كان ماله أربعة آلاف دينار . وقال النعمان بن سالم : كان أبرص . وقال عطاء عن عمر : كان غلة شهر شهر . وقال مجاهد : كان بنوه عشرة « وبنين شهوداً » أي واولاداً ذكوراً معه يستمتع بمشاهدتهم ، وينتفع بحضورهم . وقيل كان بنوه لا يغيبون عنه لغنائهم عن ركوب السفر في التجارة بخلاف من هو غائب عنهم .

وقوله « ومهدت له تمهيداً » أي سهلت له التصرف في الأمور تسهيلا وقد يكون التسهيل من المصيبة ليخف الحزن بها ، وقد يكون لما يتصرف فيه من المبالغة . وقوله « ثم يطمع أن ازيد » أي لم يشكرني على هذه النعم ، وهو مع ذلك يطمع ان أزيد في إنعامه . والتمهيد والتوطئة والتذليل والتسهيل نظائر .

ثم قال تعالى على وجه الردع والزجر « كلا » كأنه قال : ارتدع عن هذا وانزجر كما ان (صه) بمنزلة اسكت (ومه) بمنزلة اكفف . وإنما هي أصوات سمي الفعل بها ، فكأنه قال : انزجر ، فليس الأمر على ما تتوهم .

ثم بين لم كان كذلك فقال « إنه كان لآياتنا » أي إنما لم أفعل به ذلك ، لانه لحجتنا وأدلتنا « عنيداً » أي معانداً ، فالعنيد الذاهب عن الشيء على طريق العداوة له ، يقال عند العرق يعند عنوداً ، فهو عاند إذا نفر ، وهو من هذا ، والمعاندة منافرة المضادة ، وكذلك العناد ، وهذا الكافر يذهب عن آيات الله ذهاب نافر عنها . وقيل معنى « عنيد » عنود أي جحود بتكذيب المعاندة - في قول ابن عباس وقتادة - وقيل : معناه معاند ، وبعير عنود أي نافر قال الشاعر :

إذا نزلت فاجعلوني وسطا   إني كبير لا أطيق العندا (١)

(١) مر في ٦ / ١٤ ، ٢٨٣

أي نفراً ، وقوله « سأرهقه صعوداً » فالارهاق الاعجال بالعنف والصعود العقبة التي يصعب صعودها ، وهي الكؤد والكدود في ارتقائها ونقيض الصعود الهبوط ، وقيل : صعود جبل من نار في جهنم يؤخذون بارتقائه ، فاذا وضع يديه ذابت ، فاذا رفعها عادت وكذلك رجلاه في خبر مرفوع . وقيل : صعود جبل في جهنم من نار يضرب بالمقامع حتى يصعد عليه ، ثم يضرب حتى ينزل ذلك دأبه ابداً .

ثم قال « إنه فكر » أي فكر فكراً يحتال به للباطل ، لانه لو فكر على وجه طلب الرشاد لم يكن مذموماً بل كان ممدوحاً ، ولذلك مدح الله قوماً فقال « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (١) أي على وجه طلب الحق . وقوله « وقدر » أي قدر فقال : إن قلنا شاعر كذبتنا العرب باعتبار ما أتى به ، وإن قلنا كاهن لم يصدقونا ، لان كلامه لا يشبه كلام الكهان ، فنقول ساحر يأثر ما أتى به عن غيره من السحرة . فقال الله تعالى « فقتل » أي لعن « كيف قدر » هذا . ثم كرر تعالى فقال « ثم قتل كيف قدر » أي عوقب بعقاب آخر كيف قدر من ابطال الحق تقديراً آخر . وقيل : لعن بما يجري مجرى القتل ، ومثله « قتل الخراصون » (٢) وقال الحسن : هو شتم من الله لهذا الكافر .

وقوله « ثم نظر » نظر من ينكر الحق ويدفعه ، ولو نظر طلباً للحق كان ممدوحاً وكان نظره صحيحاً . وقوله « ثم عبس » أي قبض وجهه تكرها للحق ، يقال : عبس يعبس عبوساً ، فهو عابس وعباس فالعبوس والتكليح والتقطيب نظائر

(١) سورة ١٣ الرعد آية ٣ وسورة ٣٠ الروم آية ٢١ وسورة ٣٩ الزمر آية ٤٢ وسورة ٤٥ الجاثية آية ١٢ (٢) سورة ٥١ الذاريات آية ١٠

فى اللغة ، وضده الطلاقة والبشاشة . وقوله « وبسر » فالبسور بدو التكره الذى يظهر فى الوجه وأصله من قولهم : بسر بالأمر إذا عجل به قبل حينه ، ومنه البسر لتعجيل حاله قبل الارطاب قال توبة :

وقد رابني منها صدود رأيته　　وإعراضها عن حاجتي وبسورها(١)

فكأنه قيل : قبض وجهه وبدى التكره فيه . وقوله « ثم أدبر » فالادبار الأخذ فى جهة الدبر خلاف جهة الاقبال ، فذلك ادبار وهذا إقبال ، يقال : دبر يدبر دبوراً وأدبر إدباراً ، وتدبر نظر في عاقبة الأمر ، ودبره أى عمله على إحكام العاقبة وكل مأخوذ من جهة الخلف مدبر .

وقوله « واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر » أى طلب كبراً ليس له ، ولو طلب كبراً هو له لم يكن مذموماً ، وفي صفات الله تعالى « الجبار المتكبر » (٢) لانله الكبرياء ، وهو كبير الشأن في أعلى المراتب لاختصاصه باتساع مقدوراته والمعلوم في أعلى المراتب . وقيل : ان الوليد قال في القرآن : والله ليعلو وما يعلا وما هو بشعر ولا كهانة ، ولكنه سحر يؤثر من قول البشر ، والسحر حيلة يخفى سببها فيوهم الشيء على خلاف ما هو به وذلك منفي عن كل ما يشاهد ويعلم انه قدخرج عن العادة مما لا يمكن عليه معارضة ، ولو كان القرآن من قول البشر لا مكنهم أن يأتوا بمثله ، كما لو كان قلب العصا حية من فعل ساحر لأمكن السحرة أن يأتوا بمثله . ثم قال يعني الوليد « إن هذا إلا قول البشر » أى ليس هذا إلا قول البشر وليس من كلام الله عناداً منه وبهتاناً .

---

(١) مجاز القرآن ٢ \ ٢٧٥ والقرطبي ١٩ \ ٧٤
(٢) سورة ٥٩ الحشر آية ٢٣

قولـه تعـالى :

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٥) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ (٣٥) عشر آيات ٠

قرأ نافع وحمزة وحفص عن عاصم « إذ أدبر » باسكان الذال وقطع الهمزة من (أدبر) الباقون بفتح الذال والالف معها « دبر » بغير الف ٠ وقرأ ابن مسعود بزيادة الف ، ومن قال(دبر ، وأدبر) فهما لغتان ٠ قيل : هو مثل قبل واقبل والاختيار عندهم (أدبر) لقوله « إذا أسفر » ولم يقل إذا سفر ، لأن ابن عباس ، قال لعكرمة : حين دبر الليل ، لان العرب تقول : دبر فهو دابر ، وحجة نافع وحمزة قول النبي ﷺ (إذا اقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقـــد أفطر الصيام) ثم قال ابو عبيدة : أدبر ولى ، ودبرني جاء خلفي ٠

لما حكى الله تعالى صفات الكافر الذى ذكره وهو الوليد بن المغيرة ، وانه

فكر وقدر إلى ان قال : هذا القرآن سحر مأثور ، وهو قول البشر ، قال الله تعالى مهدداً له ومتوعداً « سأصليه سقر » أي ألزمه جهنم ، والاصلاء إلزام موضع النار أصلاه يصليه إصلاء واصطلى فهو يصطلي اصطلاء ، وصلاه يصليه ، واصله اللزوم . وسقر اسم من اسماء جهنم ، ولم يصرف للتعريف والتأنيث وأصله من سقرته الشمس تسقره سقراً إذا آلمت دماغه . وقد سميت النار سقر لشدة إيلامها ، ومنه الصقر بالسين والصاد ، لأن شدته في نفسه كشدة الألم في أذى صيده .

وقوله « وما أدراك ما سقر » إعظاماً للنار وتهويلا لها أي ولم يملك الله سقر على كنهها وصفتها ، ثم وصف بعض صفاتها فقال « لا تبقي ولا تذر » وقال مجاهد : معناه لا تبقي من فيها حياً ، ولا تذره ميتاً . وقال غيره : لا تبقي احداً من أهلها إلا تناولته ، ولا تذره من العذاب . والابقاء ترك شيء مما اخـذ ، يقال أبقى شيئاً يبقيه ابقاء ، وأبقاه الله أي اطال مدته . والباقي هو المستمر الوجود .

وقوله « لواحة للبشر » أي مغيرة لجلد الانسان الذي هو البشرة ـ في قول مجاهد ـ وقال المؤرج : لواحة بمعنى حراقة ، وبه قال الفراء . وقال غيرهما : معناه تلوح لجميع الخلق حتى يروها ، كما قال « وبرزت الجحيم لمن يرى »(١) لانه لايجوز أن يصفها بأنها تسود البشرة مع قوله « إنها لا تبقي ولا تذر » والتلويح تغير اللون إلى الأحمر والتلويح بالنار تغير بشرة أهلها إلى الاحمرار ، يقال: لوحته الشمس تلوحه تلويحا فهي لواحة على المبالغة في كثرة التلويح ، والبشر جمع بشرة ، وهي ظاهر الجلدة ، ومنه سمي الانسان بشراً ، لأنه ظاهر الجلدة ، بتعريه من الوبر والريش والشعر الذي يكون في غيره من الحيوان في غالب أمره .

وقوله « عليها تسعة عشر » أي على سقر تسعة عشر من الملائكة . وإنما خص بهذه العدة لتوافق صحة الخبر لما جاء به الانبياء قبله صلى الله عليه وآله ، ويكون في

(١) سورة ٧٩ النازعات آية ٣٦

ذلك مصلحة للمكلفين . وقد بين ذلك بقوله « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم » أي لم نجعل من يتولى تدبير النار إلا من الملائكة ولم نجعلهم على هذه العدة « إلا فتنة » ومحنة وتشديداً في التكليف « للذين كفروا » نعم الله وجحدوا ربوبيته ليلزمهم النظر في ذلك ، فلما كانت هذه العدة التي جعلت عليها الملائكة يظهر عندها ما كان في نفس الكافر مما يقتضيه كفره ، كان فتنة له ، لان الفتنة هي المحنة التي تخرج ما في النفس من خير او شر باظهار حاله كاظهار الحكاية للمحكي . والملك عبارة عما كان على خلاف صورة الجن والانس من المكلفين . وقال قوم : لا يكون ملكا إلا رسولا لانه من الرسالة ، كما قال الهذلي :

الكني اليها وخير الرسو ل أعلمهم بنواحي الخبر (١)

واصله ملأك بالهمز كما قال الشاعر :

فلست لانسي ولكن بملأك تنزل من جو السماء يصوب (٢)

والملك عظيم الخلق شديد البطش كريم النفس . والاصل نفسه منشرحة بالطاعة إنشراح الكريم بالجود ، وأصله من النور . ووجه دلالة هذه العدة من الملائكة على نبوة النبي صلى الله عليه وآله هو انه اذا كان الله ـ عز وجل ـ قد اخبر به في الكتب المتقدمة ولم يكن محمد صلى الله عليه وآله ممن قرأها ولا تعلمها من أحد من الناس دل على أن الله أعلمه وانزل عليه به وحياً أبانه به من جميع الخلق ليدل على صدقه مع انه احد الاشياء التي أخبر بها على هذه الصفة « ليستيقن الذين أوتوا الكتاب » والتقدير ليعلم أهل الكتاب يقيناً ان محمداً صادق من حيث اخبر بما هو في كتبهم من غير قراءة لكتبهم ولا تعلم منهم « ويزداد الذين آمنوا إيماناً » أي ويزداد بذلك ايضاً المؤمنون الذين عرفوا الله إيماناً مضافاً الى ايمانهم . ووجه المحنة على الكفار بتكليفهم ان يستدلوا حتى

(١) مر في ٨ / ١١ ، ٢٩٩ (٢) اللسان (ملك)

يعرفوا ان الله تعالى قادر ان يقوي هذه العدة من الملائكة بما يفي بتعذيب أهل النار على ما هم عليه من الكثرة « ولا يرتاب » أى لا يشك « الذين أوتوا الكتاب» في خبره ولا يرتاب أيضاً « المؤمنون » في خبره .

وقوله« وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون »ومعناه لئلا يقول الذين في قلوبهم شك ونفاق ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ اى أي شيء اراد الله بهذا مثلا . وقيل اللام في قوله ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض ﴾لام العاقبة كما قال﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدّوا وحزناً ﴾ (١) فقال الله تعالى﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ أى مثل ما فضح الله هؤلاء الكفار وذمهم مثل ذلك يضل من يشاء من الكفار . والاضلال ـ ههنا ـ اظهار فضيحة الكفار بما يوجب الذم ، ومعناه الحكم عليهم بالضلال عن الحق ، والاخبار بأنهم يستحقون اللعن بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وآله ، وما انزل عليه . ونقيضه الهداية أي و[illegible] هداية المؤمنين إلى الحق ومصيرهم الى الطاعة ، وتصديقهم بالحق عند نزوله وقبو[illegible] . وقال ابن عباس وقتادة والضحاك: عدة الملائكة الموكلين بالنار فى التوراة والانجيل تسعة عشر .

ثم اخبر تعالى فقال ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ أي لا يعلم جنود الله إلا الله . ثم قال ﴿ وما هي إلا ذكرى للبشر ﴾ قيل معناه إن النار فى الدنيا تذكير بالنار فى الآخرة . وقال قتادة ومجاهد : النار الموصوفة بهذه الصفة ذكرى للبشر وعظة لهم . وقال البلخي : إلا ذكرى للبشر أي الجنود ذكرى أي عظة للبشر ، لان الله تعالى لايحتاج الى ناصر ومعين .

ثم قال ﴿ كلا والقمر ﴾ أي حقاً ثم اقسم بالقمر ﴿ والليل إذ ادبر ﴾ قيل معناه إذا ولى يقال : دبر وادبر ، وقد قرىء بهما . وقيل : إنما دبر الليل بان جاء

---

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٨

بعدة النهار وآخره . وتقول العرب : قبح الله ما قبل منك وما دبر ﴿والصبح إذا اسفر﴾ أي اضاء وأنار ـ في قول قتادة ـ وهو قسم آخر . وقال قوم : التقدير ورب هذه الاشياء ، لان اليمين لا يكون إلا بالله . وقال قوم : معنى قوله ﴿ والصبح اذا اسفر ﴾ أي كشف عن الظلام وأنار الاشخاص . وقوله ﴿ انها لاحدى الكبر ﴾ جواب القسم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : معناه إن النار لأحدى الكبر . وقال قوم : ان هذه الآية لاحدى الكبر . والكبر جمع الكبرى ، وهي العظمى وروي عن ابن كثير أنه ﴿ قرأ إنها لحدى الكبر ﴾ لا يهمزه ولا يكسر يسقط الهمزة تخفيفاً ، كقولهم في زيد الاحمر زيد لحمر . وفي أصحاب الايكة اصحاب ليكة . والاختيار قطع الألف ، لأن العرب اذا حذفت مثل هذا نقلت حركة الهمزة إلى ما قبلها ، واللام قبل هذه الهمزة متحركة ، واللام في الاحمر لام التعريف ساكنة .

قوله تعالى :

﴿ نَذِيراً لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ

قَسْوَرَةٍ(٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ آمْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً(٥٢) كَلاَّ بَلْ لاَ يَخَافُونَ الآخِرَةَ (٥٣) كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ(٥٤) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ آللهُ هُوَ أَهْلُ آلتَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ (٥٦) احدى وعشرون آية

قرأ نافع وابن عامر وابو جعفر ﴿ مستنفرة ﴾ بفتح الفاء . الباقون بكسرها ومعناها متقارب ، لان من فتح الفاء أراد أنه نفرها غيرها ، ومن كسر الفاء اراد أنها نافرة ، وانشد الفراء :

امسك حمارك إنه مستنفر　　في أثر أحمرة عمدن لغرّب (١)

والنفور الذهاب عن الخوف بانزعاج ، نفر عن الشيء ينفر نفوراً فهو نافر ، والتنافر خلاف التلاؤم ، واستنفر طلب النفور ﴿ ومستنفرة ﴾ طالبة للنفور . وقرأ نافع ويعقوب ﴿ وما تذكرون ﴾ بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر

لما اخبر الله تعالى ان الآية التي ذكرها لأحدى الكبر ، بين أنه بعث النبي ﴿ نذيراً للبشر ﴾ أي منذراً مخوفاً معلماً مواضع المخافة ، والنذير الحكيم بالتحذير عما ينبغي ان يحذر منه ، فكل نبي نذير ، لأنه حكيم بتحذيره عقاب الله تعالى على معاصيه ﴿ ونذيراً ﴾ نصب على الحال . وقال الحسن : إنه وصف النار وقال ابن زيد : هو وصف النبي . وقال أبو رزين : هو من صفة الله تعالى ، فمن قال : هو للنبي قال كأنه قيل : قم نذيراً . وقوله ﴿ لمن شاء منكم أن يتقدم او يتأخر ﴾ معناه إن هذا الانذار متوجه إلى من يمكنه ان يتقي عذاب النار بأن يجتنب معاصيه ويفعل طاعاته ، فيقدر

---

(١) اللسان ﴿ نفر ﴾

على التقدم والتأخر في أمره بخلاف ما يقوله المجبرة الذين يقولون بتكليف مالا يطاق لمنع القدرة . وقال قتادة : معناه لمن شاء منكم أن يتقدم في طاعة الله أو يتأخر عنها بمعصيته . والمشيئة هي الارادة .

وقوله ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ معناه إن كل نفس مكلفة مطالبة بما عملته وكسبته من طاعة او معصية ، فالرهن أخذ الشيء بأمر على أن لا يرد إلا بالخروج منه رهنه يرهنه رهناً قال زهير :

وفارقتك برهن لافكاك له يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا (١)

وكذلك هؤلاء الضلال قد أخذوا برهن لافكاك له . قال الرماني : في ذلك دلالة على القائلين باستحقاق الذم ، لانه عم الارتهان بالكسب في هذا الموضع ، وهم يزعمون انه يرتهن بأن لم يفعل ما وجب عليه من غير كسب شيء منه ، فكانت الآية حجة على فساد مذهبهم . وهذا الذي ذكره ليس بصحيح ، لان الذي في الظاهر ان الانسان رهن بما كسبت يداه . ولم يقل: ولا يرهن إلا بما كسب له إلا من جهة دليل الخطاب الذي هو فاسد عند اكثر الاصوليين ، على ان الكسب هو ما يجتلب به نفع او يدفع به ضرر ، ويدخل في ذلك الفعل ، وألا يفعل ، فلا تعلق في الآية .

ولما ذكر تعالى أن ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ استثنى من جملة النفوس فقال ﴿ إلا اصحاب اليمين ﴾ والاستثناء منقطع ، لان اصحاب اليمين ليسوا من الضلال الذين هم رهن بما كسبوه ، وتقديره لكن أصحاب اليمين ﴿ في جنات ﴾ أي بساتين آجنها الشجر ، واصحاب اليمين هم كل من لم يكن من الضالين . وقال الحسن : هم اصحاب الجنة . وقال قوم : هم الذين ليس لهم شيء من الذنوب . وقال قوم :

---

(١) ديوانه ٣٩ (دار بيروت)

هم اطفال المؤمنين . وقوله ﴿ يتساءلون ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً ﴿ عن المجرمين ﴾ العصاة في طاعة الله ، فيقولون لهم ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ أي ما أدخلكم في جهنم فالمجرم هو القاطع بالخروج عن أمر الله ونهيه الى إرتكاب الكبائر من القبيح ، والجارم القاطع . والسلوك الدخول . وسقر اسم من اسماء جهنم . ثم حكى ما يجيبهم به اصحاب النار فانهم يقولون لهم : ادخلنا في النار لانا ﴿ لم نك من المصلين ﴾ أي لم نك نصلي ما أوجب علينا من الصلاة المفروضه على ما قررها الشرع ، وفي ذاك دلالة على أن الاخلال بالواجب يستحق به الذم والعقاب ، لانهم لم يقولوا انا فعلنا تركاً للصلاة بل علقوا استحقاقهم للعقاب بالاخلال بالصلاة وفيها دلالة على أن الكفار مخاطبون بالعبادة لان ذاك حكاية عن الكفار بدلالة قوله في آخر الآية ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ .

وقوله ﴿ ولم نك نطعم المسكين ﴾ أي لم نكن نخرج الزكوات التي وجبت علينا ، والكفارات التي يلزمنا دفعها الى المساكين . وهم الفقراء ، فالمسكين الذي سكنته الحاجة الى ما في ايدي الناس عن حال النشط . وحال الفقير اشد من حال المسكين . قال الله تعالى ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ﴾ (١) فسماهم الله مساكين مع أن لهم مركباً في البحر قال الشاعر :

أنا الفقير الذي كانت حلوبته   وفق العيال فلم يترك له سبد (٢)

﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ قال قتادة : معناه كلما غوى غاوياً لدخول في الباطل غوينا معه أي كنا نلوث انفسنا بالمرور في الباطل كتلويث الرجل بالخوض فلما كان هؤلاء يخرجون مع من يكذب بالحق مشيعين لهم في القول كانوا خائضين معهم ﴿ وكنا ﴾ مع ذاك ﴿ نكذب بيوم الدين ﴾ اي كنا نجحد يوم الجزاء وهو يوم القيامة ، فالتكذيب تنزيل الخبر على انه كذب باعتقاد ذاك فيه أو الحكم به ،

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٨٠   (٢) مر تخريجه في ٥ / ٢٨٣

فهؤلاء اعتقدوا ان الخبر بكون يوم الدين كذب . والدين الجزاء ، وهو الايصال إلى كل من له شيء او عليه شيء ما يستحقه ، فلذلك يوم الدين ، وهو يوم الجزاء وهو يوم أخذ المستحق بالعدل . وقوله ﴿ حتى أتانا اليقين ﴾ معناه حتى جاءنا العلم واليقين الذي يوجد برد الثقة به فى الصدر أو دليله ، يقال : وجد فلان برد اليقين وثلج فى صدره ، ولذلك لا يوصف الله تعالى بأنه متيقن ، فقال الله تعالى لهم « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » الذين يشفعون لهم ، لأن عـذاب الكفر لا يسقطه الله بالشفاعة، بالاجماع . ثم قال « فما لهم عن التذكرة » أي أي شيء لهم ؟ ولم أعرضوا وتولوا عن النبوة والرشد ؟ ! ولم يتعظوا به إلى ان صاروا الى جهة الضلال على وجه الانكار عليهم . ثم شبههم ، فقال « كأنهم حمر مستنفرة » أي مثلهم فى النفور عما تدعوهم اليه من الحق واعراضهم، مثل الحمر إذا نفرت ومرت على وجهها إذا « فرت من قسورة » وهو السبع يعني الاسد ، يقال نفر ، واستنفر ، مثل علا متنه واستعلاه وسمع إعرابي رجلا يقرأ ﴿ كأنهم حمر مستنفرة ﴾ فقال : طلبها قسورة ، فقيل له : ويحك إن فى القرآن ﴿ فرت من قسورة ﴾ قال (مستنفرة) إذاً ، فالفرار الذهاب عن الشيء خوفاً منه ، فر يفر فراً وفراراً ، فهو فار إذا هرب والفار الهارب . والهرب نقيض الطلب ، واصل الفرار الانكشاف عن الشيء ، ومنه فر الفرس يفره فراً إذا كشف عن سنه . والقسورة الاسد . وقيل : هو الرامي للصيد . وأصله الأخذ بالشدة من قسره يقسره قسراً أي قهره . وقال ابن عباس : القسورة الرماة وقال سعيد بن جبير : هم القناص . وفى رواية أخرى عن ابن عباس: جماعة الرجال وقال ابو هريرة : هو الاسد . وهو قول زيد بن اسلم ، وفى رواية عن ابن عباس وابي زيد : القسور بغير هاء تأنيث .

وقوله ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ اخبار من الله

تعالى بأنهم ليسوا كالحمر المستنفرة الفارة من القسورة ، بل لأن كل رجل منهم يريد أن يعطى صحفاً منشرة .قال الحسن وقتادة ومجاهد : انهم يريدون صحفاً منشرة أي كتباً تنزل من السماء كتاباً إلى فلان وكتاباً الى فلان: أن آمنوا بمحمد ﷺ . وقيل : إنهم قالوا كانت بنو إسرائيل إذا اذنب منهم مذنب أنزل الله كتاباً أن فلاناً أذنب فما بالنا لاينزل علينا مثل ذلك إن كنت صادقاً به ؟ والصحف جمع صحيفة ، وهي الورقة التي من شأنها ان تقلب من جهة إلى جهة ، لما فيها من الكتابة ، وتجمع الصحيفة صحفاً وصحائف ، ومنه مصحف ومصاحف . والنشر بسط ما كان مطوياً او ملتفاً من غير التحام . وقيل : معناه إنهم يريدون صحفاً من الله تعالى بالبراءة من العقوبة واسباغ النعمة حتى يؤمنوا وإلا أقاموا على أمرهم . وقيل :تفسيره ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿ ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ (١) فقال الله تعالى ﴿ كلا ﴾ أي حقاً ليس الأمر على ما قالوه ﴿ بل لا يخافون ﴾ هؤلاء الكفار ﴿الآخرة﴾ بجحدهم صحته . ثم قال ﴿ انه تذكرة ﴾ يعني القرآن تبصرة وموعظة لمن عمل به واتعظ بما فيه ، وهو قول قتادة . ثم قال ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي من شاء أن يتعظ بما فيه وهو يتذكر به ، فعل ، لأنه قادر عليه . ثم قال﴿وما يذكرون إلا ان يشاءالله﴾ من قرأ بالتاء ، فعلى الخطاب ، ومن قرأ بالياء ، فعلى الاخبار عنهم . ومعناه ليس يتذكرون ولا يتعظون بالقرآن إلا ان يشاء الله ، ومعناه إلا والله شاءه له ، لأنه طاعة والله يريد الطاعات من خلقه . وقوله ﴿ هو اهل التقوى واهل المغفرة ﴾ معناه هو اهل ان يتقى عقابه ، واهل ان يعمل بما يؤدي الى مغفرته . وقيل : معناه هو اهل ان يغفر المعاصي إذا تاب المذنب من معاصيه .

---

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٩٣

٧٥ ـ سورة القيامة :

مكية فى قول ابن عباس والضحاك وهي أربعون آية فى الكوفي وتسع وثلاثون فى البصري والمدنيين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لاَ أُقسِمُ بيومِ القِيٰمَةِ (١) وَلاَ أُقسِمُ بِٱلنَّفسِ ٱللوَّامَةِ (٢) أيحسَبُ الإنسَانُ أَلَّن نجمَعَ عِظَامَهُ (٣) بلىٰ قادرِينَ علىٰ أن نُسوِّيَ بنَانَهُ (٤) بل يُرِيدُ الإنسَانُ لِيفجُرَ أمامَهُ (٥) يسئَلُ أيَّانَ يومُ القِيٰمَةِ (٦) فإذَا برِقَ البَصرُ (٧) وَخسَفَ القَمرُ (٨) وَجُمِعَ ٱلشَّمسُ وَالقَمَرُ (٩) يقُولُ الإنسَانُ يَومَئذٍ أينَ المَفرُّ﴾ (١٠)

عشر آيات .

قرأ ﴿برق﴾ بفتح الراء اهل المدينة وأبان عن عاصم . الباقون بكسر الراء وقرأ القواس عن ابن كثير ﴿لأقسم﴾ باثبات القسم جعل اللام لام تأكيد ، واقسم ، والاختيار لمن قصد هذا ﴿لأقسمن﴾ وقد روي ذلك عن الحسن ، قال : لان الله تعالى اقسم بيوم القيامة ، ولم يقسم بالنفس اللوامة . وقال مقاتل : لم يقسم الله تعالى

بالقيامة إلا في هذه السورة فقط . الباقون ﴿ لا اقسم ﴾ التقدير بنفي اليمين في اللفظ واختلف في ذلك النحويون فقال ابو عبيدة والكسائي (لا) صلة والتقدير اقسم . وقال قوم (لا) تزيدها العرب لا إبتداء ، لكن (لا) ههنا رد لقوم انكروا البعث وكفروا بالتنزيل . فقال الله ﴿ لا ﴾ أي ليس كما تقولون . ثم قال ﴿ اقسم بيوم القيامة ﴾ قال ابن خالويه : (لا) تنقسم اربعين قسما ذكرته في كل مفرد .

قوله ﴿ لا أقسم ﴾ معناه اقسم و (لا) صلة في قول سعيد بن جبير . وقال ابن عباس (لا) تأكيد كقولك : لا والله . بلى والله ما كان كذا ، فكأنه قال لا ، اقسم بيوم القيامة ما الأمر على ما توهموه . والقسم تأكيد الخبر بما جعله في حيز المتحقق . والمعنى اقسم بيوم القيامة ويوم القيامة هو النشأة الاخيرة التي تقوم فيها الناس من قبورهم للمجازاة ، وبذلك سميت القيامة ، ويومها يوم عظيم ، على خطر عظيم جسيم .

وقوله ﴿ ولا اقسم بالنفس اللوامة ﴾ قسم ثان ، ومعناه معنى الاول . وقال الحسن : أقسم تعالى بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة ، بل نفى ان يقسم بها . قال الرماني : وهذا يضعف ، لانه يخرج عن تشاكل الكلام . وقيل : ان جواب القسم محذوف ، وتقديره ما الامر على ما تتوهمون . وقال قوم : جواب القسم قوله ﴿ بلى قادرين ﴾ .

واللوامة الكثيرة اللوم لقلة رضاها بالأمر وتمييز ما يرضى مما لا يرضى ، وما يلام عليه مما لا يلام عليه . وقال ابن عباس : اللوامة من اللوم . وقال مجاهد : تلوم على ما مضى وفات . وقال قتادة : اللوامة الفاجرة ، كأنه قال ذات اللوام الكثير . وقال سعيد بن جبير : هي التي تلوم على الخير والشر وقيل : معناه لاصبر لها على محن الدنيا وشدائدها ، فهي كثيرة اللوم فيها . وقال

الحسن : اللوامة هي التي تلوم نفسها على ما ضيعت من حق الله يوم القيامة ، وهي نفس الكافر . وقيل : معناها أنها تلوم نفسها في الآخرة على الشر لم عملته وعلى الخير هلا استكثرت منه .

وقوله ﴿ ايحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ﴾ صورته صورة الاستفهام ومعناه الانكار على من أنكر البعث والنشور ، فقال الله له ايظن الانسان الكافر أن لن نجمع عظامه ونعيده إلى ما كان أولا عليه . ثم قال : ليس الأمر على ما ظنه ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ قال ابن عباس : يجعل بنانه كالخف والحافر فيتناول المأكول بفيه ، ولكننا مننا عليه . وقال قتادة كخف البعير او حافر الدابة . ونصب (قادرين) على أحد وجهين :

احدهما ـ على تقدير بلى نجمعها قادرين .

والآخر ـ بلى نقدر قادرين إلا أنه لم يظهر (نقدر) لدلالة (قادرين) عليه ، فاستغني به . وقيل : معناه بلى قادرين على ان نسوي بنانه حتى نعيده على ما كان عليه خلقاً سوياً .

وقوله ﴿ بل يريد الانسان ليفجر أمامه ﴾ اخبار منه ان الانسان يفجر أمامه ومعناه يمضي أمامه راكباً رأسه في هواه ـ في قول مجاهد ـ أي فهذا الذي يحمله على الاعراض عن مقدورات ربه ، فلذلك لا يقر بالبعث والنشور . وقال الزجاج : إنه يسوف بالتوبة ويقدم الاعمال السيئة . قال : ويجوز أن يكون المراد ليكفر بما قدامه من البعث بدلالة قوله ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ فهو يفجر أمامه بأن يكذب بما قدامه من البعث . وقوله ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ معناه ان الذي يفجر أمامه يسأل متى يكون يوم القيامة ؟ فمعنى (أيان) (متى) إلا ان السؤال بـ (متى) اكثر من السؤال بـ (أيان) ، فلذلك حسن ان يفسر بها لما دخلها من الابهام الذي يحتاج

فيه الى بيان ما يتصل بها من الكلام . والسؤال على ضربين : سؤال تعجيز ، وسؤال طلب التبيين .

وقوله ﴿ فاذا برق البصر ﴾ فالبرق اللمعان بالشعاع الذي لا يلبث ، لانه مأخوذ من البرق ، يقال : برق يبرق برقاً ، وإنما قيل ﴿ برق البصر ﴾ لان ذلك يلحقه عند شدة الأمر . والبارقة الذين تلمع سيوفهم إذا جردوها كالبرق ، وانشد ابو عبيدة للكلابي :

لما اتاني ابن عمير راغباً   اعطيته عيساً صهاباً فبرق (١)

بكسر الراء وانشد الفراء :

نعاني حنانة طوبًا له   يسف يبساً من العشرق

فنفسك فانع ولا تنعني   وداو الكلوم ولا تبرق (٢)

بالفتح ، أي لا تفزع من هول الجراح . و (حنانة) اسم رجل و (طوبا) له نعجة ، وقال ابن خالويه : من كسر قال : لان (برق) بالفتح لا يكون إلا في الضوء يقال برق البرق إذا لمع ، وبرق الحنظل ، فاما برق بالكسر ، فمعناه تحير ، والذي قاله اهل اللغة إنهما لغتان ، وتقول العرب ، الكل داخل : برقة أي دهشة . وقال الزجاج : برق إذا فزع وبرق اذا حار .

وقوله ﴿ وخسف القمر ﴾ أي ذهب نوره بغيبة النور عن البصر ، وخسف وكسف بمعنى كأنه يذهب نوره في خسف من الارض فلا يرى .

وقوله ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ أي جمعا في ذهاب نورهما بما يراه الانسان والجمع جعل احد الشيئين مع الآخر . والجمع على ثلاثة اقسام : جمع في المكان ، وجمع

(١) مجاز القرآن ٢ / ٢٧٧ والقرطبي ١٩ / ٩٤

(٢) قائله طرفة بن العبد ديوانه ٧٠ (دار بيروت) البيت الثاني فقط

فى الزمان ، وجمع الاعراض فى المحل . وجمع الشيئين في حكم او صفة مجاز .

وقوله ﴿ يقول الانسان يومئذ اين المفر ﴾ اخبار من الله تعالى بأن الانسان يقول فى ذلك الوقت : اين المهرب ؟ والفرار بفتح الفاء . وروي عن ابن عباس ﴿ أين المفر ﴾ بكسر الفاء . قال الزجاج : المفر بفتح الفاء مصدر ، وبالكسر مكان الفرار . وهذا سؤال تعجيز عن وجود مفر يهرب اليه من عذاب الله فى ذلك اليوم . وقيل فيه معنى جواب هذا السائل ، كأنه قيل يوم القيامة إذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر . والمفر مصدر . ويجوز فيه الكسر ، ومثله مدب ومدب وقال البصريون : الكسر لمكان الفرار . وقال الفراء الفتح والكسر لغتان .

قوله تعالى :

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ (٢٥) خمس عشرة آية

قرأ ﴿ كلا بل يحبون العاجلة ويذرون الآخرة ﴾ بالياء فيهما ابن كثير

وابو عمرو وابن عامر على وجه الاخبار عنهم . الباقون بالتاء على وجه الخطاب لهم.

لما حكى الله تعالى عن الكافر انه يقول يوم القيامة ﴿ اين المفر ﴾ والمهرب حكى ما يقال له ، فانه يقال له ﴿ كلا لا وزر ﴾ أي لا ملجأ . والوزر الملجأ من جبل يتحصن به او غيره من الحصون المنيعة . ومنه الوزير المعين الذي يلجأ اليه فى الامور ، يقال وزرت الحائط إذا قويته بأساس يعتمد عليه . وقال ابن عباس ومجاهد : لاوزر ، معناه لا ملجأ . وقال الحسن : لاجبل ، لان العرب إذا دهمتهم الخيل بغتة، قالوا : الوزر ، يعنون الجبل ، قال ابن الدمينة :

لعمرك ما للفتى من وزر من الموت ينجو به والكبر [١]

وقال الضحاك : معناه لا حصن . وقيل معناه لا منجا ينجو اليه ، وهو مثل الملجأ . ثم قال تعالى ﴿ الى ربك يومئذ المستقر ﴾ أي المرجع الذي يقر فيه . ومثله المأوى والمثوى ، وخلافه المرتحل . والمستقر على وجهين : مستقر إلى أمد ، ومستقر على الابد .

وقوله ﴿ ينبؤ الانسان يومئذ بما قدم واخر ﴾ أي يخبر بجميع ما عمله ، وما تركه من الطاعات والمعاصي ، فالنبأ الخبر بما يعظم شأنه ، وحسن في هذا الموضع لان ما جرى مجرى اللغو والمباح لا يعتد به فى هذا الباب . وإنما الذي يعظم شأنه من عمل الطاعة والمعصية هو ما يستحق عليه الجزاء . فأما ما وجوده كعدمه ، فلا اعتبار به . والتقديم ترتيب الشيء قبل غيره . وضده التأخير وهو ترتيب الشيء بعد غيره ، ويكون التقديم والتأخير فى الزمان، وفى المكان، وفى المرتبة ، كتقديم المخبر عنه في المرتبة ، وهو مؤخر فى الذكر ، كقولك : فى الدار زيد ، وكذلك الضمير فى (غلامه ضرب زيد) وهو مقدم فى اللفظ ومؤخر فى المرتبة . وقال ابن عباس : ينبأ بما قدم

(١) مجاز القرآن ٢ /٢٧٧ والقرطبي ١٩ | ٩٦

من المعصية وأخرّ من الطاعة . وقال مجاهد : يعني بأول عمله وآخره . وقال ابن زيد : ما أخذ وترك . وفي رواية عن ابن عباس ، وهو قول ابن مسعود : بما قدم قبل موته ، وما اخر من سنة يعمل بها بعد موته ، وقيل ما قدم وأخر جميع أعماله التي يستحق بها الجزاء .

وقوله « بل الانسان على نفسه بصيرة » أي شاهد على نفسه بما تقوم به الحجة ـ ذكره ابن عباس ـ كما يقال : فلان حجة على نفسه . وقد قال تعالى « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (١) وقال الزجاج : معناه بل الانسان تشهد عليه جوارحه كما قال « يوم تشهد عليهم » (٢) والهاء في (بصيرة) مثل الهاء في (علامة) للمبالغة . وقيل شهادة نفسه عليه أولى من اعتذاره . وقيل تقديره بل الانسان على نفسه من نفسه بصيرة : جوارحه شاهدة عليه يوم القيامة ولو اعتذر كان شاهداً عليه من يكذب عذره . وقوله « ولو القى معاذيره » معناه ولو اقام الاعتذار عند الناس ، وفي دار التكليف واستسر بالمعاصي بارخاء الستر . وقال ابن عباس : معناه ولو اعتذر . وقال السدي : معناه ولو ارخى الستور وأغلق الأبواب . وقال الزجاج : معناه لو أتى بكل حجة عنده . والمعاذير التنصل من الذنوب بذكر العذر ، واحدها معذرة من قوله « لا ينفع الظالمين معذرتهم » (٣) وقيل : المعاذير ذكر مواقع تقطع عن الفعل المطلوب . والعذر منع يقطع عن الفعل بالأمر الذي يشق . والاعتذار الاجتهاد في تثبيت العذر .

وقوله « لا تحرك به لسانك لتعجل به » قال ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك : كان النبي ﷺ إذا نزل عليه القرآن عجل بتحريك لسانه لحبه إياه ،

---

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ١٤ (٢) سورة ٢٤ النور آية ٢٤

(٣) سورة ٤٠ المؤمن آية ٥٢

فنهاه الله عن ذلك . والتحريك تغيير الشيء من مكان إلى مكان او من جهة الى جهة بفعل الحركة فيه ، والحركة ما به يتحرك المتحرك ، والمتحرك هو المنتقل من جهة الى غيرها . واللسان آلة الكلام . والعجلة طلب عمل الشيء قبل وقته الذي ينبغي أن يعمل فيه ، ونقيضه الابطاء ، والسرعة عمل الشيء فى أول وقته الذي هو له ، وضده الاناة .

وقوله « إن علينا جمعه وقرآنه » قال ابن عباس والضحاك : معناه ان علينا جمعه فى صدرك ، وقراءته عليك حتى يمكنك تلاوته . وقال قتادة : معناه إن علينا جمعه فى صدرك وتأليفه على ما نزل عليك. وقال ابن عباس - فى رواية اخرى- إن معناه إن علينا بيانه من حلاله وحرامه بذكره لك . وقال قتادة : معناه نذكر احكامه ونبين لك معناه إذا حفظته . وقال البلخي : الذي أختاره انه لم يرد القرآن وإنما اراد قراءة العباد لكتبهم يوم القيامة ، لان ما قبله وبعده يدل على ذلك ، وليس فيه شيء يدل على انه القرآن ، ولا على شيء من أحكام الدنيا ، وفى ذلك تقريع للعبد وتوبيخ له حين لا تنفعه العجلة . والقرآن من الضم والتأليف ، قال عمرو بن كلثوم :

ذراعي عيطل أدماء بكر   هجان اللون لم تقرأ جنينا (١)

أي لم تضم رحماً على ولد . وقوله « فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » قال ابن عباس : معناه إذا قرأناه أي تلوناه فاتبع قراءته بقراءتك ، وقال قتادة والضحاك : معناه بأن يعمل بما فيه من الاحكام والحلال والحرام . وقيل : معناه فاذا قرأه جبرائيل عليك فاتبع قراءته . والاتباع مراجعة الثاني للاول فيما يقتضيه ، ومثله الاقتداء والاحتذاء والائتمام ، ونقيضه الخلاف . والبيان إظهار المعنى للنفس بما يتميز به من غيره بان الشيء يبين إذا ظهر وأبانه غيره أي اظهره بياناً وإبانة ، ونقيض البيان

(١) مر تخريجه في ٢ | ٢٣٨

الاخفاء والاغماض. وقال قتادة «ثم إن علينا بيانه» معناه إنا نبين الك معناه إذا حفظته.

وقوله «كلا بل تحبون العاجلة» معناه الاخبار من الله تعالى أن الكفار يريدون المنافع العاجلة ويركنون اليها ويريدونها «وتذرون الآخرة» أي وتتركون عمل الآخرة الذي يستحق به الثواب، وتفعلون ما يستحق به العقاب من المعاصي والمحارم.

ثم قسم تعالى اهـل الآخرة فقال «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» أي مشرقة مضيئة، فالنضرة الصورة الحسنة التي تمـلأ القلب سروراً عند الرؤية نضر وجهه ينضر نضرة ونضارة فهو ناضر. والنضرة مثل البهجة والطلاقة، وضده العبوس والبسور، فوجوه المؤمنين المستحقين للثواب بهذه الصفة بما جعل الله عليها من النور علامة للخلق، والملائكة على انهم مؤمنون مستحقون الثواب. وقوله «إلى ربها ناظرة» معناه منتظرة نعمة ربها وثوابه ان يصل اليهم. وقيل «ناضرة» أي مشرفة «الى» ثواب ربها «ناظرة» وليس فى ذلك تنغيص لان الانتظار إنما يكون فيه تنغيص إذا كان لا يوثق بوصوله الى المنتظر أو هو محتاج اليه فى الحال. والمؤمنون بخلاف ذلك، لانهم فى الحال مستغنون منعمون، وهم ايضاً واثقون انهم يصلون الى الثواب المنتظر. والنظر هو تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئي طلبا للرؤية ويكون النظر بمعنى الانتظار، كما قال تعالى «واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة»(١) أى منتظرة وقال الشاعر:

وجوه يوم بدر ناظرات الى الرحمن تأتي بالفلاح (٢)

أى منتظرة للرحمة التي تنزل عليهم، وقـد يقول القائل: انما عيني ممدودة

(١) سورة ٢٧ النمل آية ٣٥ (٢) مر في ١ / ٢٢٩

الى الله ، والى فلان ، وانظر اليه أى انتظر خيره ونفعه وأؤمل ذلك من جهته ، وقوله « ولا ينظر اليهم يوم القيامة » (١) معناه لا ينيلهم رحمته . ويكون النظر بمعنى المقابلة ، ومنه المناظرة في الجدل ، ومنه نظر الرحمة أى قابله بالرحمة ، ويقال : دور بني فلان تتناظر أى تتقابل ، وهو ينظر الى فلان أى يؤمله وينتظر خيره ، وليس النظر بمعنى الرؤية اصلا ، بدلالة انهم يقولون : نظرت الى الهلال فلم أره فلو كان بمعنى الرؤية لكان متناقضاً ، ولانهم يجعلون الرؤية غاية للنظر يقولون : ما زلت أنظر اليه حتى رأيته ، ولا يجعل الشيء غاية لنفسه لا يقال : ما زلت أراه حتى رأيته ، ويعلم الناظر ناظراً ضرورة ، ولا يعلم كونه رائياً بل يسأل بعد ذلك هل رأيت أم لا ؟ ودخول « الى » في الآية لا يدل على ان المراد بالنظر الرؤية ، ولا تعليقه بالوجوه يدل على ذلك ، لانا أنشدنا البيت ، وفيه تعليق النظر بالوجه وتعديه بحرف (الى) والمراد به الانتظار ، وقال جميل بن معمر :

وإذا نظرت اليك من ملك والبحر دونك جدتني نعماء (٢)

والمراد به الانتظار والتأميل ، وايضاً ، فانه في مقابلة قوله في صفة اهل النار « تظن أن يفعل بها فاقرة » فالمؤمنون يؤمنون بتجديد الكرامة وينتظرون الثواب ، والكفار يظنون الفاقرة ، وكله راجع الى فعل القلب ، ولو سلمنا أن النظر يعد الرؤية لجاز أن يكون المراد أنها رؤية ثواب ربها ، لأن الثواب الذي هو انواع اللذات من المأكول والمشروب والمنكوح تصح رؤيته ، ويجوز ايضاً أن يكون إلى واحد إلآ لاء وفي واحدها لغات (ألا) مثل قفا ، و (ألى) مثل معى و (إلى) مثل حدى و (ألى) مثل حسى ، فاذا اضيف الى غيره سقط التنوين ، ولا يكون (الى) حرفاً في الآية وكل ذلك يبطل قول من أجاز الرؤية على الله تعالى .

---

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٧٧ (٢) مر في ١ | ٢٢٩

وليس لأحد ان يقول : إن الوجه الأخير يخالف الاجماع ، أعني اجماع المفسرين ، وذلك لأنا لا نسلم لهم ذلك ، بل قد قال مجاهد وابو صالح والحسن وسعيد بن جبير والضحاك : إن المراد نظر الثواب . وروي مثله عن علي عليه السلام ، وقد فرق اهل اللغة بين نظر الغضبان ونظر الراضي ، يقولون : نظر غضبان ، ونظر راض ، ونظر عداوة ، ونظر مودة ، قال الشاعر :

تخبرني العينان ما الصدر كاتم ولاحن بالبغضاء والنظر الشزر

والرؤية ليست كذلك فانهم لا يضيفونها ، فدل على أن النظر غير الرؤية ، والمرئي هو المدرك ، والرؤية هي الادراك بالبصر ، والرائي هو المدرك ، ولا تصح الرؤية وهي الادراك إلا على الاجسام او الجوهر او الألوان . ومن شرط المرئي أن يكون هو او محله مقابلا او فى حكم المقابل ، وذلك يستحيل عليه تعالى ، فكيف نجيز الرؤية عليه تعالى ؟ ! ! !

ثم ذكر القسم الآخر فقال « وجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة » يعني وجوه اهل الكفر . والبسور ظهور حال الغم فى الوجه معجلا قبل الاخبار عنه ومثله العبوس إلا انه ليس فيه معنى التعجيل . والفاقرة الكاسرة لفقار الظهر بشدة ومثل الفاقرة الداهية والآبدة . وقال الحسن : ناظرة بهجة حسنة . وقال مجاهد : مسرورة . وقال ابن زيد : ناعمة . وقال مجاهد وقتادة : معنى باسرة كاشرة كالحة . وقال مجاهد : الفاقرة الداهية . وقال ابن زيد الآبدة بدخول النار .

قولــه تعــالى :

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ

ٱلْمَسَاقُ (٣٠) فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّىٰ (٣١) وَلٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنْثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (٤٠) خمس عشرة آية .

قرأ ابن عامر وحفص ورويس « من مني يمنى » بالياء على التذكير ردوه إلى المني . الباقون بالتاء حملا على النطفة .

يقول الله تعالى « كلا إذا بلغت » يعني النفس أو الروح ، ولم يذكر لدلالة الكلام عليه كما قال « ما ترك على ظهرها » (١) يعني على ظهر الأرض . وإنما لم يذكر لعلم المخاطب به ، و « التراقي » جمع ترقوة ، وهي مقدم الحلق من أعلى الصدر ، تترقى اليه النفس عند الموت ، واليها يترقى البخار من الجوف ، وهناك تقع الحشرجة . وقوله « وقيل من راق » فالراق طالب الشفاء يقال : رقاه يرقيه رقيـة إذا طلب له شفاء باسماء الله الجليلة وآيات كتابه العظيمة . وأما العوذة فهي رفع البليـة بكلمات الله تعالى . وقال ابو قلابة والضحاك وابن زيد وقتادة : معنى « راق » طبيب شاف . أي اهله يطلبون له من يطببه ويشفيه ويداويه فلا يجدونه . وقال ابن عباس وابو الجوزاء : معناه قالت الملائكة : من يرقا بروحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العقاب .

(١) سورة ٣٥ فاطر آية ٤٥

وقال الضحاك : أهل الدنيا يجهزون البدن ، وأهل الآخرة يجهزون الروح .

وقوله « وظن أنه الفراق » معناه علم عند ذلـك انه فراق الدنيا والاهـل والمال والولد . والفراق بعاد الالاف وهو ضد الوصال يقال : فارقه يفارقه فراقاً . وقد صار علماً على تفرق الاحباب وتشتت الالاف .

وقوله « والتفت الساق بالساق » قال ابن عباس ومجاهد : معناه التفت شدة أمر الآخرة بأمر الدنيا . وقال الحسن: التفت حال الموت بحال الحياة . وقال الشعبي وابو مالك : التفت ساقا الانسان عنـد الموت ـ وفي رواية أخرى عن الحسن ـ انه قال : إلتفات الساقين في الكفن . وقيل : ساق الدنيا بساق الآخرة وهو شدة كرب الموت بشدة هول المطلع . وقال الحسن : معناه التفت شدة أمر الدنيـا بشدة أمر الآخرة . وقيل : معناه اشتداد الأمر عند نزع النفس حتى التفت ساق على ساق عند تلك الحال ، يقولون : قامت الحرب على ساق عند شدة الأمر قال الشاعر :

فاذا شمرت لك عن ساقها فويهاً ربيع ولا تسأم (١)

وقوله « الى ربك يومئذ المساق » معناه إن الخلائق يساقون إلى المحشر الذي لا يملك فيه الأمر والنهي غير الله . والمساق مصدر مثل السوق .

وقوله « فلا صدق ولا صلى » قال الحسن : معناه لم يتصدق ولم يصل « ولكن كذب » بالله « وتولى » عن طاعته . وقال قوم « فـلا صدق » بربه « ولا صلى » وقال قتادة : معناه فلا صدق بكتاب الله ولا صلى لله « ولكن كذب » به « وتولى » عن طاعته . وقال قوم : معناه « فلا صدق » بتوحيد الله ، ولا نبيه بل كذب به . والصدقة العطية للفقراء والزكاة الصدقة الواجبة على المال المعلق بنصاب مخصوص .

(١) تفسير الطبري ٢٩ \ ١٠٧ وقد مر في ١٠ \ ٨٧

والصلاة عبادة أولها التكبير وآخرها التسليم ، وفيها قراءة وأركان مخصوصة . والتولي هو الاعراض عن الشيء ، فلما كان هذا الجاهل معرضاً عن الحق بتركه الى خلافه من الباطل لزمه الذم بهذا الوصف .

وقوله « ثم ذهب الى أهله يتمطى » فالتمطي تمدد البدن من الكسل إما كسل مرض او كسل تثاقل عن الامر . والذم بكسل التثاقل عن الداعي الى الحق . وقال مجاهد وقتادة : معنى يتمطى يتختر . وقيل : الأصل في يتمطى يلوي مطاه ، والمطاه الظهر ، ونهي عن مشية المطيطيا ، وذلك ان يلقي الرجل بدنه مع التكفي في مشيه . وقيل : نزلت الآية في أبي جهل بن هشام بن المغيرة المخزومي .

وقوله « أولى لك فاولى ثم اولى لك فاولى » قال قتادة : هو وعيد على وعيد . وقيل معنى « أولى لك » وليك الشر يا أبا جهل ، وقيل : معناه الذم اولى لك من تركه إلا انه حذف ، وكثر في الكلام حتى صار بمنزلة الويل لك . وصار من المتروك المحذوف الذي لا يجوز اظهاره . وقيل أولى لك ، فاولى لك على الاول والذم لك على الثاني والثالث . والأولى في العقل هو الاحق بالقرب من داعي العقل ، كأنه أحق بوليه .

ثم قال على وجه الوعيد والتهديد للكفار « ايحسب الانسان » ومعناه أيظن الانسان الكافر بالبعث والنشور الجاحد لنعم الله « أن يترك سدى » ومعناه أن يترك مهملا عن الأمر والنهي ، فالسدى همل من غير أمر يؤخذ به ، ويكون فيه تقويم له ، واصلاح لما هو أعود عليه في عاقبة أمره واجمل به في دنياه وآخرته . وقال ابن عباس ومجاهد : معنى « أن يترك سدى » أي هملا لا يؤمر ولا ينهى . وقيل : أيحسب الانسان أن يترك مهملا فلا يؤمر ولا ينهى مع كمال عقله وقدرته .

ثم قال على وجه التنبيه على أن الله خلقه للتكليف والعبادة ، وعلى انه قادر

على اعادته واحيائه بعد موته « ألم يك نطفة من مني يمنى » فالمني نطفة الذكر التي يجيء منها الولد « ثم كان علقة » أي قطعة من الدم المنعقد جامدة لا تجري فخلق الله منها هذا الانسان الذي هو في احسن تقويم ، فسبحان من قدر على ذلك . وقوله « فخلق فسوى » أي خلق من العلقة خلق سويا شق له السمع والبصر . وقال الفراء: معنى « فسوى » فسواه « فجعل منه » من ذلك المني « الزوجين الذكر والانثى » فمن قدر على ذلك لا يقدر على ان يحيي الموتى بعد ان كانوا أحياء ؟ ! بلى والله قادر على ذلك ، لان جعل النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وخلق المضغة عظماً وكسو العظم لحماً ثم إنشاؤه خلقاً آخر حياً سليماً مركبا فيه الحواس الخمس كل واحدة منها يصلح لما لا يصلح له الاخرى ، وخلق الذكر والانثى اللذين يصح منهما التناسل على ما قدره الله أعجب وابدع من اعادة الميت الى ما كان من كونه حياً ، فمن قدر على الأول أولى بأن يكون قادراً على الثاني ، فالاحياء ايجاد الحياة ، والاماتة ايجاد الموت عند من قال أن الموت معنى ، ومن قال : ليس بمعنى ، قال : هو نقض بنية الحي على وجه الاختراع .

وقوله « فجعل منه » قيل يعني من الانسان «الزوجين الذكر والانثى» وقيل من المني « أليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى » وقال قتادة : كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا ختم السورة ، يقول: سبحانك الله بلى ، وهو المروي عن أبي جعفر وابي عبدالله عليهما السلام

وفي الآية دلالة على صحة القياس العقلي ، وهو أن من قدر على احياء الانسان قادر على احيائه بعد الاماتة ، وقال الفراء : يجوز في العربية يحيي الموتى بالادغام بأن ينقل الحركة الى الحاء وتدغم احدى اليائين في الاخرى وانشد :

وكأنها بين النساء سبيكة تمشي بسدة بيتها بتعي (١)

(٢) مر في ٥ / ١٤٧

٧٦ ـ سورة الدهر :

وتسمى سورة الانسان ،وتسمى سورة الابرار ، وهي مكية في قول ابن عباس والضحاك وغيرهما . وقال قوم : هي مدنية وهي احدى وثلاثون آية بلا خلاف



﴿هَلْ أَتىٰ عَلَى ٱلإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (١) إِنَّا خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيراً (٤) إِنَّ ٱلأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (٥) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً (٦) يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧) وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ (١٠)

عشر آيات .

قرأ « سلاسلا » منونًا نافع والكسائي وابو بكر عن عاصم اتباعا المصحف

ولتشاكل ما جاوره من رأس الآية . الباقون بغير تنوين ، لان مثل هـذا الجمع لا ينصرف في معرفة ولا في نكرة ، لأنه على (فعائل) بعد الفه حرفان .

يقول الله تعالى « هل أتى على الانسان » قال الزجاج : معناه ألم يأت على الانسان « حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » يعني قد كان شيئاً إلا انه لم يكن مذكوراً ، لانه كان تراباً وطيناً الى أن نفخ فيه الروح . وقال قوم (هل) يحتمل معناه أمرين : احدهما ـ أن يكون بمعنى (قد أتى) والثاني أن يكون معناها اتى على الانسان ، والاغلب عليها الاستفهام والاصل فيها معنى (قد) لتجرى على نظائرها بمعنى ضمن معنى الالف واصله من ذلك قول الشاعر :

أم هل كبير بكى لم تقض عبرته أثر الأحبة يوم البين مشكوم

والمعنى بالانسان ـ ههنا ـ آدم ـ في قول الحسن ـ والمعنى قد أتى على آدم « حين من الدهر » وبه قال قتادة وسفيان . وقيل : ان آدم لما خلق الله جثته بقي أربعين سنة لم تلج فيه الروح كان شيئاً ، ولم يكن مذكوراً ، فلما نفخ فيه الروح وبلغ إلى ساقه كاد ينهض للقيام ، فلما بلغ عينيه ورأى ثمار الجنة بادر اليها ليأخذها فلذلك قال الله تعالى « خلق الانسان من عجل » (١) وقال غيره : هو واقع على كل إنسان ، والانسان في اللغة حيوان على صورة الانسانية ، وقد تكون الصورة الانسانية ، ولا إنسان ، وقد يكون حيوان ولا إنسان ، فاذا حصل المعنيان صح إنسان لا محالة . والانسان حيوان منتصب القامة على صورة تنفصل من كل بهيمة . و(الحين) مدة من الزمان ،وقد يقع على القليل والكثير . قال الله سبحانه « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » [٢] أي وقت تمسون ووقت تصبحون . وقال « تؤتي أكلها كل حين » يعني كل ستة أشهر ، وقال قوم : كل سنة . وقال ـ ههنا

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٣٧ (٢) سورة ٣٠ الروم آية ١٧

﴿ هل أتى على الانسان حين ﴾ أي مدة طويلة . والدهر مرور الليل والنهار وجمعه أدهر ودهور ، والفرق بين الدهر والوقت أن الوقت مضمن بجعل جاعل ، لان الله جعل لكل صلاة مفروضة وقتاً ، وجعل للصيام وقتاً معيناً ، وقد يجعل الانسان لنفسه وقتاً يدرس فيه ما يحتاج إلى درسه ووقتاً مخصوصاً لغذائه .

وقوله ﴿ لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ أي لم يكن ممن ذكره ذاكر ، لأنه كان معدوماً غير موجود . وفي الآية دلالة على أن المعدوم لا يسمى شيئاً ، وإنما سمى زلزلة الساعة شيئاً مجازاً . والمعنى إنها إذا وجدت كانت شيئاً عظيماً .

وقوله ﴿ إنا خلقنا الانسان من نطفة ﴾ اخبار من الله تعالى أنه خلق الانسان سوى آدم وحواء من نطفة ، وهوماءالرجل والمرأة الذي يخلق منهما الولد ، فالنطفة الماء القليل في أناء كان او غير إناءقال الشاعر :

وما النفس إلا نطفة بقرارة إذالم تكدّر صارصفواً غديرها

وقوله ﴿ امشاج ﴾ قال ابن عباس أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة . وقال الحسن والربيع بن أنس ومجاهد مثل ذلك . وقال قتادة : معنى أمشاج أطوار طوراً نطفة وطوراً مضغة وطوراً عظماً إلى أن صار إنساناً ليختبره بهذه الصفات . وقال مجاهد : معناه ألوان النطفة . وقال عبد الله : عروق النطفة وواحد الامشاج مشيج ، وهو الخلط ، وسمى النطفة بذلك ، لأنه جعل فيها اخلاطاً من الطبائع التي تكون في الانسان من الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة . ثم عداها له ، ثم بناه البنية الحيوانية المعدلة الاخلاط . ثم جعل فيها الحياة ثم شق له السمع والبصر فتبارك الله رب العالمين ، وذلك قوله ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ .

وقوله ﴿ نبتليه ﴾ أي نختبره بما نكلفه من الافعال الشاقة لننظر ما طاعته وما عصيانهفنجازيه بحسب ذلك ، ويقالمشجت هذا بهذا إذ اخلطته به ، وهوممشوج به

ومشيج أي مخلوط به قال رؤبة :

يطرحن كل معجل نشاج لم تكس جلداً في دم أمشاج [١]

وقال ابو ذؤيب :

كأن الريش والفوقين منه خلاف النصل سيط به مشيج [٢]

وقوله ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ معناه انا أرشدناه إلى سبيل الحق وبيناه له ودللناه عليه . وقال الفراء : معناه هديناه إلى السبيل أو للسبيل . والمعنى واحد . وقوله ﴿ اما شاكراً واما كفوراً ﴾ قال الفراء : معناه إن شكر وإن كفر على الجزاء ويجوز أن يكون مثل قوله ﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ (٣) والمعنى اما يختار بحسن اختياره الشكر لله تعالى والاعتراف بنعمه فيصيب الحق ، واما أن يكفر نعمه ويجحد إحسانه فيكون ضالا عن الصواب ، وليس المعنى انه مخير في ذلك ، وإنما خرج ذلك مخرج التهديد ، كما قال ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (٤) بدلالة قوله ﴿ انا اعتدنا للظالمين ناراً ﴾ وإنما المراد البيان عن انه قادر عليهما فايهما اختار جوزي بحسبه .

وفي الآية دلالة على انه تعالى قد هدى جميع خلقه المكلفين ، لأن قوله ﴿ انا هديناه السبيل ﴾ عام في جملتهم وذلك يبطل قول المجبرة : إن الله لم يهد الكافر بنصب الدلالة له على طريق الحق واجتناب الباطل ، وليس كل من ترك الشكر كان كافراً ، لانه قد يتركه في بعض الاحوال على سبيل التطوع ، لان الشكر قد يكون تطوعاً كما يكون واجباً ، وإنما لم يذكر الله الفاسق ، لانه اقتصر على اعظم الحالين

(١) مجاز القرآن ٢ \ ٢٧٩ والطبري ٢٩ / ١٠٩

(٢) مجاز القرآن ٢ \ ٢٧٩ والقرطبي ١٩ \ ١١٩

(٣) سورة ٩ التوبة آية ١٠٧ (٤) سورة ١٨ الكهف آية ٢٩

وألحق الأدون على التبع ، ويجوز أن يدخل في الجملة ، ولا يفرد ، فليس للخوارج أن يتعلقوا بذلك في انه ليس بين الكفر والايمان واسطة . ثم بين انه تعالى إنما ذكره على وجه التهديد بقوله ﴿ انا اعتدنا للكافرين ﴾ أي ادخرنا لهم جزاء على كفرهم ومعاصيهم وعقوبة لهم ﴿ سلاسل وأغلالا وسعيراً ﴾ يعذبهم بها ويعاقبهم فيها ، والسلاسل جمع سلسلة والاغلال جمع غل ، والسعير هي النار المسعرة الملهبة .

ولما اخبر بما للكافرين من العقوبات على كفرهم ، ذكر ايضاً ما للمؤمنين على إيمانهم فقال ﴿ إن الابرار ﴾ وهو جمع البر ، وهو المطيع لله المحسن في أفعاله ﴿ يشربون من كأس ﴾ والكاس اناء الشراب إذا كان فيه ، ولا يسمى كأساً إذا لم يكن فيه شراب ـ ذكره الزجاج ـ قال الشاعر :

صددت الكأس عنا أم عمرو　　وكان الكأس مجراها اليمينا (١)

وقوله ﴿ كان مزاجها كافوراً ﴾ قيل ما يشم من ريحها لا من جهة طعمها . وقوله ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله ﴾ قوله ﴿ عيناً ﴾ نصب على البدل من (كافوراً) ويجوز أن يكون على تقدير ويشربون عيناً ، ويجوز أن يكون نصباً على الحال من ﴿ مزاجها ﴾ وقال الزجاج : معناه من عين . وقال الفراء : شربها وشرب منها سواء في المعنى كما يقولون : تكلمت بكلام حسن وكلاماً حسناً . وقيل : يمزج بالكافور ، ويختم بالمسك وقيل : تقديره يشربون بها وأنشد الفراء :

شربن بماء البحر ثم ترفعت　　متى لجج خضر لهن نئيج (٢)

متى لجج . أي من لجج . وعين الماء حفيرة في الأرض ينبع منها ، وهذه العين المذكورة في أرض الجنة في كونها فوارة بالماء متعة لاهلها . ثم يفجر فيجري لهم

---

(١) القرطبي ١٩ / ١٢٣ والشوكاني ٥ / ٣٣٦
(٢) الطبرى ٢٩ / ١١٢ والقرطبى ١٩ / ١٢٥

إلى حيث شاؤا منها . قال مجاهد : معناه إنهم يقودونها حيث شاؤا والتفجير تشقيق الأرض بجري الماء ومنه انفجار الصبح ، وهو انشقاقه من الضوء ، ومنه الفجور ، وهو الخروج من شق الالتئام إلى الفساد . وعباد الله المراد به المؤمنون المستحقون للثواب

ثم وصف هؤلاء المؤمنين فقال ﴿ يوفون بالنذر ويخافون ﴾ ويجوز أن يكون ذلك في موضع الحال ، فكأنه قال يشرب بها عباد الله الموفون بالنذر الخائفون ﴿ يوماً كان شره مستطيراً ﴾ فالمستطير الظاهر . والتقدير القائلون إنما نطعمكم القائلون إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، ويجوز ان يكون على الاستئناف ، وتقديره هم الذين يوفون بالنذر وكذلك في ما بعد ، فالوفاء بالنذر هو أن يفعل ما نذر عليه فالوفاء إمضاء العقد على الأمر الذي يدعو اليه العقل ، ومنه قوله ﴿ يا ايها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ (١) أي الصحيحة ، لانه لا يلزم أحداً أن يفي بعقد فاسد ، وكل عقد صحيح يجب الوفاء به ، يقال أوفى بالعقد ، ووفى به ، فأوفى لغة أهل الحجاز وهي لغة القرآن ، و(وفى) لغة أهل تميم واهل نجد . وقد بينا فيما مضى شواهده . والنذر عقد على فعل على وجه البر بوقوع أمر يخاف ألا يقع ، نذر ينذر نذراً فهو ناذر ، وقال عنترة:

الشاتمي عرضي ولم أشتمهما والناذرين إذا لم ألقهما دمي (٢)

أي يقولان : لئن لقينا عنترة لنقتلنه ، ومنه الانذار وهو الاعلام بموضع المخافة ليعقد على التحرز منها . وروي عن النبي ﷺ انه قال (لا نذر في معصية) وعند الفقهاء إن كفارة النذر مثل كفارة اليمين . والذي رواه أصحابنا إن كفارة النذر مثل كفارة الظهار ، فان لم يقدر عليه كان عليه كفارة اليمين . والمعنى انه إذا

(١) سورة ٥ المائدة آية ١ (٢) مر في ٤ / ٥٢٦

فات الوقت الذي نذر فيه صار بمنزلة الحنث .

وقوله ﴿ ويخافون يوماً ﴾ من صفة المؤمنين ﴿ كان شره مستطيراً ﴾ أي منتشراً فاشياً ذاهباً فى الجهات بلغ أقصى المبالغ ، قال الاعشى :

فبانت وقدأورثت فى الفؤا　　د صدعاً على نأيها مستطيرا (١)

والمراد بالشر ـ ههنا ـ أهوال القيامة وشدائدها .

وقوله ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ قال مجاهد : معناه على شهوتهم له ، ويحتمل أن يكون المراد على محبتهم لله ﴿ مسكيناً ﴾ أي يطعمونه فقيراً ﴿ ويتيماً ﴾ وهو الذي لا والد له من الاطفال ﴿ واسيراً ﴾ والاسير هو المأخوذ من أهل دار الحرب ـ فى قول قتادة ـ وقال مجاهد : وهو المحبوس . وقوله ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ اخبار عما يقوله المؤمنون بأنا إنما نطعمكم معاشر الفقراء واليتامى والاسرى لوجه الله ، ومعناه لله ، وذكر الوجه لذكره بأشرف الذكر تعظيماً له ، ومنه قوله ﴿فاينما تولوا فثم وجه الله﴾ وقيل: معناه فثم جهة الله التي ولاكم اليها ومنه قوله ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾(٢) أي ويبقى الله . وقال مجاهد وسعيد بن جبير : علم الله ما في قلوبهم فأثنى عليهم من غير أن يتكلموا به ﴿ لا نريد منكم جزاء ﴾ أي لا نطلب بهذا الاطعام مكافأة عاجلة ﴿ ولا شكوراً ﴾ أي لا نطلب أن تشكرونا عليه عند الخلائق بل فعلناه لله ﴿ إنا نخاف من ربنا ﴾ أي من عقابه ﴿ يوماً عبوساً ﴾ أي مكفهراً عابساً ﴿ قمطريراً ﴾ أي شديداً ، والقمطرير الشديد فى الشر . وقد اقمطر اليوم اقمطراراً ، وذلك أشد الايام وأطوله فى البلاء والشر ، ويوم قمطرير وقماطير كأنه قد التف شر بعضه على بعض ، قال الشاعر :

---

(١) ديوانه ٨٥ (دار بيروت)

(٢) سورة ٥٥ الرحمن آية ٢٧

بني عمنا هل تذكرون بلاءنا عليكم إذا ما كان يوم قماطر (١)

وقد روت الخاصة والعامة أن هذه الآيات نزلت في علي عليه السلام وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، فانهم آثروا المسكين واليتيم والاسير ثلاث ليال على إفطارهم وطووا عليهم السلام ، ولم يفطروا على شيء من الطعام فأثنى الله عليهم هذا الثناء الحسن ، وأنزل فيهم هذه السورة وكفاك بذلك فضيلة جزيلة تتلى الى يوم القيامة ، وهذا يدل على أن السورة مدنية .

قوله تعالى :

﴿ فَوَقَـٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (١١) وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً (١٧) عَيْناً فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ (٢٠) عشر آيات.

قرأ الشعبي وعبيد بن عمير ﴿ قدروها ﴾ بضم القاف . الباقون بفتحها . من فتح القاف قال معناه قدروها في أنفسهم ، فجاءت كما قدروا ، ومن ضم أراد ان

(١) الشوكاني ٥ / ٣٣٨ والقرطبي ١٩ / ١٣٣

ذلك قدر لهم أي قدره الله لهم كذلك . وقرأ نافع والكسائي وابو بكر عن عاصم ﴿ قواريراً قواريراً ﴾ بالتنوين فيهما . وقرأ بغير تنوين ولا الف في الوقف حمزة وابن عامر ، وقرأ الاولى بالتنوين والثانية بغير تنوين ابن كثير . وقرأ ابو عمرو فيهما بغير تنوين إلا انه يقف عليه بالألف ، من نون الأولى اتبع المصحف ، ولانه رأس آية ، ثم كرهوا أن يخالفوا بينهما فنونوا الثانية ، وكذلك قرأ الكسائي ﴿ ألا ان ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾ (١) صرفهما لئلا يخالف بينهما مع قربهما ، ومن لم يصرفهما فعلى موجب العربية ، لانه جمع على (فواعيل) بعد ألفه حرفان . ومن صرف الاولى فلأنها رأس آية ولم يصرف الثانية على أصل العربية .

لما اخبر الله تعالى عن المؤمنين الذين وصفهم في الآيات الأولى وما اوفوا به من النذر في إطعامهم لوجه الله ما اطعموه وإيثارهم على نفوسهم المسكين واليتيم والاسير وإنهم فعلوا ذلك لوجه الله خالصاً ، ومخافة من عذاب يوم القيامة ، اخبر بما أعد لهم من الجزاء على ذلك ، فقال ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ﴾ أي كفاهم الله ومنع عنهم أهوال يوم القيامة وشدائده ، فالوقاء المنع من الأذى يقال : وقاه يقيه وقاء ، فهو واق ، ووقاه توقية قال رؤبة :

إن الموقي مثل ما وقيت (٢)

ومنه اتقاه اتقاء وتوقاه توقياً ، والشر ظهور الضر ، وأصله الظهور من قولهم :

وحتى أشرت بالأكف المصاحف (٣)

أي اظهرت ، ومنه شررت الثوب إذا اظهرته للشمس او الريح ، ومنه شرار

---

(١) سورة ١١ هود آية ٦٨   (٢) اللسان (وقى)

(٣) قائله كعب بن جعيل ، مقاييس اللغة ٣ / ١٨١ وصدره :

فما برحوا حتى رأى الله صبرهم

النار لظهوره بتطايره وانتشاره ، وقيل : الشر الضر والقبيح ، ويستعار في غيره ، وليس ما يوجب هذا . والمراد ـ ههنا ـ أهوال يوم القيامة وشدائده فالوقاء المنع من الأذى يقال : وقاه يقيه وقاء فهو واق ووقاه توقية وقوله ﴿ ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ معنى لقاهم استقبلهم به ، والنضرة حسن الألوان ، ومنه نبت نضر وناضر ونضر والنضار الذهب . وقيل : ناضرة ناعمة . وقيل : حسنة الصورة . والسرور اعتقاد وصول المنافع اليه في المستقبل . وقال قوم : هو لذة في القلب بحسب متعلقه بما فيه النفع ، سره يسره سروراً وكل سرور فلا بدله من متعلق ، كالسرور بالمال والولد والسرور بالاكرام والاجلال ، والسرور بالشكر والحمد ، والسرور بالثواب .

وقوله ﴿ وجزاهم بما صبروا ﴾ أي كافاهم واثابهم على صبرهم على محن الدنيا وشدائدها وتحمل مشاق التكليف ﴿ جنة ﴾ أي بستاناً أجنه الشجر ﴿ وحريراً ﴾ يلبسونه . وقوله ﴿ متكئين ﴾ نصب على الحال ﴿ فيها ﴾ يعني في الجنة ﴿ على الارائك ﴾ وهي الحجال فيها الاسرة ـ في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ـ واحدها اريكة وهي الحجلة سرير عليه شبه القبة . وقال الزجاج : الاريكة كل ما يتكأ عليه من مسورة أو غيرها ، وقد شوق الله تعالى إلى تلك الحال وهي غاية الرفاهية والامتاع ﴿ لا يرون فيها ﴾ يعني في الجنة ﴿ شمساً ﴾ يتأذون بحرّها ﴿ ولازمهريراً ﴾ يتأذون ببرده ، فالزمهريراشد مايكون من البرد . وقال مجاهد : الزمهرير البردالشديد

وقوله ﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ يعني افياء اشجار تلك الجنة قريبة منهم ، ونصب ﴿ دانية ﴾ بالعطف على ﴿ متكئين ﴾ ويجوزان يكون عطفاً على موضع ﴿ لا يرون فيها شمساً ﴾ فان موضعها النصب على الحال ، ويجوز على المدح كقولهم عندفلان جارية جميلة وشابة طرية . وقوله ﴿ وذللت قطوفها تذليلا ﴾ معناه إن قام ارتفعت بقدرة الله وإن قعد نزلت حتى يناله وإن اضطجع نزلت حتى يناله ـ ذكره مجاهد ـ وقيل : معناه لا يرد

أيديهم عنها بعد ولا شوك .

وقوله ﴿ ويطاف عليهم ﴾ يعني على هؤلاء المؤمنين الذين وصفهم الله ﴿ بآنية من فضة واكواب ﴾ وهو جمع كوب وهو إناء الشراب من غير عروة . وقال مجاهد : الاكواب الأقداح . وقال ابن عباس ومجاهد : هي صغار القوارير وهي فضة ، فلذلك قال ﴿ كانت قواريراً ﴾ وقيل : الاكواب الأباريق التي ليس لها خراطيم . وقيل : الاكواب من فضة فى صفاء القوارير لا تمنع الرؤية . وقوله ﴿ قوارير من فضة ﴾ أي هي من فضة . وقوله ﴿ قدّروها تقديراً ﴾ معناه إنها على قدر ما يشتهون من غير زيادة ولا نقصان حتى تستوفي الكمال ، ويجوز ان يكونوا قدّروها قبل مجيئها على صفة فجاءت على ما قدروا جنسه اشبه التمنى . وقال الحسن : على قدرهم ، والتقدير وضع المعنى على المقدار الذي يتخيل فيه المساواة للاعتبار بالمعاني العقلية بقدر عرف التقدير على طريقة لو كان كذا لكان كذا ، وإذا كان كذا كان كذا ، وبهذا يظهر القياس يميز به ما يلزم على الأصل مما لا يلزم ، والطوف الدور بالنقل من واحد إلى واحد . وقد يكون الدور بالطبع من غير تنقل من واحد إلى آخر ، فلا يكون طوافاً ، طاف يطوف طوفاً ، واطاف بها إطافة وتطوف تطوفاً واطوف اطوافاً

وقوله ﴿ ويسقون فيها ﴾ يعني فى الجنة ﴿ كأساً ﴾ وهي الآنية إذا كان فيها شراب ﴿ كان مزاجها زنجبيلا ﴾ فالزنجبيل ضرب من القرفة طيب الطعام يلذع اللسان يربى بالعسل يستدفع به المضار إذامزج به الشراب فاق فى الالذاذ . والعرب تستطيب الزنجبيل جداً قال الشاعر :

كأن القرنفل والزنجبيـ ـل باتا بفيها واريا مشورا (١)

قيل : إن هذا الشراب فى برد الكافور وذكاء المسك ولذع الزنجبيل ، كما

---

(١) قائله الاعشى ديوانه ٨٥ واللسان (شور) وفيه اختلاف في الرواية

قال في صفة القوارير إنهـا في صفاء الفضة وجوهرهـا يرى ما وراءها كالقوارير . وقيل : الكافور والزنجبيل من اسماء العين التي يسقون منها وقوله « عيناً » نصب على انه بدل من الزنجبيل « فيها تسمى سلسبيلا » فالسلسبيل الشراب السهل اللذيذ ، وقيل : سلسبيل معناه منقاد ماؤها حيث شاؤا ـ عن قتادة ـ وقيل شديد الجرية . وقيل : يتسلسله . وقيل : سمي سلسبيلا من لزوم الطيب والالذاذ بها ، وانشد يونس :

صفراء من نبع يسمى سهمها من طول ماصرع الصيودالصيب(١)

فرفع الصيب على صفة السهم. وقيل : اسم العين معرفة إلا أنه نون لأنه رأس آية . ثم قال « ويطوف عليهم ولدان مخلدون » قال قتادة : لا يموتون . وقال الحسن : خلدوا على هيئـة الوصفاء ، فلا يشبون أبداً . وقيل : مخلدون مستورون بلغة حمير قال بعض شعرائهم :

ومخلدات باللجين كأنما اعجازهن اقاوز الكثبان (٢)

وكأنه يرجع الى بقاء الحسن « إذا رأيتهم » يعني إذا رأيت هؤلاء الولدان « حسبتهم لؤلؤاً منثوراً » أي من كثرتهم وحسنهم ، فكأنهم اللؤلؤ المنثور ـ ذكره قتادة ـ وقوله « وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً » تقديره وإذا رأيت الأشياء ثم رأيت نعيماً لأهل الجنة عظيماً وملكاً كبيراً . قال سفيان : من الملك الكبير استئذان الملائكة عليهم واستقبالهم لهم بالتحية . وقوله « وإذا رأيت ثم » فـ« ثم » يريد به الجنة . والعامل فيه معنى « رأيت » وتقديره وإذا رأيت ببصرك ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً . وقال الفراء : وإذا رأيت ما ثم رأيت نعيماً . وانكره الزجاج وقال (ما) موصولة يتم على تفسيره ، ولا يجوز اسقاط الموصول مع بقاء الصلة ، ولكن (رأيت) متعد في المعنى إلى (ثم) .

---

(١) تفسير الطبري ٢٩ / ١١٨ (٢) مقاييس اللغة ٢ / ٢٠٨ واللسان (خلد، قوز)

قوله تعالى :

﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (٢١) إِنَّ هٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (٢٢) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً (٢٣) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (٢٤) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) إِنَّ هٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً (٢٨) إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (٣١)

احدى عشرة آية .

قرأ ﴿ عاليهم ﴾ باسكان الياء أهل المدينة وحمزة وعاصم ـ في رواية حفص وأبان والمفضل ـ جعلوه اسماً لاظرفاً كما تقول : فوقك واسع ومنزلك باب البرد ، بأن يجعل الباب هو المنزل ، وكذلك يجعل الثياب هي العالي . الباقون بالنصب على الظرف ، لانه ظرف مكان . وهو الاحسن ، لان الثاني غير الأول . وإنما يجوز في مثل ما كان آخر الكلام هو الأول كقولهم : أمامك صدرك ، وفوقك رأسك ،

فان قلت فوقك السقف وأمامك الأسد بالنصب لا غير . وقرأ نافع وحفص عن عاصم ﴿ خضر واستبرق ﴾ بالرفع فيهما . وقرأ حمزة والكسائي بالجر فيهما . وقرأ ابن كثير وعاصم ـ في رواية أبي بكر « خضر » جراً « واستبرق » رفعاً . وقرأ ابن عامر وابو عمرو « خضر » رفعاً و « استبرق » جراً ، من رفعهما جعل « خضر » نعتاً للثياب ، وعطف عليه « واستبرق » ومن جرهما جعل « خضر » من نعت « سندس » وعطف عليه « استبرق » وتقديره عاليهم ثياب استبرق . ومن رفع الأول جعله من نعت الثياب وجر الثاني على انه عطف على « سندس » كأن عليهم ثياب سندس . ومن جعل « خضر » نعتاً لـ « سندس » ، فلأنه اسم جنس يقع على الجميع ، فلذلك قال « خضر » ومن جعله نعتاً للثياب فعلى اللفظ . وقرأ ابن كثير وابو عمرو « وما يشاؤن » بالياء على الخبر عن الغائب . الباقون بالتاء على الخطاب .

لما قال الله تعالى على وجه التعظيم لشأن المؤمنين الذين وصفهم وعظم ما اعطوا من أنواع النعيم والولدان وأنواع الشراب وغير ذلك مما وصف ، ووصف ذلك بأنه ملك كبير قال « عاليهم » وقيل معناه عالي حجالهم السندس . وفي نصب « عاليهم » قولان : قال الفراء : هو نصب على الظرف كقولك : فوقهم ، وحكى إن العرب تقول : قومك داخل الدار . وانكر الزجاج ذلك ، وقال نصبه لا يجوز إلا على الحال من الضمير في « عاليهم » أو من ضمير الولدان في « رأيتهم » وإنما أنكر ذلك لأنه ليس باسم مكان كقولك هو خارج الدار وداخل الدار ، وهذا لا يجوز على الظرف عند سيبويه ، وما حكاه الفراء شاذ لا يعول عليه . ومن أسكن الياء أراد رفعه على الابتداء وخبره « ثياب سندس » والسندس الديباج الرقيق الفاخر الحسن

وهو (فعلل) مثل برثن . وقوله « خضر » فمن جر جعله صفة لـ (سندس) خضر ووصف (سندس) بخضر وهو لفظ جمع ، لان سندساً اسم جنس يقع على الكثير والقليل . ومن رفعه جعله نعتاً لـ (ثياب) كأنه قال : ثياب خضر من سندس . وقوله « واستبرق » من رفعه عطفه على « ثياب سندس » فكأنه قال عاليهم ثياب سندس ، وعاليهم استبرق . ومن جره عطفه على (سندس) فكأنه قال : عاليهم ثياب سندس وثياب استبرق .

والاستبرق الديباج الغليظ الذي له بريق ، فهم يتصرفون فى فاخر اللباس كما يتصرفون فى لذيذ الطعام والشراب . وقيل الاستبرق له غلظ الصفاقة لاغلظ السلك كغلظ الديبقي ، وإن كان رقيق السلك .

وقوله « وحلوا اساور من فضة » فالتحلية الزينة بما كان من الذهب والفضة والتحلية تكون للانسان وغير الانسان كحلية السيف وحلية المركب والفضاضة الشفافة هي التي يرى ما وراءها كما يرى البلورة ، وهي أفضل من الدرّ والياقوت ، وهما افضل من الذهب فتلك الفضة افضل من الذهب ، والفضة والذهب فى الدنيا هما أثمان الاشياء ، وإن كان قد ثمن بغيرها شاذاً . وقيل : يحلون الذهب تارة وتارة الفضة ليجمعوا محاسن الحلية ، كما قال تعالى « يحلون فيها من اساور من ذهب » (١) والفضة وإن كانت دنية فى الدنيا ، فهي فى غاية الحسن خاصة إذا كانت بالصفة التي ذكرها والغرض فى الآخرة ما يكثر الالتذاذ والسرور به لا باكثر الثمن ، لانه ليست هناك أثمان . وفى الناس من ترك صرف (استبرق) وهو غلط ، لأن الاعجمي إذا عرب فى حال تنكيره انصرف ، ودليله الاستبرق وهما مما يحكى عن ابن محيص .

وقوله « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » قيل معناه يسقون شراباً طهوراً ليس

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٣١ وسورة ٢٢ الحج آية ٢٣ وسورة ٣٥ فاطر آية ٣٣

كالذي يخالطه الانجاس من أنهار الدنيا . وإن قل ذلك وكان مغموراً . وقيل انه ليس كشراب الدنيا الذي قد نجسه الفساد الذي فيه ، وهو السكر الداعي إلى القبائح ، فقد طهره الله في الجنة من ذلك لتخلص به اللذة ، كما قال « من خمر لذة للشاربين » (١) وقيل : شراباً طهوراً لا ينقلب إلى البول بل يفيض من أعراضهم كرشح المسك ذكره ابراهيم التيمي .

وقوله « إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً » اخبار من الله تعالى انه يقال للمؤمنين إذا فعل بهم ما تقدم من انواع اللذات وفنون الثواب : إن هذا كان لكم جزاء على طاعاتكم واجتناب معاصيكم في دار التكليف ، وإن سعيكم في مرضات الله وقيامكم بما أمركم الله به كان مشكوراً أي جوزيتم عليه ، فكأنه شكر لكم فعلكم .

ثم اخبر تعالى عن نفسه فقال « إنا نحن نزلنا عليك » يا محمد « القرآن تنزيلا » فيه شرف وتعظيم لك . ثم أمره بالصبر على ما أمره من تحمل اعباء الرسالة فقال « فاصبر » يا محمد « لحكم ربك ولا تطع منهم » يعني من قومه الذين بعث اليهم « آثماً او كفوراً » وهو نهي عن الجمع والتفريق أي لا تطع آثماً ولا كفوراً ، كما يقول القائل : لا تفعل معصية صغيرة او كبيرة أي لا تفعلها ولا واحدة منها .

ثم امره بان يذكر الله بما يستحقه من الصفات والاسماء الحسنى ، فقال « واذكر اسم ربك بكرة واصيلا » والبكرة الغداة والاصيل العشي ، وهو اصل الليل وجمعه آصال .

وقوله « ومن الليل فاسجد » دخلت (من) للتبعيض بمعنى فاسجد له في بعض الليل ، لانه لم يأمره بقيام جميع الليل ، كما قال « إن ربك يعلم أنك تقوم ادنى من

---

(١) سورة ٤٧ محمد آية ١٥

ثلثي الليل ونصفه وثلثه » (١) والسجود وضع الجبهة على الارض على وجه الخضوع وأصله الانخفاض كما قال الشاعر :

ترى الأكم فيها سجداً للحوافر (٢)

والسجود من العبادة التي اكد الله الأمر بها لما فيها من صلاح العباد . ثم قال « وسبحه ليلا طويلا » أي نزهه عما لا يليق به في الليل الطويل . ثم قال « إن هؤلاء » يعني الكفار والذين يجحدون نبوتك « يحبون العاجلة » أي يؤثرون اللذات والمنافع العاجلة في دار الدنيا من إرتكاب شهواتهم . والعاجلة المقدمة قبل الكرة الثانية « ويذرون » أي ويتركون ﴿ وراءهم ﴾ أي خلفهم « يوماً ثقيلا » أي هو ثقيل على اهل النار أمره ، وإن خف على اهل الجنة للبشارة التي لهم فيه . والثقيل ما فيه اعتمادات لازمة إلى جهة السفل على جهة يشق حمله . وقد يكون ثقيلا على انسان خفيفاً على غيره بحسب قدرته ، فيوم القيامة مشبه بهذا . وقيل : معنى ﴿ وراءهم ﴾ أي خلف ظهورهم العمل للاخرة . وقيل ﴿ وراءهم ﴾ أمامهم الآخرة ، وكلاهما محتمل ، والاول أظهر .

ثم قال تعالى ﴿ نحن خلقناهم ﴾ أي نحن الذين اخترعنا هؤلاء الخلائق ﴿ وشددنا أسرهم ﴾ قال ابن عباس الأسر الخلق ، وهو من قولهم : أسر هذا الرجل فأحسن اسره أي خلق فأحسن خلقه أي شد بعضه إلى بعض أحسن الشد ، وقال ابوهريرة: الاسر المفاصل . وقال ابن زيد : الاسر القوة . وقولهم : خذ بأسره أي بشده قبل ان يحل ، ثم كثر حتى جاء بمعنى خذ جميعه قال الاخطل :

---

(١) سورة ٧٣ المزمل آية ٢٠

(٢) مر في ١ \ ١٤٨ ، ٢٦٣ ، ٣١١ و ٤ / ٢٣٣ ، ٣٨٣ و ٦ / ٩٥ وغيرها

من كل مجتلب شديد أسره سلس القياد تخاله مختالا (١)

واصل الاسر الشد ، ومنه قتب مأ سور أي مشدود ، ومنه الاسير ، لأنهم كانوا يشدونه بالقيد ، وجاء في التفسير وشددنا مفاصلهم . ثم قال ﴿ وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا ﴾ معناه إذا شئنا أهلكنا هؤلاء وأمثالهم وجئنا بقوم آخرين بدلهم نخلفهم ونوجدهم .

وقوله ﴿إن هذه تذكرة﴾ قال قتادة : معناه إن هذه السورة تذكرة ، والتذكرة دلالة تخص بها المعاني الحكمية ، وكل موعظة تدعو إلى مكارم الاخلاق ومحاسن الافعال تذكرة ﴿ فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ﴾ أي اتخذ إلى رضا ربه طريقاً بأن يعمل بطاعته وينتهي عن معصيته ،وذلك يدل على انه قادر على ذلك قبل ان يفعله بخلاف ما يقوله المجبرة .

وقوله ﴿ وما تشاؤن إلا ان يشاء الله﴾ أي وليس تشاؤن شيئاً من العمل بطاعته وبما يرضاه ويوصلكم الى ثوابه إلا والله يشاؤه ويريده لأنه يريد من عباده أن يطيعوه ، وليس المراد أن يشاء كل ما يشاؤه العبد من المعاصي والمباحات ، لان الحكيم لايجوز أن يريد القبائح ولا المباح ، لان ذلك صفة نقص ويتعالى الله عن ذلك . وقد قال الله تعالى ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ (٢) والمعصية والكفر من اعظم العسر فكيف يكون الله تعالى مشيئاً له وهل ذلك إلا تناقض ظاهر ؟ !

وقوله ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ اخبار بأنه ـ عز وجل ـ كان عالماً بجميع المعلومات وبما يفعله عباده من الطاعة والمعصية ﴿ حكيماً ﴾ في جميع ما يفعله ويأمر به . ثم قال ﴿ يدخل من يشاء في رحمته ﴾ من الجنة وثوابها اذا أطاعوه في عمل ما رغبهم

(١) القرطبي ١٩ / ١٤٩ والطبرى ٢٩ / ١٢٢

(٢) سورة ٢ البقرة آية ١٨٥

فيه « والظالمين أعد لهم عذاباً اليماً » نصب (الظالمين) على تقدير وعاقب الظالمين باعداد العذاب الأليم أي أعد للظالمين اعد لهم ، وحذف لدلالة الثاني عليه ولا يظهر ذلك ، لان تفسيره يغني عن إظهاره .

٧٧ ـ سورة المرسلات :

مكية فى قول ابن عباس وهي خمسون آية بلا خلاف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً (٥) عُذْراً أَوْ نُذْراً (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (١٥) خمس عشرة آية .

قرأ « عذراً » مثقل ابو جعفر والبرجمي وقرأ « او نذراً » خفيف أهل الكوفة غير ابي بكر وابو عمرو . من ثقل الأول فلأن الثاني مثقل ، ومن خفف الثاني فلأن

الأول مخفف. والعذر بالتخفيف والنذر بمعنى الاعذار والانذار. ومن ثقل «نذراً» أراد جمع نذير. والعذر والمعذرة والتعذير بمعنى. قال ابو علي النحوي: النذر بالتثقيل والنذير مثل النكر والنكير جميعاً مصدران، ويجوز في النذر أمران: احدهما ـ ان يكون معناه المنذر. والثاني ـ أن يكون مصدراً. وقرأ ابو عمرو وحده «وقتت» بالواو على الأصل، وافقه ابو جعفر في ذلك إلا انه خفف الواو. الباقون «أقتت» بالهمزة أبدلوها من الواو كراهة الضمة على الواو، كما قالوا في (وحد) وقال الشاعر:

يحل أحيده ويقال بعل بمثل تمول منه افتقار (١)

هذا قسم من الله تعالى بالمرسلات، كما اقسم بصاد وقاف ويس وغير ذلك وقال قوم: تقديره ورب المرسلات، لانه لا يجوز القسم إلا بالله. وقال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة وابو صالح: المرسلات ـ ههنا ـ الرياح، وفي رواية اخرى عن ابن مسعود وأبي صالح إنها الملائكة. وقال قوم «المرسلات عرفاً» الانبياء جاءت بالمعروف. والارسال نقيض الامساك ومثله الاطلاق ونقيضه التقييد والارسال ايضاً انفاد الرسول. وقوله «عرفاً» أي متتابعة كعرف الفرس. وقيل: معروفاً إرسالها. وإرسال الرياح اجراء بعضها في أثر بعض «فالعاصفات عصفاً» يعني الرياح الهابة بشدة. والعصوف مرور الريح بشدة، عصفت الريح تعصف عصفاً وعصوفاً إذا اشتدت هبوبها، فعصوف الريح شدة هبوبها. وقوله «والناشرات نشراً» قال ابن مسعود ومجاهد وقتادة وابو صالح: هي الرياح، لانها تنشر السحاب للغيث، كما تلحقه للمطر. وقال ابو صالح ـ في رواية ـ هي الملائكة تنشر الكتب عن الله. وفي رواية اخرى عن ابي صالح إنها الأمطار لانها تنشر النبات. وقيل الرياح تنشر السحاب في الهواء.

---

(١) الطبري ٢٩ / ١٢٦

وقوله ﴿ فالفارقات فرقا ﴾ قال ابن عباس وابو صالح : هي التي تفرق بين الحق والباطل ، وهي الملائكة وقال قتادة : هي آيات القرآن . وقال الحسن : هي آي القرآن تفرق بين الهدى والضلال ﴿ فالملقيات ذكراً ﴾ قال ابن عباس وقتادة هم الملائكة . والالقاء طرح الشيء على غيره ، والالقاء ايقاع الشيء على غيره ، فالذكر يلقى بالبيان والافهام وهو من صفة الملائكة فيما تلقيه إلى الانبياء ، ومن صفة الانبياء فيما تلقيه إلى الامم ، ومن صفة العلماء فيما تلقيه الى المتعلمين وقيل لما جمعت الاوصاف للرياح لاختلاف فوائدها . وقال بعضهم ﴿ المرسلات عرفاً ﴾ الانبياء جاءت بالمعروف ﴿ فالعاصفات عصفاً ﴾ الرياح « والناشرات نشراً » الامطار نشرت النبات « فالفارقات فرقاً » آي القرآن « فالملقيات ذكراً » الملائكة تلقي كتاب الله تعالى إلى الانبياء .

وقوله « عذراً او نذراً » يحتمل نصبه وجهين :

احدها ـ على انه مفعول له أي للاعذار والانذار .

والثاني ـ مفعول به أي ذكرت العذر والنذر . واختار ابو علي أن يكون بدلا من قوله « ذكراً » وقيل معناه اعذاراً من الله وانذاراً الى خلقه ما القته الملائكة من الذكر إلى أنبيائه والعذر أمر في امر ظهوره دفع اللوم بأنه لم يكن يستحق لاجل تلك الحال مع وقوع خلاف المراد . فالعقاب على القبيح بعد الانذار يوجب العذر في وقوعه . وإن كان بخلاف مراد العبد الذي استحقه . قال الحسن « عذراً » معناه يعتذر به الى عباده في العقاب أنه لم يكن الا على وجه الحكمة . والنذر والانذار وهو الاعلام بموضع المخافة ليتقى . ومن خفف « عذراً » كره توالي الضمتين .

وقوله « إنما توعدون لواقع » جواب القسم ومعناه إن الذي وعدكم الله به من البعث والنشور والثواب والعقاب : كائن لا محالة . وقيل : الفرق بين الواقع

والكائن أن الواقع لا يكون إلا حادثاً تشبيهاً بالحائط الواقع ، لانه من أبين الاشياء في الحدوث ، والكائن أعم منه لانه بمنزلة الموجود الثابت يكون حادثاً وغير حادث.

وقوله « فاذا النجوم طمست » معناه محيت آثارها وذهب نورها . والطمس محو الاثر الدال على الشيء فالطمس على النجوم كالطمس على الكتاب ، لانه يذهب نورها والعلامات التي كانت تعرف بها ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أي شققت وصدعت ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ نسف الجبال إذهابها حتى لا يبقى لها في الارض أثر ، والنسف تحريك الشيء بما يخرج ترابه وما اختلط به مما ليس منه ، ومنه سمي المنسف ونسف الحبوب كلها تجري على هذا الوجه ، وقوله « نسفت » من قولهم : أنسفت الشيء اذا اخذته بسرعة .

وقوله ﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ أي أعلمت وقت الثواب ووقت العقاب ، فالتوقيت تقدير الوقت لوقوع الفعل ، ولما كانت الرسل عليهم السلام قد قدر أرسالها لاوقات معلومة بحسب صلاح العباد فيها كانت قد وقتت لتلك الأوقات بمعنى اعلمت وقت الثواب ووقت العقاب . وقال مجاهد وابراهيم وابن زيد : أقتت بالاجتماع لوقتها يوم القيامة قال تعالى ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ (١) والمواقيت الآجال ومثله ﴿ يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ (٢) وقيل : معنى اقتت اجلت لوقت ثوابها ، وهو يوم الفصل . وقيل : معناه أجلت فيما بينها وبين أمتها ﴿ ليوم الفصل ﴾ ثم بين تعالى فقال ﴿ لاي يوم اجلت ﴾ أي أخرت إلى اجل فالتأجيل التأخير الى أجل ، فالرسل قد أجلت بموعودها الى يوم الفصل ، وهو يوم القيامة وسمي يوم الفصل ، لانه يفصل فيه بين حال المهتدي والضال بما يعلم الله لاحدها من

(١) سورة ٥ المائدة آية ١١٢ (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٨٩

حال الثواب بالاجلال والاكرام، وللاخر من حال العقاب بالاستخفاف والهوان بما لا يخفى على انسان . وقيل : الوجه فى تأجيل الموعود إلى يوم الفصل تحديد الامر للجزاء على جميع العباد فيه بوقوع اليأس من الرد إلى دار التكليف ، لان في تصور هذا ما يتأكد به الدعاء الى الطاعة والانزجار عن المعصية .

وقوله ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ تهديد ووعيد لمن جحد يوم القيامة وكذب بالثواب والعقاب ، وإنما خص الوعيد في الذكر بالمكذبين لأن التكذيب بالحق يتبعه كل شيء، فخصال المعاصي تابعة له وإن لم يذكر معه، مع أن التكذيب قد يكون في القول والفعل المخالف للحق ، ومنه قولهم : حمل فما كذب حتى لقي العدو فهزمه .

قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) ثلاث عشرة آية .

قرأ أهل المدينة والكسائي « فقدرنا » مشددة . الباقون بالتخفيف وهما لغتان . ومن اختار التخفيف فلقوله ﴿ فنعم القادرون ﴾ .

يقول الله تعالى على وجه التهديد للكفار « ألم نهلك الاولين » يعني قوم نوح

وعاد وثمود ، والآخرون قوم لوط وابراهيم إلى فرعون ومن معه من الجنود أهلكهم الله تعالى بأنواع الهلاك جزاء على كفرهم لنعم الله وجحدهم لتوحيده واخلاص عبادته

وقوله « ثم نتبعهم الآخرين » إنما رفعه عطفاً على موضع « ألم » كأنه قال : لكنا نهلك الاولين ثم نتبعهم الاخرين . وقال المبرد تقديره ثم نحن نتبعهم لايجوز غيره . لان قوله (ألم نهلك) ماض ، وقوله (ثم نتبعهم) مستقبل فـلا يكون عطفاً على الاول ولا على موضعه . والاهلاك إبطال الشيء بتصييره الى حيث لا يدرى اين هو إما باعدامه او باخفاء مكانه ، وقد يكون الاهلاك بالاماتة ، وقد يكون بالنقل إلى حال الجمادية . والاول هو الكائن قبل غيره . والثاني هو الكائن بعـد غيره ، والاول قبل كل شيء هو الله تعالى الذي لم يزل . (والأولين) فى الآية هم الذين تقدموا على أهل العصر الثاني ، والاخر الكائن بعد الاول من غير بقية منه ، وبهذا ينفصل عن الثاني ، لأن الثاني قد يكون بعد بقية من الشيء ثالثاً ورابعاً وخامساً إلى حيث انتهى ، فاذا صار الى الآخر فليس بعده شيء كالكتاب الذي هو أجزاء كثيرة

وقوله (كذلك نفعل بالمجرمين) أي مثل ما فعلنا بأولئك نفعل مثله بالعصاة ثم قال (ويل يومئذ) يعني يوم الجزاء والثواب والعقاب (للمكذبين) فانهم يجازون بأليم العقاب . والاتباع الحاق الثاني بالأول بدعائه اليـه ، والتبع الحاق الثاني بالاول باقتضائه له ، تبع تبعاً فهو تابع وأتبع اتباعاً .

وقوله (ألم نخلقكم من ماء مهين) والمهين القليل الغناء ، ومثله الحقير الذليل وفى خلق الانسان على هذا الكمال من الحواس الصحيحة والعقل والتميز من ماء مهين أعظم الاعتبار وأبين الحجة على ان له مدبراً وصانعاً وخالقاً خلقـه وصنعه فمن جحده كان كالمكابر لما هو من دلائل العقول .

ثم قال الله تعالى مبيناً انه جعل ذلك المـاء المهين الحقير (فى قرار مكين)

فالقرار المكان الذي يمكن أن يطول فيه مكث الشيء ، ومنه قولهم: قر في المكان إذا ثبت على طول المكث فيه يقر قراراً، ولا قرار لفلان في هذا المكان أي لا ثبات له .

وقوله ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ فالقدر المقدار المعلوم الذي لا زيادة فيه ولا نقصان وكأنه قال إلى مقدار من الوقت المعلوم ، والقدر مصدر من قولهم : قدر يقدر قدراً وقدر يقدّر ـ بالتخفيف ، والتشديد ـ إلا أن التشديد للتكثير . وقوله ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ معناه في قول من خفف فقدرنا من القدرة ، فنعم القادرون على تدبيره . ومن شدد أراد فقدرنا ، فنعم المقدرون لاحوال النطفة ونقلها من حال الى حال حتى صارت إلى حال الانسان . والعرب تقول : قدر عليه الموت وقدر : بالتخفيف والتشديد . ومن شدد وقرأ القادرون جمع بين اللغتين كما قال الاعشى :

وانكرتني وما كان الذي نكرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعا (١)

وقوله ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتا ﴾ نصب (كفاتاً) على الحال ، وتقديره ألم نجعل الأرض لكم ولهم كفاتاً ، والكفات الضمام فقد جعل الله الارض للعباد تكفتهم ﴿ احياء وامواتاً ﴾ أي تضمهم في الحالين كفت الشيء يكفته كفتاً وكفاتاً إذا ضمه وقيل ﴿ كفاتاً ﴾ وعاء وهذا كفته أي وعاؤه ، ويقال كفيته أيضاً ، وقال الشعبي ومجاهد: فظهرها للاحياء وبطنها للأموات ، وهو قول قتادة ونصب أحياء وامواتاً على الحال ، ويجوز على المفعول به ، قال ابو عبيدة وغيره ﴿ كفاتاً ﴾ أي اوعية يقال: هذا النحى كفت هذا وكفيته .

وقوله ﴿ احياء وأمواتاً ﴾ أي منه ما ينبت ، ومنه مالا ينبت .

وقوله ﴿ وجعلنا فيها رواسي شامخات ﴾ أي وجعلنا في الأرض جبالا ثابتة

---

(١) مر في ٦ | ٢٨

عالية ،فالشامخات العاليات ، شمخ يشمخ شمخاً ، فهو شامخ ، ومنه شمخ بأنفه إذا رفعه كبراً ، وجبل شامخ وشاهق وبازخ كله بمعنى واحد والرواسي الثوابت ٠

وقوله ﴿ واسقيناكم ماء فراتاً ﴾ أي وجعلنا لكم شراباً من الماء الفرات ، وهو العذب وهو صفة يقال : ماء فرات وماء زلال وماء غدق وماء نمير كله من العذوبة والطيب ، وبه سمي النهر العظيم المعروف بالفرات قال الشاعر :

إذا غاب عنا غاب عنا فراتنـــا وإن شهدأجدى فضله وجداوله(١)

وقال ابن عباس أصول الانهار العذبة أربعة: جيحان ومنه دجلة ، وسيحان نهر بلخ ، وفرات الكوفة ، ونيل مصر ٠ وقوله ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ قد فسرناه ٠

قولــه تعــالى :

﴿ إِنْطَلِقُوا إِلىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) إِنْطَلِقُوا إِلىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلٰثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (٤٠) اثنتا عشرة آية ٠

---

(١) مر في ٤ | ١٩٤

قرأ رويس ﴿ انطلقوا إلى ظل ﴾ على فتح اللام بلفظ الماضي . وقرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر ﴿ جمالة ﴾ وضم الجيم يعقوب ، الباقون ﴿ جمالات ﴾ من قرأ ﴿ جمالة ﴾ على لفظ الواحد قال معناه الجمع لقوله ﴿ صفر ﴾ ومن قرأ ﴿ جمالات ﴾ بكسر الجيم قال : جمالة وجمالات جميعاً جمعان ، كأنه جمع الجمع مثل : رجال ورجالات ، و بيوت و بيوتات ، والهاء في قوله ﴿ كأنه ﴾ كناية عن الشرر .

وهذا حكاية ما يقول الله تعالى للكفار المكذبين بيوم الدين يوم القيامة فانه يقول لهم ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ﴾ من العقاب على الكفر ودخول النار جزاء على المعاصي ، فكنتم تجحدون ذلك وتكذبون به ولا تعترفون بصحته ، فامضوا اليوم اليه . فالانطلاق الانتقال من مكان إلى مكان من غير مكث الاعتقال ، وهو من الاطلاق خلاف التقييد ، والانتقال من حال إلى حال ، ومن اعتقاد إلى اعتقاد لا يسمى انطلاقاً . ثم ذكر الموضع الذي أمرهم بالانطلاق اليه ، فقال ﴿ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ﴾ قيل : معناه يتشعب من النار ثلاث شعب : شعبة فوقه ، وشعبة عن يمينه وشعبة عن شماله فيحيط بالكافر . وقال مجاهد وقتادة ﴿ ظل ﴾ دخان من جهنم ينقسم ثلاث شعب كما قال تعالى ﴿ أحاط بهم سرادقها ﴾ (١) أي من الدخان الآخذ بالانفاس ﴿ لا ظليل ﴾ معناه غير مانع من الاذى يسترعنه ، فالظليل المانع من الاذى بستره عنه ، ومثله الكنين ، فالظليل من الظلة ، وهي السترة ، والكنين من الكن ، فظل هذا الدخان لا يغني الكفار من حر النار شيئاً . وبين ذلك بقوله « ولا يغني من اللهب » والاغناء إيجاد الكفاية بما يكون وجود غيره وعدمه سواء يقال : أغنى عنه أي كفى في الدفع عنه . واللهب إرتفاع الشرر ، وهو اضطرام النار ، إلتهب يلتهب إلتهاباً وألهبتها إلهاباً ولهباً .

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٢٩

وقوله « انها » يعني النار « ترمي بشرر » وهي قطع تطاير من النار في الجهات وأصله الظهور من شررت الثوب إذا اظهرته للشمس والشرر يظهر متبدداً من النار . وقوله « كالقصر » أي ذلك الشرر كالقصر أي مثله في عظمه ، وهو يتطاير على الكافرين من كل جهة ـ نعوذ بالله منه ـ والقصر واحد القصور من البنيان ـ في قول ابن عباس ومجاهد ـ وفي رواية أخرى عن ابن عباس وقتادة والضحاك : القصر أصول الشجر واحدته قصرة مثل جمرة وجمر ، والعرب تشبه الابل بالقصور ، قال الاخطل :

كأنه برج رومي يشيده لزّ بجص وآجرّ وأحجار (١)

والقصر في معنى الجمع إلا انه على طريق الجنس . ثم شبه القصر بالجمال ، فقال « كأنه جمالات صفر » قال الحسن وقتادة : كأنها انيق سود ، لما يعتري سوادها من الصفرة . وقال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : قلوس السفن . وفي رواية أخرى عن ابن عباس : هي قطع النحاس . قال الزجاج « جمالات » بالضم جمع جمالة وهو القلس من قلوس البحر ، ويجوز أن يكون جمع (جمل) وجمالات ، كما قيل (رحال) جمع (رحل) ومن كسر فعلى انه جمع جمالة ، وجمالة جمع جمل مثل حجر وحجارة ، وذكر وذكارة . وقرىء في الشواذ « كالقصر » بفتح الصاد جمع كأنها أعناق الابل « وجمالات » جمع جمل كرجل ورجالات ، وبيت وبيوتات ، ويجوز أن يكون جمع جمالة . وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم « جملة » بغير الألف على التوحيد لانه لفظ جنس يقع على القليل والكثير . الباقون جمالات بألف ، مكسور الجيم .

وقوله « ويل يومئذ للمكذبين » قد فسرناه ثم قال تعالى « هذا يوم لاينطقون

---

(١) مر في ٧ \ ٥٣

ولا يؤذن لهم فيعتذرون » اخبار من الله تعالى أن ذلك اليوم لا ينطق الكفار . وقيل في معناه قولان :

احدها ـ ان ذلك اليوم مواطن ، فموطن لا ينطقون ، لانهم مبلسون من هول ما يرونه ، وموطن يطلق فيه عن ألسنتهم فينطقون ، فلذلك حكى عنهم أنهم « قالوا ربنا أمتنا إثنتين واحييتنا إثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل » (١) وقد يقال هذا يوم لا ينطقون إذا لم ينطقوا في بعضه كما يقال : كان كذا يوم قدم فلان وإن كان قدم في بعضه ، لان المعنى مفهوم .

والثاني ـ انهم ينطقون بنطق لا ينتفعون به ، وكأنهم لم ينطقوا ، واضاف الزمان إلى الأفعال كقولك أتيتك يوم قدم زيد ، وآتيك يوم يخرج عمرو ، وأجاز النحويون هذا يوم لا ينطقون بالنصب على انه يشير إلى الجزاء ، ولا يشير إلى اليوم

وقوله « ولا يؤذن لهم » فالاذن الاطلاق في الفعل ، تقول : يسمع بالاذن فهذا أصله وقد كثر استعماله حتى صار كل دليل ظهر به أن للقادر أن يفعل كذا فهو أذن له ، وكل ما اطلق الله فيه بأي دليل كان ، فقد أذن فيه .

وقوله تعالى « فيعتذرون » فالاعتذار الانتفاء من خلاف المراد بالمانع من المراد ، وليس لاحد عذر في معصية الله ، لانه تعالى لا يكلف نفساً مالا يطاق . وقد يكون له عذر في معصية غيره ، لانه قد يكلف خلاف الصواب وقد يكلف ما لا يمكن لعارض من الاسباب .

وقوله « فيعتذرون » رفع عطفاً على قوله « لا يؤذن » قال الفراء : تقديره لا ينطقون ولا يعتذرون . وقد يجوز في مثله النصب على جواب النفي ، ومعنى الآية لا يؤذن لهم في الاعتذار فكيف يعتذرون .

---

(١) سورة ٤٠ المؤمن آية ١١

وقوله ﴿ هذا يوم الفصل ﴾ يعني يفصل بين الخلائق بالحكم لكل أحد بما له وعليه . والفصل قطع علق الأمور بتوفية الحقوق ، وهذا الفصل الذي هو فصل القضاء يكون ذلك في الآخرة على ظاهر الأمر وباطنه ، وأما في الدنيا ، فهو على ظاهر الأمر ، لان الحاكم لا يعرف البواطن .

وقوله « جمعناكم والاولين » معناه إن الله يجمع فيه الخلائق في يوم واحد في صعيد واحد ، والجمع جعل الشيء مع غيره إما في مكان واحد أو محل واحد أو في يوم واحد أو وقت واحد ، أو يجعل مع غيره في حكم واحد أو معنى واحد كجمع الجماد والحيوان في معنى الحدوث .

وقوله « فان كان لكم كيد فكيدون » معناه توبيخ من الله تعالى وتقريع للكفار واظهار عجزهم عن الدفع عن أنفسهم فضلا عن أن يكيدوا غيرهم ، وإنما هو على أنكم كنتم في دار الدنيا تعملون ما يغضبني ، فالان عجزتم عن ذلك وحصلتم على وبال ما عملتم . وقيل : المعنى إن كان لكم حيلة تحتالونها في التخلص فاحتالوا . والكيد الحيلة و « ويل يومئذ المكذبين » قد مضى تفسيره .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ(٤٨)وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥٠) عشر آيات.

لما ذكر الله تعالى الكفار وما أعدّ لهم من ضروب العقاب وانواع العذاب ترهيباً وتزهيداً فى مثله ، ذكر المؤمنين المتقين للمعاصي وبين ما أعده لهم من أنواع النعيم وضروب اللذات . فقال « إن المتقين » ومعناه الذين اتقوا عقاب الله باجتناب معاصيه وطلبوا ثوابه بفعل طاعاته « فى ظلال » وهو جمع ظل ، وهو الحجاب العالي المانع من كل أذى ، فلأهل الجنة حجاب من كل أذى لان هواء الجنة مناف لكل أذى ، فهم من طيبه على خلاصة . وقيل فى ظلال من قصور الجنة وأشجارها « وعيون » وهي ينابيع الماء التي تجري فى ظل الاشجار . وقيل : ان تلك العيون جارية فى غير أخدود ، لأن ذلك امتع بما يرى من حسنه وصفائه على كنهه من غير ملابسة شيء له ، وليس هناك شيء إلا على أحسن صفاته ، لان الله تعالى قد شوق اليه أشد التشويق ورغب فيه أتم الترغيب « وفواكه » وهي جمع فاكهة ، وهي ثمار الاشجار التي من شأنها أن تؤكل ، وقد يكون من الثمر ما ليس كذلك كالثمر المر ، فانه ليس من الفاكهة .

وقوله « مما يشتهون » يعني لهم فاكهة من جنس ما يشتهونه .

ثم قال تعالى « كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون » صورته صورة الأمر والمراد به الاباحة . وقال قوم : هو أمر على الحقيقة ، لان الله تعالى يريد منهم الأكل والشرب فى الجنة ، وإنهم إذا علموا ذلك زاد فى سرورهم ، فلا تكون إرادته لذلك عبثاً ، والهنيء هو الذي لا أذى فيه فيما بعد . وقيل : الهنيء النفع الخالص من شائب الأذى . والشهوة معنى فى القلب إذا صادفت المشتهى كان لذة ، وضده النفار إذا

صادفه كان ألماً ، وجاء الكلام على التقابل للكافرين من قوله « فى ظل ذي ثلاث شعب لاظليل ولا يغني من اللهب » مقابل أهل الجنة فى ظلال قصور الجنة واشجارها

وقوله « انا كذلك نجزي المحسنين » اخبار منه تعالى أنه كما جازى هؤلاء المتقين بما ذكره من النعيم مثل ذلك يجازي كل محسن عامل بطاعة الله . وفى ذلك دلالة على أن كل احسان خالص للعبد فله به الثواب والحمد ، وانه طاعة لله ، وإن ما ليس باحسان من فعل خارج عن هذا الحكم . وقوله « ويل يومئذ للمكذبين » قد مضى تفسيره .

ثم عاد الى خطاب الكفار فقال لهم على وجه التهديد والوعيد « كلوا وتمتعوا » فى دار الدنيا وتلذذوا بما تريدون وانتفعوا بما تشتهون « قليلا » لان أيام الدنيا قليلة ، فالتمتع الحصول فى أحوال تلذ ، تمتع تمتعاً واستمتع استمتاعاً وأمتعه غيره امتاعاً والتمتع والتلذذ واحد ونقيضه التألم .

وقوله « إنكم مجرمون » اخبار منه تعالى للكفار بأنكم وإن تمتعتم قليلا في الدنيا فانكم عصاة وكفار ومآ لكم الى النار وعذابها . والاجرام فعل ما يقطع المدح ويحصل بدله الذم ، يقال : أجرم إجراماً واجترم اجتراماً وتجرم عليه أي تطلب له الجرم « ويل يومئذ للمكذبين » بينا معناه .

وقوله « وإذا قيل لهم إركعوا لا يركعون » فالركوع هو الانخفاض على وجه الخضوع ، ويعبر به عن نفس الصلاة ويقال : قد ركعت وبقي على ركوع أي صلاة والمراد به ـ ههنا ـ الصلاة ، والمعنى إن هؤلاء الكفار إذا دعوا إلى الصلاة لا يصلون لجهلهم بما في الصلاة من الخير والبركة . وقيل : انه يقال لهم ذلك في الآخرة كما قال « يدعون إلى السجود فلا يستطيعون » ذكره ابن عباس . وقال قتادة ، يقال لهم ذلك في الدنيا ، فان الصلاة من الله بمكان . وقال مجاهد : عنى بالركوع ـ هنا ـ الصلاة

وقوله « ويل يومئذ للمكذبين » .قد فسرناه ، فكأنه قيل لهم يجب عليكم الركوع بالخضوع لله فاركعوا فأخبر عنهم أنهم لا يركعون تكذيباً بهذا الخبر ، فلذلك قال عقيب ذلك « ويل يومئذ للمكذبين » وإلا فقوله « اركعوا » أمر من الله تعالى ، ولا يقال فيمن أمر بالشيء فلم يفعل انه كذّب ، وقيل : إنّما تكرر في هذه السورة من قول « ويل يومئذ للمكذبين » ليس على وجه التكرار في المعنى ، لان معناه ويل للمكذبين بما ذكره قبله من الاخبار ، وقيل يريد أنه كذب بالخبر الذي يليه ، وهو وجه القول الثاني والثالث والرابع إلى آخر السورة ، على هذا المنهاج من أنه يلزمه الويل بالتكذيب بالذي يليه والذي قبله على التفصيل لاعلى الاجمال في أنه لا يلزمه حتى يكذب بالجميع . وقوله « فبأي حديث بعده يؤمنون » معناه إنه اذا أتى القرآن باظهر البرهان وكفروا به فليس ممن يفلح بالايمان بكلام غيره ، لان من لم يؤمن بما فيه المعجزة الظاهرة والآية الباهرة لا يؤمن بغيره .

٧٨ ـ سورة النبأ :

مكية في قول ابن عباس والضحاك وهي أربعون آية في الكوفي والمدنيين واحدى وأربعون في البصري



﴿ عَمَّ يَتَسَاءلُونَ (١) عَنِ ٱلنَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً (٩) وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاساً (١٠) وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتاً (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ﴾ (١٦) ست عشرة آية .

وقف يعقوب على «عم» بالهاء ، الباقون بلا هاء .

وقرأ ابن عامر « كلا ستعلمون » بالتاء على الخطاب فيهما أي قل لهم ستعلمون عاقبة أمركم . الباقون ـ بالياء ـ على الغيبة ، وهو الأقوى لقوله « عم

يتساءلون » وقوله « الذي هم فيه مختلفون » ولم يقل أنتم ، وإن كانت التاء جائزة لان العرب تنتقل من غيبة إلى خطاب ، ومن خطاب إلى غيبة .

قيل فى سبب نزول هذه الآية : إن رسول الله ﷺ كان إذا حدّث قريشاً وعرّفهم أخبار الامم السالفة ووعظهم كانوا يهزؤن بذلك ، فنهاه الله تعالى أن يحدثهم فقال « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزء » إلى قوله « حتى يخوضوا في حديث غيره » (١) فكان رسول الله ﷺ يحدث اصحابه فاذا أقبل واحد من المشركين أمسك فاجتمعوا على بكرة أبيهم وقالوا : والله يامحمد إن حديثك عجب ، وكنا نشتهي أن نسمع كلامك وحديثك ، فقال إن ربي نهاني أن أحدثكم ، فأنزل الله تعالى « عم يتساءلون عن النبأ العظيم » وقوله « عم يتساءلون » أصله عن ما ، فحذفت الألف لاتصالها بحرف الجر حتى صارت كالجزء منه لتدل على شدة الاتصال مع تخفيف المركب فى الكلام ، فحذف حرف الاعتلال وأدغمت النون فى الميم لقربها منها من غير أخلال ، وصورته صورة الاستفهام والمراد تفخيم القصة والانكار والتهديد . وقوله « يتساءلون » معناه عن ماذا يسأل بعضهم بعضاً ، فالتساؤل سؤال احد النفيسين الآخر ، تساءلا تساؤلا وسأله مسألة ، والسؤال طلب الاخبار بصيغة مخصوصة فى الكلام ، وكل ما يزجر العقل عنه بما فيه من الداعي الى الفساد لا يجوز السؤال عنه كسؤال الجدل لدفع الحق ونصرة الباطل ، وكالسؤال الذي يقتضي فاحش الجواب ، لأنه كالامر بالقبيح . والنبأ معناه الخبر العظيم الشأن كمعنى الخبر عن التوحيد فى صفة الاله وصفة الرسول ، والخبر عما يجوز عليه وما لا يجوز . وقال مجاهد : النبأ العظيم الشأن القرآن ، وقال قتادة وابن زيد : هو السؤال عن البعث بعد الموت ، لأنهم كانوا يجمعون على التكذيب بالقرآن

(١) سورة ٤ النساء آية ١٣٩ وقريب منه في سورة ٦ الانعام آية ٦٨

« الذي هم فيه مختلفون » قال قتادة : معناه الذي هم فيه بين مصدق ومكذب ، فقال الله سبحانه مهدداً لهم ومتوعداً « كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون » ومعنى (كلا) ردع وزجر ، كأنه قال ارتدعوا وانزجروا ليس الأمر كما ظننتم . وقال قوم : معناه حقاً سيعلمون عاقبة أمرهم وعائد الوبال عليهم . وقال الضحاك : معناه كلا سيعلم الكفار عاقبة تكذيبهم ، وسيعلم المؤمنون عاقبة تصديقهم . وقال قوم : كلا سيعلمون ما ينالهم يوم القيامة من العذاب ، ثم كلا سيعلمون ما ينالهم في جهنم من العـــذاب ، فلا يكون تكراراً . والاختلاف ذهاب كل واحد من النفيسين إلى نقيض ما ذهب اليه الآخر ، يقال : اختلفا في المعنى فذهب أحدهما إلى كذا ، وذهب الآخر إلى كذا .

ثم نبههم على وجه الاستدلال على صحة ذلك فقال « ألم نجعل الأرض مهاداً » أي وطاء ، وهو القرار المهيأ للتصرف فيه من غير أذية . وقال قتادة : المهاد البساط ومهد الارض تمهيداً مثل وطأه توطئة ، لأن ذلك لا يقدر عليه غير الله ، لانه الذي يسكن الأرض حالا بعد حال حتى يمكن الاستقرار عليها والتصرف فيها « والجبال أوتاداً » أي وجعلنا الجبال أوتاداً للارض لئـلا تميد بهم ، فالجبال جمع جبل ، وهو بغلظه وثقله يبلغ أن يكون ممسكاً للارض عن أن تميد بثقله ، فعلى ذلك دبره الله ، وذكر العباد به وما فيه من العبرة بعظمة من يقدر عليه . والوتد المسمار إلا أنه اغلظ منه ، لذلـك يقال : مسامير العناء إذا دقت كالمسمار من الحديد في القوة والدقة ، ولو غلظت صارت أوتاداً فكذلك وصفت الجبال بأنها أوتاد للارض إذ جعلت بغلظها ممسكة لها عن أن تميد باهلها .

وقوله « وجعلناكم أزواجاً » أي اشكالا كل واحد يشاكل الآخر . وقيل: معناه ذكراً وأنثى حتى يصح منكم التناسل .

وقوله « وجعلنا نومكم سباتاً » أي نعاساً في أوله تطلب النفس الراحة به .

وقيل : معناه جعلنا نومكم راحة . وقيل : معناه جعلنا نومكم طويلا ممتداً تعظم به راحة أبدانكم ويكثر به انتفاعكم ، ومنه سبت من الدهر أي مدة طويلة منه ، وقال ابو عبيدة : معناه جعلنا نومكم سباتاً ليس بموت ، ورجل مسبوت فيه روح ، والسبات قطع العمل للراحة ، وَمنه سبت أنفه إذا قطعه ، ومنه يوم السبت أي يوم قطع العمل للراحة على ما جرت به العادة في شرع موسى ، وصار علماً على اليوم الذي بعد الجمعة بلا فصل .

وقوله « وجعلنا الليل لباساً » فاللباس غطاء ساتر مماس لماستر ، فالليل ساتر للاشخاص بظلمته مماس لها بجسمه الذي فيه الظلمة قال الشاعر :

فلما لبسن الليل أوجن نصبت　　　لهمن حذا آذانها وهي جنح (١)

« وجعلنا النهار معاشاً » أي متصرفاً للعيش والعيش الانعاش الذي تبقى معه الحياة على حال الصحة عاش يعيش عيشاً والنهار اتساع الضياء المنبث في الافاق وأصله من انهر الدم إذا وسع مجراه ، ومنه النهر وهو المجرى الواسع من مجاري الماء ، ومنه الانتهار الاتساع في الاغلاظ ، وفى خلق النهار تمكين من التصرف للمعاش وفي ذلك أعظم النعمة واكبر الاحسان .

وقوله « وبنينا فوقكم سبعاً شداداً » يعني سبع سموات . والبناء جعل الطاق الأعلى على الأدنى ، فالسماء مبنية كهيئة القبة مزينة بالكواكب المضيئة ، فسبحان الذي زينها وخلقها وبناها على هذه الصفة امباده . وإنما جعلها سبع سموات لما في ذلك من الاعتبار الملائكة ، ولما في تصور الطبقات من عظم القدرة ، وهول تلك الامور ، وما فيه من تمكين البناء حتى وقفت سماء فوق سماء ، فسبحان من يمسكها بما هو قادر عليها ومدبر لها .

(١) الطبري ٣٠\ ٣

وقوله « وجعلنا سراجاً وهاجاً » يعني الشمس جعلها الله سراجاً للعالم يستضيئون به ، فالنعمة عامة لجميع الخلق . والوهاج الوقاد ، وهو المشتعل بالنور العظيم وقال مجاهد وقتادة : يعني وهاجاً متلألئاً .

وقوله « وأنزلنا من المعصرات » قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : يعني الرياح ، كأنها تعصر السحاب . وقيل هي السحاب تتحلب بالمطر . وقوله « ماء ثجاجاً » فالثجاج الدفاع في انصبابه كثج دماء البدن، يقال ثججت دمه أثجه ثجاً ، وقد ثج الدم يثج ثجوجاً « لنخرج به حباً ونباتاً » أي نخرج بذلك الماء حباً وهو كل ما تضمنه الزرع الذي يحصد. والنبات الكلأ من الحشيش والزرع « وجنات الفافاً » أي بساتين ملتفة بالشجر يخرجها الله تعالى لعباده بالمطر . وإنما قال « جنات » لأن الشجر يجنها أي يسترها و « الالفاف » الاخلاط المتداخلة يدور بعضها على بعض واحدها (لف) يقال : شجر ملتف وأشجار ملتفة . والمعاني الملففة المتداخلة باستتار بعضها ببعض حتى لا تبين إلا في خفي . وقيل : واحده لف ولفف . وقيل : في واحده شجرة لفا ، وشجر لف . وقال مجاهد وقتادة وابن عباس : ألفافاً ملتفة . والتقدير فيه ويخرج به شجر جنات الفافاً ملتفة إلا انه حذف لدلالة الكلام عليه .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً (١٨) وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً (١٩) وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً (٢١) لِلطَّاغِينَ

مَآباً (٢٢) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً (٢٤) إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً (٢٥) جَزَاءً وِفَاقاً (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً ﴾ (٣٠) اربع عشرة آية

قرأ « وفتحت » بالتخفيف أهل الكوفة إلا الاعشى والبرجمي . الباقون بالتشديد . وقرأ حمزة وروح « لبثين فيها » بغير الف مثل (مزجين ، وفرهين) الباقون « لابثين » بألف على اسم الفاعل ، وهو الأجود ، لأنه من (لبث) فهو (لابث) وحجة حمزة أنه مثل (طمع) و (طامع) . واللبث البطيء . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً عن المفضل « غساقاً » مشددة . الباقون بالتخفيف ، وهما لغتان . فالغساق صديد أهل النار - في قول ابراهيم وقتادة وعكرمة وعطية - وقال أبو عبيدة : الغساق ماء وهو من الغسل أي سيال . وقال غيره : هو البارد . وقيل : المنتن .

يقول الله تعالى « إن يوم الفصل » يعني يوم الدين وهو يوم القيامة الذي يفصل الله فيه بالحكم بين الخلائق « كان ميقاتاً » أي جعله الله وقتاً للحساب والجزاء فالميقات منتهى المقدار المضروب لوقت حدوث أمر من الأمور ، وهو مأخوذ من الوقت ، كما أن الميعاد من الوعد ، والميزان من الوزن والمقدار من القدر . والمفتاح من الفتح .

وقوله « يوم ينفخ في الصور » فالنفخ إخراج ريح الجوف من الفم ، ومنه نفخ الزق ، والنفخ في البوق ، ونفخ الروح في البدن يشبه بذلك ، لانها تجري فيه كما تجري الريح ، يجري مجرى الريح في الشيء ، والصور قرن ينفخ فيه في حديث مرفوع عن النبي صلى الله عليه وآله

وقال الحسن : هو جمع صورة . وبه قال قتادة . ومعناه : إذكر يوم ينفخ في الصور « فتأتون أفواجاً » فالفوج جماعة من جماعة . والأفواج جماعات من جماعات ، فالناس يأتون على تلك الصفة الى أن يتكاملوا في أرض القيامة . وكل فريق يأتي مع شكله . وقيل تأتي كل أمة مع نبيها ، فلذلك جاؤا أفواجاً أي زمراً .

وقوله « وفتحت السماء فكانت أبواباً » معناه وشققت السماء ، فكانت كقطع الأبواب . وقيل : صار فيها طرق ولم يكن كذلك قبل .

وقوله « وسيرت الجبال فكانت سراباً » معناه زيلت الجبال عن أماكنها وأذهب بها حتى صارت كالسراب .

وقوله « ان جهنم كانت مرصاداً » إخبار منه تعالى بأن جهنم تكون يومئذ مرصاداً . والمرصاد هو المعد لأمر على ارتقابه الوقوع فيه ، وهو مفعال من الرصد . وقيل : المعنى ذات ارتقاب لا هلها ترصدهم بنكالها . والرصد عمل ما يترقب به الاختطاف .

وقوله « للطاغين » يعني جهنم الذين طغوا في معصية الله وتجاوزوا الحد « مآبا » أي مرجعاً ، وهو الموضوع الذي يرجع اليه ، فكأن المجرم قد كان باجرامه فيها ثم رجع اليها ، ويجوز أن يكون كالمنزل الذي يرجع اليه .

وقوله « لابثين فيها أحقاباً » أي ما كثين فيها أزماناً كثيرة ، وواحد الاحقاب حقب من قوله « او أمضي حقباً » (١) أي دهراً طويلا . وقيل واحده حقب ، وواحد الحقب حقبة ، كما قال الشاعر :

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل ان يتصدعا

وإنما قال « لا بثين فيها احقاباً » مع انهم مخلدون مؤبدون : لا انقضاء لها

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٦١

إلا انه حذف للعلم بحال أهل النار من الكفار باجماع الأمة عليه « لابثين فيها احقاباً لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً » ثم يعذبون بعد ذلك بضرب آخر كالزقوم والزمهرير ونحوه من أصناف العذاب . ومن قرأ « لبثين » بلا الف استشهد فى تعدي (فعل) بقول الشاعر :

ومسحل سح عضاده سحج بسراتها ندب له وكلوم (١)

وقال ابن عباس : الحقب ثمانون سنة . وقال الحسن : سبعون سنة . وقال قوم : هو اكثر من ذلك .

وقوله « لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً » قال ابو عبيدة : البرد ههنا النوم قال الكندي :

فيصدني عنها وعن قبلتها البرد

أي النوم ، فكأنهم لا ينامون من شدة ماهم فيه من العذاب ، ولا يجدون شراباً يشربوه « إلا حميماً وغساقاً » فالحميم الحار الشديد الحرارة والغساق صديد أهل النار - فى قول إبراهيم وقتادة وعطية وعكرمة - يقال : غسقت القرحة غسقاً إذا سال صديدها ، وكذلك الجروح ، ومنه قوله « ومن شر غاسق إذا وقب »(٢) والغاسق الليل إذا لبس الاشياء بظلمته ، كأنه يسيل عليه بظلامه . وقال الحسن : الجنة والنار مخلوقتان فى الايام الستة الأول ، وهي الجنة التي سكنها آدم ، وهي الجنة التي يسكنها المتقون في الآخرة . ثم يفنيها الله لهلاك الخلائق . ثم يعيدها ، فلا يفنيها أبداً . وقال قوم : هما مخلوقتان ، ولا يفنيهما الله . وقال آخرون : هما غير مخلوقتين والجنة التي كان فيها آدم جنة أخرى ليست جنة الخلد .

وقوله « جزاء وفاقاً » قال ابن عباس ومجاهد والربيع وقتادة : معناه وافق

(١) تفسير الطبري ٣٠/٧ (٢) سورة ١١٣ الفلق آية ٣

الجزاء أعمالهم ، فالوفاق الجاري على المقدار ، فالجزاء وفاق لأنه جار على مقـدار الاعمال في الاستحقاق ، وذلك أنه يستحق على الكفر أعظم مما يستحق على الفسق الذي ليس بكفر ؛ ويستحق على الفسق أعظم مما يستحق على الذنب الصغير .

وقوله « إنهم كانوا لا يرجون حساباً » أي لا يرجون المجازاة علي الأعمال ولا يتوقعونه ـ وهو قول الحسن وقتادة ـ وقيل : معناه إنهم كانوا : لا يرجون حسن الجزاء في الحساب لتكذيبهم . فالرجاء التوقع لوقوع أمر يخاف ألا يكون ، فهؤلاء كان يجب عليهم أن يتوقعوا الحساب على يقين أنه يكون ، فلم يفعلوا الواجب في هذا ، ولا قاربوه لاعتقادهم أنه لا يكون فاللوم أعظم لهم والتقريع لهم أشد . وقيل: معنى لا يرجون لا يخافون كما قال الهذلي :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها في بيت نوب عوامل (١)

وقوله « وكذبوا بآياتنا كذاباً » معناه جحدوا بآيات الله وحججه ، ولم يصدقوا بها . وإنما جاء المصدر على فعال للمبالغة مع اجرائه على نظيره الذي يطرد قبل آخره الف نحو الانطلاق والاقتدار والاستخراج والقتال والكرام ، والمصدر الجاري على فعل التفعيل نحو التكذيب والتحسين والتقديم ، وقد خرج التفعيل عن النظير لما تضمن من معنى التكثير ، كما خرج التفاعل والمفاعلة للزيادة على أقل الفعل ، فانه من اثنين . ومثل كذاب ، حملته حمالا وحرقته حراقاً .

وقوله « وكل شيء احصيناه كتاباً » معناه وأحصينا كل شيء أحصيناه في كتاب ، فلما حذف حرف الجر نصبه ، وقيل : إنما نصبه لان في احصيناه معنى كتبناه ، فكأنه قال كتبناه كتاباً ، ومثل كذبته كذاباً قصيته قصاء قال الشاعر :

(١) مر في ٢ / ٢١٠ و ٣ / ٣١٥ و ٧ / ٤٩١ و ٨ / ١٨٧

لقد طال ما ثبطتني عن صحابتي   وعن جوح قصاؤها من شقائيا (١)

والوجه في إحصاء الاشياء في الكتاب ما فيه من الاعتبار للملائكة بموافقة ما يحدث لما تقدم به الاثبات مع أن تصور ذلك يقتضي الاستكثار من الخير والاجتهاد فيه ، كما يقتضي إذا قيل للانسان ما تعمله فانه يكتب لك وعليك .

وقوله « فذوقوا » أي يقال لهؤلاء الكفار ذوقوا ما كنتم فيه من العذاب « فلن نزيدكم إلا عذاباً » لان كل عذاب يأتي بعد الوقت الاول فهو زائد عليه .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً (٣٣) وَكَأْساً دِهَاقاً (٣٤) لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً (٣٦) رَبِّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمٰنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَالْمَلٰئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً (٣٨) ذٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلىٰ رَبِّهِ مَآباً (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً * يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً ﴾ (٤٠) أحدى عشرة آية في البصري وعشر آيات عند الباقين

قرأ « ولا كذاباً » خفيفاً الكسائي « رب السموات » بالرفع محارب وابو بكر، و « الرحمن » جراً عن عاصم وابن عامر ويعقوب وسهل .

---

(١) القرطبي ١٩ | ١٧٩ والطبري ٣٠ | ١٠

لما ذكر الله تعالى حال الكفار وما أعده لهم من أنواع العقاب ذكر ما للمؤمنين المتقين لمعاصي الله تعالى، فقال « إن للمتقين » الذين يتقون عقاب الله باجتناب معاصيه وفعل طاعته « مفازاً » ، وهو موضع الفوز بخلوص الملاذ . وأصل الفوز النجاة إلى حال السلامة والسرور ، ومنه قيل الهلكة مفازة على وجه التفاؤل ، لانه قيل منجاة وقيل مفازاً منجى إلى مبرة . ثم بين ذلك فقال « حدائق واعناباً » فالحدائق جمع حديقة ، وهي البستان المحوط ، ومنه أحدق به حائطه . والحديقة الجنة المحوطة . ومنه أحدق القوم بفلان إذا أطافوا به ، وسميت الحدقة حدقة لما يحيط بها من جفنها والاعناب جمع عنب ، وهو ثمر الكرم قبل أن يجف فاذا جف فهو الزبيب ، ونظيره الرطب ثمر النخل قبل أن يصير تمراً فاذا صار تمراً زال عنه اسم الرطب .

وقوله « وكواعب أتراباً » قال ابن عباس : الكواعب النواهد ، والكاعب الجارية قد نهد ثدياها ، يقال : كعب ثدي الجارية ونهد إذا ابتدأ بخروج حسن . والاتراب جمع ترب ، وهي التي تنشأ مع لدتها على سن الصبي الذي يلعب بالتراب فكأنه قيل هم على سنّ واحدة . قال قتادة : أتراباً يعني في سن واحدة .

وقوله « وكأساً دهاقاً » فالكأس الاناء إذا كان فيه شراب . وقيل الكاس أناء الخمر الذي يشرب منه ، قال الشاعر :

يلذه بكأسه الدهاق (١)

فان لم يكن فيه الخمر لم يسم كأساً ، والدهاق ملأى بشدة الضغط ، والدهق شدة الضغط في الكأس ملأى مترعة ليس فيها فرجة ليستوفي حال اللذة . وقال قتادة : دهاقاً مترعة . وقال مجاهد : معناه متتابعة على شاربها مأخوذ من متابعة الشد في الدهن .

---

(١) القرطبي ١٩/ ١٨١

وقوله « لا يسمعون فيها لغواً » أي لا يسمعون في الجنة كلاماً لا فائدة فيه « ولا كذاباً » أي ولا تكذيب بعضهم لبعض . ومن قرأ « كذاباً » بالتخفيف أراد مصدر كاذبه مكاذبة ، وكذاباً قال الشاعر :

فصدقتني وكذبتني   والمرء ينفعه كذابه (١)

وقال الفراء : قال اعرابي في طريق مكة : يا رب القصار أحب اليك أم الحلق يريد أقصر شعري أم احلق .

وقوله « جزاء من ربك عطاء حساباً » أي فعلنا بالمؤمنين المتقين ما فعلنا جزاء على تصديقهم بالله ونبيه ، فالجزاء إعطاء المستحق بعمل الطاعة أو المعصية .

وقوله « عطاء حساباً » أي بحساب العمل كل إنسان على قدر عمله من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ثم سائر أخيار المؤمنين ، وعند الله المزيد . وقيل : معناه عطاء كافياً من قولهم : أعطاني ما أحسبني أي كفاني ، وحسبك أي اكتف ، وحسبي الله أي كفاني الله . وقال الحسن : معناه إنه أعطاهم ذلك محاسبة .

وقوله « رب السموات والارض » من رفع استأنف الكلام وجعله مبتدأ ، وقوله « الرحمن » خبره ، ومن جره رده على قوله « من ربك » رب السموات ، وجعل « الرحمن » جراً بأنه نعته . ومن رفع الرحمن وجر الأول قطعه عن الاول وتقديره : هو الرحمن . والمعنى إن الذي يفعل بالمؤمنين ما تقدم ذكره هو الله رب السموات والارض ومدبرهما ، ومدبر ما بينهما ، والمصرف لهما على ما يريده « لا يملكون منه خطاباً » ومعناه لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه ، كما قال « لا يشفعون إلا لمن ارتضى » (٢) وفي ذلك أتم التحذير من الاتكال . والخطاب توجيه الكلام إلى مدرك بصيغة مبينة كاشفة عن المراد بخلاف صيغة الغائب عن الادراك

(١) مر في ٨ / ٣٩٠ و ٩ / ٤٢٥   (٢) سورة ٢١ الانبياء آية ٢٨

على طريقة أنت وبك . والاضمار على ثلاثة أضرب : إضمار المتكلم ، وإضمار المخاطب وإضمار الغائب .

وقوله « يوم يقوم الروح والملائكة » معناه إذكر يوم يقوم الروح ، قال الضحاك والشعبي : الروح هو جبرائيل عليه السلام وقال ابن مسعود وابن عباس: هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً ، وهو المروي في أخبارنا . وقال الحسن وقتادة : الروح بنو آدم . وقال ابن عباس : أرواح بني آدم مع الملائكة فيما بين النفختين قبل رد الأرواح إلى الاجساد .

وقوله « والملائكة صفاً لا يتكلمون » أي مصطفين لا يتكلم احد بشيء « إلا من أذن له الرحمن » أي أذن الله له في الكلام « وقال صواباً » والصواب موافقة الغرض الحكمي كأنه إصابة ذلك الغرض الذي تدعو اليه الحكمة . ونقيضه الخطأ ، وهو مخالفة الغرض الحكمي ولما كانت الحكمة قد تدعو إلى أمر بأوكد مما تدعو إلى أمر ، كدعائها إلى الفعل الأصلح ، والفعل الأدون ، صح ان صواباً أصوب من صواب .

ثم قال « ذلك اليوم » يعني اليوم الذي وصفه وأخبر عنه هو « الحق » الذى لاشك في كونه وحصوله .

وقوله « فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا » فيه دلالة على أن العباد قادرون على اتخاذ المآب وتركه . وإنما قال « فمن شاء اتخذ » لانه قادر عليه ومزاح العلة فيه . والمآب المرجع ، وهو (مفعل) من آب يؤب أوبا . وقال سفيان : معناه مرجعا . قال عبيد :

وكل ذى غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب (١) .

(١) مر في ٦ | ٤٦٨

وقوله « إنا انذرناكم عذابا قريبا » معناه الاخبار من الله تعالى أنه خوف عباده وأعلمهم المواضع التي ينبغي أن يحذروها . ثم بين ما يكون بعد ذلك فقال « يوم ينظر المرؤ ما قدمت يداه » ومعناه ينتظر جزاء ما قدمه ، فان قدم طاعة انتظر الثواب ، وإن قدم معصية انتظر العقاب « ويقول الكافر » في ذلك اليوم « ياليتني كنت ترابا » أي يتمنى أن لو كان ترابا لا يعاد ولا يحاسب ليتخلص من عقاب ذلك اليوم ، لأنه ليس معه شيء يرجوه من الثواب . وقيل : ان الله يحشر البهائم وينتصف للجماء من القرناء فاذا انصف بينها جعلها ترابا ، فيتمنى الكافر عند ذلك لو كان مثل أولئك ترابا . وقيل : هو مثل قوله « ياليتني لم أوت كتابيه » (١)

٧٩ - سورة النازعات

مكية في قول ابن عباس والضحاك وهي ست وأربعون آية في الكوفي وخمس وأربعون في البصري والمدنيين



﴿ وَٱلنَّازِعَاتِ غَرْقاً (١) وَٱلنَّاشِطَاتِ نَشْطاً (٢) وَٱلسَّابِحَاتِ سَبْحاً (٣) فَٱلسَّابِقَاتِ سَبْقاً (٤) فَٱلْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ

---

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ٢٥

ٱلرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ ءَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ (١٠) ءَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴾(١٤) أربع عشرة آية.

قرأ أهل الكوفة إلا حفصاً «عظاماً ناخرة» بألف ، الباقون «نخرة» بلا ألف من قرأ «ناخرة» اتبع رؤس الآي نحو (الساهرة ، والحافرة) ومن قرأ نخرة ـ بلا ألف ـ قال لأنه الاكثر في كلام العرب ، ولما روي عن علي عليه السلام انه قرأ «نخرة» وقال النحويون : هما لغتان مثل باخل وبخل ، وطامع وطمع . وقال الفراء النخرة البالية والناخرة المجوفة .

وقوله «والنازعات» قسم من الله تعالى بهذه الأشياء التي عددها . وقال قوم : تقديره ورب النازعات وما ذكر بعدها ، لأنه لا يجوز اليمين إلا بالله تعالى . وهو ترك الظاهر . وقد روينا عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام أن لله تعالى أن يقسم بما يشاء من خلقه ، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به . وإنما كان كذلك ، لانه من باب المصالح التي يجوز أن تختلف به العبادات ، وإنما جاز أن يقسم هو تعالى بما شاء من خلقه ، للتنبيه على موضع العبرة فيه إذ القسم يدل على عظم شأن المقسم به . ومعنى (النازعات) الملائكة تنزع الأرواح من الأبدان ، فالنازعات الجاذبات الشيء من أعماق ما هو فيه . وقال الحسن وقتادة : هي النجوم أي تنزع من أفق السماء إلى أفق آخر . وقال عطاء : هي القسي تنزع بالسهم . وقال السدي : هي النفوس تنزع بالخروج من البدن .

وقوله « غرقًا » معناه إغراقًا أي ابعاداً في النزع .

وقوله « والناشطات نشطًا » قيل : هي الخارجات من بلد إلى بلد بعيد الاقطار ينشط كما ينشط الوحش بالخروج من بلد إلى بلد . والهموم تنشط بصاحبها أي تخرج به من حال إلى حال ، قال هيبان بن قحافة :

أمست همومي تنشط المناشطا الشام طوراً ثم طوراً واسطا (١)

وقال ابن عباس : هي الملائكة أي تنشط بأمر الله إلى حيث كان . وقال قوم : هو ملك الموت ينشط روحه من خلقه . وقال قوم : هي النجوم تنشط من المشرق إلى المغرب. وقال عطاء: هي الوحش تنشط من بلد إلى بلد قال رؤبة :

تنشط منها كل مملاه الوهق

يعني بقر الوحش . قال الفراء : تنشط نفس المؤمن كما ينشط العقال من يد البعير . قال ابن خالويه ، وأكثر ما سمعته أنشطته بالألف ، قالوا : كأنه انشط من عقال . فاذا شددت الحبل في يد البعير قلت : نشطته وإذا حللته قلت أنشطته .

وقوله « والسابحات سبحًا » معناه المارات بغوص معظمها في المائع وقد يكون ذلك في الماء وقد يكون فيما جرى مجراه ، وذلك كسبح دود الخل ، وقد يكون السبح في الهواء تشبيهاً بالماء . وقال مجاهد : السابحات الملائكة ، لأنها تسبح في نزولها بأمر الله كما يقال : الفرس يسبح في جريه إذا أسرع . وقال قتادة : هي النجوم أي تسبح في فلكها . وقال عطاء : هي السفن . وقال قوم : هو ملك الموت يقبض روح المؤمن وحده سهلا سرحًا كالسابح في الماء .

وقوله « فالسابقات سبقًا » يعني الكائنات قبل غيرها على معنى صفة من الصفات . وقال مجاهد : هي الملائكة ، لأنها سبقت إلى طاعة الله . وقال قوم : لأنها

(١) القرطبي ١٩ / ١٩٠ ومجاز القرآن ٢ / ٢٨٤

تسبق الشياطين إلى الوحي . وقال عطاء : هي الخيل السابقة . وقيل : هي النجوم ـ ذكره قتادة ـ أي يسبق بعضها بعضاً في السير .

وقوله « فالمدبرات أمراً » قال ابن عباس وقتادة وعطاء بن السائب : هي الملائكة تدبر الاشياء . وقيل : تدبير الملائكة في ما وكلت به من الرياح والامطار ونحوذلك من الامور . وجواب القسم محذوف ، كأنه قال : ليبعثن للجزاء والحساب ثم بين أي وقت يكون الجزاء والثواب والعقاب ، فقال « يوم ترجف الراجفة » فالرجف حركة الشيء من تحت غيره بترديد واضطراب ، وهي الزلزلة العظيمة رجف يرجف رجفا ورجفا ورجوفا ، وأرجفوا إذا أزعجوا الناس باضطراب الأمور ، كما ينزعج الذي يرجف ما تحته ، ومنه الرجفة وهي الزعزعة الشديدة من تحت ما كان من الحيوان . وقيل : ان الارض مع الجبال تتزعزع .

وقوله « تتبعها الرادفة » ومعناه تتبع الراجفة الرادفة أي تجيء بعدها ، وهي الكائنة بعد الاول في موضع الردف من الراكب ، ردفهم الأمر ردفاً فهو رادف ، وارتدف الراكب إذا اتخذ رديفاً . وقال الحسن وقتادة : هما النفختان : أما الاولى فتميت الاحياء ، وأما الثانية فتحيي الموتى باذن الله .

وقوله « قلوب يومئذ واجفة » أي كائنة على الانزعاج والاضطراب ، وجفت تجف وجفاً ووجيفاً وأوجف في السير إذا أزعج الركاب فيه . وقال ابن عباس : معنى « واجفة » أي خائفة .

وقوله « أبصارها خاشعة » أي خاضعة ذليلة من هول ذلك اليوم قال الشاعر :

لما اتى خبر الزبير تهدمت سورالمدينة والجبال الخشع (١)

وقوله « يقولون أإنا لمردودون في الحافرة » حكاية عما قاله الكافرون

(١) مر في ١ | ٢٠٤ ، ٣١٢ و ٧ | ١٥٢ ، ٢٠٩ و ٨ | ٣٦٩

المنكرون للبعث والنشور ، فانهم ينكرون النشر ويتعجبون من ذلك ، ويقولون على وجه الانكار أئنا لمردودون في الحافرة . وقيل : حافرة بمعنى محفورة ، مثل « ماء دافق » (١) بمعنى مدفوق . وقال ابن عباس والسدي : الحافرة الحياة الثانية . وقيل : الحافرة الأرض المحفورة . أي نرد في قبورنا بعد موتنا احياء؟! قال الشاعر :

احافرة على صلع وشيب معاذ الله من جهل وعار (٢)

فالحافرة الكائنة على حفر أول الكرة يقال : رجع في حافرته إذا رجع من حيث جاء ، وذلك كرجوع القهقرى ، فردوا في الحافرة أى ردوا كما كانوا أول مرة ، ويقال : رجع فلان على حافرته أى من حين جاء . وقولهم : النقد عند الحافرة معناه إذا قال بعتك رجعت عليه بالثمن . وقال قوم : معناه النقد عند حافر الدابة .

وقوله « فانما هي زجرة واحدة » أى النفخة الثانية « فاذا هم بالساهرة » أى على وجه الأرض ، فالعرب تسمي وجه الارض من الفلاة ساهرة أى ذات سهر لانه يسهر فيها خوفا قال أمية بن أبي الصلت :

وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاهوا به لهم مقيم(٣)

وقال آخر :

فانما قصرك ترب الساهره ثم تعود بعدها فى الحافره

من بعد ما كانت عظاماً ناخره (٤)

وقال الحسن وقتادة ومجاهد والضحاك : الساهرة وجه الارض . وقال قوم

---

(١) سورة ٨٦ الطارق آية ٨

(٢) تفسير القرطبي١٩ \ ١٩٥ والطبري ٣٠ \ ١٩

(٣)القرطبي١٩ \ ١٩٧ (٤)اللسان(نخر)

« بالساهرة » أى من بطن الأرض إلى ظهرها . وقالوا أيضاً منكرين للبعث « أئذا كنا عظاماً نخرة » نرد ونبعث . والعظام جمع عظم، وهي مأخوذة من العظم وذلك لعظم صلابتها وعظمها في نفسها . والنخرة البالية بما حدث فيها من التغيير وإختلال البنية ، جذع نخر إذا كان بهذه الصفة ، وإذا لم تختل بنيته لم يكن نخراً وإن بلي بالوهن والضعف . وقيل : ناخرة مجوفة ينخر الرياح فيها بالمرور في جوفها وقيل : ناخرة ونخرة سواء ، مثل ناخل ونخل ، ونخرة أوضح في المعنى ، وناخرة اشكل برؤس الآى . وقيل : نخرة بالية مجوفة بالبلى .

ثم حكى ايضاً ما قالوه ، فانهم « قالوا تلك إذاً كرة خاسرة » فالكرة المرة من المرّ وهي الواحدة من الكر ، كرّ يكر كرة ، وهي كالضربة الواحدة من الضرب. والخاسر الذاهب رأس ماله فتلك الكرة كأنه قد ذهب رأس المال منها ، فكذلك الخسران . وإنما قالوا « كرة خاسرة » أى لا يجيء منها شيء كالخسران الذى لا يجيء منه فائدة . وكأنهم قالوا : هو كالخسران بذهاب رأس المال ، فلا يجيء به تجارة ، فكذلك لا يجيء بتلك الكرة حياة . وقيل معنا « تلك إذاً كرة خاسرة » على ما تعدنا من العذاب . وقال الحسن : معناه كاذبة ليست كائنة .

قوله تعالى :

﴿هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَٰهُ رَبُّهُۥ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَىٰهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ

فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ (٢٥) احدى عشرة آية.

قرأ ابن كثير وابو عمرو ونافع « طوي اذهب » غير منونة. الباقون « طوى إذهب » منونة. وقرأ نافع « تزكى » مشددة الزاي بمعنى تتزكى، فادغم التاء في الزاي. الباقون خفيفة الزاي، فحذفت احدى التاءين. قال ابو عمرو: يقال: تزكى مشدداً إذا أردت تتصدق، ولم يدع موسى فرعون إلى ان يتصدق، وهو كافر. وإنما قال له هل لك ان تصير زاكياً، قال: فالتخفيف هو الاختيار. ومن نون (طوى) جعله اسم واد، ومن لم ينون جعله اسم الارض، لأنه معدول من (طاو). ومن كسر الطاء قال: قدس مرتين، وتبين فيه البركة مرتين، مثل ثني وعدى.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله يقول له « وهل اتاك » يا محمد « حديث موسى » فلفظه لفظ الاستفهام والمراد به التقرير « إذ ناداه ربه » أي حين ناداه الله « بالواد المقدس طوى » فالنداء الدعاء على طريقة يا فلان، والنـدا مدّ الصوت بندائه، فمعنى « ناداه » قال له يا موسى. ثم أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغي و (الوادى المقدس) يعني المطهر و (طوى) قال مجاهد وقتادة: واد، وقيل طوى التقديس. وقرأ الحسن « طوى » بكسر الطاء. وقيل طوي بالبركة والتقديس بندائه مرتين، قال طرفة بن العبد:

أعاذل إن اللوم في غير كنهه　　علي طوى من غيك المتردد (١)

أي اللوم المكرر، و (طوى) غير مصروف، لانه اسم البقعة من الوادي

(١) مر في ٧/ ١٦٥

وهو معرفة، ويجوز أن يكون معدولا من (طاوى) في قول الزجاج.

وقوله «إذهب إلى فرعون إنه طغى» اخبار من الله - عز وجل - عن حال فرعون بأنه طغى، ومعناه تجاوز الحد في الاستعلاء، والتمرد والفساد، يقال طغى يطغى طغياناً فهو طاغ، ونظيره البغي، بغى على الناس يبغي بغياً فهو باغ وهم البغاة والطغاة، ونظير الطغيان العدوان، وهو المجاوزة لحد الصغيرة، وكل من طغى فقد عتا واعتدى.

ثم ذكر ما أمره أن يقول له بأن قال «فقل هل لك الى أن تزكى» أي ادعوه إلى الله وطريق الجنة، و «قل» على وجه التلطف في الكلام «هل لك إلى أن تزكى» وتطهر من المعاصي، فالتزكي طلب الطالب أن يصير زاكياً، تزكى يتزكى تزكياً، والزاكي النامي في الخير، والزكاء النماء في الخير، ولو نمى في الشر لم يكن زاكياً «وأهديك إلى ربك فتخشى» معناه وأهديك الى طريق الحق الذي إذا سلكته وصلت إلى رضى الله وثوابه، فالهداية الدالة على طريق الرشد من الغي. وقد يكون دلالة على معنى ليس برشد ولا غي كالدلالة على الحركة فقط. وقوله «فتخشى» فالخشية توقع المضرة من غير قطع بها لا محالة، والخشية والخوف والتقية نظائر، يقال: خشي يخشى خشية، فهو خاش، وذاك مخشي. وفي الكلام حذف وتقديره فأتاه فدعاه «فأراه الآية الكبرى» وقوله «فكذب وعصى» حكاية عن فرعون أنه كذب موسى فيما دعاه اليه وجحد نبوته وعصاه فيما أمره به من طاعة الله «ثم أدبر يسعى» أي ولى فرعون الدبر بعد ذلك، فالادبار تولية الدبر، ونقيضه الاقبال وأقبل فلان إذا استقامت له الأمور على المثل أي هو كالمقبل إلى الخير، وأدبر فلان إذا اضطربت عليه حاله، ففرعون ولى الدبر ليطلب ما يكسر به حجة

موسى ﷺ في الآية الكبرى ، وهي المعجزة العظيمة ، فما ازداد إلا غواية ، لأنه لا يقاوم الضلال الحق .

وقوله « ثم ادبر يسعى » فالسعي الاسراع في المشي ، وفي إدباره يسعى في هذه الحال دليل على خوفه . وقيل : إنه لما رأى العصا انقلبت حية في عظمها خاف منه ، فادبر يسعى .

وقوله « فحشر فنادى » فالحشر الجمع من كل جهة ، وقد يكون الجمع بضم جزء إلى جزء ، فلا يكون حشراً ، فاذا جمع الناس من كل جهة ، فذلك الحشر ، ولهذا سمي يوم الحشر . والحاشر الذي يجمع الناس من كل جهة الى الخراج ، وإنما طلب السحرة ، فلما اجتمعوا ناداهم فقال لهم « أنا ربكم الأعلى » فالأعلى المختص بعلو معنى صفته على غيره مما لا يناله بكيد وينال هو به ، ومن هنا خرج بالعلو الى التعظيم ، ولم يكن مثل ذلك في جهة من الجهات ، وكأنه قال : أنا الذي أنال بالضرر من شئت ولا ينالني غيري . وكذب ـ لعنه الله ـ إنما هذه صفة الذي خلقه وخلق جميع الخلق ، ومعنى « نادى » ههنا قال : يا معشر الناس أنا ربكم الأعلى، إذ نادى بهذا القول . وقيل : كلمته الاولى « ما علمت لكم من إله غيري » (١) وقوله الآخر هذا « أنا ربكم الاعلى » ذكره ابن عباس ومجاهد والشعبي والضحاك .

ثم حكى تعالى ما عامله به من العقاب فقال ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والاولى ﴾ فالنكال عقاب ينكل من الاقدام على سببه بشدته ، نكل به تنكيلا إذا شوه به في عقابه بما يكون زاجراً لغيره عن مثل حذيه أشد الزجر الذي يزعج النفس . وقال الحسن وقتادة : معناه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . وقال مجاهد: أول عمله وآخره وقال بعضهم : نكاله فعلته الأولى ، وهو قوله ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾

---

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٣٨

وفعلته الأخيرة هو قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وقال قوم : معناه نكال الدنيا بالغرق ونكال الآخرة ما صار اليه بعد الموت من العقاب . وقال الحسن ﴿ الآية الكبرى ﴾ اليد البيضاء . وقال غيره : قلب العصا حية .

قولـه تعـالى :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ (٢٦) ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ ٱلسَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾(٣٣)

ثمان آيات .

يقول الله تعالى بعد ما ذكر ما تقدم من قصة موسى وفرعون وما فعله الله بقوم فرعون من الاهلاك والدمار ﴿ إن فى ذلك لعبرة ﴾ يعني فيما قصه واخبر به دلالة يمكن أن يعتبر بها العامل العاقل ، فيعرف الحق ويميز بينه وبين الباطل ، يقال : اعتبرته اعتباراً وعبرة ، ومنه العبارة لانه يعبر بالمعنى فيها الى نفس المخاطب للافهام ، ومنه عبور النهر وتعبير الرؤيا باخراج ما فيها بعبورها المعنى إلى النفس السائلة عنها .

وقوله ﴿ لمن يخشى ﴾ إنما خص من يخشى بالعبرة ، لانه الذي يعتبر بها وينتفع بالنظر فيها دون الكافر الذي لا يخشى عذاب الله ، كما قال ﴿ هدى للمتقين ﴾ (١) .

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢

ثم خاطب الكفار الجاحدين بالله تعالى على وجه التبكيت لهم والتوبيخ ﴿ أأنتم اشد خلقاً ﴾ ومعناه أأنتم اشد أمراً بصغر حالكم ﴿ أم السماء ﴾ في عظم جرمها وشأنها في وقوفها وسائر نجومها وافلاكها. قال بعض النحويين ﴿ بناها ﴾ من صلة السماء. والمعنى أم التي بناها. وقال آخرون ﴿ السماء ﴾ ليس مما يوصل، ولكن المعنى أأنتم اشد خلقاً أم السماء اشد خلقاً. ثم بين كيف خلقها فقال ﴿ بناها ﴾ والله تعالى لا يكبر عليه خلق شيء اشد من خلق غيره، وإنما أراد انتم أشد خلقاً عندكم وفي ظنكم مع صغركم أم السماء مع عظمها وشدة إحكامها؟ وبين انه تعالى بنى السماء و ﴿ رفع سمكها ﴾ يعني ارتفاعها، فالسمك مقابل للعمق، وهو ذهاب الجسم بالتأليف في جهة العلو، وبالعكس منه العمق. والطول ذهاب الجسم في جهة الطول. والعرض ذهابه في جهة العرض، وهو بالاضافة الى ما يضاف اليه.

وقوله ﴿ فسواها ﴾ فالتسوية جعل أحد الشيئين على مقدار الآخر على نفسه او في حكمه، وكل ما جعل في حقه على ترتيبه مع غيره فقد سوي، فلما كان كل شيء من السماء مجعولا في صفة على ترتيبه مع غيره كانت قد سويت على هذا الوجه.

وقوله ﴿ واغطش ليلها ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد: معناه اظلم ليلها. وقال ابو عبيدة: كل أغطش لا يبصر. وقال: ليلها اضاف الظلام الى السماء لان فيها ينشأ الظلام والضياء بغروب الشمس وطلوعها على ما دبرها الله.

وقوله ﴿ واخرج ضحاها ﴾ قال مجاهد والضحاك أخرج نورها.

وقوله ﴿ والارض بعد ذلك دحاها ﴾ قال مجاهد والسدي: معناه دحاها مع ذلك، كما قال ﴿ عتل بعد ذلك ﴾ أي مع ذلك. وقال ابن عباس: ان الله دحا الأرض بعد السماء، وإن كانت الارض خلقت قبل السماء، ومعنا دحاها بسطها دحا يدحو دحواً ودحيت ادحي دحياً لغتان، قال أمية بن أبي الصلت:

دار دحاها ثم أعمر بابها   واقام بالأخرى التي هي أمجد(١)

وقال اوس بن حجر :

ينفي الحصا عن جديد الارض مبترك   كأنه فاحص أو لاعب داح (٢)

وقوله « اخرج منها » يعني من الارض «ماءها» يعني المياه التي تخرج من الارض وفيها منافع جميع الحيوان ، وبه قوام حياتهم كما قال « وجعلنا من الماء كل شيء حي » (٣)« ومرعاها» أي واخرج المرعى من الارض ، وهو النبات الذي يصلح أن ترعاه الماشية ، فهي ترعاه بأن تأكله في موضعه . رعت ترعى رعياً ومرعى ، وسمي النبات الذي يصلح أن يرعى به .

وقوله« والجبال أرساها » أي وانبت الجبال في الارض . والارساء الاثبات بالثقل ، فالسفينة ترسو أي تثبت بثقلها ، فلا تزول عن مكانها ، وربما ارست بالبحر بما يطرحها . فأما الجبال فانها أوتاد الارض ، وأرسيت بثقلها ، وفي جعلها على الصفة التي هي عليها اعظم العبرة .

وقوله « متاعاً لكم ولا نعامكم » أي خلقنا ما ذكرناه من الارض وما يخرج منها من المياه والمراعي نفعاً ومتعة تنتفعون بها معاشر الناس وينتفع بها أنعامكم: الابل والبقر والغنم ، ففي الاشياء التي عددها اعظم دلالة واوضح حجة على توحيد الله ، لأن الارض مع ثقلها الذي من شأنه ان يذهب سفلا هي واقفة بامساك الله تعالى ، وهي على الماء . ومن شأن الماء أن يجري في المنحدر ، وهي واقفة بامساك الله تعالى فقد خرجت عن طبع الثقيل ، وذلك لا يقدر عليه غير القادر لنفسه الذي يخترع

(١) تفسير الطبري ٣٠ \ ٢٦   (٢) ديوانه ١٦ ومقاييس اللغة ١ / ٢٣٠

(٣) سورة ٢١ الانبياء آية ٣٠

الاشياء إختراعاً ، دون القادر بقدرة الذى لا يقدر أن يفعل فى غيره إلا على وجه التولية بأن يعتمد عليه ، فدل ذلك على ان الفاعل لهـذه الاشياء لا يشبه الاشياء ولا تشبهه . وفى اخراج الماء من الارض عبر لا تحصى كثرة بما فيه من المنفعة ، وما له من المادة على موضع الحاجة ، وسد الخلة مع ما فيه من المنفعة والتوفيق فى السير الى المكان البعيد بالسهولة ، كل ذلك من الله تعالى به على خلقه وأنعم به عليهم .

وقوله « متاعاً » نصب على المفعول له ، وتقديره اخرج منها ماءها ومرعاها الامتاع لكم لان معنى أخرج منها ماءها ومرعاها امتع بذلك .

قولـه تعـالى :

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّامَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤٠) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١) يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ (٤٦) ثلاث عشرة آية .

قرأ ابو جعفر وعياش عن أبي عمرو « إنما أنت منذر من يخشاها » بالتنوين. الباقون على الاضافة . والمعنى واحد . فمن نون جعل « من » فى موضع النصب .

وإنما اختار ذلك ، لانه جعله « منذراً » في الحال . ومن اضافه استخف ذلك كما استخف في قوله « عارضاً مستقبل اودينهم » (١) والتنوين مقدر ، لان المعنى إنه منذر في الحال ، وفيما بعد . ومن اضاف جعلها في موضع جر . والمنذر النبي ﷺ قال الله تعالى « انما انت منذر ولكل قوم هاد » (٢) قال قوم : المنذر النبي ﷺ والهادي علي عليه السلام ، وقيل « لكل قوم هاد » داع يدعوهم الى الحق .

يقول الله تعالى مهدداً المكلفين من خلقه « فاذا جاءت الطامة الكبرى » قال ابن عباس : الطامة القيامة . وقال الحسن : الطامة هي النفخة الثانية . وقيل : هي الصيحة التي تطمّ على كل شيء ، وهي الصيحة التي يقع معها البعث والحساب والعقاب والثواب وقيل هي الطامة الغامرة الهائلة . وفي المثل : ما من طامة إلا وفوقها طامة قال الفراء : يقال : تطم على كل شيء يطم . وقال قوم : الطامة الغامرة ، لما يتدفق بغلظها وكثرتها . وقيل : هي الغاشية المجللة التي تدفق الشيء بالغلظ . ثم بين متى مجيئها فقال « يوم يتذكر الانسان ما سعى » ومعناه تجيء الطامة في يوم يتذكر الانسان ما عمله في دار التكليف من خير او شر وسعى فيه ، ويعلم ما يستحقه من ثواب وعقاب « وبرزت الجحيم لمن يرى » أي لمن يراها ويبصرها شاهداً ، فالتبريز اظهار الشيء بمثل التكشيف الذي يقضي اليه بالاحساس ، ويقال : فلان مبرز في الفضل إذا ظهر به اتم الظهور ، وبارز قرنه أي ظهر اليه من بين الجماعة .

ثم قسم احوال الخلق في ذلك اليوم من العصاة والمطيعين ، فقال « فأما من طغى » بأن تجاوز الحد الذي حده الله ، وارتكب المعاصي والطغيان العصيان بمجاوزة الحد فيه الى الافراط فيه ، فكل كافر طاغ بافراطه في ظلم نفسه ، وظلم النفس كظلم غيرها في التعاظم . وقوله « وآثر الحياة الدنيا » معناه اختار منافع الحياة الدنيا

---

(١) سورة ٤٦ الاحقاف آية ٢٤ (٢) سورة ١٣ الرعد آية ٨

بارتكاب المعاصي وترك ما وجب عليه ، فالايثار إرادة الشيء على طريقة التفضيل له على غيره ، ومثله الاختيار ، لانه يختاره على انه خير من غيره ، فمن آثر الأدنى على الاولى فهو منقوص بالحاجة ، كما ان من آثر القبيح على الحسن كان منقوصاً . وقيل : المعنى من آثر نعيم الحياة الدنيا على نعيم الآخرة والحياة حياتان : حياة الدنيا وهي المنقطعة الفانية ، وحياة الآخرة ، وهي الدائمة ، فمن آثر الباقي الدائم على الفاني المنقطع كان حسن الاختيار ، ومن آثر الفاني على الباقي كان سيء الاختيار مقبحاً .

ثم بين تعالى ماله في الآخرة فقال « فان الجحيم هي المأوى » اي النار مثواه ومستقره وموضع مقامه .

ثم ذكر من هو بضد ذلك فقال « وأما من خاف مقام ربه » ومعناه من خاف مقام مسألة ربه عما يجب فعله أو تركه وعمل بموجب ذلك بأن فعل الطاعة وأمتنع من المعصية « ونهى نفسه عن الهوى » وما تدعو اليه شهواته ، فالهوى اريحية في النفس تدعو إلى مالا يجوز في العقل ، فاتباع الهوى مذموم ، وليس يجوز أن يعمل شيئاً لداعي الهوى وإن عمل لداعي العقل على موافقة الهوى لم يضره . وقيل : هم قوم صغرت الدنيا في عينهم حين رأوا الآخرة ـ ذكره قتادة ـ وقيل : الزهد في الدنيا ، والرغبة في الاخرة هو التمسك بطاعة الله وأجتناب معصيته .

ثم بين تعالى ماله في مقابلة ذلك من الثواب فقال « فان الجنة هي المأوى » أي هي مقره ومأواه ، فالالف واللام تعاقب الضمير كقولهم مررت بحسن الوجه أي حسن وجهه . وقال الزجاج : تقديره هي المأوى له ولا يكون بدلا من الهاء كما لا يكون بدلا من الكاف في قولك غض الطرف ، قال : وقال الشاعر :

فغض الطرف إنك من نمير   فلا سعداً بلغت ولا كلابا (١)

(١) مر في ٩ / ٣٤١

وبروى (فلا كمباً) والجنة البستان الذى يجنه الشجر فجنة الخلد بهذه الصفة على ما فيها من القصور والابنية الحسنة التي قد جمعت كل تحفة وطرفة مما تشتهي الانفس وتلذ الاعين ، من غير أذى ملحق بحال في عاجل ولا آجل . وروي أن قصورها مبنية بفاخر الجوهر من الياقوت والزبرجد ، ومنه ما هو بلبنة من فضة ولبنة من ذهب ، فتعظيم الله لها وتشويقه اليها يدل على أنها على اجل حال تشتهي فيها مع أنه لا يتعاظم في مقدور الله ـ عز وجل ـ .

ثم خاطب النبي ﷺ ، فقال « يسألونك عن الساعة أيان مرساها » أى متى يكون قيامها على ما وصفها ف‍ (أيان) بمعنى (متى) الا أن (متى) أكثر استعمالا في السؤال عن الزمان ونظيرها (أين) في السؤال عن المكان . ولذلك فسرت (أيان) ب‍ (متى) والارساء الثبوت، من قولهم : رست السفينة ترسو رسوا فهي راسية إذا ثبتت ومنه . قوله « أرساها » ويجوز أن يكون المراد بالمرسى المصدر. ويجوز أن يكون وقت الارساء والمعنى متى ثبت أمرها بقيامها .

وقوله « فيم أنت من ذكراها » أى انه ليس عندك علم متى تكون ، وإنما عندك علم أنها تكون ـ ذكره الحسن ـ وقال غيره: هي حكاية قولهم ، أى قد اكثرت من ذكرها ، فمتى تكون ؟ . وقوله « إلى ربك منتهاها » أى قل لهم إلى الله تعالى إجراؤها ، فالمنتهى موضع بلوغ الشيء، وكأنه قيل : إلى ربك منتهى أمرها باقامتها لان منتهى أمرها بذكرها ووصفها والاقرار بها إلى الرسول باقامتها ، ومنتهى أمرها اقامتها إلى الله تعالى لا يقدر عليه إلا الله تعالى . وقيل : المعنى إلى ربك منتهى علمها أى لا يعلم إلا هو متى وقت قيامها ـ ذكره الحسن ـ .

وقوله « إنما انت منذر من يخشاها » خطاب من الله للنبي ﷺ بأنه إنما

بخوف من يخاف ذلك اليوم وهو يوم القيامة ، وإنما خص الانذار بمن يخشى ، لانه لما كان المنتفع بالانذار من يخشى فكأنه خص بالانذار . والكافر لما لم ينتفع بذلك فكأنه لم ينذر أصلا .

ثم بين تعالى سرعة مجيئها وقرب حضورها فقال « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » وقال قتادة : معناه إنهم إذا رأوا الآخرة صغرت الدنيا في أعينهم حتى كأنهم لم يقيموا بها إلا مقدار عشية أو مقدار ضحاها يعني ضحى العشية . وأضيف الضحى إلى العشية ، وضحوة الضحى اليوم الذي يكون فيه ، فاذا قلت أتيتك صباحاً ومساء ، فالمعنى أتيتك العشية أو غداتها ، قال الفراء : وانشدني بعض بني عقيل :

نحن صبحنا عامراً في دارها　　عشية الهلال أو سرارها

قبل اصفرار الشمس واحمرارها(١)

أراد عشية الهلال أو عشية سرار العشية فهذا أشد من ذلك .

(١) القرطبي ١٩ / ٢٠٨ والطبري ٣٠/٢٨

٨٠ ـ سورة عبس

مكية في قول ابن عباس والضحاك ، وهي اثنتان واربعون آية في الكوفي والمدنيين واحدى وأربعون في البصري.



﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ (١٠) عشر آيات.

قرأ عاصم وحده «فتنفعه الذكرى» بالنصب على أنه جواب (لعل) فجرى مجرى جواب الأمر والنهي ، لان (لعل) للترجي فهي غير واجبة ، كما أن الامر غير واجب في حصول ما تضمنه . الباقون بالرفع عطفاً على (يذكر) . وقرأ نافع وابن كثير «تصدى» مشددة الصاد على أن معناه تتصدى فأدغم، أحدى التائين في الصاد لقرب مخرجها . الباقون «تصدى» بتخفيف الصاد باسقاط أحدى التائين .

وقرأ ابن ابي بزة وابن فليح عن ابن كثير «تلهى» بتشديد اللام بمعنى تتلهي ، فأدغم احدى التائين في اللام . الباقون بتخفيف اللام وحذف احدى التائين

يقول الله تعالى « عبس وتولى » ومعناه قبض وجهه وأعرض ، فالعبوس تقبض الوجه عن تكره ، والعبوس البسور وهو التقطيب وعبس فلان في وجه فلان مثل كلح ، ومنه اشتق اسم عباس، ومعنى « تولى » أعرض وذهب بوجهه عنه فصرفه عن ان يليه يقال : تولى عنه بمعنى أعرض عنه ، وتولاه بخلاف تولى عنه . فان تولاه بمعنى عقد على نصرته ، وتولى عنه أعرض .

وقوله « أن جاءه الاعمى » معناه عبس لأن جاءه الاعمى، وقال ابن خالويه : تقديره إذ جاءه الاعمى ، والأعمى المراد به عبد الله بن أم مكتوم - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد - وقال الفراء : كانت أم مكتوم أم ابيه. وقال غيره : كانت أمه . وقال ابن خالويه ابوه يكنى أبا السرج . واختلفوا فيمن وصفه الله تعالى بذلك ، فقال كثير من المفسرين وأهل الحشو: إن المراد به النبي صلى الله عليه وآله قالوا وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله كان معه جماعة من أشراف قومه ورؤسائهم قد خلا بهم فاقبل ابن أم مكتوم ليسلم فأعرض النبي صلى الله عليه وآله عنه كراهية أن تكره القوم إقباله عليه فعاتبه الله على ذلك . وقيل : إن ابن أم مكتوم كان مسلماً ، وإنما كان يخاطب النبي صلى الله عليه وآله وهو لا يعلم أن رسول الله مشغول بكلام قوم ، فيقول يا رسول الله .

وهذا فاسد ، لان النبي صلى الله عليه وآله قد أجل الله قدره عن هذه الصفات ، وكيف يصفه بالعبوس والتقطيب ، وقد وصفه بأنه « على خلق عظيم »(١) وقال « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » (٢) وكيف يعرض عمن تقدم وصفه مع قوله تعالى « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » (٣) ومن عرف النبي صلى الله عليه وآله وحسن أخلاقه وما خصه الله تعالى به من مكارم الاخلاق وحسن

(١) سورة ٦٨ القلم آية ٤ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٥٩

(٣) سورة ٦ الانعام آية ٥٢

الصحبة حتى قيل إنه لم يكن يصافح احداً قط فينزع يده من يده ، حتى يكون ذلك الذي ينزع يده من يده . فمن هـذه صفته كيف يقطب في وجه أعمى جاء يطلب الاسلام ، على أن الانبياء عليهم السلام منزهون عن مثل هذه الاخلاق وعما هو دونها لما في ذلك من التنفير عن قبول قولهم والاصغاء إلى دعائهم ، ولا يجوّز مثل هذا على الانبياء من عرف مقدارهم وتبين نعتهم .

وقال قوم : إن هذه الآيات نزلت في رجل من بني أميـة كان واقفاً مع النبي صلى الله عليه وآله ، فلما اقبل ابن أم مكتوم تنفر منه ، وجمع نفسه وعبس في وجهه وأعرض بوجهه عنه فحكى الله تعالى ذلك وانكره معاتبة على ذلك .

وقوله « وما يدريك » خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وتقديره « قل » يا محمد « وما يدريك لعله يزكى » وإنما اضاف العبوس إلى النبي صلى الله عليه وآله من أضاف « وما يدريك » أنه رآه متوجهاً اليه ظن انه عتب له دون أن يكون متوجهاً اليه على أن يقول لمن فعل ذلك ويوبخه عليه . ومعنى قوله « يزكى » أي يتزكى بالعمل الصالح ، فأدغم التاء في الزاي ، كما أدغمت في الذال في قوله « يذكر » ومعناه يتذكر ، ولا يجوز إدغام الزاي في التاء ، لأنها من حروف الصفير ، وهي الصاد والسين والزاي .

وقوله « او يذكر » معناه أو يتذكر ما أمره الله تعالى به ، ويفكر فيما أمره بالفكر فيه . وقد حث الله تعالى على التذكير في غير موضع من القرآن فقال « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » (١) وقال « إنما يتذكر أولو الالباب » (٢) وينبغي للانسان أن يستكثر من ذكر ما يدعو إلى الحق ويصرف عن الباطل .

ثم بين انه متى يذكر « فتنفعه الذكرى » أي الفكر فيما أمره الله به من

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ٥٥

(٢) سورة ٢٣ الرعد آية ٢١ وسورة الزمر آية ٩

القرآن وغيره من الادلة .

وقوله « أما من استغنى » معناه أما من كان غنياً أو وجدته موسراً ، فالاستغناء الاكتفاء بالأمر فيما ينفي الضرر وقد يكتفي الاناء في ملئه بما فيه ، فلا يستغني استغناء في الحقيقة . وقوله « فانت له تصدي » فالتصدي هو التعرض للشيء كتعرض العطشان الماء . وأصله الصدى ، وهو العطش . ورجل صديان أي عطشان والصدى الصوت الذي يرده الجبل أو الحمام ونحوهما ، قال مجاهد : المراد بـ « من استغنى » عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة . وقال سفيان : نزلت في العباس ، فقال الله تعالى « وما عليك ألا يزكى » أي قل له وما عليك ألا يتزكى ، فالتزكي هو التطهر من الذنوب ، واصله الزكاة وهو النماء ، فلما كان الخير ينمي للانسان بالتطهر من الذنوب كان تزكياً .

ثم قال « وأما من جاءك يسعى وهو يخشى » يعني عبد الله بن أم مكتوم جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله ، وهو يخشى معصية الله والكفر ، والخشية هي الحذر من مواقعة المعصية خوفاً من عقاب الله تعالى « فانت عنه تلهى » أي تعرض عنه فالتلهي عن الشيء هو التروح بالاعراض عنه والتلهي به التروح والاقبال عليه ومنه قولهم إذا استأثر الله بشيء فاله عنه أي اتركه وأعرض عنه .

قولـه تعـالى :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ

فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) ثلاث عشرة آية.

يقول الله تعالى « كلا » أي ليس الأمر ينبغي أن يكون على هذا ، وقوله « إنها تذكرة » أي كلا إن السورة تذكرة « فمن شاء ذكره » أي التنزيل أو الوعظ. وقال قوم : الهاء عماد ، والمبتدأ محذوف وتقديره إنها هي تذكرة. والتذكرة حضور الموعظة ففيها أعظم الفائدة وفي الغفلة اكبر الآفة.

والفرق بين التذكرة والمعرفة أن التذكرة ضد الغفلة والمعرفة تضاد الجهل والسهو ، فكلاهما يتعاقبان على حال الذكر دون السهو ، كتعاقب العلم وأضداده على حال الذكر دون السهو ، والذكر معظم ، لانه طريق إلى العلم بالحق من الباطل والصحيح من الفاسد. وقيل : إن قوله « كلا » دال على أنه ليس له ان يفعل ذلك في ما يستأنف. فاما الماضي فلم يدل على انه معصية ، لأنه لم يتقدم النهي عنه.

وقوله « فمن شاء ذكره » دليل على بطلان مذهب المجبرة في أن القدرة مع الفعل ، وأن المؤمن لا قدرة له على الكفر ، وأن الكافر لا يقدر على الايمان ، لأنه تعالى بين أن من شاء ان يذكره ذكره ، لانه قادر عليه.

وقوله « في صحف مكرمة » أي ما ذكرناه تذكرة في صحف مكرمة أي معظمة مبجلة ، ووصفت الصحف بأنها مكرمة تعظيماً لما تضمنته على الحكمة. وقوله « مرفوعة مطهرة » أي مصونة عن ان تنالها أيدي الكفار الانجاس. وقال الحسن : مطهرة من كل دنس. وقوله « مرفوعة مطهرة » أي رفعها الله عن دنس الأنجاس ونزهها عن ذلك. وقوله « بأيدي سفرة » قيل السفرة ملائكة موكلون بالاسفار من كتب الله. والسفرة الكتبة لاسفار الحكمة ، واحدهم سافر ، كقولك كاتب

وكتبة ، وواحد الاسفار سفر . وأصله الكشف من الأمر ، سفرت المرأة إذا كشفت عن وجهها ، فالكاتب يسفر بالكتاب عما في النفس . وقال ابن عباس : السفرة الكتبة ، وفي رواية أخرى عنه إنها الملائكة . وقال قتادة : هم القراء : وقيل : هم الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله ، وسفير القوم الذي يسفر بينهم في الصلح ، وسفرت بين القوم إذا أصلحت بينهم ، قال الشاعر :

ولم أدع السفارة بين قومي وماأمشي بغش إن مشيت (١)

واسفر الصبح إذا أضاء . وقوله « كرام بررة » من صفة السفرة ، وصفهم الله بأنهم كرام ، وهو جمع كريم ، وهو الذي من شأنه أن يأتي بالخير من جهته مهنأ من غير شائب يكدره . وهي صفة مدح ، ومنه أخذت الكرمة لشرف ثمرتها ، والكرم يتعاظم ، فالنبي أكرم ممن ليس بنبي ، والمؤمن اكرم ممن ليس بمؤمن . و (البررة) جمع بار ، تقول برّ فلان فلاناً يبره فهو بار إذا أحسن اليه ونفعه . والبر فعل النفع اجتلاباً للمودة . والبار فاعل البر ، وجمعه بررة مثل كاتب وكتبة . وأصله اتساع النفع منه ، ومنه البر سمي به تفاؤلا باتساع النفع به ، ومنه البر لاتساع النفع به . ورجل برّ ، وامرأة برّة والجمع بررة ، ولا يجمع الاعلى هذا استغنا به .

وقوله « قتل الانسان ما اكفره » معناه لعن الانسان ، قال مجاهد : وهو الكافر . وقيل : معناه إنه حل محل من يدعى عليه بالقتل في ماله بقبح الفعل ، فيخرجه مخرج الدعاء عليه ولا يقال : إن الله دعا عليه بالقتل لقبح اللفظ بذلك لما يوهم من تمني المدعو به . ومعنى « ما اكفره » أي شيء اكفره ؟! على وجه التقريع له والتوبيخ . وقيل معناه النفي ، وتقديره ما أجحده لنعم الله مع ظهورها « من أي

(١) الطبري ٣٠ / ٣٠ والقرطبي ١٩ / ٢١٤

شيء خلقه » تعجيباً له ، لأنه يعلم أن الله خلقه من نطفة . ثم بين تعالى مماذا خلقه فقال « من نطفة خلقه فقدره » فالتقدير جعل الشيء على مقدار غيره ، فلما كان الانسان قد جعل على مقدار ما تقتضيه الحكمة في أمره من غير زيادة ولا نقصان كان قد قدر أحسن التقدير ، ودبر أحسن التدبير « ثم السبيل يسره » أي سهل له سبيل الخير في دينه ودنياه بأن بينه له وأرشده اليه ورغبه فيه ، فهو يكفر هذا كله ويجحده ويضيع حق الله عليه في ذلك من الشكر وإخلاص العبادة . وقال ابن عباس وقتادة والسدي : يسر خروجه من بطن أمه . وقال مجاهد : سهل له طريق الخير والشر ، كقوله « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً »(١) . وقال الحسن : سبيل الخير . وقال ابن زيد : سبيل الثواب . وقال الحسن « يسره » : معناه بصره طريق الهدى والضلال . وقيل يسر خروجه من بطن أمه ، فانه كان رأسه الى رأس أمه ورجلاه إلى رجليها ، فقلبه الله عند الولادة ليسهل خروجه منها . وقالوا : يسرى ويسراة جمعوه على (فعلة) وأجروه مجرى (فاعل) من الصحيح .

وقوله « ثم اماته فاقبره » فالاماتة أحداث الموت . وفي الناس من قال : الاماتة عرض يضاد الحياة مضادة المعاقبة على الحال الواحدة ، وهي حال تعديل البنية الحيوانية ، وذلك أن ما لا يصح أن تحله حياة لا يصح أن يحله موت . وقال قوم : الموت عبارة عن نقض البنية الحيوانية أو فعل ما ينافي ما تحتاج اليه الحياة من الرطوبات والمعاني . وقوله « فاقبره » الاقبار جعل القبر لدفن الميت فيه ، يقال : أقبره إقباراً ، والقبر الحفر المهيأ المدفن فيه ، ويقال : أقبرني فلاناً أي جعلني اقبره فالمقبر هو الله تعالى يأمر عباده أن يقبروا الناس إذا ماتوا ، والقابر الدافن للميت

(١) سورة ٧٦ الانسان آية ٣

بيده قال الاعشى :

لو اسندت ميتاً الى نحرها　　عاش ولم ينقل الى قابر
حتى يقول الناس مما رأوا　　يا عجبا للميت الناشر (١)

وقوله ﴿ ثم إذا شاء انشره ﴾ فالانشار الاحياء للتصرف بعد الموت كنشر الثوب بعد الطي انشر الله الموتى فنشروا كفولهم احيام فحيوا ، والمشيئة هي الارادة والمعنى إذا شاء الله تعالى أن يحيي الميت احياه ـ وهو قول الحسن ـ للجزاء بالثواب والعقاب .

وقوله ﴿ كلا لما يقض ما أمره ﴾ معناه كلا لما لم يقض ما عليه مما أمره الله به ، لأنه قد أمره بأشياء واجبة فلم يفعلها : من إخلاص عبادته وشكره بحسب مقتضى نعمه . وقال مجاهد : لا يقضي أحد أبداً كل ما افترض الله عليه .

قوله تعالى :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْانسَانُ إِلىٰ طَعامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْارْضَ شَقّاً (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً (٢٧) وَعِنَباً وَقَضْباً (٢٨) وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْباً (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبّاً (٣١) مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ (٣٢) تسع آيات .

قرأ اهل الكوفة « أنا صببنا » بفتح الألف على البدل من « طعامه » أو على انه خبر مبتدإ محذوف . الباقون بالكسر على الاستئناف .

يقول الله تعالى لخلقه منبهاً لهم على قدرته على احياء الخلق بعد موتهم ونشرهم

(١) قد مر في ٤ / ٤٦٠ و ٧ / ٤٩٦ وهو في ديوانه ٩٣

ومجازاتهم بأن أمره ان ينظر إلى طعامه الذي يأكله ويتقوته ، ويفكر كيف يخلقه الله ويوصله اليه ويمكنه من الانتفاع به . وبين كيفية ذلك فقال « إنا صببنا الماء صباً » أي انزلنا الغيث إنزالا « ثم شققنا الارض شقاً » فالشق قطع الشيء طولا ومثله الصدع والفرج والفطر ، ومن ذلك شق الارض وشق الخشبة وشق الشعرة فأما قطع الليطة ، وقطع الشجر ، فعلى خلاف ذلك ، فبين تعالى أنه يشق الارض ويخرج منها ما أنبته من أنواع النبات . ومن فتح « أنا » على البدل ، فعلى انه بدل اشتمال ، ويكون موضعه جراً فتقديره فلينظر إلى أنا صببنا . وقال آخرون : موضعه نصب ، لان الأصل بـ (أنا) و (لأنا) فلما أسقط الخافض نصب على المعنى ، فتقديره فلينظر الانسان إلى حدوث طعامه او نبات طعامه ، لانه موضع الاعتبار . وقال المبرد : تقديره فلينظر الانسان إلى طعامه ، لأنا صببنا فأخرجنا أي لهذه العلة كان طعامه ، لان قوله « إنا صببنا » ليس من الطعام في شيء ، وقال ابو علي : وهو بدل الاشتمال ، لان ما ذكره يشتمل على الطعام فهو بمنزلة قوله « قتل اصحاب الاخدود النار » (١) .

وقوله « فانبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ... » فالانبات إخراج النامي حالا بعد حال ، يقال أنبته الله انباتاً فنبت نباتاً ، ففاعل النبات والانبات واحد إلا أن الانبات يؤخذ منه صفة المنبت ، والنبات يؤخذ منه النابت . وليس النبات فاعلا لكنه الصائر على تلك الصفة بتصيير غيره ، غير انه لما أسند الفعل اليه اشتق له منه اسم الفاعل . والحب جمع الحبة مثل الشعير والحنطة والسمسم والدخن والارز وغير ذلك ، وكذلك يسمى حب اللؤلؤ تشبيهاً بذلك في تدويره . والقضب الرطبة ـ في قول الضحاك ، والفراء ـ وأهل مكة يسمون القت قضباً . وأصله فيما يقطع رطباً من

(١) سورة ٨٥ البروج آية ٤ ـ ٥

قولهم : قضبته وأقضبته قضباً إذا قطعته رطباً ، ومنه القضيب والمقتضب . والزيتون معروف . وإنما ذكره الله تعالى لعظم النفع به والدهن الذي يكون منه « ونخلا » أي وانبتنا من الارض نخلا وهو شجر الرطب والتمر « وحدائق غلباً » فالحديقة البستان المحوط وجمعه حدائق ، ومنه أحدق به القوم إذا أحاطوا به ، ومنه الحدقة لما احاط بها من جفنها . والغلب جمع أغلب وغلبا ، وهي الغلاظ بعظم الاشجار ، وشجرة غلباء إذا كانت غليظة قال الفرزدق :

عوى فاثار اغلب ضيغمياً　　　فويل ابن المراغة مااستثارا(١)

وقوله « وفاكهة وأبا » يعني ثمر الاشجار التي فيها النفع والالذاذ ، يقال تفكه بكذا إذا استعمله للاستمتاع به والفاكهة تكون رطبة ويابسة . والأب المرعى من الحشيش وسائر النبات الذي ترعاه الانعام والدواب ، ويقال أبّا إلى سيفه فاستله كقولك هب اليه وبدر اليه ، فيكون كبدور المرعى بالخروج قال الشاعر :

جذنا قيس ونجد دارنا　　　ولنا الأب بها والمكرع (٢)

وقوله « متاعاً لكم ولا نعامكم » فالمتاع كل شيء فيه الذاذ الامساس من مأكل او منظر أو مشمم أو ملمس ، وأصله المصدر من قولهم : امتعته امتاعاً ومتاعاً ومتع النهار إذا ارتفع ، لأن ارتفاعه يستمتع به . فبين تعالى انه خلق ما خلق وانبت ما انبت من الارض لامتاع الخلق به من المكلفين وأنعامهم التي ينتفعون بها . والانعام الماشية بنعمة المشي من الابل والبقر والغنم بخلاف الحافر بشدة وطئه بحافره من الخيل والبغال والحمير .

قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ ٱلصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤)

---

(١) ديوانه ٢ | ٤٤٣　　(٢) القرطبي ١٩ | ٢٢٠

وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ (٤٢) عشر آيات.

قوله ﴿ فاذا جاءت الصاخة ﴾ قال ابن عباس : هي القيامة . وقيل : هي النفخة الثانيـة التي يحيا عندها الناس . وقال الحسن : الصاخة هي التي يصيخ لها الخلق ، وهي النفخة الثانية . والصاخة هي الصاكة بشدة صوتها الآذان فتصمها ، صخ يصخ صيخاً ، فهو صاخ . وقد قلبها المضاعف باكراهـه التضعيف ، فقال : أصاخ يصيخ اصاخة قال الشاعر :

يصيخ للنبأة أسماعـه إصاخة الناشد المنشد (١)

ومثله تظنيت ، والاصل تظننت . ثم بين شـــدة أهوال ذلك اليوم فقال ﴿ يوم يفر المرء من أخيـــه و ﴾ من ﴿ أمه وابيه و ﴾ من ﴿ صاحبته ﴾ التي هي زوجته فى الدنيا ﴿ وبنيه ﴾ يعني أولاده الذكور نفر من هؤلاء حذراً من مظلمة تكون عليه . وقيل : لئلا يرى ما ينزل به من الهوان والذل والعقاب . وقيل : نفر منه ضجراً به لعظم ما هو فيه . وقيل : لأنه لا يمكنه ان ينفعه بشيء ولا ينتفع منه بشيء

وقوله ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ فالمراد به الذكر من النـاس وتأنيثه امرأة ، فالمعنى إن كل انسان مكلف مشغول بنفسه لا يلتفت إلى غيره ، من صعوبة الأمر وشدة أهواله . والشأن الأمر العظيم ، يقال : لفلان شأن من

(١) القرطبي ١٩ | ٢٢٢

الشأن أي له أمر عظيم ، وأصله الواحد من شؤن الرأس ، وهو موضع الوصل من متقابلاته التي بها قوام أمره . ومعنى ﴿ يغنيه ﴾ أي يكفيه من زيادة عليه أي ليس فيه فضل لغيره لما هو فيه من الامر الذي قد اكتنفه وملأ صدره ، فصار كالغني عن الشيء في أمر نفسه لا تنازع اليه .

ثم قسم تعالى احوال العصاة والمؤمنين ، فقال ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ﴾ أي مكشوفة مضيئة ، فالاسفار الكشف عن ضياء من قولهم : أسفر الصبح إذا أضاء ، وسفرت المرأة إذا كشفت عن وجهها ، ومنه السفر ، لأنه يكشف عن أمور تظهر به ، قال توبة الحميري .

وكنت إذا فاجأت ليلى تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها (١)

أي كشفها قناعها . وقوله « ضاحكة مستبشرة » أي من فرحها بما اعددنا لها من الثواب تكون ضاحكة مسرورة . والضحك الاستبشار وإن إضيف إلى الوجه ، فالمراد به أصحاب الوجوه ، فأما الاسفار والاشراف فيجوز ان يكون للوجوه خاصة بما جعل الله فيها من النور ، لتفرق الملائكة بين المؤمنين والكفار .

ثم قال « ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة » أي يكون على تلك الوجوه غبار وجمعه غبرة « ترهقها » أي تغشاها « قترة » وهي ظلمة الدخان ، ومنه قترة الصائد موضعه الذي يدخن فيه للتدفي به .

ثم اخبر أن من كان على وجهه الغبرة التي تغشاها القترة « هم الكفرة » جمع كافر « الفجرة » جمع فاجر ، كما أن كاتباً يجمع كتبة ، وساحراً يجمع سحرة . وليس في ذلك ما يدل على مذهب الخوارج من ان من ليس بمؤمن لا بد أن يكون كافراً من حيث أن الله قسم الوجوه هذين القسمين . وذلك انه تعالى ذكر قسمين من

(١) الطبري ٣٠ \ ٣٤

ألوجوه متقابلين ، وجوه المؤمنين ووجوه الكفار ، ولم يذكر وجوه الفساق من أهل الملة . ويجوز ان يكون ثم صفة اخرى بخلاف ما لهذين ، بان يكون عليها غبرة لا يغشاها قترة او يكون عليها صفرة ، ولو دل ذلك على ما قالوه لوجب أن يدل قوله «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه» (١) على أن كل من لا يبيض وجهه من المؤمنين يجب ان يكون مرتداً ، لانه تعالى قال لهم «اكفرتم بعد إيمانكم» (٢) والخوارج لا تقول ذلك ، لان من المعلوم ان ـ ههنا ـ كفاراً في الأصل ليسوا مرتدين عن الايمان .

٨١ ـ سورة التكوير

مكية في قول ابن عباس والضحاك ، وهي تسع وعشرون آية بلا خلاف



﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧) وَإِذَا ٱلْمَوْؤُدَةُ

(١ ، ٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٠٦

سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا ٱلسَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١) وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) أربع عشرة آية .

قرأ ابن كثير واهل البصرة «سجرت» خفيفة الجيم . الباقون بتشديدها وقرأ اهل المدينة وابن عامر وحفص عن عاصم « نشرت » خفيفة الشين . الباقون بالتشديد . وقرأ نافع وباقي أهل المدينة وابن عامر فى رواية ابن ذكوان وعاصم إلا يحيى ورويس « سعرت » بتشديد العين . الباقون بتخفيفها . وقرأ ابو جعفر «قتلت» مشددة التاء ، الباقون بتخفيفها .

يقول الله تعالى مخبراً عن وقت حضور القيامة وحصول شدائدها «إذا الشمس كورت » فاللفظ وإن كان ماضياً فالمراد به الاستقبال ، لأنه إذا اخبر تعالى بشيء فلا بد من كونه ، فكأنه واقع . والفعل الماضي يكون بمعنى المستقبل فى الشرط والجزاء ، وفى أفعال الله ، وفى الدعاء إذا تكرر كقولك حفظك الله وأطال بقاءك .

ومعنى (كورت)- فى قول ابن عباس وابي بن كعب ومجاهد وقتادة والضحاك - ذهب نورها . وقال الربيع بن خيثم : معناه رمي بها ، والتكوير تلفيف على جهة الاستدارة ومنه كور العمامة ، كور يكور تكويراً : ومنه الكارة ، ويقال : كورت العمامة على رأسي اكورها كوراً وكورتها تكويراً . ويقال : طعنه فكوره أى رمى به ، ذكره الازهرى ، ومنه قولهم : اعوذ بالله من الحور بعد الكور أى من النقصان بعد الزيادة فالشمس تكور بأن يجمع نورها حتى يصير كالكارة الملقاة فيذهب ضوءها ويجدد الله - عز وجل - للعباد ضياء غيرها .

وقوله ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ فالنجوم جمع نجم ، وهو الكوكب وجمعه

كواكب . ومنه نجم النبت إذا طلع ينجم نجماً فهو ناجم ، وكذلك نجم القرن ، ونجم السن . والانكدار انقلاب الشيء حتى يصير الأعلى الاسفل بما لو كان ماء لتكدر . وقيل : اصل الانكدار الانصباب . قال العجاج :

ابصر خربان فضاء فانكدر (١)

وقال مجاهد والربيع بن خيثم وقتادة وابو صالح وابن زيد : انكدرت معناه تناثرت . وقوله ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ فمعنى تسيير الجبال تصييرها هباء وسراباً وقوله ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ فالعشار جمع عشراء ، وهي الناقة التي قد أتى عليها عشرة اشهر من حملها ، وهو مأخوذ من العشرة . والناقة إذا وضعت لتمام ففي سنة . وقال الفراء: العشار لقح الابل التي عطلها أهلها لاشتغالهم بأنفسهم . وقال الجبائي: معناه ان السحاب يعطل ما يكون فيها من المياه التي ينزلها الله على عباده في الدنيا . وحكى الازهري عن ابي عمرو انه قال : العشار الحساب . قال الازهرى : وهذا لا اعرفه في اللغة . والمعنى إن هذه الحوامل التي يتنافس اهلها فيها قد اهملت .

وقوله ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ قال عكرمة : حشرها موتها . وغيره قال : معناه تغيرت الأمور بأن صارت الوحوش التي تشرد في البلاد تجتمع مع الناس وذلك ان الله تعالى يحشر الوحوش ليوصل اليها ما تستحقه من الأعواض على الآلام التي دخلت عليها ، وينتصف لبعضها من بعض ، فاذا عوضها الله تعالى ، فمن قال : العوض دائم قال تبقى منعمة على الأبد . ومن قال : العوض يستحق منقطعاً اختلفوا فمنهم من قال : يديمها الله تفضلا لئلا يدخل على العوض غم بانقطاعه . ومنهم من قال : إذا فعل بها ما تستحقه من الاعواض جعلها تراباً .

(١) مر في ٨ / ١٤٦

وقوله « وإذا البحار سجرت » معناه ملئت ناراً كما يسجر التنور ، وأصل السجر الملأ قال لبيد :

فتوسطا عرض السري وصدعا مسجورة متجاوز أقدامها (١)

أي مملوءة ، ومنه « البحر المسجور » (٢) قال ابن عباس وأبي بن كعب : سجرت او قدت ، فصارت ناراً . وقال شمر بن عطية : صارت بمنزلة التنور المسجور وقال الحسن والضحاك : معناه ملئت حتى فاضت على الأرضين فتنسقها حتى تكون لجج البحار ورؤس الجبال بمنزلة واحدة ، وقيل : معنى « سجرت » جعل ماؤها شراباً يعذب به أهل النار . وقال الفراء : معناه افضي بعضها إلى بعض فصارت بحراً واحداً . ومن ثقل أراد التكثير ، ومن خفف ، فلأنه يدل على القليل والكثير .

وقوله « وإذا النفوس زوجت » معناه ضم كل واحد منها إلى شكله ، والنفس قد يعبر به عن الانسان ويعبر به عن الروح ، وقال عمر بن الخطاب وابن عباس ومجاهد وقتادة : كل إنسان بشكله من أهل النار وأهل الجنة . وقال عكرمة والشعبي : معنى زوجت ردت الأرواح إلى الاجساد . وقيل : معناه يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان .

وقوله « وإذا الموؤدة سئلت » فالموؤدة المقتولة بدفنها حية ، فكانت العرب تئد البنات خوف الاملاق ، وأدها يئدها وأداً ، فهي موؤدة أي مدفونة حية ، وعلى هذا جاء قوله « ولا تقتلوا أولادكم من املاق » (٣) وقال قتادة : جاء قيس ابن عاصم التميمي إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال : اني وأدت ثماني بنات في الجاهلية ، فقال النبي صلى الله عليه وآله (فاعتق عن كل واحدة رقبة) قال اني صاحب أبل . قال (فاهد إلى

---

(١) مر في ٧ / ١١٨ و ٩ / ٤٠٣ (٢) سورة ٥٢ الطور آية ٦

(٣) سورة ٦ الانعام آية ١٥١

من شئت عن كل واحدة بدنة) . وقيل موؤدة للثقل الذي عليها من التراب وقوله « ولا يؤوده حفظهما » (١) أي لا يثقله ، قال الفرزدق :

ومنا الذي منع الوائدا ت وأحيا الوئيد فلم يوأد (٢) .

وإنما يسأل عن الموؤدة على وجه التوبيخ لقاتلها ، وهو أبلغ من سؤاله ، لان هذا مما لا يصلح إلا بذنب ، فاي ذنب كان لك ، فاذا ظهر انه لا ذنب لها جاءت الطامة الكبرى على قاتلها ، لانه رجع الأمر اليه بحجة يقرّ بها . وقال قوم : تقديره سئلت قتلها بأي ذنب قتلت ، فالكناية عنها أظهر . وروي في الشواذ ، وهو المروي عن ابن عباس وغيره من الصحابة أنهم قرءوا « وإذا الموؤدة سألت بأي ذنب قتلت » جعلوها هي السائلة عن سبب قتلها لا المسئولة وهو المروي في اخبارنا

وقوله « وإذا الصحف نشرت » فالنشر بسط المطوي ، والنشر للصحف والثياب ونحوها . والصحف جمع صحيفة وهي الصحيفة التي فيها اعمال الخلق من طاعة ومعصية ، فتنشر عليه ليقف كل انسان على ما يستحقه .

وقوله « وإذا السماء كشطت » فالكشط القلع عن شدة التزاق كشط جلدة الرأس يكشطها كشطاً إذا قلعها . فقلع السماء عن مكانها على شدة ما فيها من اعتماد كقلع جلدة الرأس عن مكانها ، والكشط والنشط واحد . وفي قراءة عبد الله « وإذا السماء نشطت » .

وقوله « وإذا الجحيم سعرت » معناه اشتعلت واضرمت ، فالتسعير تهييج النار حتى تتأجج ، ومنه السعر ، لانه حال هيج الثمن بالارتفاع والانحاط ، واسعرت الحرب والشر بين القوم من هذا . ومن شدد أراد التكثير ، ومن خفف فلأنه يدل على القليل والكثير . وقال قتادة : يسعرها غضب الله وخطايا بني آدم .

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٥ (٢) ديوانه ١ / ٢٠٣ واللسان (وأد)

وقوله « وإذا الجنة أزلفت » أي قربت من أهلها يوم القيامة فالازلاف إدناء ما يحب ، ومنه الزلفة القربة ، وأزدلف إلى الامر اقترب منه . ومنه المزدلفة لأنها قريب من مكة . وقوله « علمت نفس ما أحضرت » هو جواب « إذا الشمس كورت » وما بعدها من الشروط ، والمعنى إن عند ظهور الاشياء التي ذكرها وعددها تعلم كل نفس ما عملته من طاعة أو معصية ، وقد كان غافلا عنه . وهو كقوله « أحصاه الله ونسوه » (١) .

قوله تعالى :

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) خمس عشرة آية .

قرأ ابن كثير وابو عمرو والكسائي ورويس « بظنين » بالظاء أي ليس على الغيب بمتهم ، والغيب هو القرآن ، وما تضمنه من الاحكام وغير ذلك من اخباره عن الله . الباقون - بالضاد - بمعنى انه ليس بخيلا لا يمنع أحداً من تعليمه ولا يكتمه

---

(١) سورة ٥٨ المجادلة آية ٦

دونه . وفي المصحف بالضاد .

قوله « فلا اقسم بالخنس » معناه إقسم و (لا) صلة . وقد بينا نظائره فيما مضى . و (الخنس) جمع خانس ، وهو الغائب عن طلوع ، خنست الوحشية في الكناس إذا غابت فيه بعد طلوع . وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام : أن الخنس النجوم لانها تخنس بالنهار وتبدو بالليل . وقيل : تخنس في مغيبها بعد طلوعها ، وبه قال الحسن ومجاهد . وقال ابن مسعود وسعيد بن جبير والضحاك : هي الظباء . وقيل : القسم بالنجوم الخنس بهرام وزحل والمشتري وعطارد والزهرة . وقوله « الجوار الكنس » معناه النجوم التي تجري في مسيرها ثم تغيب في مغاربها على ما دبّره تعالى فيها في طلوعها ، ثم جريها في مسيرها ، ثم غيبتها في مواقفها من الآية العظيمة والدلالة الباهرة المؤدية إلى معرفته تعالى مالا يخفى على متأمل معرفته وعظيم شأنه ، فالجارية النجوم السيارة ، والجارية السفن في البحار ، والجارية المرأة الشابة .

وقوله « الكنس » نعت لـ « الجوار » وهو جمع (كانس) وهي الغيب في مثل الكناس ، وهو كناس الوحشية بيت تتخذه من الشجرة تختفي فيه ، قال طرفة :

كأن كناسي ضالة مكنفانها   واطرقسي تحت صلب مؤيد (١)

وقوله « والليل إذا عسعس » قسم آخر ، ومعنى « عسعس » أدبر بظلامه ـ في قول أمير المؤمنين علي عليه السلام وابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد ـ وقال الحسن ومجاهد في رواية والفضل بن عطية : أقبل بظلامه ، وتقول العرب : عسعس الليل إذا أدبر بظلامه . قال علقمة بن قرط :

حتى إذا الصبح لها تنفسا   وانجاب عنها ليلها وعسعسا (٢)

---

(١) ديوانه ٢٥ و تفسير القرطبي ١٩ | ٢٣٦

(٢) مجاز القرآن ٢ | ٢٨٨ والطبري ٣٠ | ٤٣

وقيل : عسعس دنا من أوله واظلم ، والعس طلب الشيء بالليل ، عس يعس عساً ، ومنه أخذ العسس . وقال صاحب العين : العس نقض الليل عن أهل الريبة والعس قدح عظيم من خشب أو غيره ، وكأن أصله امتلاء الشيء بما فيه ، فقدح اللبن من شأنه أن يمتلىء به ، ويمتلىء الليل بما فيه من الظلام ، وعسعس أدبر بامتلاء ظلامه . وقال الحسن « والليل إذا عسعس » معناه إذا أظلم والصبح إذا تنفس إذا أسفر .

وقوله « والصبح إذا تنفس » قسم آخر بالصبح إذا أضاء وامتد ضوءه يقال : تنفس الصبح وتنفس النهار إذا امتد بضوئه ، والتنفس امتداد هواء الجوف بالخروج من الفم والأنف يقال : تنفس الصعداء .

وقوله « إنه لقول رسول كريم » جواب الاقسام التي مضت ، ومعنى « انه لقول » يعني القرآن « رسول كريم » وهو جبرائيل عليه السلام - في قول قتادة والحسن - بمعنى إنه سمعه من جبرائيل ، ولم يقله من قبل نفسه . وقيل : يجوز أن يراد به محمد صلى الله عليه وآله فانه أتى به من عند الله . وقوله ﴿ ذي قوة ﴾ معناه قوي على أمر الله . وقيل : معناه قوي في نفسه - في قول من قال : عنى به جبرائيل - لان من قوته قلبه قريات لوط بقوادم اجنحته .

وقوله ﴿ عند ذي العرش ﴾ معناه عند الله صاحب العرش ﴿ مكين ﴾ أي متمكن عنده ، وفي الكلام تعظيم الرسول بأنه كريم ، وأنه مكين عند ذي العرش العظيم وأن الله تعالى أكد ذلك اتم التأكيد . وقوله ﴿ مطاع ثم أمين ﴾ من قال المراد بالرسول جبرائيل ، قال معناه إنه مطاع في الملائكة ، أمين على وحي الله . ومن قال : عنى به الرسول صلى الله عليه وآله قال : معناه إنه يجب أن يطاع وأن من أطاعه فيما يدعوه اليه كان فائزاً بخير الدنيا والآخرة ، ويرجو بطاعته الثواب ويأمن

من العقاب ، وإنه ﷺ كان يدعى الأمين قبل البعث . فالامين هو الحقيق بأن يؤتمن من حيث لا يخون ، ولا يقول الزور ، ويعمل بالحق في الامور .

ثم خاطب تعالى جماعة الكفار فقال ﴿ وماصاحبكم بمجنون ﴾ أي ليس صاحبكم الذي يدعوكم إلى الله وإخلاص عبادته بمؤف العقل على ما ترمونه به من الجنون . والمجنون المغطى على عقله حتى لا يدرك الأمور على ما هي به للآفة الغامرة له ، فبغمور الآفة يتميز من النائم ، لان النوم ليس بآفة ولا عاهة .

وقوله ﴿ ولقد رآه بالافق المبين ﴾ معناه إن النبي ﷺ رأى جبرائيل عليه السلام على صورته التي خلقه الله عليها بالافق المبين ، فالافق ناحية من السماء يقال : هو كالنجم في الافق ، وفلان ينظر في أفق السماء . وقوله ﴿ مبين ﴾ أي هو ظاهر انه في أفاق السماء من غير تخيل لا يرجع الى يقين . وقال الحسن وقتادة : الافق المبين حيث تطلع الشمس . وقوله ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وابراهيم والضحاك : معناه ليس على وحي الله وما يخبر به من الاخبار بمتهم أي ليس ممن ينبغي أن يظن به الريبة ، لان أحواله ناطقة بالصدق والامانة . ومن قرأ بالضاد معناه ليس ببخيل على الغيب .

وقوله ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ معناه أنه ليس هـذا القرآن قولا لشيطان رجيم ، قال الحسن : معناه رجمه الله باللعنة . وقيل رجيم بالشهب طرداً من السماء ، فهو (فعيل) بمعنى (مفعول) . وقوله ﴿ فأين تذهبون ﴾ معناه أين تذهبون عن الحق الذي قد ظهر أمره وبدت أعلامه الى الضلال الذي فيه البوار والهلاك ، وهو استبطاء لهم في القعود عن النبي ﷺ ، والعمل بما يوجبه القرآن ، فالذهاب هو المصير عن شيء الى شيء بالنفوذ في الأمر . قال بعض بني عقيل :

تصيح بنا حنفية إذ رأتنا وأي الارض نذهب بالصباح (١) .

يعني إلى أي الارض . وقيل معناه فأي طريق يسلكون أبين من الطريق الذي بينه لكم « إن هو إلا ذكر للعالمين » يمكنكم أن تتوصلوا به إلى الحق . والذكر ضد السهو وعليه يتضاد العلم وأضداده ، لأن الذاكر لا يخلو من أن يكون عالماً او جاهلا مقلداً أو شاكا ، ولا يصح شيء من ذلك مع السهو الذي يضاد الذكر . وقال الرماني : الذكر إدراك النفس الذي يضاد المعنى بما يضاد السهو . و« العالمين » جمع عالم . وقد فسرناه في ما مضى .

وقوله « لمن شاء منكم ان يستقيم » على أمر الله ووعظ . وقوله « وما تشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين » قيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها - وما تشاؤن من الاستقامة إلا وقد شاءها الله ، لانه قد جرى ذكرها فرجعت الكناية اليها ، ولا يجوز أن يشاء العبد الاستقامة إلا وقد شاءها الله ، لانه أمر بها ورغب فيها أتم الترغيب ، ومن ترغيبه فيه إرادته له .

والثاني - وما تشاؤن شيئاً إلا أن يشاء الله تمكينكم منه ، لان الكلام يقتضي الاقتدار على تمكينهم إذا شاء ومنعهم إذا شاء .

الثالث - وما تشاؤن إلا أن يشاء الله ان يلطف لكم في الاستقامة لما في الكلام من معنى النعمة .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال شيبتني (هود) وأخواتها (الواقعة) و(إذا الشمس كورت) وهو جميع ما وعظ الله به عباده .

فان قيل : اليس ان أنساً لما سئل هل اختضب رسول الله ﷺ قال ما شأنه الشيب ، فقال : أو شين هو يا أبا حمزة . فقال كلكم يكرهه ؟

(١) تفسير القرطبي ١٩ | ٢٤١

قيل عنه جوابان احدهما ـ أنه روي أن علياً عليه السلام لما غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وجـد في لحيته شعرات بيضاء ، وما لا يظهر إلا بعد التفتيش لا يكون شيباً . الثاني ـ أنه أراد لو كان أمر يشيب منه إنسان لشيبت من قراءة ما في هذه السورة ، وما فيها من الوعيد كما قال ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ﴾ (١) وإنما أراد عظم الأهوال على ما بيناه .

٨٢ ـ سورة الانفطار

مكية في قول ابن عباس والضحاك ، وهي تسع عشرة آية بلا خلاف



﴿إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنفَطَرَتْ (١) وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ (٦) ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٢

تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَاماً كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١٢) اثنتا عشرة آية .

قرأ أهل الكوفة ﴿ فعدلك ﴾ خفيفاً . الباقون مشدداً . وقرأ ابو جعفر ﴿ بل يكذبون ﴾ بالياء على الخبر . الباقون بالتاء على الخطاب . وادغم حمزة والكسائي اللام في التاء ووافقهم الحلواني عن هشام .

هذا خطاب من الله تعالى للمكلفين من عباده ، وفيه تهديد ووعيد فانه يقول ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ يعني انشقت ، فالانفطار انقطاع الشيء من الجهات مثل تفطر ، ومنه الفطير قطع العجين قبل بلوغه بما هو مناف لاستوائه ، فطره يفطره اذا أوجده بما هو لقطع ما يصد عنه . والانفطار والانشقاق والانصداع واحد .

وقوله ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ معناه إذا النجوم تساقطت وتوافت ، فالانتثار تساقط الشيء من الجهات يقال : انتثر ينتثر انتثاراً ونثره ينثره نثراً ، واستنثر استنثاراً والنثر من الكلام خلاف النظم ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ أي خرق بعض مواضع الماء إلى بعض يقال فجر الانهار يفجرها تفجيراً ، ومنه الفجر لانفجاره بالضياء ، ومنه الفجور لانخراق صاحبه بالخروج إلى كثير من الذنوب . وقال قتادة : معنى فجرت أي تفجر عذبها في مالحها ، ومالحها في عذبها .

وقوله ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ معناه بحثرت يقال : بعثر فلان حوضه وبحثره بمعنى واحد إذا جعل اسفله أعلاه ، والبحثرة إثارة الشيء بقلب باطنه إلى ظاهره . وقال ابن عباس : بعثرت بحثت .

وقوله ﴿ علمت نفس ما قدمت واخرت ﴾ جواب الشرط في قوله ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ وما بعده من الشروط . ومعنى ﴿ ما قدمت وأخرت ﴾ ما اخذت

وتركت مما يستحق به الجزاء . وقيل : معناه كل ما يستحق به الجزاء مما كان في اول عمره او آخره . وقيل : معناه ما قدمت من عملها وما أخرت من سنة سنتها يعمل بها ـ ذكره القرطي ـ وقال ابن عباس وقتادة : معناه ما قدمت من طاعة أو تركت وقيل ما قدمت بعمله .

وقوله ﴿ يا أيها الانسان ﴾ خطاب لجميع الناس من المكلفين يقول الله لهم لكل واحد منهم ﴿ ما غرك بربك الكريم ﴾ أي أيّ شيء غرك بخالقك حتى عصيته فيما أمرك به ونهاك عنه ، فالغرور ظهور أمر يتوهم به جهل الامان من المحذور تقول: غر يغر غروراً واغتره يغتره اغتراراً قال الحارث ابن حلزة :

لم يغروكم غروراً ولكن رفع الآل جمعهم والضحاء (١)

والكريم القادر على التكرم من غير مانع ، ومن هذه صفته لا يجوز الاغترار به ، لأن تكرمه على ما تقتضيه الحكمة من مجازاة المحسن باحسانه والمسيء باساءته . قال قتادة : غر الشيطان غروراً . وقيل : غره بجهله الوجه في طول الامهال . وقوله ﴿ الذي خلقك فسواك ﴾ نعت لـ ﴿ ربك ﴾ ، وهو في موضع الجر . وقوله ﴿فسواك﴾ التسوية التعــديل ، والمراد ـ ههنا ـ تسوية الله تعالى آلته من اليدين والرجلين والعينين ونحو ذلك ﴿ فعدّلك ﴾ في المزاج على وجه يصح معه وجود الحياة . ومن خفف الدال أراد صرفك إلى أي صورة شاء من حسن أو قبح ، ومن ثقل أراد جملك معدل الخلق معتدلا . واختار الفراء التشديد ، لأن (في) مع التعديل أحسن و (الى) مع العدل .

وقوله ﴿ في أيّ صورة ما شاء ركبك ﴾ فالصورة البنية التي تميل بالتأليف الى مماثلة الحكاية . وهي من صاره يصوره صوراً إذا ماله ، ومنه قوله ﴿ فصرهن

(١) مر في ٨ \ ٣٢٢

اليك ﴾ (١) أي املهن اليك ، ولو كانت بنية من غير مماثلة لم يكن صورة . وقال مجاهد : معناه ﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ من شبه أب أو أم او خال او عم . وقال قوم : معناه في أي صورة ما شاء ركبك من ذكر او أنثى وجسيم او نحيف وطويل اوقصير ومستحسن أو مستقبح ، ومن قال : الانسان غير هـذه الجملة أستدل بقوله ﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ قالوا لانه بين أنه يركب القابل في أي صورة شاء ، فدل على أنه غير الصورة . وقد بينا القول في تأويل ذلك ، على أن عندهم أن ذلك الحي لايصح عليه التركب والله تعالى بين أنه يركبه كيف شاء ، وفي أي صورة شاء وذلك خلاف مذهبهم .

ثم قال ﴿ كلا بل تكذبون بالدين ﴾ ومعنى (كلا) الردع والزجر أي ارتدعوا وانزجروا ، وقيل : معناه حقاً بل تكذبون معاشر الكفار بالدين الذي هو الجزاء من الثواب والعقاب لا نكاركم البعث والنشور ـ ذكره مجاهد وقتادة ـ وقيل : بل تكذبون بالدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله ثم قال مهدداً لهم ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ يعني من الملائكة يحفظون عليكم ما تعملون من الطاعة والمعصية . ثم وصفهم فقال ﴿ كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ أي لا يخفى عليهم شيء من الذي تعملونه فيثبتون ذلك كله . وقيل : إن الملائكة تعلم ما يفعله العبد إما باضطرار كما تعلم أنه يقصد إلى خطابنا وأمرنا ونهينا وإما باستدلال إذا رآه وقد ظهر منه الامور التي لا تكون إلا عن علم وقصد من نحو التحري في الوزن والكيل ، ورد الوديعة وقضاء الدين مما يتعمد فيه أهل الحقوق دون غيرهم ، وقال الحسن : يعلمون ما تفعلون من الظاهر دون الباطن . وقيل : بل هو على ظاهر العموم لان الله تعالى يعلمهم إياه .

---

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٦٠

قولـه تعـالى :

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ (١٩) سبع آيات .

قرأ ابن كثير وأهل البصرة ﴿ يوم لا تملك ﴾ برفع الميم . الباقون بالنصب على الظرف ، ويجوز أن ينصبه باضمار فعل أي نقول يوم لا تملك ، ومن رفع استأنف ويجوز أن يجعله بدلا مما قبله . وقيل : ان (يوم) إذا أضيف إلى فعل مضارع رفع وإذا اضيف إلى فعل ماض نصب ، نحو قولهم : يوم يفعل ، ويوم فعل ، وقال ابو علي : من رفع جعله خبر ابتداء محذوف ، وتقديره هو يوم . ومن نصب فعلى أن يكون الخبر على الجزاء ، فكأنه قال الجزاء يوم لا تملك نفس .

يقول الله تعالى مخبراً ﴿ إن الابرار لفي نعيم ﴾ وهم الذين يفعلون الطاعات التي يستحقون بها الجنة والثواب بأنواع اللذات جزاء على طاعاتهم ، واخبر أيضاً ﴿ وإن الفجار ﴾ وهم الذين خرجوا عن طاعة الله إلى معصيته والمراد به ـ ههنا ـ الكفار ﴿ لفي جحيم ﴾ جزاء على كفرهم ومعاصيهم ﴿ يصلونها يوم الدين وماهم عنها بغائبين ﴾ يعني لا يكونون غائبين عن الجحيم بل يكونون مؤبدين فيها ، وليس يدل ذلك على أن فساق أهل الملة لا يخرجون من النار ، لأنا بينا أن الآية مخصوصة بالكفار من حيث بينا في غير موضع أن معهم ثواباً دائماً على إيمانهم لم ينحبط لبطلان القول بالتحابط ، فاذاً لا بد من إخراجهم من النار ليوفوا ثوابهم . وقوله ﴿ يصلونها يوم

الدين ﴾ معناه إن الفجار يصلون في الجحيم يوم الجزاء على الاعمال . وسمي الاسلام ديناً لانه يستحق به الجزاء لان أصل الدين الجزاء ، ودين اليهودية وغيرها يستحق بها العقاب . ومعنى قوله ﴿ يصلونها ﴾ يلزمونها بكونهم فيها ومنه المصطلي الملازم للنار متدفياً بها ، صلى يصلي صلا واصطلى يصطلي اصطلاء .

وقوله ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴾ تعظيم ليوم الجزاء بلفظ الاستفهام ، والغرض فيه التنبيه على عظم حاله وما يستحق به من ثواب وعقاب ليعمل العباد بما يؤديهم إلى الثواب والجنة والنجاة من العقاب ، وعظم يوم الدين لشدة الحاجة إلى نعيم الجنة ، والنجاة من النار ومن جملة العصاة ، فلا يوم أعظم من ذلك .

ثم فسر تعالى ذلك وبينه بعد أن عظمه فقال ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ ومعناه لا يملك أحد الدفاع عن غيره ممن يستحق العقاب كما يملك كثير من الناس ذلك في الدنيا ، فان الامر في ذلك اليوم لله وحده لم يملك أحداً شيئاً من الأمور كما ملكهم اشياء كثيرة في دار الدنيا . وقيل : معناه إنه لا يمكن أحداً أن يجازي احداً إلا بالحق بأمر الله تعالى .

٨٣ ـ سورة المطففين

مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك هي مدنية

وهي ست وثلاثون آية بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ (٦) ست آيات .

﴿ ويل ﴾ كلمة موضوعة للوعيد والتهديد ، ويقال ذلك لمن وقع في هلاك وعقاب . وقيل : إن ويلا واد في جهنم قعره سبعون سنة . وقيل ﴿ ويل ﴾ دعاء عليهم . وقال ابن عباس : كان أهل المدينة من أخبث الناس كيلا إلى أن انزل الله تعالى ﴿ ويل للمطففين ﴾ فاحسنوا الكيل ، فهدد الله تعالى بهذا الخطاب كل من بخس غيره حقه ونقصه ماله من مكيل او موزون ، فالمطفف المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أووزن . والطفيف النزر القليل ، وهو مأخوذ من طف الشيء وهو جانبه ، والتطفيف التنقيص على وجه الخيانة في الكيل أو الوزن . وأما التنقيص

في ما يرجع إلى مقدار الحق فلا يكون تطفيفاً . ولفظة (المطفف) صفة ذم لا تطلق على من طفف شيئاً يسيراً الى أن يصير إلى حال تتفاحش . وفي الناس من قال : لا تطلق حتى يطفف أقل ما يجب فيه القطع في السرقة ، لانه المقطوع على أنه كبيرة.

وقوله ﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ فالاكتيال الاخذ بالكيل ونظيره الاتزان وهو الاخذ بالوزن ، والاعتداد الاخذ بالعدد ، يقال : اكتال يكتال اكتيالا ، وكاله يكيله كيلا وكايله مكايلة وتكايل تكايلا ، وإنما ذكر في الذم ﴿ إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ ليبين منزلتهم في تعدي الحق بأنهم لم ينقصوا الناس عن طريق مسامحة يعاملون الناس بمثل ذلك بل على محض الظلم في البخس ويقال : اكتالوا ما عليهم بمعنى اخذوا ما عليهم ، واكتالوا منهم أي استوفوا منهم . وقيل : على الناس ، فكنى عنهم . وقوله ﴿ وإذا كالوهم أووزنوهم يخسرون ﴾ كان عيسى ابن عمر يجعل (هم) فصلا في موضع رفع بمعنى الفاعل . والباقون يجعلونه في موضع نصب ، وهو الصحيح ، وهو قول اكثر المفسرين . وأهل الحجاز يقولون : وزنتك حقك وكلتك طعامك . وغيرهم يقولون : كالوالهم ووزنوالهم ، وفي الكتاب ﴿ كالوهم أووزنوهم ﴾ بلا الف . ومن قال تقديره : كالوا لهم أووزنوا لهم ، قال حذف (لهم) للايجاز من غير اخلال بالمعنى ، ويقال أخسر وخسر لغتان إذا نقص الحق .

وقوله ﴿ ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم ﴾ تبكيت للكافر ولكل ظالم وباخس حق غيره في صورة الاستفهام . و (الظن) ههنا بمعنى العلم ، وتقديره ألا يعلم انه يبعث يوم القيامة ويجازى على افعاله من طاعة او معصية فيجازى بحسبها في اليوم الذى وصفه بأنه يوم عظيم . ويحتمل أن يكون المراد بالظن الحسبان ايضاً من ظن الجزاء والبعث وقوي في نفسه ذلك ، وإن لم يكن عالماً يجب عليه أن

يتحرز ويجتنب المعاصي خوفاً من العقاب الذي يجوزه ويظنه ، كما أن من ظن العطب في سلوك طريق وجب أن يتجنب السلوك فيه . قال البلخي : قال قوم : المعنى انما يوقنون انهم مبعوثون ، جعله خطاباً المؤمنين المصدقين بالبعث . ثم زاد في صفة يوم القيامة الذي وصفه بأنه يوم عظيم وبينه فقال ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ أي يوم يبعثون يوم تقوم الناس من قبورهم ويجتمعون في ارض المحشر ، وإنما يقومون من قبورهم الى ارض المحشر لجزاء رب العالمين، وحذف ذلك الدلالة عليه ، ويحتمل «يوم يقوم» ثلاث أوجه : النصب على ذلك اليوم يقوم او مبعوثون يوم يقوم . والرفع على الاستئناف ، والجر على البدل من ﴿ ليوم عظيم ﴾ وقال قتادة : يقومون مقدار ثلثمائة سنة ويقصر على المؤمنين حتى يكون كأحدى صلاة المكتوبة . وروي في الخبر عن النبي ﷺ ان أحدهم ليغيب في رشحه الى انصاف أذنيه .

قوله تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ (١٧) احدى عشرة آية .

روى حفص عن عاصم والمسيبي إلا هبة ﴿ بل ران ﴾ باظهار اللام . الباقون بالادغام . وأمال اهل الكوفة إلا الأعشى والبرجمي ﴿ ران ﴾ .

قيل فى اصل قوله ﴿ كلا ﴾ قولان :

أحدهما - إنها كلمة واحدة من غير تركيب وضعت للردع والزجر ، وجرى ذلك مجرى الاصوات من نحو (صه ، ومه) وما اشبههما .

والثاني - أن يكون الكاف للتشبيه دخلت على (لا) وشددت للمبالغة فى الزجر مع الايذان بتركيب اللفظ .

ومعنى الآية ارتدعوا أيها الكفار والعصاة وانزجروا عن المعاصي معاشر الكفار ، ليس الامر على ما تظنون بل ﴿ إن كتاب الفجار ﴾ يعني كتابهم الذي ثبتت أعمالهم من المعاصي والفجور ﴿ لفي سجين ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : يعني في الارض السابعة السفلى ، وهو قول الضحاك . وقال مجاهد : تحت صخرة فى الارض السابعة السفلى ، وروي فى الخبر أن (سجين) جب فى جهنم . وقال ابو عبيدة : سجين شديد ، وأنشد :

ضرباً تواصى به الأبطال سجينا (١)

يعني شديداً ، فكأنه كشدة السجن ، ويكون معناه شديد عذابه . وقيل : السجين هو السجن على التخليد فيه ، فهو (فعيل) من سجنته أسجنه سجناً ، وفيه مبالغة ، كما يقال : شريب من الشرب ، وسكير من السكر ، وشرير من الشر . وقيل : الوجه في جعل كتاب الفجار في سجين أن تخليده فيه يقوم مقام التقريع وإن عقابهم لا يفنى ولا يبيد كما لا يفنى كتاب سيئاتهم ولا يبيد ، ثم قال على وجه التعظيم والتفخيم ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ أي تفصيله لاتعلمه وإن علمته

(١) مر في ٦ / ٤٤

مجملا . ثم قال مفسراً لذلك ﴿ كتاب مرقوم ﴾ فالرقم طبع الخط بما فيه علامة لأمر يقال: رقمه يرقمه رقماً فهو راقم والشيء مرقوم ومنه رقمت الثوب بعلامة لئلا يختلط . والمعنى إن هذا الكتاب الذي هو في السجن كتاب قد كتب فيه جميع أفعالهم من المعاصي والكفر .

ثم قال ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ فهو تهديد لمن كذب بيوم الجزاء ولم يصدق بصحة الخبر بكونه ، ثم فسر من عنى من المكذبين ، فقال ﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ يعني يوم الجزاء ، وهو يوم القيامة ، لان من كذب بالباطل وجحده لا يتوجه اليه الوعيد بل هو ممدوح فلو أطلق كان فيه إبهام . ثم قال ﴿ وما يكذب به ﴾ أي ليس يكذب بيوم الجزاء ﴿ الا كل معتد أثيم ﴾ فالمعتدي المتجاوز الحق إلى الباطل ، يقال : اعتدى اعتداء ، فهو معتد . والعادي الخارج عن الحق ، عدا يعدو عدواناً وأصله مجاوزة الحد ومن ذلك العداوة وهي مجاوزة الحد في الأبغاض ، والعدو مجاوزة الحد في اسراع المشي ، والاثيم مكتسب القبيح أثم يأثم إثماً فهو آثم وأثيم وأثمه تأثيماً إذا نسبه إلى الاثم ، يتأثم من فعل كذا كقولك تحرج منه للاثم به وقال قتادة : اثيم في ريبته ، ثم وصف المعتدي الأثيم ، فقال ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا ﴾ أي اذا قرئت عليه حجج الله من القرآن وما فيه من الادلة ﴿ قال أساطير الأولين ﴾ فواحد الاساطير أسطورة مثل أحدوثة وأحاديث . وقيل : معناه أباطيل الأولين . وقيل : معناه هذا ما سطره الأولون أي كتبوه ، ولا أصل له . ثم قال تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ﴾ معناه ليس الامر على ما قالوه بل غلب على قلوبهم يقال منه : رانت الخمر على عقله ترين ريناً إذا سكر فغلبت على عقله ، فالرين غلبة السكر على القلب . قال ابو زبيد الطائي :

ثم لما رأوه رانت به الخمر وإن لا يرينه باتقاء يريه

أي مخافة يسكر ، فهي لا تبقيه وقال الراجز :

لم تروحني نكرت ورين بي　　　ورين بالساقي الذي أمسى معي

وقال الحسن وقتادة : الرين الذنب على الذنب حتى يموت القلب . وقال ابن زيد : غلبت الذنوب على القلوب ، فلا يخلص اليها خير العلوم . وقيل : معنى «ران» غطى وغشى . وقوله ﴿ ما كانوا يكسبون ﴾ (ما) في موضع رفع ، لأنها الفاعلة لران وما يكسبون يعني من المعاصي ، لان الطاعات وان كسبوها فما رانت على قلوبهم قال البلخي : وفي ذلك دلالة على صحة ما يقوله أهل العدل في تفسير الطبع والختم والاضلال ، لانه تعالى اخبر انهم الذين يجعلون الرين على قلوبهم .

ثم قال ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ قال الحسن وقتادة : هم محجوبون عن احسانه . وقيل : عن كرامته . وقيل : لممنوعون . وأصل الحجب المنع . ومنه قولهم : الاخوة تحجب الأم عن الثلث الى السدس .

ثم بين تعالى ما يفعل بهم فقال ﴿ ثم انهم لصالوا الجحيم ﴾ ومعناه لازموا الجحيم بكونهم فيها لا يغيبون عنها يقال : صلى بالنار يصلي صلياً ، فهو صال والمصطلي الملازم للنار للتدفي بها .

ثم حكى انه يقال لهم على وجه التقريع والتبكيت : هذا الذي فعل بكم من العقاب ﴿ هو الذي كنتم به تكذبون ﴾ في دار التكليف ، وانما سمي مثل هذا الخطاب تقريعاً لأنه خبر بما يقرع بشدة الغم على وجه الذم ، فكل خبر على هذا الوصف فهو تقريع وتوبيخ .

قوله تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ

لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٢٨) احدى عشرة آية.

قرأ الكسائي وحده ﴿ خاتمه مسك ﴾ بألف قبل التاء . الباقون ﴿ ختامه مسك ﴾ فالختام مصدر ، والخاتم صفة ، ونظيره : رجل كريم الطابع والطباع قال الفرزدق :

فبتن خبابني مصرعات وبت افض اغلاق الختام (١)

وقرأ ابو جعفر ويعقوب ﴿ تعرف ﴾ بضم التاء وفتح الراء ﴿ نضرة ﴾ بالرفع على ما لم يسم فاعله . الباقون بفتح التاء وكسر الراء ونصب ﴿ نضرة ﴾ .

لما ذكر الله تعالى الفجار وما أعده لهم من أنواع العقاب وأليم العذاب ذكر الأبرار وهو جمع بر مثل جبل واجبال . والابرار الذين فعلوا الطاعات واجتنبوا المعاصي ، واخبر ﴿ إن كتاب الابرار لفي عليين ﴾ أي مراتب عالية محفوفة بالجلالة ، فقد عظمها الله تعالى بما يدل على عظم شأنها في النعمة ، وجمعت بالواو والنون تشبيها بمن يعقل في الفضل وعظم الشأن . وقال ابن عباس : العليون الجنة . وقال كعب وقتادة ومجاهد والضحاك : أرواح المؤمنين في السماء السابعة . وقال الضحاك ـ في رواية ـ عليون سدرة المنتهى ، وهي التي اليها ينتهي كل شيء من أمر الله تعالى . وقيل : عليون علو على علو مضاعف ، ولهذا جمع بالواو والنون تفخيماً لشأنه

(١) ديوانه ٢ / ٦٦٥ والقرطبي ١٩ / ٢٦٣

قال الشاعر :

فاصبحت المذاهب قد أذاعت ... به الاعصار بعد الوابلينا

يريد مطراً بعد مطر غير محدود العدد ، وكذلك تفخيم شأن العدد الذي ليس على الواحد ، نحو ثلاثين إلى تسعين ، وجرت العشرون عليه . وقيل : عليون أعلى الأمكنة . وقال الحسن : معنى في عليين في السماء . وقال الجبائي : معناه في جملة الملائكة العليين ، فلذلك جمع بالواو والنون .

ثم قال تعالى على وجه التعظيم لشأن هذه المنازل وتفخيم أمرها ﴿ وما ادراك ما عليون ﴾ لان تفصيلها لا يمكن العلم بها إلا بالمشاهدة دون علم الجملة . ثم قال ﴿ كتاب مرقوم ﴾ أي الكتاب الذي ثبت فيه طاعتهم ﴿ مرقوم ﴾ أي مكتوب فيه جميع طاعاتهم بما تقر به أعينهم وتوجب سرورهم بضد الكتاب الذي للفجار ، لان فيه ما يسوؤهم ويسخن أعينهم ﴿ يشهده المقربون ﴾ أي يشهد هذا الكتاب الملائكة المقربون أي يشاهدون جوائزهم ويرونها . ومعنى المقربون ـ ههنا ـ هم الذين قربوا إلى كرامة الله في أجل المراتب .

ثم اخبر تعالى ﴿ إن الابرار ﴾ وهم أهل البر الذين فعلوه لوجهه خالصاً من وجوه القبح ، فالبر النفع الذي يستحق به الشكر والحمد يقال : برّ فلان بوالده فهو بار به وبرّ به ، وجمعه أبرار ﴿ لفي نعيم ﴾ أي ويحصلون في ملاذ وأنواع من النفع ﴿ على الارائك ينظرون ﴾ قال ابن عباس : الارائك الاسرة . وقال مجاهد : هي من اللؤلؤ والياقوت ، واحدها أريكة ، وهو سرير في حجلة ينظرون إلى ما أعطاهم الله من الملك والكرامة ، والحجلة كالقبة على الاسرة . ثم قال ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ أي تتبين في وجوههم إشراق النعمة والسرور بها .

وقوله ﴿ يسقون من رحيق ﴾ فالرحيق الخمر الصافية الخالصة من كل غش .

قال الخليل : هي أفضل الخمر وأجودها . قال حسان :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

وقوله ﴿ مختوم ﴾ قيل إن هـذا الخمر مختوم في الآنية بالمسك ، وهو غير الذي يجري في الانهار . وقوله ﴿ ختامه مسك ﴾ قيل في معناه قولان :

أحدهما ـ ان مقطعه مسك بأن يوجد ريح المسك عند خاتمة شربه ـ ذكره ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك .

والثاني ـ أنه ختم اناؤه بالمسك بدل الطين الذي يختم بمثله الشراب في الدنيا ـ ذكره مجاهد وابن زيد ـ ومن قرأ ﴿ خاتمه ﴾ مسك أراد آخر شرابه مسك ويفتح التاء في (خاتمه) لان العرب تقول : خاتم وخاتم وخاتام وخيتام . ومن قرأ ﴿ ختامه ﴾ أراد شرابهم مختوم بالمسك . والمسك معروف ، وهو أجل الطيب سمي مسكاً ، لأنه يمسك النفس لطيب ريحه والمسك ـ بالفتح ـ الجلد لامساكه ما فيه ﴿ وفي ذلك ﴾ يعني في ذلك النعيم الذي وصفه الله ﴿ فليتنافس المتنافسون ﴾ فالتنافس تمني كل واحد من النفسين مثل الشيء النفيس الذي للنفس الاخرى أن يكون له تنافسوا في الشيء تنافساً ونافسه فيه منافسة ، والجليل الذي ينفس بمثله نفيس ، ونفس عليه بالأمر ينفس نفاسة إذا ضن به لجلالته .

وقوله ﴿ ومزاجه ﴾ أي مزاج ذلك الشراب الذي وصفه ﴿ من تسنيم ﴾ فالمزاج خلط المائع بالمائع كما يمزج الماء الحار بالبارد ، والشراب بالماء . يقال أمزجه مزجاً وامتزج امتزاجاً ومازجه ممازجة وتمازجا تمازجاً . والتسنيم عين الماء يجري من علو إلى سفل يتسنم عليهم من الغرف ، واشتقاقه من السنام . وقال عكرمة : من تشريف ، ويقال : سنام البعير لعلوه من بدنه .

وقوله ﴿ عيناً يشرب بها المقربون ﴾ قيل في نصب (عين) وجوه :

أولها ـ أن (تسنيم) معرفة و (عيناً) قطع منها ، أوحال ،

الثاني ـ أن يكون (تسنيم) مصدراً فيجري مجرى ﴿ او إطعام في يوم ذى مسغبة يتيماً ﴾ (١) .

الثالث ـ على تقدير أعني عيناً ، مدحاً .

الرابع ـ يسقون عيناً ، والباء زائدة ، يقال : شربت عيناً وشربت بالعين وقد فسرناه في (هل أتى) .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ ٱنْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى ٱلْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٦)

ثمان آيات .

قرأ حفص ﴿ فكهين ﴾ بغير الف بمعنى فرحين مرحين . الباقون « فاكهين » بألف بمعنى لاهين ، وهو بمنزلة طامع وطمع ، فالفاكه الطالب ما يتفكه به من نوادر الأمور والفاكه الناعم المعجب بحاله والتفكه التمتع بالمأكول من غير أخذه للقوت . وقرأ ابو عمرو ـ في رواية هارون ـ وحمزة والكسائي ﴿ هل ثوب ﴾ بالادغام ، لقرب مخرج اللام من الثاء . الباقون ، واليزيدي عن ابي عمرو بالاظهار .

(١) سورة ٩ البلد آية ١٥

قيل إن هذه الآية نزلت في جماعة من كفار قريش كانوا يعيرون جماعة من المسلمين الذين سبقوا إلى الايمان، ويهزؤن منهم، فقال الله تعالى مخبراً بأن المجرمين كانوا من الذين آمنوا بالله ووحدوه وأخلصوا له العبادة وصدقوا أنبياءه «يضحكون» على وجه الاستهزاء بهم والسخرية منهم «وإذا مروا بهم» يعني إذا مر بهم المؤمنون وجازوا عليهم غمز بعضهم بعضاً عليهم على وجه التعجب منهم والسخرية «وإذا انقلبوا إلى أهلهم» يعني الكفار إذا انقلبوا إلى اهلهم واصحابهم «انقلبوا فاكهين» أي لاهين. ومن قرأ «فكهين» أراد مرحين «معجبين» بحالهم «وإذا رأوهم» يعني الكفار إذا رأوا المؤمنين في دار الدنيا «قالوا» يعني بعضهم لبعض «إن هؤلاء» وأشاروا به إلى المؤمنين «لضالون» عن طريق الحق وعادلون عن الاستقامة، فقال الله تعالى «وما أرسلوا عليهم حافظين» أي لم يرسل هؤلاء الكفار حافظين على المؤمنين، فيحفظون ماهم عليهم، والمراد بذلك الذم لهم بعيب المؤمنين بالضلال من غير أن كلفوا منعهم من المراد وأن ينطقوا في ذلك بالصواب، فضلوا بالخطأ في نسبهم إياهم إلى الضلال، فكانوا ألوم منهم لو اخطئوا فيه، وقد كلفوا الاجتهاد.

ثم قال «فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون» معناه إن يوم القيامة الذي يجازي الله تعالى كل احد على عمله فيجازي المؤمن بالثواب والنعيم، ويجازي الكافر بالعذاب والجحيم، ففي ذلك اليوم يضحك المؤمنون من الكفار، كما كان الكفار يضحكون من المؤمنين في الدنيا، وقيل الوجه في ضحك أهل الجنة من أهل النار أنهم لما كانوا أعداء الله تعالى وأعداءهم جعل لهم سروراً في تعذيبهم ولو كان العفو قد وقع عنهم لم يجز أن يجعل السرور في ذلك، لانه مضمن بالعداوة

وقد زالت بالعفو .

وقوله « على الارائك ينظرون » معناه إن المؤمنين على سرر في الحجال واحدها أريكة ينتظرون ما يفعله الله بهم من الثواب والنعيم في كل حال ، ومايبزل بالكفار من اليم العقاب وشديد النكال .

ثم قال « هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » وقيل في معناه قولان :

احدهما - هل جوزي الكفار إذا فعل بهم هذا الذي ذكر بما كانوا يفعلون .

الثاني - ينظرون هل جوزي الكفار، فيكون موضعه نصباً بـ« ينظرون » ، والاول استئناف لا موضع له . وإنما قال « هل ثوب » لأن الثواب في أصل اللغة الجزاء الذي يرجع على العامل بعمله ، وإن كان الجزاء بالنعيم على الاعمال في العرف ، يقال : ثاب الماء يثوب ثوباً إذا رجع ، وثاب اليه عقله إذا رجع . ومنه التثاوب . وقال قوم : يقول المؤمنون بعضهم لبعض : هل جوزي الكفار ما كانوا يفعلون سروراً بما ينزل بهم . ويجوز أن يكون ذلك من قول الله أو قول الملائكة للمؤمنين تنبيهاً لهم على أنه جوزي الكفار على كفرهم وسخريتهم بالمؤمنين وهزئهم ، بأنواع العذاب ليزدادوا بذلك سروراً إلى سرورهم .

٨٤ ـ سورة الانشقاق

مكية في قول ابن عباس والضحاك ، وهي خمس وعشرون آية في الكوفي والمدنيين وثلاث في البصري

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً ﴾ (٩) تسع آيات.

يقول الله تعالى لنبيه وهو متوجه إلى جميع المكلفين على وجه الوعيد لهم والتخويف من عقابه والتنبيه لهم على قرب أوان مجيئه « إذا السماء انشقت » وتقديره إذكر إذا السماء انشقت ، ومعناه إذا انفطرت السماء وتصدعت وانفرجت ، فالانشقاق افتراق إمتداد عن إلتئام ، فكل انشقاق افتراق وليس كل افتراق انشقاقاً وقيل : الانشقاق الانفطار ، والانصداع الانفراج .

وقوله « وأذنت لربها وحقت » قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد

وقتادة : معناه سمعت وأطاعت أي كأنها سمعت بأذن وأطاعت بانقياد لتدبير الله . تقول العرب أذن لك هذا الامر إذناً بمعنى أسمع لك قال عدّي بن زيد :

ايها القلب تعلل بددن   إن همي في سماع وأذن

وقال آخر :

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به   وإن ذكرت بسوء عندهم اذنوا (١)

أي سمعوا وقال عدي بن زيد :

في سماع يأذن الشيخ له   وحديث مثل ماذي مشار (٢)

وقيل إن معنى «وحقت» حق لها أن تأذن بالانقياد لامر ربها ، يقال : حق له أن يكون على هذا الأمر بمعنى جعل ذلك حقاً .

وقوله « وإذا الارض مدت » روي عن النبي ﷺ قال : (تمد الارض يوم القيامة مثل الأديم) ومعنى « مدت » بسطت إن الله تعالى يأمر بأن تمد مد الأديم العكاظي حتى يزيد في سعتها . وقيل معناه إنها تبسط باندكاك جبالها وآكامها حتى تصير كالصحيفة الملساء .

وقوله « والقت ما فيها وتخلت » معناه القت ما فيها من المعادن وغيرها ، وتخلت منها ، وذلك مما يؤذن بعظم الأمر كما تلقي الحامل ما في بطنها عند الشدة . وقال قتادة ومجاهد : أخرجت الأرض أثقالها . وقوله « وأذنت لربها وحقت » قد فسرناه . وليس هذا على وجه التكرار ، لأن الأول في صفة السماء والثاني في صفة الارض فليس بتكرار وهذا كله من أشراط الساعة وجلائل الامور التي تكون فيها . وجواب « إذا السماء انشقت » محذوف وتقديره إذا كانت هذه الاشياء التي ذكرها وعددها رأى الانسان ما قدم من خير او شر ، وقيل جوابه في « إنك كادح » قال ابن خالويه الفاء مقدرة

(١) مر في ٥ / ٤٤   (٢) مر في ٥ / ٢٨٧

والتقدير إذا السماء انشقت إلى قوله « وحقت » فيا أيها الانسان إنك كادح . وقال البلخي : الواو زائدة وجواب قوله «أذنت لربها» «وحقت» وهو كقوله « حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها » والأول هو الوجه .

وقوله « يا أيها الانسان » خطاب لجميع المكلفين من البشر من ولد آدم يقول الله لهم ولكل واحد منهم « يا أيها الانسان إنك كادح » والكدح السعي الشديد في الامر يقال : كدح الانسان في أمره يكدح ، وفيه كدوح وخدوش أي آثار من شدة السعي في الامر ، ومعنى « كادح إلى ربك كدحاً » ايها الانسان إنك في امرك بشدة ومشقة إلى أن تلقى جزاء عملك من ربك ، فانت لا تخلو في الدنيا من مشقة ، فلا تعمل لها ، واعمل لغيرها فيما تصير به إلى الراحة من الكدح ، فالغني والفقير كل واحد منهما يكدح ما يقتضيه حاله . وقوله « فملاقيه » تفخيم لشأن الامر الذي يلقى من جهته ، فجعل لذلك لقاء جزائه ، لقاءه وهذا من المعاني العجيبة والحكمة البالغة والهاء في « فملاقيه » يحتمل أمرين : أن تكون كناية عن الله ، وتقديره فملاقي ربك أي تلاقي جزاء ربك ، ويحتمل أن تكون كناية عن الكدح ، وتقديره فملاقي كدحك الذي هو عملك . وقال تميم بن مقبل :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت واخرى ابتغي العيش أكدح (١)

أي ادؤب وأسعى في طلب العيش . ثم قسم تعالى أحوال الخلق يوم القيامة فقال « فأما من أوتي كتابه بيمينه » يعني من أعطي كتابه الذي فيه ثبت أعماله من طاعة او معصية بيده اليمنى « فسوف يحاسب حساباً يسيراً » أي يواقف على ما عمل من الحسنات وماله عليها من الثواب ، وما حط عنه من الاوزار إما بالتوبة أو المغفرة ، فالحساب اليسير التجاوز عن السيئات ، والاحتساب بالحسنات . ومن

---

(١) مر في ٣ / ٢١٢ و ٤ / ٧٧ و ٨ / ٢٤٣

نوقش بالحساب هلك ، روي عن النبي صلى الله عليه وآله .

وقوله « وينقلب إلى أهله مسروراً » أي فرحاً مستبشراً . وقيل المراد بالأهل - ههنا - هم الذين أعد الله لهم من الحور العين ، ويجوز أن يكون المراد أقاربه إذا كانوا من أهل الجنة والسرور هو الاعتقاد أو العلم بوصول نفع اليه في المستقبل أو دفع ضرر عنه وقال قوم : هو معنى فى القلب يلتذ لأجله بنيل المشتهى يقال : سر بكذا من مال أو ولد أو بلوغ أمل يسر سروراً .

قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيراً (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ (١٥) ست آيات .

قرأ نافع وابن عامر وابن كثير والكسائي « يصلى » بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام . الباقون بفتح الياء وإسكان الصاد خفيفة . وأماله أهل الكوفة إلا عاصماً .

لما ذكر الله تعالى حكم من يعطى كتابه بيمينه من المؤمنين وأهل الطاعات وما أعد لهم من أنواع النعيم وإنقلابه إلى أهله مسروراً ، ذكر حكم الكفار الذين يعطون كتاب أعمالهم وراء ظهورهم ، وروي أنه يخرج شماله من ظهره ، ويعطي كتابه فيه . والوجه فى ذلك ما قدمناه من كون ذلك امارة الملائكة والخلائق أنه من أهل النار كما أن إعطاء الكتاب باليمين علامة على أنه من أهل الجنة .

ثم حكى ما يحل به فقال « فسوف يدعو ثبوراً » فالثبور الهلاك أي يقول واهلاكاه . والمثبور الهالك . وقيل : إنه يقول واثبوراه . وقال الضحاك يدعو

بالهلاك . وأصل الثبور الهلاك يقال : ثبره الله يثبره ثبراً إذا أهلكه . ومثبر الناقة الموضع الذى تطرح ولدها فيه ، لانها تشفي به على الهلاك ، وثبر البحر إذا جزر لهلاكه بانقطاع مائه ، يقال : تثابرت الرجال فى الحرب إذا تواثبت ، لاشفائها على الهلاك بالمواثبة . والمثابر على الشيء المواظب عليه لحمله نفسه على الهلاك بشدة المواظبة . وثبير جبل معروف . والمثبرة تراب شبيه بالنورة إذا وصل عرق النخل اليه وقف ، لانه يهلكه ، وإنما يقول : واويلاه والهفاه واهلاكاه ، لأنه ينزل به من المكروه لأجله مثل ما ينزل بالمتفجع عليه .

وقوله « ويصلى سعيراً » معناه إن من هذه صفته يلزم الكون فى السعير ، وهي النار المتوقدة على وجه التأبيد .

وقوله « إنه كان فى أهله مسروراً » معناه إنه اقتطعه السرور بأهله عما يلزمه أن يقدمه . فهو ذم له بهذا المعنى ، ولو لم يكن إلا السرور بأهله لم يذم عليه وقيل : معناه إنه كان فى أهله مسروراً بمعاصي الله . ثم اخبر عنه « إنه ظن » في دار التكليف « أن لن يحور » أى لن يبعثه الله للجزاء ، ولا يرجع حياً بعد أن يصير ميتاً يقال : حار يحور حوراً إذا رجع ، وتقول : كلمته فما أحار جواباً أى ما ردّ جواباً . وفى المثل (نعوذ بالله من الحور بعد الكور) أى من الرجوع إلى النقصان بعد التمام ، وحوره إذا رده إلى البياض والمحور البكرة ، لانه يدور حتى يرجع إلى مكانه ، والمعنى إنه ظن ان لن يرجع إلى حال الحياة فى الآخرة ، فلذلك كان يرتكب المآثم وينتهك المحارم . فقال الله رداً عليه ليس الأمر على ما ظنه « بلى » إنه يرجع حياً ويجازى على أفعاله .

وقوله « إنه كان به بصيراً » معناه إنه يخبر عن أنه لن يجوز « بلى » ويقطع الله عليه بأنه يجوز على انه بصير به وبجميع الامور .

قولـه تعـالى :

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (٢٥)

عشر آيات .

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بفتح الباء من « لتركبن » ومعناه لتركبن أنت يا محمد . الباقون بضم الباء على أن يكون خطاباً للجميع .

يقول الله تعالى مقسماً بالشفق ، وقد بينا أن (لا) صلة في مثل هذا ، والتقدير أقسم ، وقد بينا أن لله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه ، وليس لاحد أن يقسم إلا بالله . وقال بعضهم : أقسم برب الشفق ، والشفق هو الحمرة التي تبقى عند المغرب في الافق . وقال الحسن وقتادة : الشفق الحمرة بين المغرب والعشاء الآخرة . وقال قوم : هو البياض . والصحيح أن الشفق هو الحمرة الرقيقة في المغرب بعد مغيب الشمس وأصله الشفق في العمل ، وهو الرقة على خلل فيه ، وأشفق على كذا إذا رق عليه وخاف هلاكه . واشفق إذا رق بالخوف من وقوعه . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : عليّ ثوب كأنه الشفق يريد حمرة . والاعتبار بالشفق أنه علامة لوقت بعينه لا يختلف اقتضى اثبات عالم به .

وقوله « والليل وما وسق » قسم آخر بالليل واتساقه . وقيل : معنى وسق

جمع إلى مسكنه ما كان منتشراً بالنهار في تصرفه ، يقال : وسقته أسقه وسقاً إذا جمعته ، وطعام موسوق أى مجموع في الغرائر والاوعيـــة . والوسق الطعام المجتمع وقدره ستون صاعاً .

وقوله « والقمر إذا اتسق » قسم آخر بالقمر واتساقه أى اجتماعه على تمام وهو افتعال من الوسق ، فاذا تم نور القمر واستمر في ضيائه ، فذلك الاتساق له . وقال قتادة : معناه إذا استدار . وقال مجاهد : إذا استوى .

وقوله « لتركبن طبقاً عن طبق » جواب القسم ، ومعناه منزلة عن منزلة وطبقة عن طبقة وذلك أن من كان على صلاح دعاه إلى صلاح فوقه ، ومن كان على فساد دعاه إلى فساد فوقه ، لان كل شيء يجن الى شكله . وقيل : معنى « طبقاً عن طبق » جزاء عن عمل . وقيل : معناه شدة عن شدة . وقيل : طبقات السماء بعروج الارواح . وقيل : معناه حالا عن حال من أحياء وإماتة ، ثم أحياء . وقيل : معناه لتصيرن الى الآخرة عن الدنيا . وقال ابو عبيدة : معناه لتركبن سنة الاولين ومن كان قبلكم . ثم قال على وجه التبكيت لهم والتقريع « فما لهم لا يؤمنون » أى أيّ شيء لهم لأجله لا يصدقون بالله واليوم الآخر ولا يعترفون بالثواب والعقاب . وقيل : معناه ما لهم لا يؤمنون أى ما وجه الارتياب الذى يصرفهم عن الايمان .

وقوله « وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون » عطف على قوله « لا يؤمنون » والمعنى ما الذى يصرفهم عن الايمان وعن السجود لله والخضوع له والاعتراف بوحدانيته إذا تلي عليهم القرآن الذى أنزلته على محمد ﷺ الذى يلين القلب للعمل من الوعظ والوعد والوعيد يميز به بين الحق والباطل ، وهو مع ذلك معتذر عليهم الاتيان بمثله ، فهو معجز له ﷺ .

ثم قال تعالى « بل الذين كفروا يكذبون » معناه إن الذى يمنعهم من السجود عند تلاوة القرآن تكذيبهم جهلا بما عليهم وعدولا عن الحق . وفي ذلك التحذير من الجهل والحث على طلب العلم . وقيل : معناه مالهم لا يؤمنون ، ولا بد من الجزاء على الاعمال ثم قال : تكذيبهم عن جهل منهم يصرفهم عن ذلك .

وقوله « والله اعلم بما يوعون » قال قتادة ومجاهد : معناه بما يوعون في صدورهم وإنما قال : يوعون ، لأنهم يحملون الآثام في قلوبهم ، فشبه ذلك بالوعاء ، يقال: أوعيت المتاع ووعيت العلم ، قال الفراء : الاصل جعل الشيء في وعاء ، والقلوب شبه أوعية لما يحصل فيها من معرفة او جهل .

ثم قال للنبي ﷺ « فبشرهم » يا محمد جزاء على كفرهم « بعذاب اليم » أي مؤلم . ثم استثنى من جملة من يخاطبه فقال « إلا الذين آمنوا » بالله « وعملوا » الاعمال « الصالحات لهم أجراً غير ممنون » أي غير منقوص ، فى قول ابن عباس وقال غيره : غير مقطوع . وقيل : غير منغص بالمن الذى يؤذي . وإنما قيل له : منّ ، لانه قطع له عن شكر النعمة . قال الزجاج : تقول العرب : مننت الحبل إذا قطعته قال لبيد:

لمعفر قهد تنــازع شلوه غبس كواسب ما يمنّ طعامها(١)

أى ما ينقص . وقيل ما يكدر ، وكان ابن مجاهد ومحمد بن القاسم الانباري يقفان على قوله « فبشرهم بعذاب اليم » ويبتدؤن بقوله « إلا الذين آمنوا » قال ابن خالويه : فسألتهما عن ذلك فقالا : الاستثناء منقطع ومعناه (لكن) .

(١) مر فى ١ / ٣٢٢

٨٥ ـ سورة البروج

مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي اثنتان وعشرون آية بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ (١) وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ (٤) ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٨) ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ (١٠) عشر آيات .

قوله : والسماء ذات البروج ، قسم من الله تعالى بالسماء ، ومنهم من قال تقديره برب السماء . وقد بينا ما في ذلك في غير موضع . ثم وصف السماء بأنها ذات البروج . فالبروج المنازل العالية . والمراد ـ ههنا ـ منازل الشمس والقمر ـ في قول المفسرين ـ ومثل ذلك قوله « ولو كنتم في بروج مشيدة » (١) أي في

(١) سورة ٤ النساء آية ٧٧

منازل عالية . وقيل : السماء اثنى عشر برجاً يسير القمر فى كل برج منها يومين وثلثاً ، فذلك ثمانية وعشرون منزلا . ثم يستتر ليلتين ، ومسير الشمس فى كل برج منها شهر . وقيل : البروج النجوم التي هي منازل الشمس والقمر .

وقوله « واليوم الموعود » قسم آخر بهذا اليوم . وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه اليوم الذى يجازى فيه ويفصل فيه القضاء ، وهو يوم القيامة ـ وهو قول الحسن وقتادة وابن زيد ـ .

قوله « وشاهد ومشهود » قسم آخر بالشاهد والمشهود ، فالشاهد النبي صلى الله عليه وآله والمشهود يوم القيامة ـ في قول الحسن بن علي عليه السلام وتلا قوله « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » (١) وقال ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ (٢) ، وهو قول ابن عباس وسعيد بن المسيب ، وفي رواية اخرى عن ابن عباس إن الشاهد هو الله والمشهود يوم القيامة . وقال قتادة : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة . وقال الجبائي : الشاهد هم الذين يشهدون على الخلائق ، والمشهود هم الذين يشهدون عليهم . قال : ويجوز أن يكون المراد المدركين والمدركات . وجواب القسم محذوف ، وتقديره الأمر حق فى الجزاء على الاعمال . وقيل الجواب قوله « قتل اصحاب الاخدود » وقال الأخفش : يجوز أن يكون على التقديم والتأخير ، وتقديره ﴿ قتل اصحاب الاخدود ... والسماء ذات البروج ﴾ وقوله ﴿ قتل أصحاب الاخدود ﴾ معناه لعن . وقيل لعنوا بتحريقهم فى الدنيا قبل الآخرة . وقال الجبائي : يحتمل أن يكون المعنى بذلك القاتلين ، ويحتمل أن يكون المقتولين ، فاذا حمل على القاتلين ، فمعناه لعنوا بما فعلوه من قتل المؤمنين وإن حمل على المقتولين ، فالمعنى انهم قتلوا بالاحراق بالنار . وذكر الله هؤلاء

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٠ (٢) سورة ١١ هود آية ١٠٤

المؤمنين بحسن بصيرتهم في الصبر على دينهم حتى أحرقوا بالنار، لا يعطون التقية بالرجوع عن الايمان . والاخدود هو الشق العظيم في الارض ، ومنه ما روي في معجزة النبي صلى الله عليه وآله أن الشجرة دعاها النبي صلى الله عليه وآله فجاءت تخد الأرض خداً ، حتى اتته . ومنه الخد لمجاري الدموع . والمخدة لوضع الخد عليها ، وتخدد لحمه إذا صار فيه طرائق كالشقوق.

وقوله ﴿ النار ذات الوقود ﴾ فجرّ النار على البدل من الاخدود ، وهو بدل الاشتمال ، ووصفها بأنها ذات الوقود ، فالوقود - بفتح الواو - ما يشعل من الحطب وغيره - وبضم الواو - الايقاد . وإنما وصفها بأنها ذات الوقود مع أن كل نار ذات وقود لامرين :

أحدهما - انه قد يكون نار ليست ذات وقود كنار الحجر ونار الكبد .

والثاني - انه أراد بذلك وقوداً مخصوصاً ، لانه معروف ، فكأنه أراد الوقود بأبدان الناس ، كما قال ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ (١)

وقوله ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ أي حين هم قعود عليها أي بالقرب منها ، وقال الربيع بن أنس : الكفار الذين كانوا قعوداً على النار خرج لسان منها فأحرقهم عن آخرهم. وروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام (أنهم كانوا من المجوس) وقال الضحاك : كانوا من بني إسرائيل . وقيل : كانوا من اليمن . ومعناه هم عليها قعود حين كان أولئك الكفار قعوداً عند النار . والقعود جمع قاعد كقولك : شاهد وشهود ، وراكع وركوع ، والقعود أيضاً مصدر قعد يقعد قعوداً .

وقوله ﴿ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ أي حضور على مشاهدتهم لهم ، فكل حاضر على ما شاهده إما بسمع أو بصر ، فهو شاهد . والمشاهد هو

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٤ وسورة ٦٦ التحريم آية ٦

المدرك بحاسة .

وقوله ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ معناه انه لم ينقم هؤلاء الكفار من أولئك المؤمنين الذين أحرقوهم بالنار إلا لايمانهم بالله تعالى القاهر الذى لا يقهر ﴿ الحميد ﴾ فى جميع أفعاله ، فالنقمة ايجاب مضرة على حال مذمومة . ونقيض النقمة النعمة ، فهؤلاء الجهال نقموا حال الايمان ، لانهم جعلوها بجهلهم حالا مذمومة قال الشاعر :

ما نقموا من بني أميـــة　　　　إلا أنهم يحلمون إن غضبوا (١)

والداعي لهم إلى ان ينقموا من الايمان الجهل والخلاف ، لأن ما سبقوا اليه من الجهل يدعوهم إلى عداوة من خالفهم وسخف آرائهم ، وإن ذلك يفسد عليهم ملكهم ويصرف الوجوه عنهم .

وقوله ﴿ الذي له ملك السموات والارض ﴾ صفة (العزيز الحميد) والمعنى إن هؤلاء الكفار نقموا من المؤمنين إيمانهم بالله تعالى العزيز ، ومعناه القاهر الذي لا يغالب الحميد ومعناه المستحق للحمد على جميع أفعاله ﴿ الذى له ملك السموات والارض ﴾ ومعناه له التصرف فى السموات والارض ولا اعتراض لاحـــد عليه . ثم قال ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ أي عالم بجميعه لا يخفى عليه شيء من ذلك .

وقوله ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ قال ابن عباس وقتادة والضحاك: حرقوهم بالنار ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ إنما شرط عدم التوبة ، لانهم لو تابوا لما توجه اليهم الوعيد ، وإن لم يتوبوا توجه اليهم الوعيـــد بقوله ﴿ فلهم عذاب جهنم ﴾ يعني في الآخرة ﴿ ولهم عذاب الحريق ﴾ في الدنيا ـ في قول الربيع ـ قال الفراء : لما خدّدوا المؤمنين الاخاديد وطرحوا فيها النار وطرحوا فيها المؤمنين أرتفعت النار عليهم ،

(١) مر في ٣ \ ٥٥٩ ، ٥٧٠ و ٥ \ ٣٠٤

فاحرقتهم فرق الاخاديد ونجا المؤمنون .

وقال قوم ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين ﴾ جواب القسم في أول السورة ، وهذا غير صحيح ، لان الكلام قد طال وانقطع بالاخبار ما بينها ، وقال الزجاج : لهم عذاب بكفرهم ، وعذاب باحراقهم المؤمنين.

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَٱللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ (٢٢) اثنتا عشرة آية .

قرأ حمزة والكسائي إلا قتيبة وخلف « المجيد » بالخفض جعلوه نعتاً للعرش . الباقون بالرفع على أنه نعت لله تعالى ، وقرأ نافع « محفوظ » بالرفع . الباقون بالخفض نعتاً للوح . ومن رفع جعله نعتاً للقرآن .

اخبر الله تعالى عن صفة المؤمنين ، فقال ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ أي صدقوا بتوحيد الله واخلاص عبادته ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ من الاعمال ، واجتنبوا القبائح ﴿ لهم جنات تجري من تحتها الانهار ﴾ أي لهم بساتين تجري من تحت أشجارها

الانهار ﴿ ذلك الفوز الكبير ﴾ فالفوز النجاة بالنفع الخالص ، وأصله النجاة ، وقيل المهلكة مفازة تفاؤلا كأنه قيل : منجاة ، وفاز فلان بكذا أى خاص له نفعه ، يفوز فوزاً . ولا يقال إلا في تعظيم النفع الذى صار له ، وإنما ذكر الكبير ـ ههنا ـ لان النعيم لهؤلاء العاملين كبير بالاضافة إلى نعيم من لا عمل له ممن يدخل الجنة ، لما فيه من الاجلال والاكرام والمدح والاعظام . وقيل : الفوز الحظ الواقع من الخير .

ثم قال متوعداً ومتهدداً للكفار والعصاة ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ يا محمد والبطش الاخذ بالعنف ، بطش به يبطش بطشاً ويبطش ايضاً ، فهو باطش ، وإذا وصف بالشدة فقد تضاعف مكروهه وتزايد إيلامه . وقوله ﴿إنه هو يبدىء ويعيد﴾ قال ابن عباس : معناه إنه يبدأ العذاب ويعيده لاقتضاء ماقبله ذلك . وقال الحسن والضحاك وابن زيد : يبدأ الخلق ويعيده لان الاظهر فى وصفه تعالى بأنه المبدىء المعيد العموم في كل مخلوق ﴿ وهو الغفور ﴾ يعني الستار على خلقه معاصيهم ﴿ الودود ﴾ أى واد لهم ومحب لمنافع خلقه ﴿ذو العرش المجيد﴾ ومعناه صاحب العرش ، العظيم المجيد وقال ابن عباس : معناه الكريم . وقرأ اهل الكوفة إلا عاصماً المجيد بالجر جعلوه نعتاً للعرش . ومعناه ذو العرش الرفيع . الباقون بالرفع جعلوه نعتاً للغفور أى هو الغفور الودود المجيد ذو العرش ، قال المبرد : يجوز أن يكون نعتاً لقوله ﴿ إن بطش ربك .... المجيد ﴾ فيكون قد فصل بينهما ، وفيه بعد لانه قال « لشديد » وقال « أنه هو يبدىء ويعيد ، وهو الغفور الودود ذو العرش » وفصل بهذا كله ، يقال : مجدت الابل تمجد مجوداً إذا رعيتها فرعت وشبعت . ولا فعل لك ، او أمجدتها أمجدها إمجاداً إذا اشبعتها من العلف وملأت بطونها ولا فعل لها في ذلك ، وفي المثل في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار . ومعناه كثر ناره لانه ليس في الشجر أكثر ناراً من العفار .

وقوله تعالى ﴿ فعال لما يريد ﴾ معناه ما يشاؤه ويريده من أفعال نفسه يفعله

لا يمنعه من ذلك مانع ولا يعترض عليه معترض ، ولا يجوز أن يكون المراد إنه فعال لكل ما يريد لان ذلك يقتضي انه فعال لكل ما يريد أن يفعله العباد ، وذلك انه يستحيل أن يفعل ما يريد أن يفعله العباد ، لأن في ذلك ابطال الامر والنهي والطاعة والمعصية والثواب والعقاب ، إذ لا يأمرهم أن يفعلوا ما قد فعله ، ولا ينهاهم عنه ، ولانه قد أراد من الكفار أن يؤمنوا ، لانه قد أمرهم بالايمان وما فعل إيمانهم وقد قال الله تعالى ﴿ وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ (١) ولو فعل ظلمهم لكان قد أراد ظلمهم . وقوله ﴿ هل اتاك حديث الجنود فرعون وثمود ﴾ معناه تذكر يامحمد حديثهم تذكر معتبر ، فانك تنتفع به ، وهذامن الايجاز الحسن والتفخيم الذي لا يقوم مقامه التصريح لما يذهب الوهم فى أمرهم كل مذهب ويطلب الاعتبار كل مطلب .

وقوله ﴿ بل الذين كفروا فى تكذيب ﴾ معناه بل هؤلاء الكفار الذين كفروا كذبوا بالبعث والنشور فاعرضوا عما يوجبه الاعتبار بفرعون وثمود ، واقبلوا على ما يوجبه الكفر والتكذيب من التأكيد ، ولم يعلموا أن ﴿ الله من ورائهم محيط ﴾ يقدر أن ينزل بهم ما انزل بفرعون . وقيل المعنى ﴿ هل أتاك حديث الجنود ﴾ وما كان منهم إلى انبيائهم فاصبر كما صبر الرسل قبلك ﴿ بل الذين كفروا فى تكذيب ﴾ ايثاراً منهم لأهوائهم واتباعاً لسنن آبائهم .

وقوله ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ أي هم مقدور عليهم كما يكون فيما احاط الله بهم ، وهذا من بلاغة القرآن .

وقوله ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ أي كريم فالمجيد الكريم العظيم الكريم بما يعطي من الخير ، فلما كان القرآن يعطي المعاني الجليلة والدلائل النفيسة كان كريماً مجيداً بما

(١) سورة ٣ آل عمران ١٠٨

يعطي من ذلك ، لان جميعه حكم . وقيل : الحكم على ثلاثة أوجه لا رابع لها : معنى يعمل عليه فيما يخشى ويتقى ، وموعظة تلين القلب للعمل بالحق ، وحجة تؤدي إلى تمييز الحق من الباطل في علم دين أو دنيا ، وعلم الدين أشرفهما وجميع ذلك موجود في القرآن .

وقوله ﴿ في لوح محفوظ ﴾ عن التغيير والتبديل والنقصان والزيادة . وقال مجاهد : المحفوظ أم الكتاب ، وقيل : انه اللوح المحفوظ الذي كتب الله جميع ما كان ويكون فيه - ذكره أنس بن مالك - أي كأنه بما ضمن الله من حفظه في لوح محفوظ ومن رفع (محفوظ) جعله صفة القرآن . ومن قرأه بالخفض جعله صفة اللوح .

٨٦ - سورة الطارق

مكية في قول ابن عباس والضحاك ، وهي سبع عشرة آية في الكوفي
والبصري والمدني الاخير وست عشرة آية في المدني الاول



﴿ وَٱلسَّمَاءِ وَٱلطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلطَّارِقُ (٢) ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ

وَٱلتَّرَائِبِ(٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ (١٠) عشر آيات .

قرأ ﴿ لما ﴾ بالتشديد عاصم وحمزة وابن عامر بمعنى ﴿ إلا ﴾ وقد جاء (لما) مشدداً بمعنى (إلا) في موضعين : إن ، والقسم ، كقولهم سئلتك لما فعلت بمعنى إلا فعلت قال قوم : تقديره لمما ، فحذفت إحدى الميمات كراهة اجتماع الأمثال . وقرأ الباقون بالتخفيف جعلوا (ما) صلة مؤكدة . وتقديره لعليها حافظ ، واللام لام الابتداء التي يدخل في خبر (إن) و (أن) مخففة من الثقيلة .

هذا قسم من الله تعالى بالسماء وبالطارق ، وقد بينا القول فيه فالطارق هو الذي يجيء ليلا وقد فسره الله تعالى وبينه بأنه ﴿ النجم الثاقب ﴾ فالنجم هو الكوكب قال الحسن : المراد بالنجم جميع النجوم . وقال ابن زيد : هو زحل .

وقوله ﴿ وما أدراك ﴾ معناه أنه لم تدر حتى أعلمتك ، وكل ما يعلمه الانسان فالله أعلمه بالضرورة أو بالدليـــل . قال قتادة : طروق النجم ظهورها بالليل وخفاؤها بالنهار .

وقوله ﴿ والطارق ﴾ تبيين عن معنى وصفه بالطارق . وقوله ﴿ النجم الثاقب ﴾ تبيين عن ماهيته نفسه يقال : طرقني فلان إذا أتاني ليلا وأصل الطرق الدق ، ومنه المطرقة ، لأنه يدق بها ، والطريق لان المارة تدقه بارجلها ، والطارق لأنه يحتاج إلى الدق للتنبيه . والنجم هو الكوكب الطالع في السماء ، يقال لكل طالع ناجم تشبيهاً به ، ونجم النجم إذا طلع ، وكذلك السن والقرن . ويوصف بالطالع والغارب ، لأنه إذا طلع من المشرق غاب رقيبه من المغرب ، والثاقب المضيء المنير ، وثقوبه توقده وتنوره ، تقول العرب : اثقب نارك أي اشعلها حتى تضيء . وثقب اسانها

بخروج الشعاع منها والثاقب أيضاً العالي الشديد العلو ، تقول : العرب للطائر اذا ارتفع ارتفاعاً شديداً قد ثقب . كله كأنه ثقب الجو الأعلى . وقال مجاهد وقتادة وابن عباس : الثاقب المضيء . وقال ابن زيد : هو العالي وهو زحل .

وقوله ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ جواب القسم و (إن) ههنا المخففة من الثقيلة التي يتلقى بها القسم ، والمعنى إن كل نفس لعليها حافظ - فيمن خفف - ومن شدد قال : (ان) بمعنى (ما) وتقديره ليس كل نفس إلا عليها حافظ . وقال قتادة : حافظ من الملائكة يحفظون عمله ورزقه وأجله . فالحافظ المانع من هلاك الشيء حفظه يحفظه حفظاً واحتفظ به احتفاظاً فأما أحفظه فمعناه أغضبه ، وتحفظ من الامر إذا أمتنع بحفظ نفسه منه وحافظ عليه إذا واظب عليه بالحفظ .

وقوله ﴿ فلينظر الانسان مم خلق ﴾ أمر من الله تعالى للمكلفين من الناس أن يفكروا ويعتبروا مماذا خلقهم الله . ثم بين تعالى مماذا خلقهم فقال ﴿ خلق من ماء دافق ﴾ فالدفق هو صب الماء الكثير باعتماد قوي . ومثله الدفع ، فالماء الذي يكون منه الولد يكون دفقاً وهي النطفة التي يخلق الله منها الولد إنساناً أو غيره ، وماء دافق معناه مدفوق ، ومثله شر كاتم ، وعيشة راضية .

ثم بين ذلك من أي موضع يخرج هذا الماء ، فقال ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ فالصلب هو الظهر ، والترائب جمع تريبة وهو موضع القلادة من صدر المرأة - في قول ابن عباس - وهو مأخوذ من تذليل حركتها كالتراب . قال المثقب .

ومن ذهب يشن إلى تريب   كاون العاج ليس بذي غضون (١)

وقال آخر :

والزعفران على ترائبها   شرقاً به اللبات والنحر (٢)

---

(١) اللسان والتاج (ترب) ومجاز القرآن ٢ / ٢٩٤   (٢) قائله المخبل تفسير القرطبي ٢٠ / ٥

وقيل : إن نطفة الرجل تخرج من ظهره ، ونطفة المرأة من صدرها ، فاذا غلب ماء الرجل خرج الولد إلى شبه أهل بيت أبيه وإذا غلب ماء المرأة خرج إلى شبه أهل بيت أمه .

وقوله ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ قال عكرمة ومجاهد : معناه إنه تعالى على رد الماء فى الصلب قادر . وقال الضحاك : إنه على رد الانسان ماء كما كان قادر ، والرجع الماء وأنشد ابو عبيدة للمنخل فى صفة سيف :

ابيض كالرجع رسوب إذا ما ثاخ فى محتفل يختلي (١)

ومعنى الآية إن الذي ابتدأ الخلق من ماء دافق أخرجه من بين الصلب والترائب حياً قادر على اعادته ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ لان الاعادة أهون من ابتداء النشأة . وقال الحسن وقتادة معناه أنه على رجع الانسان بالاحياء بعد الممات قادر .
وقوله ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ معناه تختبر باظهارها وإظهار موجبها لان الابتلاء والاختبار والاعتبار كله إنما هو باظهار موجب المعنى ، ففي الطاعة الحمد والثواب وفى المعصية الذم والعقاب ، وواحد السرائر سريرة وهي الطوية فى النفس ، وهو اسرار المعنى فى النفس ، وقد يكون الاسرار من واحد بعينه مع إطلاع غيره عليه فلا يكون سريرة . وقيل : إن الله يفضح العاصي بما كان يستر من معاصيه ويجلّ المؤمن باظهار ما كان يسره من طاعته ليكرمه الناس بذلك ويجلوه .

ثم بين تعالى أنه لا قدرة لهذا الانسان الذي يعيده الله ـ على معاصيه ـ ويعاقبه على دفع ذلك عن نفسه ولا ناصر له يدفعه . فالقدرة هي القوة بعينها .

---

(١) تفسير القرطبي ٢٠ | ١٠

قولـه تعـالى :

﴿ وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ (١١) وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (١٥) وَأَكِيدُ كَيْداً (١٦) فَمَهِّلِ ٱلْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ (١٧) سبع آيات .

هذا قسم من الله تعالى بالسماء ذات الرجع . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : ذات المطر . وقال ابن زيد : يعني شمسها وقمرها ونجومها تغيب ثم تطلع . وقيل : رجع السماء إعطاؤها الخير يكون من جهتها حالا بعد حال على مرور الازمان رجعه يرجعه رجعاً إذا أعطاه مرة بعد مرة . وقيل : الرجع الماء الكثير تردده بالرياح التي تمر عليه قال المنخل في صفة سيف :

أبيض كالرجع رسوب إذا ما ثاخ في محتفل يختلي .

وقال الفراء : تبتدىء بالمطر ثم ترجع به في كل عام . وقوله ﴿ والارض ذات الصدع ﴾ قسم آخر بالأرض ذات الصدع . وقال ابن عباس وقتادة والضحاك وابن زيد : ذات الصدع انشقاقها بالنبات لضروب الزروع والاشجار : صدع يصدع صدعاً وتصدع الشيء تصدعاً وانصدع إنصداعاً وصدعه تصديعاً .

﴿ وقوله إنه لقول فصل ﴾ جواب القسم ، ومعناه ان ما ذكره من اعادة الخلق وإنشائهم النشأة الثانية قول فصل أي هو قول يفصل الحق من الباطل . ومثله فصل القضاء ، وكل معنى فانه يحتاج فيه إلى فصل حقه من باطله . ثم قال ﴿ وما هو بالهزل ﴾ أي مع أنه فصل ليس بهزل والهزل نقيض الجد ومثله اللهو واللعب والعبث

يقال : هزل يهزل هزلا .

ثم اخبر تعالى عن الكفار فقال ﴿إنهم يكيدون كيداً﴾ أي يحتالون في رفع الحجج وإنكار الآيات ويفعلون ما يوجب الغيظ يقال : كاده يكيده كيداً وكايده مكايدة وتكايد القوم تكايداً أي يحتالون في رفع الحجج وإنكار الآيات ، فقال تعالى ﴿وأكيد كيداً﴾ أي أجازيهم على كيدهم ، وسمي الجزاء على الكيد باسمه لازدواج الكلام . وقيل : المعنى أنهم يحتالون لهلاك النبي وأصحابه ، وأنا أسبب لهم النصر والغلبة وأقوي دواعيهم إلى القتال ، فسمى ذلك كيداً من حيث يخفى عليهم ذلك .

وقوله ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ خطاب للنبي ﷺ بأن يمهلهم قليلا وأجرى المصدر على غير لفظه كما قال ﴿أنبتكم من الارض نباتاً﴾(١) و ﴿رويداً﴾ معناه إمهالا يقال : أرودته ارواداً وتصغيره رويد . وقال قتادة : معناه قليلا ، والمعنى لا تعجل على طلب هلاكهم بل اصبر عليهم قليلا ، فان الله يهلكهم لا محالة بالقتل والذل في الدنيا وماينزل عليهم في الآخرة من أنواع العقاب ، وإن ماوعدتك لا يبعد عنهم .

---

(١) سورة ٧١ نوح آية ١٧

٨٧ ـ سورة الاعلى

مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك هي مدنية ، وهي تسع
عشرة آية بلا خلاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ (١٠) عشر آيات .

قرأ الكسائي وحده ﴿ قدر فهدى ﴾ خفيفاً . الباقون بالتشديد وهما لغتان على ما فسرناه فيما مضى .

هذا امر من الله تعالى للنبي ﷺ ويدخل في ذلك جميع امته يأمرهم بأن يسبحوا الله ، ومعناه ان ينزهوه عن كل ما لا يليق به من الصفات المذمومة والافعال القبيحة والاخلال بالواجبات ، لان التسبيح هو التنزيه لله عما لا يجوز عليه كوصفه بأنه لا إله إلا هو ، فينفي ما لا يجوز في صفته من شريك في عبادته مع الاقرار بأنه

لا إله إلا هو وحده . وقال ابن عباس وقتادة : معنا ﴿ سبح ... ﴾ قل سبحان ربي الأعلى ، وروي أنه لما نزلت هذه السورة قال النبي ﷺ ضعوا هذا في سجودكم وقيل : معناه أن نزه إسم ربك بأن لا تسمي به سواه . وقيل : معناه نزه ربك عما يصفه به المشركون وأراد بالاسم المسمى ، وقيل معناه صل باسم ربك الأعلى . وقيل : ذكر الاسم والمراد به تعظيم المسمى ، كما قال الشاعر :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر (١)

والاعلى معناه القادر الذي لا قادر أقدر منه . وصفة الأعلى منقولة إلى معنى الاقدر حتى لو بطل معنى علو المكان لم يبطل أن يفهم بحقيقتها او هي غير مضمنة بغيرها ولم ينقل إلى صفة الارفع وإنما يعرف في رفعة المكان .

وقوله ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ نعت لقوله ﴿ ربك ﴾ وموضعه الجر ومعناه الذي خلق الخلق فسوى بينهم في باب الاحكام . وقيل : معنا فسوى أي عدل خلقهم ، فالتسوية الجمع بين الشيئين بما هما فيه ﴿ والذي قدر فهدى ﴾ فالتقدير تنزيل الشيء على مقدار غيره ، فالله تعالى خلق الخلق وقدرهم على ما اقتضته الحكمة ﴿ فهدى ﴾ معناه أرشدهم إلى طريق الرشد من الغي ، وهدى كل حيوان إلى مافيه منفعته ومضرته حتى انه تعالى هدى الطفل إلى ثدي أمه وميزه من غيره ، واعطى الفرخ حتى طلب الرزق من أبيه وأمه . والعصفور على صغره يطلب مثل ذلك بهداية الله تعالى له إلى ذلك ﴿ والذي اخرج المرعى ﴾ معناه الذي أنبت الحشيش من الارض لمنافع جميع الحيوان ﴿ فجعله غثاء أحوى ﴾ فالغثاء ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشيش والنبات . والاحوى الأسود، والحوة السوداء قال ذو الرمة:

(١) مر في ٥/٥٦٩

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شنب (١)

وقيل : أحوى معناه يضرب إلى السواد وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير وتقديره الذي أخرج المرعى أحوى ، فجعله غثاء ،وقيل : الغثاء الهشيم اليابس المتفتت اسود من احتراقه بعد خضرته ونعمته ، قال ذو الرمة :

فرخاء حواء أشراطية وكفت فيها الذهاب وحفتها البراعيم (٢)

وقوله ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ معناه سنأخذ عليك قراءة القرآن ، فلا تنسى ذلك ، فالاقراء اخذ القراءة على القاري بالاستماع لتقويم الزلل ، والقراءة التلاوة والقاري التالي ، والنسيان ذهاب المعنى عن النفس بعد ان كان حاضراً لها ، ونقيضه الذكر ، ومثله السهو ، يقال : نسي ينسى نسياناً فهو ناس ، والشيء منسي ، والتذكير لما نسي والتنبيه لما غفل . وقيل ﴿ فلا تنسى إلا ما شاء الله ﴾ أي ما شاء نسيانه مما لا يكلمك القيام بأدائه ، لان التكليف مضمن بالذكر . وقيل : إلا ما شاء الله كالاستثناء في الأيمان ، وإن لم يقع مشيئة النسيان وقيل : معناه إلا ما شاء الله أن يؤخر انزاله . وقال الفراء : لم يشأ الله أن ينسى شيئاً فهو كقوله ﴿ خالدين فيها مادامت السموات والارض إلا ما شاء ربك ﴾ ولا يشاء . ويقول القائل : لأعطينك كل ما سألت إلا ما شئت وإلا أن اشاء أن امنعك ، والنية الايمنعه ، ومثله الاستثناء في الأيمان .

وقوله ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ معناه إن الله تعالى يعلم السر والعلانية ، فالجهر رفع الصوت ونقيضه الهمس ، وهو ضعف الصوت أي يحفظ عليك ما جهرت به وما أخفيته مما تريد أن تعيه ، جهر بالقراءة يجهر جهراً . ومنه قوله « ولا تجهر

(١) مر في ١ / ١٥ و ٥ \ ٣٠٨

(٢) اللسان والصحاح والتاج (ذهب ، برعم)

بصلاتك ولا تخافت بها » (١) .

قوله « ونيسرك لليسرى» أي نسهل لك العمل المؤدي الى الجنة فاليسرى عبارة عن الجنة هنا ، واليسرى الكبرى في تسهيل الخير بها واليسرى الفعلى من اليسر ، وهو سهولة عمل الخير . وقوله « فذكر » أمر للنبي ﷺ أن يذكر الخلق ويعظهم « إن نفعت الذكرى » وإنما قال ذلك ، وهي تنفع لا محالة في عمل الايمان والامتناع من العصيان ، كما يقال : سله إن نفع السؤال أي فيما يجوز عندك ، وقيل : معناه ذكرهم ما بعثتك به قبلوا أولم يقبلوا ، فان إزاحة علتهم تقتضي اعلامهم وتذكيرهم وإن لم يقبلوا . وقوله « سيذكر من يخشى » معناه سيتعظ وينتفع بدعائك وذكرك من يخاف الله ويخشى عقابه لان من لا يخافه لا ينتفع بها .

قوله تعالى :

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى (١١) ٱلَّذِي يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (١٦) وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (١٩) تسع آيات.

قرأ ابو عمرو وحمزة « بل يؤثرون » بالياء على الخبر عن الغائب . الباقون بالتاء على الخطاب المواجهين ، وأدغم اللام في التاء حمزة والكسائي إلا قتيبة والحلواني عن هشام في كل موضع .

لما أمر الله تعالى النبي ﷺ بالتذكرة وبين انه ينتفع بها من يخاف عقابه

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ١١٠

ذكر - ههنا - أنه يتجنبها أي يتجنب الذكرى الاشقى ، فالتجنب المصير في جانب عن الشيء بما ينافي كونه ، فهذا الشقي تجنب الذكرى بأن صار بمعزل عنها بما ينافي كونها ، فالشقوة حالة تؤدي إلى شدة العقاب ونقيضها السعادة ، شقي يشقى شقوة وشقاء وأشقاه الله يشقيه اشقاء عاقبه عقاباً بكفره وسوء عمله .

ثم بين أن هذا الشقي هو « الذي يصلى النار الكبرى » يعني نار جهنم، ووصفها بالكبرى لان الحاجة إلى اتقائها أشد وذلك من كبر الشأن إذ الكبير الشأن هو المختص بشدة الحاجة اليه أولى باتقائه ، فكلما كان أكبر شأناً فالحاجة اليه أشد . وقال الحسن : النار الكبرى نار جهنم ، والنار الصغرى نار الدنيا ، وقال الفراء : النار الكبرى التي في الطبقة السفلى من جهنم .

وقوله « ثم لا يموت فيها ولا يحيي » معناه إن هذا الشقي لا يموت في النار فيتخلص من العذاب ، ولا يحيي حياة له فيها لذة ، بل هو في ألوان العذاب وفنون العقاب . وقيل : لا يجد روح الحياة . وقوله « قد أفلح من تزكى » معناه قد فاز من تزكى يعني صار زاكياً بأن عمل الطاعات - في قول ابن عباس والحسن - وقال ابو الاحوص وقتادة : يعني من زكى ماله « وذكر اسم ربه » على كل حال « وصلى » على ما أمره الله به . ثم خاطب الخلق فقال « بل تؤثرون الحياة الدنيا » أي تختارون الحياة الدنيا على الآخرة بأن تعملوا للدنيا ولا تعملوا للاخرة ، وذلك على وجهين : احدهما - يجوز الرخصة . والآخر محظور معصية لله .

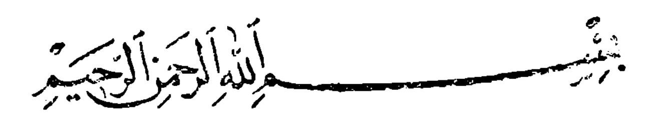
ثم قال تعالى « والآخرة خير وأبقى » أي منافع الآخرة من الثواب وغيره خير من منافع الدنيا وأبقى ، لانها باقية وهذه فانية منقطعة .

وقوله « إن هذا لفي الصحف الاولى صحف إبراهيم وموسى » يعني ماذكره الله وفصله من حكم المؤمن والكافر وما أعد الله لكل واحد من الفريقين مذكور في

كتب الأولين فى الصحف المنزلة على إبراهيم والتوراة المنزلة على موسى . وقيل من قوله « قد أفلح من تزكى » إلى آخر السورة هو المذكور فيها ، وقيل « من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » فهو ممدوح فى الصحف الأولى ، كما هو ممدوح فى القرآن . وقيل : كتب الله كلها أنزلت فى شهر رمضان فأما القرآن فانه أنزل لاربع عشرة منه . وفى ذلك دلالة على أن إبراهيم كان قد أنزل عليه كتاب بخلاف قول من ينكر نبوته ويزعم أنه لم ينزل عليه كتاب ، ولا يكون نبي إلا ومعه كتاب ، حكي ذلك عن النصارى أنهم قالوا : لم يكن ابراهيم نبياً ، وإنما كان رجلا صالحاً .

٨٨ ـ سورة الغاشية

مكية فى قول ابن عباس والضحاك ، وهي ست وعشرون آية بلا خلاف



﴿ هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ (١٠)

عشر آيات .

قرأ اهل البصرة وأبو بكر عن عاصم « تصلى » بضم التاء على مالم يسم فاعله يعني تصلى الوجوه « ناراً حامية » الباقون بفتح التاء على أن تكون الوجوه هي الفاعلة

هذا خطاب من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله يقول له هل أتاك يا محمد ومعناه قد أتاك « حديث الغاشية » قال ابن عباس والحسن وقتادة : الغاشية يوم القيامة تغشى الناس بالاهوال . وقال سعيد بن جبير : الغاشية النار تغشى وجوه الكفار بالعذاب والشواظ . والغاشية المجللة لجميع الجملة ، غشيت تغشى غشياناً فهي غاشية ، وأغشاها غيرها إغشاء إذا جملها تغشي . وغشاها تغشية ، وتغشى بها تغشياً .

وقوله « وجوه يومئذ خاشعة » معناه إن وجوه العصاة والكفار في ذلك ذليلة خاضعة من ذل المعاصي التي فعلتها في دار الدنيا . والمراد بالوجوه أصحاب الوجوه وإنما ذكر الوجوه ، لأن الذل والخضوع يظهر فيها .

وقوله « عاملة ناصبة » قال الحسن وقتادة : معناه لم تعمل لله في الدنيا ، فاعملها في النار . وقال قوم : معناه عاملة ناصبة في دار الدنيا بما يؤديها إلى النار ، وهو مما اتصلت صفتهم في الدنيا بصفتهم في الآخرة . ومعنى الناصبة والنصبة التعبة وهي التي اضعفها الانتصاب للعمل يقال : نصب الرجل ينصب نصباً إذا تعب في العمل

ثم بين تعالى ما يعمل بمن وصفه من ذوي الوجوه ، فقال « تصلى ناراً حامية » أي تلزم الاحراق بالنار الحامية التي في غاية الحرارة و « تسقى » أيضاً « من عين آنية » قال ابن عباس وقتادة : آنية بالغة النهاية في شدة الحر .

وقوله « ليس لهم طعام الا من ضريع » فالضريع نبات تأكله الابل يضر ولا ينفع كما وصفه الله « لا يسمن ولا يغني من جوع » وإنما يشتبه الامر عليهم فيتوهموا انه كغيره من النبت الذي ينفع ، لأن المضارعة المشابهة . ومنه أخذ الضرع وقيل : الضريع الشرق . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة . هو سم . وقال الحسن:

لا أدري ما الضريع لم أسمع من اصحاب محمد ﷺ فيه شيئاً . وقال قوم : ضريع بمعنى مضرع أي يضرعهم ويذلهم . وقيل : من ضريع يضرع آكله في الاعفاء منه لخشونته وشدة كراهته .

ثم بين وجوه المطيعين المؤمنين الذين عملوا الطاعات فقال « وجوه يومئذ ناعمة » أي منعمة في أنواع اللذات « لسعيها راضية » بما أداها اليه من الثواب والجزاء والكرامة جزاء لطاعاته التي عملها في الدنيا . وقوله « في جنة عالية » أي في بستان أجنه الشجر على الشرف والجلالة وعلو المكان والمنزلة ، بمعنى أنها مشرفة على غيرها من البساتين وهي انزه ما يكون .

قولــه تعــالى :

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٠) عشر آيات .

قرأ « لا يسمع » بالياء المضمومة « فيها لاغية » رفعاً على ما لم يسم فاعله لان التأنيث ليس بحقيقي وقد فصل بينهما بـ(فيها) ابن كثير وأبو عمرو وريس . وقرأ نافع وحده « لا تسمع » بالتاء مضمومة « لاغية » مرفوعة ، لان اللفظ لفظ التأنيث . الباقون بفتح التاء على الخطاب « لاغية » منصوبة ، لانها مفعول بها .

لما ذكر الله تعالى ان المؤمنين يحصلون في جنة عالية في الشرف والمكان

بين انه « لا يسمع فيها » في تلك الجنة « لاغية » وهي كلمة لا فائدة فيها قال الشاعر:

عن اللغا ورفث التكلم (١)

واللغو واللغا بمنزلة واحدة ، ولغى يلغي ، ولغا يلغو ، والغاه الغاء . وقيل « لاغية » بمعنى ذات لغو ، كقولهم نابل ودارع أي ذو نبل ودرع ، وتامر ذو تمر قال الحطيئة:

وغررتني وزعمت إنك لابن بالصيف تامر (٢)

وقيل : إنها المصدر مثل العاقبة . ويجوز أن يكون نعتاً ، وتقديره لا يسمع فيها كلمة لاغية والأول أصح ، لقوله « لا لغو فيها ولا تأثيم » (٣) وإنما نفى اللاغية عن الجنة ، لان في سماع ما لا فائدة فيه ثقلا على النفس . ثم بين أن فيها أيضاً أي في تلك الجنة عيناً من الماء جارية ، لان في العين الجارية متعة ليس في الواقف . وقوله « فيها سرر مرفوعة » ليرى المؤمن بجلوسه عليها جميع ما حوله من الملك . وقوله « واكواب موضوعة » أي على حافة العين الجارية ، كلما أراد شربها وجدها مملوءة ، فالاكواب جمع كوب ، وهي الأباريق التي ليس لها خراطيم ، فهي للشراب من الذهب والفضة والجوهر يتمتعون بالنظر اليها بين أيديهم ويشربون بها ما يشتهون من لذيذ الشراب ، وهي كأفخر الاكواز التي توضع بين يدي الملوك . وقيل : الاكواب كالأباريق لا عرى لها ولا خراطيم وهي آنية تتخذ للشراب فاخرة حسنة الصورة . وقوله « ونمارق مصفوفة » قال قتادة : النمارق الوسائد واحدها نمرقة وهي الوسادة ، وهي تصلح للراحة ورفع المنزلة . وقوله « وزرابي مبثوثة » فالزرابي البسط الفاخرة واحدها زربية . وقيل قد سمع (نمرقة) بضم النون والراء وكسرها

---

(١) مر في ٢ / ١٣٢ ، ١٦٤ ، ٢٣٠ و ٧ / ٣٨ و ٨ / ١٩٣ و ٩ / ١٢٠

(٢) مر في ٨ / ٤٦٨ (٣) سورة ٥٢ الطور آية ٢٣

ثم نبه تعالى على الادلة التي يستدل بها على توحيده ووجوب إخلاص العبادة له فقال ﴿ أفلا ينظرون ﴾ أي أفلا يتفكرون بنظرهم ﴿ إلى الابل كيف خلقت ﴾ ويعتبرون بما خلقه الله عليه من عجيب الخلق ، ومع عظمه وقوته يذلله الصبي الصغير فينقاد له بتسخير الله ويبركه ويحمل عليه ثم يقوم ، وليس ذلك في شيء من الحيوان ، بتسخير الله لعباده ونعمته به على خلقه ﴿ وإلى السماء ﴾ أى وينظرون إلى السماء ﴿ كيف رفعت ﴾ رفعها فوق الارض وجعل بينهما هـــذا الفضاء الذي به قوام الخلق وحياتهم . ثم ما خلقه فيه من عجائب الخلق من النجوم والشمس والقمر والليل والنهار الذى بجميع ذلك ينتفع الخلق وبه يتم عيشهم ونفعهم «والى الجبال كيف نصبت ﴾ أي ويفكرون في خلق الله تعالى الجبال اوتاد الارض ومسكه لها ولولاها لمادت الارض بأهلها ، ولما صح من الخلق التصرف عليها ﴿ وإلى الارض كيف سطحت ﴾ أى وينظرون إلى الارض كيف بسطها الله وسطحها ووسعها ولولا ذلك لما صح الانتفاع بها والاستقرار عليها ، وهذه نعم من الله تعالى على خلقه لا يوازيها نعمة منعم ، ولا يقاربها إحسان محسن فيجب أن يقابل ذلك باعظم الشكر .

قولـــه تعـــالى :

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ (٢٦) ست آيات .

قرأ ابو عمرو والكسائي بمسيطر بالسين باختلاف عنهما . الباقون بالصاد إلا حمزة ، فانه اشم الصاد زايًا .

لما بين الله تعالى الدلالة على وحدانيته ونبه على الاستدلال بها ، قال لنبيه محمد ﷺ ﴿ فذكر ﴾ يا محمد ﴿ إنما أنت مذكر ﴾ فالتذكير التعريف للذكر بالبيان الذي يقع به الفهم ، والنفع بالتذكير عظيم ، لأنه طريق للعلم بالامور التي نحتاج اليها وملين القلب للعمل بها ، ومذكر يعني بنعم الله تعالى عندهم وما يجب عليهم فى مقابلتها من الشكر والعبادة فقد أوضح الله تعالى طريق الحجج فى الدين وأكده غاية التأكيد بما لا يسع فيه التقليد بقوله ﴿ إنما أنت مذكر ﴾ وقوله ﴿ وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ (١) وقوله ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ (٢) و ﴿ آية لقوم يتفكرون ﴾ (٣) و ﴿ آية لقوم يذكرون ﴾ (٤) و ﴿ لآيات لأولى الالباب ﴾ (٥) وقوله ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (٦) وقوله ﴿ وجادلهم بالتى هي احسن ﴾ (٧) ومحاجة إبراهيم ﷺ للكافر بربه (٨) وقوله ﴿ فاعتبروا يا اولى الابصار ﴾ (٩) وقوله ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها ﴾ (١٠) .

وقوله ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ فالمسيطر المسلط على غيره بالقهر له يقال تسيطر فلان على فلان ، وسيطر إذا تسلط ، وعلى وزن مسيطر مبيطر . قال ابو عبيدة : لا ثالث لهما من كلام العرب ، وقيل : كان هذا قبل فرض الجهاد ، ثم نسخ ،

---

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ٥٥　　(٢) سورة ١٦ النحل آية ٦٧
(٣) سورة ١٦ النحل آية ١١ ، ٦٩　　(٤) سورة ١٦ النحل آية ١٣
(٥) سورة ٣ آل عمران آية ١٩٠
(٦) سورة ٢ البقرة آية ١١١ وسورة ٢٧ النمل آية ٦٤
(٧) سورة ١٦ النحل آية ١٢٥
(٨) انظر ٢ / ٣١٦ من هذا الكتاب
(٩) سورة ٥٩ الحشر آية ٢　　(١٠) سورة ٤٧ محمد آية ٢٤

ويجوز أن يكون غير منسوخ ، لان الجهاد ليس باكراه القلوب .

وقوله ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ قيل في هذا الاستثناء قولان :

احدهما ـ انه منقطع وتقديره ، لكن من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الاكبر

الثاني ـ إلا من تولى فانك مسلط عليه بالجهاد ، فالله يعذبه العذاب الاكبر .

وقال الحسن المعنى : إلا من تولى وكفر ، فكله إلى الله . وقيل معناه إلا من تولى وكفر فلست له بمذكر ، لأنه لا يقبل منك ، فكذلك لست تذكره .

وقوله ﴿ إن الينا إيابهم ﴾ فالاياب الرجوع ، آب يؤب أوباً وإياباً وتأوب تأوباً وأوب يؤوب تأويباً ، ويقال : أيب إياباً على (فيعل ، فيعالا) من الأوب وعلى هذا قرىء في الشواذ ﴿ أيابهم ﴾ بالتشديد ، قال عبيد :

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب (١)

والمعنى ان مرجع الخلق يوم القيامة إلى الله فيحاسبهم ويجازي كل واحد منهم على قدر عمله ، فحساب الكفار مقدار مالهم وعليهم من استحقاق العقاب ، وحساب المؤمن بيان ما له وعليه حتى يظهر استحقاق الثواب .

---

(١) مر في ٦ / ٤٦٨

٨٩ سورة الفجر

مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك هي مدنية وهي ثلاثون آية في الكوفي وتسع وعشرون في البصري واثنتان وثلاثون في المدنيين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (١٤) أربع عشرة آية

قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ والوتر ﴾ بكسر الواو . الباقون بفتحها وهما لغتان . قال ابو عبيدة : الشفع الزكا والوتر الخسا . وقرأ نافع وابو عمرو ﴿ يسري ﴾ بياء في الوصل دون الوقف . وقرأ ابن كثير بياء في الوصل والوقف ، وكذلك ﴿ بالوادي ﴾ الباقون بغير ياء في وصل ولا وقف . من أثبت الياء ، فلأنها الأصل ومن حذفها ، فلأنها رأس آية والفواصل تحذف منها الياآت .

هذا قسم من الله تعالى بالفجر وليال عشر ، وقسم منه بالشفع والوتر والليل إذا يسري ، وجواب القسم قوله ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ و ﴿ الفجر ﴾ شق عمود الصبح فجره الله لعباده يفجره فجراً إذا أظهره في أفق المشرق مبشراً بادبار الليل المظلم وإقبال النهار المضيء ، والفجر فجران : احدهما المستطيل ، وهو الذي يصعد طولا كذنب السرحان ولا حكم له في الشرع ، والآخر هو المستطير ، وهو الذي ينتشر في افق السماء ، وهو الذي يحرم عنده الأكل والشرب لمن أراد الصوم في شهر رمضان ، وهو ابتداء اليوم . وقال عكرمة والحسن : الفجر فجر الصبح .

وقوله ﴿ وليال عشر ﴾ قال ابن عباس والحسن وعبد الله بن الزبير ومجاهد ومسروق والضحاك وابن زيد : وهي العشر الأول من ذي الحجة شرفها الله تعالى ليسارع الناس فيها إلى عمل الخير واتقاء الشر على طاعة الله في تعظيم ما عظم وتصغير ما صغره ، وينالون بحسن الطاعة الجزاء بالجنة . وقال قوم : هي العشر من أول محرم . والاول هو المعتمد .

وقوله ﴿ والشفع والوتر ﴾ قال ابن عباس وكثير من أهل العلم : الشفع الخلق بما له من الشكل والمثل ، والوتر الخالق الفرد الذي لا مثل له . وقال الحسن : الشفع الزوج ، والوتر الفرد من العدد ، كأنه تنبيه على ما في العدد من العبرة بما يضبط لأنه من المقادير التي يقع بها التعديل . وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك : الشفع يوم النحر ، والوتر يوم عرفه ، ووجه ذلك أن يوم النحر مشفع بيوم نحر بعده ، وينفرد يوم عرفه بالموقف وفي رواية أخرى عن ابن عباس ومجاهد ومسروق وابي صالح : أن الشفع الخلق ، والوتر الله تعالى . وقال ابن زيد : الشفع والوتر كله من الخلق . فقال عمران بن حصين : الصلاة فيها شفع وفيها وتر ، وقال ابن الزبير : الشفع : اليومان الأولان من يوم النحر والوتر اليوم الثالث . وفي رواية أخرى عن ابن

عباس : الوتر آدم والشفع زوجته . قال ابو عبيدة : يقال أوترت ووترت .

وقوله ﴿ والليل إذا يسري ﴾ معناه يسير ظلاماً حتى ينقضي بالضياء المبتدىء ففي تسييره على المقادير المرتبة . ومجيئه بالضياء عند تقضيه في الفصول أدل دليل على أن فاعله يختص بالعز والاقتدار الذي يجل عن الأشباه والامثال .

وقوله ﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ أى لذي عقل - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن - وقيل العقل الحجر ، لانه يعقل عن القبحات ويزجر عن فعلها ، يقال : حجر يحجر حجراً إذا منع من الشيء بالتضييق ، ومنه حجر الرجل الذي يحجر على ما فيه ، ومنه الحجر لامتناعه بصلابته .

وقوله ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ﴾ خطاب من الله تعالى للنبي صلى الله عليه وآله ، وتنبيه للكفار على ما فعل بالامم الماضية لما كفروا بوحدانية الله ، واعلام لهم كيفية إهلاكهم . وقيل : عاد الأولى عاد ابن آرم . وقيل : إن (إرم) بلد منه الاسكندرية - في قول القرطي - وقال المعري : هو دمشق . وقال مجاهد : هم أمة من الامم . وقال قتادة : هم قبيلة من عاد . وقوله ﴿ ذات العماد ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : ذات الطول من قولهم : رجل معمد إذا كان طويلا . وقيل ذات عمد للابيات ينتقلون من مكان إلى مكان ، الانتجاع - ذكره قتادة - وقال ابن زيد : ذات العماد في إحكام البنيان . وقال الضحاك : معناه ذات القوى الشداد . وقال الحسن : العماد الابنية العظام . وقيل : ان (ارم)هو سام بن نوح ، وترك صرفه لأنه أعجمي معرفة .

وقوله ﴿ التى لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ يعني في عظم أجسامهم وشدة قوتهم

وقوله ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالوادي ﴾ موضع (ثمود) جر بالعطف على قوله ﴿ بعاد ﴾ أى وثمود ولم يجره لانه أعجمي معرفة ، ومعنى ﴿ جابوا الصخر ﴾ أى

قطعوا الصخر من الجبال بشدة قوتهم ، يقال : جاب يجوب إذا قطع قال النابغة :

اتاك ابو ليلى يجوب به الدجى   دجى الليل جواب الفلاة غشمشم

قال مجاهـــد : قطعوا الجبال بيوتاً كما قال ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ (١) وقوله ﴿ وفرعون ذي الاوتاد ﴾ قال ابن عباس : معناه ذي الجنود الذين كانوا يشدون أمره . وقال مجاهد : كان يوتد الأوتاد في ايدي الناس . وقال قتادة : ملاعب كان يلعب له فيها . ويضرب تحتها بالاوتاد . وقيل : ذي الاوتاد لكثرة الاوتاد التي كانوا يتخذونها للمضارب ولكثرة جموعهم ، وكان فيهم أكثر منه في غيرهم . وقيل : إن فرعون كان إذا غضب على الرجل مده بين أربعة أوتاد حتى يموت .

وقوله ﴿ الذين طغوا في البلاد ﴾ معناه إن هؤلاء الذين ذكرناهم تجاوزوا في الظلم الحد في البلاد ، وخرجوا عن حد القلة وفسر ذلك بقوله ﴿ فاكثروا فيها الفساد ﴾ يعني اكثروا في البلاد الفساد ، ثم بين ما فعل بهم عاجلا فقال ﴿ فصب عليهم ربك ﴾ يا محمد ﷺ ﴿ سوط عذاب ﴾ أي قسط عذاب كالعذاب بالسوط الذي يعرف إلا أنه اعظم ، ويجوز أن يكون عنى قسط عذاب يخالط اللحوم والدماء كما يخالط بالسوط من قولهم : ساطه يسوطه سوطاً فهو سائط قال الشاعر :

أحارث إنا لو تساط دماؤنا   تزايلن حتى لا يمس دم دما (٢)

وقيل : المعنى إنه جعل سوطه الذي ضربهم به انه صب عليهم العذاب . وقوله ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ معناه إن ربك يا محمد لا يفوته شيء من اعمال العباد كما لا يفوت من بالمرصاد . والمرصاد مفعال من رصده يرصده رصداً ، فهو راصد إذا راعى ما يكون منه ليقابله بما يقتضيه . وقيل لأمير المؤمنين عليه السلام اين كان ربنا قبل

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٤٩ (٢) تفسير الشوكاني ٥ / ٤٢٤

أن يخلق السموات والارض ؟ فقال : (أين) سؤال عن مكان ، وكان الله ولا مكان . وقيل لاعرابي : أين ربك يا اعرابي ؟ ! قال بالمرصاد . وقال ابن عباس معناه إنه يسمع ويرى أعمال العباد . وقال الحسن والضحاك : انا بالمرصاد بانصاف المظلوم من الظالم ، ومعناه لا يجوزه ظلم ظالم حتى ينصف المظلوم منه .

قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ (٣٠)

ست عشرة آية .

قرأ ابن عامر وابو جعفر ﴿ فقدر ﴾ مشدد الدال . وقرأ ابو عمرو واهل

البصرة ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث ﴾ ثلاثتهن بالياء. الباقون ثلاثتهن بالتاء. والاول على وجه الخبر عن الذين تقدم ذكرهم من الكفار. والثاني على وجه الخطاب، وتقديره قل لهم يا محمد ﷺ. وقرأ أهل الكوفة ﴿ تحاضون ﴾ بالتاء والالف. الباقون بغير الف والياء فى جميع ذلك مفتوحة يقال: حضضته وحثثته و ﴿ تحاضون ﴾ مثل فاعلته، وفعلته إلا أن المفاعلة بين إثنين فأكثر وقرأ الكسائي ويعقوب ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ على ما لم يسم فاعله. والفعل مسند إلى (أحد)، والمعنى لا يعذب عذابه أحد فداء له من العذاب، لانه المستحق له، فلا يؤخذ بذنب غيره. الباقون بكسر الذال ﴿ ولا يوثق ﴾ بكسر الثاء وتأويله لا يعذب عذاب الله أحد، ولا يوثق وثاقه احد وهو قول الحسن وقتادة.

لما توعد الله تعالى الكفار وجميع العصاة بما قدمه من الوعيد على المعاصي وأخبرهم بما فعل بالامم الماضية جزاء على كفرهم. وحكى أنه لبالمرصاد لكل عاص قسم أحوال الخلق من البشر، فقال ﴿ فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه ﴾ أى اختبره والابتلاء هو إظهار ما في العبد من خير أو شر من الشدة والرخاء والغنى والفقر حسب ما تقتضيه المصلحة، فان عمل بداعي العقل ظهر الخير، وإن عمل بداعي الطبع ظهر الشر. ومثل الابتلاء الامتحان والاختبار.

وقوله ﴿ فاكرمه ونعمه ﴾ معناه أعطاه الخير وأنعم عليه به، والاكرام إعطاء الخير للنفع به على ما تقتضيه الحكمة إلا أنه كثر فيما يستحق بالاحسان، ونقيض الاكرام الهوان ﴿ فيقول ﴾ العبد عند ذلك ﴿ ربي أكرمني ﴾ أي أنعم علي وأحسن الي. ومن أثبت الياء، فلأنها الأصل ومن حذفها فلأنها رأس آية. واجتزأ بكسرة النون الدالة على حذفها.

ثم قال ﴿ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ﴾ أي اختبره بعد ذلك بأن يضيق عليه رزقه قدر البلغة والاصل القدر ، وهو كون الشيء على مقدار ، ومنه تقدير الشيء طلب قدره من مقدار غيره ﴿ فيقول ﴾ العبد عند ذلك ﴿ ربي اهانني ﴾ فقال الله تعالى رداً لتوهم من ظن أن الاكرام بالغنى والاهانة بالفقر بأن قال ﴿ كلا ﴾ ليس الامر على ما توهمه . وإنما الاكرام في الحقيقة بالطاعة ، والاهانة بالمعصية ، وقوله ﴿ كلا ﴾ معناه ليس الأمر على ما ظن هذا الانسان الكافر الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر - ذكره قتادة - ثم بين ما يستحق به الهوان بقوله ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين ﴾ أي الهوان لهذا ، لا لما توهمتم ، تقول : حضضته بمعنى حثثته و ﴿ تحاضون ﴾ بمعنى تحضون فاعلته وفعلته إلا أن المفاعلة بين اثنين فأكثر . وقال الفراء : لاتحاضون بمعنى لا تحافظون ، واصله تتحاضون ، فحذف إحدى التائين .

وقوله ﴿ وتأكلون التراث أكلا لما ﴾ أي جمعاً ، يقال لممت ما على الخوان ألمه لماً إذا أكلته اجمع ، والتراث الميراث وقيل : هو من يأكل نصيبه ونصيب صاحبه . وقوله ﴿ وتحبون المال حباً جماً ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد : معناه كثيراً شديداً يقال : جم الماء في الحوض إذا اجتمع وكثر قال زهير :

فلما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصي الحاضر المتخيم(١)

وقوله ﴿ كلا إذا دكت الارض دكاً دكاً ﴾ معناه التهديد والوعيد الشديد أي حقاً إذا دكت الارض بأن جعلت مثل الدكة مستوية لا خلل فيها ولا تلول ، كما قال ﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ (٢) وهو يوم القيامة ، فالدك حط المرتفع بالبسط ، يقال اندك سنام البعير إذا انفرش في ظهره وناقة دكاء إذا كانت كذلك ، ومنه الدكان لاستوائه فكذلك

(١) مر في ٧ / ١٤٣ (٢) سورة ٢٠ طه آية ١٠٧

الارض إذا دكت استوت في فراشها فذهبت دورها ، وقصورها وسائر أبنيتها حتى تصير كالصحراء الملساء بها . قال ابن عباس : يوم القيامة تمد الارض مداً كالأديم ،

وقوله ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ معناه وجاء أمر الله أو عذاب الله وقيل : معناه وجاء جلائل آياته ، فجعل مجيء جلائل الآيات مجيئاً له تفخيماً لشأنها وقال الحسن : معناه وجاء قضاء الله ، كما يقول القائل : جاءتنا الروم أي سيرتهم . وقال بعضهم: معنى (جاء) ظهر بضرورة المعرفة ، كما توصف الآية إذا وقعت ضرورة تقوم مقام الرؤية .

وقوله ﴿ والملك صفاً صفاً ﴾ معناه كصفوف الناس فى الصلاة يأتي الصف الاول ثم الصف الثاني ثم الثالث على هذا الترتيب ، لان ذلك أشكل بحال الاستواء من التشويش والتخليط بالتعديل فى الامور ، والتقويم أولى .

وقوله ﴿ وجيء يومئذ بجهنم ﴾ أي احضرت جهنم ليعاقب بها المستحقون لها ويرى أهل الموقف هو لها ، وعظم منظرها . وقوله ﴿ يتذكر الانسان ﴾ اخبار منه تعالى بأن الانسان يتذكر ما فرط فيه فى دار التكليف من ترك الواجب وفعل القبيح ويندم عليه . ثم قال تعالى ﴿ وأنى له الذكرى ﴾ ومعناه من اين له الذكرى التي كان أمر بها فى دار الدنيا ، فانها تقوده إلى طريق الاستواء وتبصره الضلال من الهدى ، فكأنه قال وأنى له الذكرى التي ينتفع بها ، كما لو قيل يتندم وأنى له الندم .

ثم حكى ما يقول الكافر المفرط الجاني على نفسه ويتمناه ، فانه يقول ﴿ ياليتني قدمت لحياتي ﴾ أي يتمنى انه كان عمل الصالحات لحياته بعد موته أو عمل للحياة التي تدوم له ، فكان أولى بي من التمسك بحياة زائلة . ثم قال ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ﴾ معناه فى قراءة من كسر الذال إخبار من الله تعالى أنه لا يعذب عذاب الله

أحد فى ذلك اليوم . ومن فتح الذال قال : المعنى لا يعذب عذاب الجاني الكافر الذي لم يقدم لحياته أحد من الناس لانا علمنا أن إبليس أشد عذاباً من غيره بحسب إجرامه وإذا أطلق الكلام لقيام الدلالة على ذلك قيل معناه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، لأنه المستحق للعذاب ولا يؤاخذ الله أحداً بجرم غيره .

وقوله ﴿ولا يوثق وثاقه﴾ أي لا يشد بالسلاسل والاغلال ﴿أحد﴾ على المعنيين اللذين ذكرناهما .

وقوله ﴿يا ايتها النفس المطمئنة﴾ قال ابن زيد عن أبيه : إن النفس المطمئنة التى فعلت طاعة الله وتجنبت معاصيه تبشر عند الموت ويوم البعث بالثواب والنعيم . وقيل : ان المطمئنة بالمعرفة لله وبالايمان به ـ فى قول مجاهـــد ـ وقيل : المطمئنة بالبشارة بالجنة . وقال الفراء : تقديره يا أيتها النفس المطمئنة بالايمان والمصدقة بالثواب والبعث ﴿ارجعي﴾ تقول لهم الملائكة إذا اعطوهم كتبهم بايمانهم ﴿ارجعي إلى ربك﴾ أي إلى ما اعده الله لك من الثواب ، وقد يجوز أن يقولوا لهم هـذا القول يريدون ارجعوا من الدنيا إلى هذا المرجع .

ثم بين ما يقال لها وتبشر به بأنه يقال لها ﴿ارجعي إلى ربك﴾ أي إلى الموضع الذي يختص الله تعالى بالامر والنهي به دون خلقه ﴿راضية﴾ بثواب الله وجزيل عطائه ﴿مرضية﴾ الافعال من الطاعات ، وإنه يقال لها « ادخلي فى عبادي » الذين رضيت عنهم ورضيت أفعالهم « وادخلي جنتي » التى وعدتكم بها وأعددت نعيمكم فيها ، وروي عن ابن عباس أنه قرأ ادخلي فى عبدي بمعنى فى جسم عبدي ، قال ابن خالويه : هي قراءة حسنة . قال المبرد : تقديره يا ايتها الروح ارجعي إلى ربك فادخلي في عبادي فى كل واحد من عبادي تدخل فيه روحه .

٩٠ ـ سورة البلد

مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك ، انزلت حين افتتحت مكة
وهي عشرون آية بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لاَ أُقْسِمُ بِهٰذا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهٰذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠)
عشر آيات .

قرأ ابو جعفر « لبداً » بتشديد الباء . الباقون بالتخفيف .

قوله « لا اقسم » معناه أقسم ، ولا صلة ، كما قال الشاعر :

ولا ألوم البيض ان لا تسخرا (١)

أي ان تسخر . وقيل: هي رداً لكلام على طريق الجواب ، لمن قد ظهر منه

---

(١) مر في ١ / ٤٥

الخلاف أي ليس الامر على ما يتوهم . وقد بينا نظائر ذلك فيما مضى . فاذا أثبت انه اقسم ، فلا ينافي قوله « وهذا البلد الامين » لأن هذا قسم آخر مثله . وإنما يكون مناقضة لو أراد نفي القسم بقوله « لا اقسم » فأما إذا كان الامر على ما بيناه فلا تنافي بينهما . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: يعني بالبلد مكة .

وقوله « وانت حل بهذا البلد » فمعناه في قول ابن عباس أنه حلال لك به قتل من رأيت حين أمر بالقتال ، فقتل ابن حنظل صبراً ، وهو آخذ باستار الكعبة ولم يحل لأحد بعده . وبه قال مجاهد وابن زيد والضحاك . وقال عطاء : لم يحل إلا لنبيكم ساعة من النهار . وقال الحسن : معناه وأنت فيه محسن وأنا عنك راض . وقيل: معناه أنت حل بهذا البلد أي انت فيه مقيم ، وهو محال . والمعنى بذلك التنبيه على شرف البلد بشرف من حل فيه من الرسول الداعي إلى تعظيم الله وإخلاص عبادته المبشر بالثواب والمنذر بالعقاب ، ويقال : رجل حل أي حلال وقالوا : حل معناه حال . أي ساكن.

وقوله ﴿ ووالد وما ولد ﴾ قسم آخر بالوالد وما ولد ، قال ابن عباس وعكرمة: المعني بذلك كل والد وما ولد يعني العاقل . وقال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك وسفيان وابو صالح : يعني آدم وولده . وقال ابو عمران الجوني : يعني به إبراهيم عليه السلام وولده .

وقوله ﴿ لقد خلقنا الانسان فى كبد ﴾ جواب القسم ، ومعنى كبد قال ابن عباس والحسن : فى شدة . وقال قتادة : معناه يكابد الدنيا والآخرة . قال مجاهد وابو صالح وإبراهيم النخعي وعبد الله بن شداد : معناه في إنتصاب قامة ، فكأنه في شدة قوام مخصوص بذلك من سائر الحيوان ، قال لبيد :

يا عين هلا بكيت أربد إذ قمنا وقام الخصوم في كبد (١)

أي في شدة نصب ، فالكبد في اللغة شدة الأمر يقال : تكبد اللبن إذا غلظ واشتد ، ومنه الكبد ، كأنه دم يغلظ ويشتد ، وتكبد الدم إذا صار كالكبد ، والانسان مخلوق في شدة أمر بكونه في الرحم . ثم في القماط والرباط . ثم على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف ، فينبغي له أن يعلم ان الدنيا دار كدّ ومشقة ، وأن الجنة هي دار الراحة والنعمة ،

وقوله «ايحسب أن لن يقدر عليه أحد» معناه أيظن هذا الانسان أن لن يقدر على عقابه أحد إذا عصى الله تعالى وارتكب معاصيه فبئس الظن ذاك . وقيل : إنها نزلت في رجل يقال له أبو الاسدين كان من القوة بحيث يقف على أديم عكاظي فيجري المسرة من تحته ، فتنقطع ولا يبرح من عليه فقال الله تعالى ﴿ أيحسب ﴾ لشدته وقوته ﴿ أن لن يقدر عليه احد ﴾ ثم حكى ما يقول هذا الانسان من قوله ﴿أهلكت مالا لبداً ﴾ قال الحسن : معناه يقول أهلكت مالا كثيراً ، فمن يحاسبني عليه ، حميق ألم يعلم ان الله قادر على محاسبته ، واللبد الكثير الذي قد تراكب بعضه على بعض ، ومنه تلبد القطن والصوف إذا تراكب بعضه على بعض ، وكذلك الشعر ومنه اللبد ومن قرأ ﴿ لبداً ﴾ بتشديد الباء ، فهو جمع لابد .

وقوله ﴿ ايحسب أن لم يره احد﴾ ايظن هذا الانسان انه لم يبصره أحد فيطالبه من ابن كسب هذا المال ، وفي أي شيء أنفقه ـ ذكره قتادة ـ وقيل : معنا ايظن أن لم يره أحـــد في انفاقه ، لانه كاذب . وقال الحسن : يقول : أنفقت مالا كثيراً فمن يحاسبني عليه . وقيل الآية نزلت في رجل من بني جمح يكنى أبا الاسدين ، وكان قوياً شديداً .

(١) ديوانه ١ | ١٩ ومجاز القرآن ٢ | ٢٩٩

ثم نبهه تعالى على وجوه النعمة التى أنعم بها عليه ليستدل بها على توحيده وخلع الأنداد دونه بقوله «ألم نجعل له عينين» ليبصر بهما «ولساناً وشفتين» لينطق بهما «وهديناه النجدين» ليستدل بهما. وفي ذلك دليل واضح على أنه صادر من مختار لهذه الافعال التي فعلها بهذه الوجوه، فأحكمها لهذه الامور، فالمحكم المتقن لا يكون إلا من عالم، وتعليقه بالمعاني لا يكون إلا من مختار، لانه لا يعلق الفعل بالمعاني إلا في الارادة. وقال ابن مسعود: وابن عباس: معنى هديناه النجدين: نجد الخير والشر، وبه قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة، وفي رواية عن ابن عباس أنهما الثديان، والنجدان الطريقان للخير والشر. وأصل النجد للعلو ونجد بلد سمي نجد العلوة عن انخفاض تهامة، وكل عال من الارض نجد، والجمع نجود، ورجل نجد بين النجدة إذا كان جلداً قوياً، لاستعلائه على قوته، واستنجدت فلاناً فأنجدني أي استعنته على خصمي فأعانني. والنجد الكرب والغم. والنجاد ما على العاتق من حمالة السيف، وشبه طريق الخير والشر بالطريقين العاليين لظهوره فيهما.

قوله تعالى:

فَلا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِٱلْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ (١٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ ﴾ (٢٠)

عشر آيات.

قرأ ابن كثير وابو عمرو والكسائي « فك رقبة أو اطعم فى يوم ذي مسغبة » بغير الف على انه فعل ماض . الباقون « فك رقبة » على الاضافة ويكون الاضافة إلى مفعول « او إطعام » فوجه الأول قوله « فلا أقتحم العقبة فك رقبة » الثاني أنه على جواب و « ما أدراك ما العقبة » فيكون الجواب بالاسم وتلخيصه هلااقتحم العقبة ولا يجوز الصراط إلا من كان بهذه الصفة يفك رقبة او يطعم يتيماً فى يوم ذي مسغبة مجاعة ، فلا اقتحم بمعنى لم ، كما قال « فلا صدق ولا صلى » (١) ومعناه لم يصدق ولم يصل ، وإنما لم يكرر (لا) لان معنا « ثم كان من الذين آمنوا » يدل على انه لم يقتحم ولم يؤمن . وقرأ ابو عمرو وحمزة وحفص وخلف « مؤصدة » بالهمز . الباقون بغير همز وهما لغتان ، يقال : أصدت الباب او صده إيصاداً فهو مؤصد بالهمز ، وأوصدته فهو موصد بغير همز . والوصيد الباب من أوصدت .

لما نبه الله تعالى الانسان على وحدانيته وإخلاص عبادته بقوله « ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين » وما فيهما من الدلالة على قدرته وعلمه وانه هدى الانسان طريق الخير والشر ورغبه فى اتباع الخير وزجره عن إتباع الشر ، قال حاثاً له على فعل الخير بقوله « فلا أقتحم العقبة » قال الحسن : عقبة - والله شديدة - مجاهدة الانسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان ، ولم يكرر (لا) في اللفظ ، وهي بمنزلة المكرر في المعنى كأنه قال : أفلا اقتحم العقبة وحذف الاستفهام ، والمراد به التنبيه ، والاقتحام الدخول على الشدة يقال اقتحم اقتحاماً ، واقحم إقحاماً وتقحم تقحماً وقحم تقحيماً ونظيره الادخال والايلاج . والمعنى هلا دخل في البر على صعوبة كصعوبة اقتحام العقبة ، والعقبة الطريقة التى ترتقي على صعوبة ويحتاج فيها إلى معاقبة الشدة بالتضييق

(١) سورة ٧٥ القيامة آية ٣١

والمخاطرة ، وقيل : العقبة الثنية الضيقة في رأس الجبل يتعاقبها الناس ، فشبهت بها العقبة في وجوه البر التي ذكرها الله تعالى . وعاقب الرجل صاحبه إذا صار في موضعه بدلا منه . وقال قتادة : فلا اقتحم العقبة إنها قحمة شديدة ، فاقتحموها بطاعة الله . وقال أبو عبيدة : معناه فلم يقتحم في الدنيا .

ثم فسر العقبة فقال « وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو اطعام في يوم ذي مسغبة » وتقديره إقتحام العقبة فك رقبة ، لان العقبة جثة والفك حدث ، فلا يكون خبراً عن جثة . قال ابو علي و (لا) إذا كانت بمعنى (لم) لم يلزم تكرارها .

ثم بين تعالى ما به يكون اقتحام العقبة فقال « فك رقبة » فالفك فرق يزيل المنع ، ويمكن معه أمر لم يكن ممكناً قبل ، كفك القيد والغل ، لانه يزول به المنع ، ويمكن به تصرف في الارض لم يكن قبل ، ففك الرقبة فرق بينها وبين حال الرق بايجاب الحرية وإبطال العبودية . وقوله « او إطعام في يوم ذي مسغبة » فالمسغبة المجاعة سغب يسغب سغباً إذا جاع ، فهو ساغب قال جرير :

تعلل وهي ساغبة بنيها بأنفاس من الشبم القراح (١)

وقوله « يتيماً » نصب بـ « إطعام » في قراءة من نون نصبه بالمصدر . ومن قرأ على الفعل الماضي نصبه به ، فهو مفعول به في الحالين ، واليتيم الصبي الذي قد مات ابوه وأمه ، والاغلب في اليتيم من الأب في الناس . وقوله « ذا مقربة » معناه ذا قرابة ، ولا يقال : فلان قرابتي وإنما يقال ذو قرابتي ، لانه مصدر ، كما قال الشاعر :

يبكي الغريب عليه حين يعرفه وذو قرابته في الناس مسرور

وقوله « او مسكيناً » عطف على يتيماً . و « ذا متربة » معناه ذا حاجة شديدة

(١) اللسان (قرح)

من قولهم : ترب الرجل إذا افتقر ـ في قول ابن عباس ـ أيضاً ومجاهد ، يقال : أترب الرجل إذا استغنى ، وترب إذا افتقر .

وقوله « ثم كان من الذين آمنوا » معناه كان الانسان من جملة المؤمنين إذا فعل ذلك وعقد الايمان ، ثم أقام على إيمانه « وتواصوا » أي وصى بعضهم بعضاً « بالصبر » على الشدائد والمحن والمصائب « وتواصوا » أيضاً « بالمرحمة » أي وصى بعضهم بعضاً بأن يرحموا الفقراء وذوي المسكنة .

وقوله « أولئك اصحاب الميمنة » معناه إنهم متى فعلوا ذلك كانوا أصحاب الميمنة الذين يعطون كتابهم بأيمانهم أو يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، والميمنة اليمن والبركة ، والمرحمة حال الرحمة .

وقوله « والذين كفروا بآياتنا » معناه إن الذين يجحدون نعم الله ويكذبون أنبياءه « هم اصحاب المشأمة » أي ذات الشمال فيؤخذ بهم الى النار ، ويعطون كتابهم بشمالهم ، واشتقاقه من الشؤم خلاف البركة « عليهم نار مؤصدة » قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : معناه عليهم نار مطبقة .

٩١ ـ سورة الشمس

مكية في قول ابن عباس والضحاك وهي خمس عشرة آية في الكوفي والبصري وست عشرة في المدنيين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (١٠) عشر آيات.

قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم « وضحاها » بفتح أواخر هذه السورة، وقرأ الكسائي بامالة ذلك كله. وقرأ ابو عمرو ونافع جميع ذلك بين الكسر والفتح. وقرأ حمزة « وضحها » كسراً وفتح « تلاها » و« طحاها » فمن فتح، فلأنه الأصل، والامالة تخفيف. وبين بين تخفيف يشعر بالأصل. فأما حمزة فأمال بنات الياء. وفخم بنات الواو.

هذا قسم من الله تعالى بالشمس وضحاها، وقد بينا أن له تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه تنبيهاً على عظم شأنه وكثرة الانتفاع به، فلما كانت الشمس قد عظم الانتفاع بها وقوام العالم من الحيوان والنبات بطلوعها وغروبها، جاز القسم

بها ، ولما فيها من العبرة بنشيء الضوء حتى تقوى تلك القوة العظيمة باذن الله .

وقوله « وضحا » يعني ضحاها الشمس ، وهو صدر وقت طلوعها ، وضحى النهار صدر وقت كونه ، قال الشاعر :

أعجلها اقدحي الضحاء ضحى وهي تناصي ذوائب السلم (١)

وأضحى يفعل كذا إذا فعله في وقت الضحى ، ويقال: ضحّى بكبش أو غيره إذا ذبحه في وقت الضحى من ايام الاضحى . ثم كثر حتى قيل لو ذبحه آخر النهار .

وقوله « والقمر إذا تلاها » قسم آخر بالقمر وتلوه الشمس ووجه الدلالة من جهة تلو القمر للشمس من جهة المعاقبة على أمور مرتبة في النقصان والزيادة ، لانه لا يزال ضوء الشمس ينقص إذا غاب جرمها ، ويقوى ضوء القمر حتى يتكامل كذلك دائبين ، تسخيراً من الله للعباد بما ليس في وسعهم أن يجروه على شيء من ذلك المنهاج . وقال ابن زيد : القمر إذا اتبع الشمس في النصف الاول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر بالطلوع ، وفي آخر الشهر يتلوها في الغروب وقال الحسن « والشمس وضحاها » أي يضيء نورها « والقمر إذا تلاها » يعني ليلة الهلال . وقيل : تلاها في الضوء .

وقوله « والنهار إذا جلاها » قسم آخر بالنهار إذا جلاها يعني الشمس بضوءها المبين بجرمها . وقيل معناه إذا جلا الظلمة ، فالهاء كناية عن الظلمة ، ولم يتقدم لها ذكر لانه معروف غير ملتبس « والليل إذا يغشاها » قسم آخر بالليل إذا يغشاها يعني الشمس بظلمته عند سقوط الشمس .

وقوله « والسماء وما بناها » قال قتادة : معناه والسماء وبنائها جعل (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر . وقال مجاهد والحسن : معنى والسماء وما بناها والسماء

---

(١) قائله النابغة الجعدي . اللسان (ضحا)

ومن بنى السماء وهو الله تعالى . وقوله « والارض وما طحاها » قسم آخر بالارض وما طحاها ، ويحتمل ذلك وجهين :

احدهما - ان يكون المعنى والأرض وطحوها .

والثاني - والارض ومن طحاها ، وهو الله تعالى ومعنى طحاها بسطها حتى أمكن التصرف عليها . وقال مجاهد والحسن : طحاها ودحاها واحد ، بمعنى بسطها يقال طحى يطحو طحواً ودحا يدحو دحواً وطحا بك همك . ومعناه انبسط بك إلى مذهب بعيد ، فهو يطحو بك طحواً قال علقمة :

طحا بك قلب فى الحسان طروب

ويقال : القوم يطحي بعضهم بعضاً عن الشيء أي يدفع دفعاً شديد الانبساط والطواحي النسور تنبسط حول القتلى ، وأصل الطحو البسط الواسع . وقوله « ونفس وما سواها » قسم آخر بالنفس وما سواها ، وهو محتمل ايضاً لامرين : احدهما - ونفس وتسويتها ، والثاني - ونفس ومن سواها ، وهو الله تعالى . وقال الحسن يعني بالنفس آدم ومن سواها الله تعالى . وقيل : ان (ما) فى هذه الآيات بمعنى (من) كما قال « فانكحوا ما طاب لكم » (١) وإنما أراد (مَنْ) وقال ابو عمرو بن العلا : هي بمعنى الذي ، وأهل مكة يقولون إذا سمعوا صوت الرعد : سبحان ما سبحت له بمعنى سبحان من سبحت له .

وقوله « فألهمها فجورها وتقواها » قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وسفيان : معناه عرفها طريق الفجور والتقوى ورغبها فى التقوى وزهدها فى الفجور . وقال قوم : خذلها حتى اختارت الفجور وألهمها تقواها بأن وفقها لها . وقوله « قد أفلح من زكاها » جواب القسم واللام مقدرة ، وتقديره لقد أفلح من زكاها أي

(١) سورة ٤ النساء آية ٣

من زكى نفسه بالصدقة ، وقد خاب من دساها وأخفى عن المتصدق . والمعنى قد أفلح من زكى نفسه بالعمل الصالح أو اجتناب المعصية ـ وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ـ وقال قوم : معنا قد أفلح من زكى الله نفسه ، وقد خاب من دساها نفسه وقوله « وقد خاب من دساها » معناه قد خاب أي خسر من دس نفسه فى معاصي الله منهمكاً فى القبائح التي نهاه الله عنها . وقيل : معناه دساها بالبخل ، لان البخيل يخفي نفسه ومنزله لئلا يطلب نائله ، ودسا نفسه نقيض زكاها بالعمل الصالح ،وكذلك دساها بالعمل الفاسد حتى صيرها فى محاق وخسران . ويقال دسا فلان يدسو دسواً ودسوة فهو داس نقيض زكا يزكو زكا فهو زاك. وقيل معنى دساها أي دسها بمعنى حملها ووضع منها بمعصية. وأبدل من أحدى السينين ياء ، كما قالوا تظنيت بمعنى تظننت قال الشاعر :

نقضي البازي إذا الباري كسر (١)

بمعنى تقضض .

قوله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيٰهَا (١١) إِذِ ٱنْبَعَثَ أَشْقَيٰهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا (١٤) فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّيٰهَا (١٥) وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ (١٦) ست آيات

قرأ اهل المدينة وابن عامر «فلا يخاف» بالفاء وكذلك هي فى مصاحف أهل المدينة وأهل الشام . الباقون بالواو ، وكذلك فى مصاحفهم .

يقول الله تعالى مخبراً عن ثمود وهم قوم صالح « كذبت ثمود بطغواها » قال

(١) مر في ١ | ٢٨٦ و ٧ | ٣٥٨و١٤٦/٨

ابن عباس: يعني بعذابها أي بعذاب الطاغية فأتاها ما كذبت به . وقال مجاهد: بمعصيتها ـ وهو قول ابن زيد ـ وهو وجه التأويل . والطغوى والطغيان مجاوزة الحد في الفساد وبلوغ غايته ، تقول : طغى يطغي إذا جاوز الحد ، ومنه قوله « لما طغى الماء » (١) أي لما تجاوز المقدار على ما جرت به العادة وكثر . وقوله « إذا انبعث أشقاها » أي كان تكذيبها حين انبعث أشقى ثمود ، وقيل اسمه قدار بن سالف . وقال قوم : عقر الناقة هو تكذيبهم . وقيل : لا ، بل هو غيره . وقيل : كانوا أقروا بأن لها شرباً ولهم شرب غير مصدقين بأنه حق . والشقاء شدة الحال في مقاساة الآلام ، فالاشقاهو الاعظم شقاء . ونقيض الشقاء السعادة ، ونقيض السعود النحوس يقال : شقي يشقى شقاء ، فهو شقي نقيض سعيد ، واشقاه الله اشقاء .

وقوله « فقال لهم رسول الله » يعني صالحاً ، فانه قال لهم : ناقة الله وتقديره فاحذروا ناقة الله ، فهو نصب على الاغراء كما تقول : الأسد الاسد ، أي احذره « وسقياها » فالسقاء الحظ من الماء . وهو النصيب منه ، كما قال تعالى « لها شرب ولكم شرب يوم معلوم » (٢) والسقي التعريض للشرب .

وقوله « فكذبوه » أي كذب قوم صالح صالحاً ولم يلتفتوا إلى قوله . « فعقروها » يعني الناقة . فالعقر قطع اللحم بما يسيل الدم عقره يعقره عقراً فهو عاقر ، ومنه عقر الحوض وهو أصله ، والعقر نقض الشيء عن أصل بنية الحيوان ، وعاقر الناقة أحمر ثمود ، وهم يروه وكلهم رضوا بفعله . فعمهم البلاء بأن عاقبهم الله تعالى لرضاهم بفعله . وقوله « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » معناه أهلكهم الله تعالى عقوبة على ذنبهم من تكذيب صالح وعقر الناقة . وقيل : معنى دمدم عليهم دمر

---

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ١١

(٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٥٥

عليهم . وقيل : معناه أطبق عليهم بالعذاب يقال دمدمت على الشيء إذا ضيقت عليه ، وناقة مدمدمة قد ألبسها الشحم ، فاذا كررت الاطباق قلت دمدمت . وقيل « دمدم عليهم » أي غضب عليهم ، فالدمدمة ترديد الحال المتكرهة ، وهي مضاعفة ما فيه المشقة فضاعف الله تعالى على ثمود العذاب بما ارتكبوا من الطغيان .

وقوله « فسواها » أي جعل بعضها على مقدار بعض في الاندكاك واللصوق بالارض ، فالتسوية تصيير الشيء على مقدار غيره .

وقوله « ولا يخاف عقباها » قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد : معناه لا يخاف الله تعالى تبعة الدمدمة . وقال الضحاك : معناه لم يخف الذي عقرها عقباها والعقبى والعاقبة واحد ، وهو ما أدى اليه الحال الأولى ، قال ابو علي : من قرأ بالفاء فالعطف على قوله « فكذبوه فعقروها » فلا يخاف كأنه تبع تكذيبهم عقرهم أي لم يخافوا . ومن قرأ (ولا) بالواو جعل الجملة في موضع الحال ، وتقديره فسواها غير خائف عقباها أي غير خائف أن يتعقب عليه في شيء مما فعله .

٩٢ ـ سورة الليل

مكية في قول ابن عباس والضحاك وهي إحدى عشرون آية بلا خلاف



﴿ وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (١٣)

ثلاث عشرة آية .

هذا قسم من الله تعالى بالليل إذا غشيه الظلام ، فاظلم وادلهم وغشى الأنام لما في ذلك من الهول المحرك للنفس بالاستعظام .

ثم اقسم بالنهار إذا تجلى ، ومعناه إذا أنار وظهر للابصار لما في ذلك من الاعتبار . وقيل التقدير والليل إذا يغشى النهار ، فيذهب بضوئه « والنهار إذا تجلى » أي جلى الليل ، فأذهب ظلمته ، ذكره الحسن . والغشي إلباس الشيء ما يغمر ويستر جملته ، وإنما كرر ذكرها في السورتين لعظم شأنهما ، وجلالة موقعهما في باب

الدلالة على توحيد الله - ذكره قتادة - .

وقوله « وما خلق الذكر والانثى » للتناسل بينهما . ويحتمل أن يكون المراد ومن خلق الذكر والانثى ، وفي قراءة عبد الله « والذي خلق الذكر والانثى » لان (ما) بمعنى الذي ، وهو الله ، فيكون القسم بالله . وعلى الأول يكون القسم بخلق الله . وقيل : المراد بالذكر والانثى آدم وحواء عليهما السلام .

وقوله « إن سعيكم لشتى » جواب للقسم ، ومعناه إن سعيكم لمختلف ، فسعي المؤمن خلاف سعي الكافر . ومعنى « شتى » أي متفرق على تباعد ما بين الشيئين جداً ، ومنه شتان أي بعد ما بينهما جداً كبعد ما بين الثرى والثريا . ويقال : تشتت أمر القوم وشتتهم ريب الزمان .

وقوله « فاما من اعطى واتقى » معناه من أعطى حق الله واتقى محارم الله - ذكره قتادة - ، وصدق بالحسنى ، قال ابن عباس وعكرمة : وصدق بالخلف . وقال الضحاك : صدق بتوحيد الله ، وقال مجاهد والحسن : يعني صدق بالجنة . وقال قتادة : بوعد الله ، والحسنى النعمة العظمى بحسن موقعها عند صاحبها ، وهذه صفة الجنة التي أعدها الله تعالى للمتقين وحرمها من كذب بها .

وقوله « فسنيسره لليسرى » معناه يسهل عليه الأمر ، فالتيسير تصيير الأمر سهلا . ومثله التسهيل والتخفيف ، ونقيض التيسير التعسير وهو تصير الامر صعباً . واليسير نقيض العسير ، يقال : أيسر إذا كثر ماله يوسر ايساراً . وتقديره فسنيسره للحال اليسرى ، فلذلك أنث فحال اليسير اليسرى ، وحال العسير العسرى . والتيسير لليسرى يكون بأن يصيرهم إلى الجنة . والتيسير للعسرى بأن يصيرهم إلى النار . ويجوز أن يكون المراد بالتمكين من سلوك طريق الجنة ، والتمكين من سلوك طريق النار . ومعناه إنا لسنا نمنع المكلفين من سلوك أحد الطريقين ولا نضطرهم

اليه ، وإنما تمكنهم بالاقرار عليها ورفع المنع ، والترغيب فى احداها ، والتزهيد فى الاخرى . فان احسن الاختيار اختار ما يؤد به إلى الجنة . وإن أساء فاختار مايؤد به إلى النار فمن قبل نفسه أتى .

وقوله « وأما من بخل واستغنى » يعني به من منع حق الله الذي أوجب عليه من الزكاة والحقوق الواجبة فى ماله ، واستغنى بذلك وكثر ماله ، فسنيسره للعسرى يعني طريق النار . وقد بينا كيفية تيسير الله لذلك من التمكين أو التصيير فلا حاجة لا عادته . والعسرى البلية العظمى بما تؤدي اليه ، ونقيضها اليسرى ، وهو مأخوذ من العسر واليسر ، فحال العسر العسرى وحال اليسر اليسرى ، ومذكره الأيسر ، والأمر الأعسر . وقال الفراء : المعنى فسنيسره للعود إلى الصالح من الاعمال ونيسره من الاعمال للعسرى على مزاوجة الكلام . والأولى أن تكون الآيتان على عمومها فى كل من يعطي حق الله ، وكل من يمنع حقـه ، لانه ليس ـ ههنا ـ دليل قاطع على أن المختص بها إنسان بعينه ، وقد روي أنها نزلت فى أبي الدحداح الانصاري ، وسمرة بن حبيب ، ورووا فى ذلك قصة معروفة . وروي فى غيره .

وقوله « وما يغنى عنه ماله إذا تردى » معناه أي شيء يغني عن هذا الذي بخل بماله ، ولم يخرج حق الله منه « إذا تردى » يعني فى نار جهنم ـ فى قول قتادة وابي صالح ـ وهو المروي عن ابي جعفر عليه السلام . وقال مجاهـد : معناه إذا مات . وقال قوم : معناه « إذا تردى » فى القبر أي شيء يغنيه . وقيل « إذا تردي » فى النار فما الذي يغنيه .

وقوله « إن علينا للهدى » قال قتادة معناه إن علينا لبيان الطاعة من المعصية وقيل فى قوله « إن علينا للهدى » دلالة على وجوب هدى المكلفين إلى الدين ، وانه

لا يجوز إضلالهم منه . وقوله « وإن لنا للآخرة » معناه الاخبار من الله بأن له دار الآخرة والجزاء فيها على الأعمال ، والامر والنهي ليس لاحد سواه ، لان دار الدنيا قد ملك فيها أقواماً التصرف ، وقوله « والاولى » معناه وإن لنا الأولى ايضاً يعني دار الدنيا فانه الذي خلق الخلق فيها ، وهو الذي مكنهم من التصرف فيها وهو الذى ملكهم ما ملكهم ، فهي ايضاً ماله على كل حال .

قوله تعالى :

﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ (٢١) ثمان آيات .

قوله « فانذرتكم ناراً تلظى » وعيد من الله تعالى للمكلفين . تقول خوفتكم المعاصي التي تؤديكم إلى نار تلظى .

وقرأ ابن كثير « ناراً تلظى » بتشديد التاء ادغم احدى التاءين فى الأخرى ، لان الأصل تتلظى . وقيل : انه ادغم نون التنوين فى التاء . الباقون بالتخفيف لحذفوا احدى التاءين . والتلظي تلهب النار بشدة الايقاد تلظت النار تتلظى تلظياً ولظى اسم من اسماء جهنم .

وقوله « لا يصلاها إلا الاشقى الذى كذب » وقصر عما أمرته كما تقول : لقي فلان العدو فكذب : إذا نكل ورجع ـ ذكره الفراء ـ فكأنه كذب في الطاعة أى لم يتحقق . وقال المفسرون فيها قولان :

أحدها - الانذار بنار هذه صفتها ، وهي درك مخصوص من أدراك جهنم فهي تختص هذا المتوعد الذي كذب بآيات الله وجحد توحيده « وتولى » عنها بأن لم ينظر فيها أو رجع عنها بعد أن كان نظر فيها فصار مرتداً . والثاني محذوف لما صحبه من دليل الآي الاخر ، كأنه قال ومن جرى مجراه ممن عصى فعلى هذا لامتعلق للخوارج في أن مرتكب الكبيرة كافر .

وقوله « وسيجنبها الاتقى » معناه سيبعد من هذه النار من كان اتقى الله باجتناب معاصيه « الذي يؤتي ماله » أي يعطي ماله « يتزكى » يطلب بذلك طهارة نفسه ، فالتجنب تصيير الشيء في جانب عن غيره ، فالاتقى يصير في جانب الجنة عن جانب النار يقال : جنبه الشر تجنيباً وتجنب تجنباً وجانبه مجانبة ، ورجل جنب ، وقد اجنب إذا أصابه ما يجانب به الصلاة حتى يغتسل .

وقوله « وما لاحد عنده من نعمة تجزى » معناه ليس ذلك ليد سلفت تكافي عليها ولا ليد يتخذها عند أحد من العباد . وقوله « إلا ابتغاء وجه ربه الاعلى » معناه بل إنما فعل ذلك طلب رضوان الله ، وذكر الوجه طلباً لشرف الذكر . والمعنى إلا ابتغاء ثواب الله وطلب رضوانه . وقوله « ولسوف يرضى » معناه إن هذا العبد الذي فعل ما فعله لوجه الله سوف يرضى بما يعطيه الله على ذلك من الثواب وجزيل النعيم يوم القيامة .

٩٣ ـ سورة الضحى

مكية في قول ابن عباس الضحاك ، وهي إحدى عشرة آية بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلضُّحَىٰ (١) وَٱللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (١١) احدى عشرة آية.

روي أن عروة ابن الزبير قرأ « ما ودعك ربك » بالتخفيف من قولهم : ودع يدع أي ترك يترك ، وهو قليل ، لان سيبويه قال : استغنوا بـ (ترك) عن (ودع) فلم يستعملوه . الباقون بالتشديد .

هذا قسم من الله تعالى بالضحى ، وهو صدر النهار ، وهو الضحى المعروف - في قول قتادة - وقال الفراء : هو النهار كله من قولهم : ضحى فلان للشمس إذا ظهر لها . وفي التنزيل « وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » (١) .

---

(١) سورة ٢٠ طه آية ١١٩

وقوله ﴿ والليل إذا سجى ﴾ قسم آخر ، وقال الحسن : معنى (سجى) غشي بظلامه . وقال قتادة : معنى (سجى) سكن وهذا من قولهم: بحر ساج أي ساكن ، وبه قال الضحاك ، يقال: سجا يسجو سجواً إذا هدى وسكن ، وطرف ساج قال الاعشى :

فما ذنبنا ان جاش بحر ابن عمكم   وبحرك ساج لا يواري الدعامصا (١)

وقال الراجز :

يا حبذا القمراء والليل الساج   وطرق مثل ملاء النساج (٢)

وقوله ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ جواب القسم . وقيل : إنه لما تأخر عنه الوحي خمس عشرة ليلة ، قال قوم من المشركين : ودع الله محمداً وقلاه . فانزل الله تعالى هذه السورة تكذيباً لهم وتسلية للنبي ﷺ ، لأنه كان اغتم بانقطاع الوحي عنه ـ ذكره ابن عباس وقتادة والضحاك ـ ومعنى ﴿ ما ودعك ﴾ ما قطع الوحي عنك ، ومعنى (قلى) أبغض ـ في قول ابن عباس والحسن وابن زيد ـ والقالي المبغض يقال : قلاه يقلاه قلا إذا ابغضه . والعقل دال على انه لا يجوز ان يقلا الله احداً من أنبيائه . والتقدير ما قلاك ، فحذف الكاف لدلالة الكلام عليه . ولأن رؤس الآي بالياء ، فلم يخالف بينها ، ومثله (فآوى ، وفهدى ، وفأغنى) لأن الكاف في جميع ذلك محذوفة ، ولما قلناه .

وقوله ﴿ وللاخرة خير لك من الاولى ﴾ خطاب للنبي ﷺ يقول الله تعالى له إن ثواب الآخرة والنعيم الدائم فيها خير لك من الأولى يعني من الدنيا ، والكون فيها لكونها فانية . قال ابن عباس : له في الجنة ألف قصر من اللؤلؤ ترابه المسك ، وفيه من كل ما يشتهي على اعم الوصف .

---

(١) تفسير القرطبي ٢٠ | ٩١ وديوانه ١٠٠

(٢) مجاز القرآن ٢ / ٣٠٢ واللسان (سجى) والكامل ٤ ٢٤

وقوله ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وعد من الله له أن يعطيه من النعيم والثواب وفنون النعم ما يرضى النبي ﷺ به ويؤثره .

ثم عدد عليه النعمة في دار الدنيا فقال ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ ومعناه تقريره على نعم الله عليه حين مات أبوه وبقي يتيماً فآواه بأن سخر له عبد المطلب أولا ، ولما مات عبد المطلب آواه إلى ابي طالب ، وسخره للاشفاق عليه والحنين على حفظه ومراعاته .

وقوله « ووجدك ضالا فهدى » قيل في معناه أقوال :

احدها ـ وجدك لا تعرف الحق فهداك اليه بأن نصب الك الأدلة وارشدك اليها حتى عرفت الحق ، وذلك من نعم الله .

وثانيها ـ وجدك ضالا عما أنت عليه الآن من النبوة والشريعة ، فهداك اليها

وثالثها ـ وجدك في قوم ضلال أي فكأنك واحد منهم .

ورابعها ـ وجدك مضلولا عنك فهدى الخلق إلى الاقرار بنبوتك والاعتراف بصدقك فوجدك ضالا بمعنى مضلول كما قيل ماء دافق بمعنى مدفوق ، وسر كاتم بمعنى مكتوم .

وخامسها ـ أنه لما هاجر إلى المدينة ضل في الطريق ، وضل دليله فأرشدهم الله الى الطريق الواضح حتى وصلوا فاذا قيل : السورة مكية أمكن أن يقال : المراد بذلك الاستقبال والاعلام له أنه يكون هذا على وجه البشارة له به ، ولم يكن فعلا له معصية ، لانه ليس ذهاباً عما كلف.

وقوله ﴿ ووجدك عائلا فاغنى ﴾ فالعائل الفقير ، وهو ذو العيلة من غير جدة عال يعيل عيلة إذا كثر عياله وافتقر قال الشاعر :

وما يدري الفقير متى غناه   وما يدري الغني متى يعيل (١)

أي متى يفتقر . وقيل ان ذكر النعم من المنعم يحسن على وجهين :

احدهما ـ التذكير للشكر وطلب الزيادة منها فهذا جود وكرم .

والآخر ـ عند كفر المنعم عليه ، فهذا التذكير على الوجه الاول .

وقوله ﴿ فاما اليتيم فلا تقهر ﴾ أي لا تقهره لظلمه بأخذ ماله فكذلك من لا ناصر له لا تغلظ في أمره . والخطاب متوجه إلى النبي صلى الله عليه وآله وهو نهي لجميع المكلفين وقيل : معناه لا تقهره على ماله .

وقوله ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ فالانتهار هو الصياح في وجه السائل الطالب للرفد ، يقال : نهره وانتهره بمعنى واحد ، وهو متوجه إلى جميع المكلفين .

وقوله ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ معناه اذكر نعم الله واظهرها وتحدث بها . وقد قيل : من شكر النعمة الحديث بها .

فان قيل : في هذا ونظائره مما عدده الله على خلقه من النعم وامتنانه عليهم كيف يمن الله تعالى على خلقه بالنعم وذلك من فعل البخل ، لان الواحد منا لو منّ على غيره بما يسدي اليه كان مقبحاً ؟ !

قيل : إنما يقبح الامتنان إذا كان الغرض الازراء بالنعم عليه والتفضيل به ، فاما إذا كان الغرض تعريف النعمة وتعديدها وإعلامه وجوهها ليقابلها بالشكر فيستحق به الثواب والمدح ، فانه نعمة اخرى وتفضل آخر يستحق به الشكر فبطل ما قالوه .

(١) مجاز القرآن ٢ / ٣٠٢ وقد مر في ٣ / ١٠٩ و ٥ / ٢٣٥

٩٤ ـ سـورة الانشراح

مكية فى قول ابن عباس والضحاك ، وهي ثمان آيات بلا خلاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) ٱلَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ (٨) ثمان آيات .

روى اصحابنا ان ألم نشرح من الضحى سورة واحدة لتعلق بعضها ببعض ولم يفصلوا بينهما بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) وأوجبوا قراءتهما فى الفرائض فى ركعة وألا يفصل بينهما . ومثله قالوا فى سورة (ألم تر كيف) و (الا يلاف) وفى المصحف هما سورتان فصل بينهما ببسم الله .

والمعنى بهذه الآيات تعداد نعم الله تعالى على النبي ﷺ فى الامتنان بها عليه فقال ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ فالشرح فتح الشيء باذهاب ما يصد عن إدراكه فالله تعالى قد فتح صدر نبيه باذهاب الشواغل التي تصد عن إدراك الحق وتعظيمه بما يجب له . ومنه قول القائل : اشرح صدري لهذا الأمر . وشرح فلان كتاب كذا ، ومنه تشريح اللحم إذا فتحه ورققه . ومنه قوله ﴿ أفمن شرح الله صدره

للاسلام ﴾ (١) . وقال البلخي : كان النبي صلى الله عليه وآله ضاق صدره بمناصبة الجن والانس له فآتاه الله من آياته ووعده ما اتسع قلبه لكل ما حمله الله وأمره به . وقال الجبائي: شرح الله صدره بأن فعل له لطفاً يتبين منه إلى ما كلفه الله وسهل عليه ، وكان ذلك ثواباً على طاعاته لا يجوز فعله بالكفار . وعكسه ضيق الصدر كما قيل في قوله ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ (٢) والصدر الموضع الارفع الذي فيه القلب ، ومنه أخذ صدر المجلس تشبيهاً بصدر الانسان. وصدرته بكذا إذا جعلته في أول كلامك . والصدر لأن الاوامر تصدر عنه . وصادره إذا اخذ ما يصدر عنه والاصل الانصراف عن الشيء .

وقوله ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ قال الحسن : يعني بالوزر الذي كان عليه في الجاهلية قبل النبوة . وقال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد : يعني ذنبك . قالوا : وإنما وصفت ذنوب الانبياء بهذا الثقل مع انها صغائر مكفرة لشدة اغتمامهم بها وتحسرهم على وقوعها مع ندمهم عليها . وهذان التأويلان لا يصحان على مذهبنا ، لان الانبياء عليهم السلام لا يفعلون شيئاً من القبائح لا قبل النبوة ولا بعدها ولا صغيرة ولا كبيرة ، فاذا ثبت هذا ، فمعنى الآية هو أن الله تعالى لما بعث نبيه وأوحى اليه وانتشر أمره وظهر حكمه كان ما كان من كفار قومه وتتبعهم لاصحابه باذاهم له وتعرضهم إياه ما كان يغمه ويسوءه ويضيق صدره ويثقل عليه ، فازال الله ذلك بأن أعلى كلمته وأظهر دعوته وقهر عدوه وانجز وعده ونصره على قومه ، فكان ذلك من اعظم المنن وأجزل النعم .

فاذا قيل : السورة مكية ، وكان ما ذكرتموه بعد الهجرة ؟ !

---

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٢٢ (٢) سورة ٦ الانعام آية ١٢٥

قيل : ليس يمنع أن يكون الله أخبره بأن ذلك سيكون فيما بعد ليبشره به ويسليه عما هو عليه فجاء بلفظ الماضي وأراد الاستقبال ، كما قال ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ (١) وكما قال ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ (٢) والوزر الثقل في اللغة ، ومنه اشتق اسم الوزير لتحمله أثقال الملك . وإنما سميت الذنوب أوزاراً لما فيها من العقاب العظيم .

وقوله ﴿ الذي انقض ظهرك ﴾ نعت الوزر ، ووصفه بأنه انقض ظهره بمعنى أثقله ، والانقاض الانقال الذي ينتقض به ما حمل عليه ، أنقض ينقض انقاضاً والنقض والهدم واحد ، ونقض المذهب إبطاله بما يفسده . وقال الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد : معنى انقض أثقل ، وبعير نقض سفر إذا أثقله السفر .

وقوله ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة : معناه إني لا اذكر إلا ذكرت معي يعني بـ (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ) .

وقوله ﴿ فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسراً ﴾ يدل على أن التأويل في قوله ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ ما قلناه ، لأن الله بشره أنه يكون مع العسر يسراً وروي عن ابن عباس أنه قال : ان يغلب عسر واحد يسرين ، لأنه حمل العسر في الآيتين على انه واحد لكونها بالالف واللام ، واليسر منكر في تثنية الفائدة ، والثاني غير الاول ، والعسر صعوبة الامر وشدته ، واليسر سهولته .

ثم قال له ﴿ فاذا فرغت فانصب ﴾ قال ابن عباس : معناه فاذا فرغت من فرضك فانصب الى ما رغبك الله فيه من العمل . وقال قتادة : معناه فاذا فرغت من صلاتك فانصب الى ربك في الدعاء . وقال مجاهد : معناه فاذا فرغت من أمر دنياك فانصب الى عبادة ربك . ومعنى ﴿ فانصب ﴾ ناصب يقال : ناله هم ناصب أي ذو

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٤٣ (٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٧٧

نصب . ويقال: أنصبني الهم فهو منصب قال الشاعر :

تعناك هم من أميمة منصب (١)

وقال النابغة :

كليني لهم يا اميمه ناصب (٢)

أي فيه نصب كقوله ﴿ عيشة راضية ﴾ (٣) أي ذات رضى . والخطاب وإن كان متوجهاً إلى النبي ﷺ فالمراد به جميع المكلفين من أمته . والفراغ انتفاء كون الشيء المضاد لكون غيره في المحل . ونقيضه الشغل ، وهو كون الشيء المضاد في المحل ومنه أخذ شغل الافعال ، ولهـــذا لا يوصف تعالى بأنه يشغله شيء عن شيء ، لانه تعالى يخترع ما شاء من الافعال .

وقوله ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ حث له على الرغبـة في الطلب من الله تعـالى دون غيره .

(١) مر في ٨ | ٥٦٧ (٢) مر في ٥ | ٣٦٨ و ٦ | ٩٥ ٣٢٩و٨ | ٥٦٧،١٢٢

(٣) سورة ٦٩ الحاقة آية ٢١ وسورة ١٠١ القارعة آية ٧

٩٥ ـ سورة التين

مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثمان آيات بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ (٧) أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَاكِمِينَ ﴾ (٨) ثمان آيات .

هذا قسم من الله تعالى بالتين والزيتون ، وقال الحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة : هو التين الذي يؤكل والزيتون الذي يعصر . وقال ابن زيد : التين مسجد دمشق والزيتون بيت المقدس . قال الفراء : سمعت رجلا من أهل الشام ، وكان صاحب تفسير ، قال : التين جبال ما بين حلوان إلى همدان ، والزيتون الذي يعصر ﴿ وطور سينين ﴾ هو قسم آخر . وقال مجاهد وقتادة (الطور) جبل . و (سينين) معناه مبارك ، فكأنه قيل : جبل فيه الخير الكثير ، لانه أضافه إضافة تعريف . وقال الحسن : طور سينين هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام ، فهو عظيم

الشأن . وقيل : سينين بمعنى حسن ، لأنه كثير النبات والشجر ـ في قول عكرمة ـ

وقوله ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ قسم آخر ، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وابراهيم : البلد الأمين مكة ، والامين بمعنى آمن ، كما قال الله تعالى ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ﴾ (١) قال الشاعر :

ألم تعلمي يا اسم ويحـــك انني   حلفت يميناً لا أخون أميني (٢)

يريد أمني . وقوله ﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ﴾ جواب القسم قال ابن عباس: خلق الله تعالى الانسان في أحسن تقويم منتصب القامة وسائر الحيوان منكب . وقال الفراء : معناه إنا لنبلغ بالآدمي أحسن تقويمه ، وهو اعتداله واستواء شبابه ، وهو أحسن ما يكون . وقال الحسن ومجاهد وقتادة : معناه في أحسن صورة والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون عليه من التأليف والتعديل ، قومه تقويماً فاستقام ، وتقوم .

وقوله ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ قال ابن عباس وابراهيم وقتادة : معناه إلى ارذل العمر . وقال الحسن ومجاهد وابن زيد: ثم رددناه إلى النار في أقبح صورة ثم استثنى من جملتهم ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ بالله تعالى واخلصوا العبادة له ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أي وأضافوا إلى ذلك الاعمال الصالحات ، وبين أن من هـذه صفته ﴿ لهم أجر ﴾ أي ثواب على طاعاتهم ﴿ غير ممنون ﴾ أي غير منقوص . وقيل غير مقطوع ، وقال مجاهد : غير محسوب، وقيل غير مكدر بما يؤذي ويغم .

وقوله ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ معناه أي شيء يكذبك أيها الانسان بعد هذه الحجج بالدين الذي هو الجزاء . وقال قتادة : معناه فمن يكذبك أيها الانسان

---

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٦٧

(٢) تفسير القرطبي ٢٠ | ١١٣

بعدها بالدين الذي هو الجزاء والحساب ، وهو قول الحسن وعكرمة .

وقوله ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ تقرير للانسان على الاعتراف بأنه تعالى أحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً ، لانه لا خلل فيه ولا اضطراب يخرج عما تقتضيه الحكمة وفى ذلك دلالة على فساد مذهب المجبرة فى أن الله يخلق الظلم والفساد . والحكم الخبر بما فيه فائدة بما تدعو اليه الحكمة ، فاذا قيل: حكم جائر فهو بمنزلة حجة داحضة مجازاً بمعنى أنه حكم عند صاحبه كما أنها حجة عنده وليست حجة فى الحقيقة . وقيل : المعنى أي شيء يكذبك بالدين ويحملك على جحد الجزاء يوم القيامة وأنا أحكم الحاكمين . وروي عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ قال : سبحانك اللهم بلى . وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال (إذا قرأ احدكم والتين والزيتون فأتى على آخرها فليقل : بلى).

٩٦ ـ سورة العلق

مكية في قول ابن عباس والضحاك، وهي تسع عشرة آية في الكوفي والبصري وعشرون في المدنيين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) إِقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ (٣) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَنْ رَآهُ ٱسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ ﴾ (١٠) عشر آيات.

روي عن عائشة ومجاهد وعطاء وابن سيار: ان أول آية نزلت قوله ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ وهو قول أكثر المفسرين. وقال قوم: أول ما نزل قوله ﴿ يا ايها المدثر ﴾ وقد ذكرناه فيما مضى.

هذا أمر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله ان يقرأ باسم ربه الذي خلق الخلق، وأن يدعوه بأسمائه الحسنى. وفي تعظيم الاسم تعظيم المسمى، لأن الاسم وصف ليذكر به المسمى بما لا سبيل إلى تعظيمه إلا بمعناه، فلهذا لا يعظم اسم الله حق

تعظيمه إلا من هو عارف به و معتقد لعبادة ربه ، فهو معتقد بتعظيم المسمى لا وجه له يعتد به إلا تعظيم المسمى ، ولهذا قال الله تعالى ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياماً تدعوافله الاسماء الحسنى ﴾ (١) وقال ﴿ فسبح باسم ربك ﴾ (٢) وقال الله تعالى ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام ﴾ (٣) والباء زائدة ، وتقـديره اقرأ إسم ربك.

وقوله ﴿ الذي خلق ﴾ فى موضع جر ، نعت ل ﴿ ربك ﴾ الذي خلق الخلائق وأخرجهم من العدم إلى الوجود . وقوله﴿خلق الانسان من علق ﴾ تخصيص لبعض ما ذكره بقوله ﴿ الذي خلق ﴾ لانه يشتمل على الانسان وغيره ، وإنما أفرد الانسان بالذكر تشريفاً له وتنبيهاً على ما خصه الله به من سائر الحيوان ، وبين أنه مع ذلك خلقهالله من علق ، وهو القطعة الجامدة من الدم ، وإنما قال ﴿ علق ﴾ وهو جمع علقة لأن المراد بالانسان الجمع ، لأنه إسم جنس ، وسمي به قطع الدم التي تعلق لرطوبتها بما تمر به ، فاذا جفت لا تسمى علقاً ، وواحدها (علقة) مثل شجرة وشجر . وعلق فى معنى الجمع ، لان الانسان جمع على طريق الجنس ، والنطفة تستحيل فى الرحم علقة ثم مضغة ويسمى ضرب من الدود الأسود العلق ، لأنه يعلق على الشفتين لداء يصيبها فيمتص الدم . وفي خلق الانسان من علق دليل على ما يصح أن ينقلب اليه الجوهر .

وقوله﴿ اقرأوربك الاكرم ﴾ معناه اقرأ القرآنوربك الاكرم، ومعنى الأكرم: الأعظم كرماً وفىصفة اللهتعالى معناه الأعظم كرماً بمالا يبلغه كرم ، الذي يثيبك على عملك بما يقتضيه كرمه ، لأنه يعطي من النعم ما لا يقدر على مثله غيره ، فكل نعمة من جهته تعالى ، إما بأن اخترعها أو سببها وسهل الطريق اليها .

---

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ١١٠ (٢) سورة ٦٩ الحاقة آية ٥٢

(٣) سورة ٥٥ الرحمن آية ٧٨

وقوله﴿ الذي علم بالقلم ﴾ (الذي) في موضع رفع، لانه نعت لقوله ﴿وربك﴾ والمعنى إنه تعالى امتن على خلقه بما علمهم من كيفية الكتابة بالقلم ، لما في ذلك من كثرة الانتفاع لخلقه ، فقد نوّه الله بذكر القلم إذ ذكره في كتابه ، وقد وصف بعض الشعراء القلم فقال :

لعاب الافاعي القاتلات لعابه   وأري الجنا اشتارته أيد عواسل

وقوله ﴿ علم الانسان ما لم يعلم ﴾ امتنان من الله تعالى على خلقه بأن علمهم ما لم يكونوا عالمين به إما بخلق العلوم في قلوبهم من الضروريات أو بنصب الأدلة لهم على الوصول اليها فيما لم يعلموه ضرورة ، وذلك من أعظم نعم الله تعالى على خلقه . وفي ذلك دلالة على انه تعالى عالم لان العلم لا يقع إلا من عالم ،

وقوله ﴿ كلا ﴾ردع وزجر وتقديره ارتدعوا وانزجروا معاشر المكلفين ، ثم اخبر ﴿ إن الانسان ليطغى ﴾ ويحتمل أن يكون بمعنى حقاً على وجه القسم بأن الانسان ليطغى أي ليجاوز الحد في العصيان والخروج عن الطاعة ﴿أن رآه استغنى ﴾ أي إذا كثر ماله واستغنى بطر وطغى ، وخرج عن الحد المحدود له ، ويجوز أن يقال : زيد رآه استغنى من الرؤية بمعنى العلم ، ولا يجوز من رؤية العين ، زيد (رآه) حتى تقول رأى نفسه ، لان الذي يحتاج إلى خبر جاز فيه الضمير المتصل لطول الكلام بلزوم المفعول الثاني . وقرأ ابو عمرو ﴿ رآه ﴾ بفتح الراء وكسر الهمزة . وقرأ نافع وحفص عن عاصم بالفتح فيهما . الباقون بفتح الراء وبعد الهمزة الف على وزن ﴿ وعاه ﴾ على أمالة الفتحة ، وابو عمرو يميل الالف .

ثم قال على وجه التهديد لهم ﴿ ان إلى ربك الرجعى ﴾ فالرجعى والمرجع والرجوع واحد أي مصيرهم ومرجعهم إلى الله فيجازيهم الله على أفعالهم على الطاعات بالثواب ، وعلى المعاصي بالعقاب .

وقوله ﴿ أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى ﴾ تقرير للنبي ﷺ وإعلام له ما يفعله بمن ينهاه عن الصلاة . وقيل : إن الآيات نزلت فى أبي جهل بن هشام ، والمراد بالعبد فى الآية النبي ﷺ فان أبا جهل كان ينهى النبي ﷺ عن الصلاة وكان النبي ﷺ لما قال ابو جهل : ألم انهك عن الصلاة انتهره واغلظ له ، فقال أبو جهل ، أنا اكثر أهل هذا الوادي نادياً ـ ذكره ابن عباس وقتادة ـ والمعنى أرأيت يا محمد ﷺ من فعل ما ذكرناه من منع الصلاة ، وينهى المصلين عنها ؟ ماذا يكون جزاؤه ؟ وما يكون حاله عند الله ؟ وما الذى يستحقه من العقاب ؟ .

قوله تعالى :

﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (١٩) تسع آيات.

لما قال للنبي ﷺ ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ بين ما ينبغي أن يقال له فانه يقال له ﴿ أرايت إن كان ﴾ هذا الذي صلى ﴿ على الهدى ﴾ والطريقة الصحيحة ﴿ أو أمر بالتقوى ﴾ أي بأن يتقي معاصي الله كيف يكون حال من ينهاه عن الصلاة ويزجره عنها ؟ ! ثم قال للنبي ﷺ ﴿ أرايت إن كذب وتولى ﴾ بما يقال له وأعرض عن قبوله . والاصغاء اليه ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ أي يعلم ما يفعله ويدرك ما يصنعه ، فالهدى البيان عن الطريق المؤدي إلى الغرض الحكمي يقال :

هداه إلى الحق في الدين يهديه هدى ، والعمل بالبيان عن طريق الرشد هدى ، وكذلك باللطف فيه . والتقوى تجنب ما يؤدي إلى الردى ، اتقاه اتقاء وتقوى والاصل وقياً . فابدلت الواو تاء ، والياء واواً ، لأن التاء أحسن أولا من الواو مع مناسبتها بالقرب وإمتناع المخرج ، والتقدير أرايت الذي فعل هذا الفعل ماالذى يستحق بذلك من الله من العقاب . ثم قال على وجه التهديد ﴿ كلا لئن لم ينته ﴾ عن هذا الفعل والقول ﴿ لنسفعاً بالناصية ﴾ أي لنغيرن بها إلى حال تشويه ، يقال : سفعته النار والشمس إذا غيرت وجهه إلى حال تشويه ، وقيل :هو أن يجر بناصيته إلى النار ، والناصية شعر مقدم الرأس . وهو من ناصى يناصي مناصاة إذا واصل قال الراجز :

قيّ يناصيها بلاد قيّ (١)

فالناصية متصلة بشعر الرأس . وقوله ﴿ ناصية ﴾ بدل من ﴿ الناصية ﴾ بدل النكرة من المعرفة ووصفها بأنها ﴿ كاذبة خاطئة ﴾ ومعناه أن صاحبها كاذب فى اقواله خاطىء في أفعاله وأضاف الفعل اليها لما ذكر الخبر بها . وقوله ﴿ فليدع ناديه ﴾ وعيد للذي قال : أنا اكثر هذا الوادي نادياً بأن قيل له ﴿ فليدع ناديه ﴾ إذا حل عقاب الله به . وقال ابو عبيدة : تقديره : فليدع أهل ناديه ، كقوله ﴿ واسأل القرية ﴾(٢)والنادى الفناء ومنه قوله ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ (٣) ثم قال «سندع» نحن ﴿ الزبانية ﴾ يعني الملائكة الموكلين بالنار ـ في قول ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك ـ وقال أبو عبيدة : واحد الزبانية زبينة ، وقال الكسائي واحدهم زبني . وقال الاخفش : واحدهم زابن . وقيل : زبنية . ويجوز أن يكون اسماً للجمع مثل

---

(١) مر في ٦\ ١١ و ٩ /٤٧٧ ، ٥٠٨ (٢) سورة ١٢ يوسف آية ٨٢
(٣) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢٩

ابابيل ، والزبن الدفع ، والناقة تزبن الحالب أي تركضه برجلها ، وقال الشاعر :

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب لم يترمرم

ثم قال ﴿ كلا ﴾ أي ارتدع وانزجر ﴿ فلا تطعه ﴾ أي لا تطع هذا الكافر ، فانه ليس الامر على ما يظن هذا الكافر وهو أبو جهل الذي نزلت الآيات فيه « واسجد » لله تعالى وأطعه « واقترب » من ثوابه بطاعته . وقيل : معناه تقرب اليه بطاعته دون الرياء والسمعة . والسجود ـ هنا ـ فرض وهو من العزائم ، وهي أربعة مواضع : ألم تنزيل ، وحم السجدة ، والنجم ، واقرأ باسم ربك . وما عداها في جميع القرآن مسنون ليس بمفروض . وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف .

٩٧ - سورة القدر

مدنية في قول الضحاك . وقال عطاء الخراساني هي مكية ، وهي
خمس آيات بلا خلاف .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (٥) خمس آيات

قرأ الكسائي وخلف « مطلع الفجر » بكسر اللام على معنى وقت طلوعه . الباقون بالفتح على المصدر ، وروي عن ابن عباس انه قرأ « من كل امرىء » بمعنى من الملائكة . الباقون « من كل أمر » بمعنى الواحد من الامور .

يقول الله تعالى مخبراً انه أنزل القرآن في ليلة القدر ، فالهاء كناية عن القرآن ، وإنما كني عما لم يجر له ذكر ، لأنه معلوم لا يشتبه الحال فيه . وقال ابن عباس: أنزل الله القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ، وقال الشعبي : إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر ، وليلة القدر هي الليلة التي يحكم الله فيها ويقضي بما يكون في السنة بأجمعها من كل أمر - في قول الحسن ومجاهد - يقال : قدر الله هذا الأمر يقدره قدراً إذا جعله على مقدار ما تدعو اليه الحكمة . وقيل : فسر الله تعالى ليلة

القدر بقوله « فيها يفرق كل أمر حكيم » (١) وقيل : سميت ليلة القدر لعظم شأنها وجلالة موقعها من قولهم: فلان له قدر والأول أظهر ، وليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان بلا خلاف، وهي ليلة الافراد بلا خلاف . وقال اصحابنا: هي احدى الليلتين إما ليلة احدى وعشرين او ثلاث وعشرين ، وجوز قوم : أن يكون سائر ليالي الافراد إحدى وعشرين وثلاث وعشرين، وخمس وعشرين ،وسبع وعشرين وتسع وعشرين ، وجوزوا أيضاً تقديمها في سنة وتأخيرها في أخرى ، وإنما لم تعين هذه الليلة ليتوفر العباد على العمل في سائر الليالي . والقدر كون الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان ، ففي ليلة القدر تجدد الأمور على مقاديرها جعلها الله في الآجال والارزاق والمواهب التي يجعلها الله للعباد ، ويقع فيها غفران السيئات ويعظم منزلة الحسنات على ما لا يقع في ليلة من الليالي ، فينبغي للعاقل أن يرغب فيما رغبه الله بالمبادرة إلى ما أمر به على ما شرط فيه . والاوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون من الخير الجزيل والنفع الكثير فيها دون غيرها فلما جعل الله تعالى الخير الكثير يقسم في ليلة القدر بما جعله الله فيها من هذا المعنى ، ولذلك قال « وما أدراك ما ليلة القدر » تعظيماً لشأنها وتفخيماً ، وانك يا محمد لا تعلم حقيقة ذلك .

ثم بين تعالى ذلك فقال « ليلة القدر خير من الف شهر » والمعنى إن الثواب على الطاعة فيها خير يفضل على ثواب كل طاعة تفعل في الف شهر ليس فيها ليلة القدر . وقيل إن الله يتفضل على خلقه في هذه الليلة وينعم عليهم بما لا يفعل في الف شهر ليس فيها ليلة القدر وبما لا يكون مثله في الف شهر وكانت افضل من الف شهر

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٤

ليس فيها ليلة القدر . والشهر في الشرع عبارة عن ما بين هلالين من الأيام ، وسمي شهراً لاشتهاره بالهلال . وقد يكون الشهر ثلاثين ويكون تسعة وعشرين إذا كانت هلالية . فان لم تكن هلالية فهي ثلاثون . وقوله « تنزل الملائكة والروح فيها » معناه تنزل الملائكة والروح الذي هو جبرائيل بكل أمر في ليلة القدر إلى سماء الدنيا حتى يعلمه أهل سماء الدنيا ، فيكون لطفاً لهم وحتى يتصوره العباد ينزل بأمر الله اليها ، فتنصرف آمالهم إلى ما يكون منها فيقوى رجاؤهم بما يتجدد من تفضل الله فيها . وقيل : إن نزولها بالسلامة والخير والبركة إلى تلك الساعة « باذن ربهم من كل أمر » أي ما ينزلون به كله بأمر الله . ويكون الوقف ـ ههنا ـ تاماً على ما قرأ به القراء المشهورون ، وعلى ما حكيناه عن ابن عباس وهو قول عكرمة والضحاك : لا يكون تاماً .

وقوله « سلام هي حتى مطلع الفجر » قيل هو سلام الملائكة عليهم السلام بعضهم على بعض إلى طلوع الفجر . وقيل : معناه سلام هي من الشر حتى مطلع الفجر ـ ذكره قتادة ـ وقيل إن فضل الصلاة فيها والعبادات على الف شهر يراد بها الى وقت طلوع الفجر ، وليست كسائر الليالي التي فضلت بالعبادة في بعضها على بعض والمطلع الطلوع ، والمطلع موضع الطلوع ، وجر (مطلع) بـ (حتي) لانها إذا كانت بمعنى الغاية خفضت الاسم باضمار (الى) ونصبت الفعل باضمار (الى أن) كقولك : دخلت الكوفة حتى مسجدها ، أي حتى انتهيت إلى مسجدها ، والفعل كقولك : أسير حتى ادخلها ، بمعنى الى ان أدخلها .

٩٨ ـ سورة البيِّنة

مدنية في قول ابن عباس والضحاك، وهي ثمان آيات في الكوفي والمدنيين، وتسع في البصري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (٤) وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ * حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أُولَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ (٧) جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا * رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (٨) ثمان آيات.

قرأ نافع وابن عامر - في رواية ابن ذكوان « خير البرئية » و « شر البرئية » مهموزتان الباقون بغير همز . من همز جعله من (برأ الله الخلق يبرؤهم) ومنه البارىء ومن لم يهمز يجوز أن يكون خفف . ويجوز أن يكون من البري الذى هو التراب ، كما يقال : بفاك من سار إلى القوم البرىء . وروى أبو نشيط من طريق القرطي « لمن خشي ربه » بضم الهاء من غير اشباع . الباقون بضم الهاء ووصلها بواو في اللفظ

يقول الله تعالى « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة » قال الحسن وقتادة معناه لم يكونوا منتهين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة . وقال قوم : معناه لم يكونوا منفكين من كفرهم أي زائلين . وقيل : معناه لم يكونوا ليتركوا منفكين من حجج الله حتى تأتيهم البينة التي تقوم بها الحجة عليهم وقال الفراء : معناه لم يكونوا منفكين من حجج الله بصفتهم للنبي صلى الله عليه وآله أنه في كتابهم وقيل معناه لم يكونوا زائلين من الدنيا ، والانفكاك على وجهين : على لا يزال ولابد لها من خبر وحرف الجحد . ويكون على الانفصال فلا يحتاج إلى خبر ولا حرف جحد ، كقولك انفك الشيء من الشيء قال ذو الرمة :

قلايص ما تنفك إلا مناخـــة　　على الخسف أو يرمى بها بلداً قفرا (١)

فجعله الفراء من (انفك الشيء من الشيء) وجعله غيره من (ما يزال) إلا أنه ضرورة . والانفكاك إنفصال عن شدة اجتماع . واكثر ما يستعمل ذلك في النفي كما أن (ما زال) كذلك تقول : ما انفك من هذا الأمر أي ما انفصل منه لشدة ملابسته له . والمعنى أن هؤلاء الكفار من أهل الكتاب يعني اليهود والنصارى ومن المشركين يعني عباد الاصنام لا يفارقون الكفر إلى أن تأتيهم البينة يعني الحجج الظاهرة التي يتميز بها الحق من الباطل ، وهي من البينونة . وفصل الشيء من غيره

(١) ديوانه ١٧٣ (كبريج) وروايته (حرجج) بدل (قلايص)

فالنبي صلى الله عليه وآله حجة وبينة ، وإقامة الشهادة العادلة بينة، وكل برهان ودلالة فهو بينة .

وقوله « رسول من الله » هو بيان تلك البينة، بينها بأنه رسول من قبل الله يتلو عليهم صحفاً مطهرة ، يعني في السماء لا يمسها إلا الملائكة المطهرون من الأنجاس

وقوله « فيها كتب قيمة» معناه في تلك الصحف كتب جمع كتاب « قيمة » فالقيمة المستمرة في جهة الصواب ؛ فهو على وزن (فيعلة) من قام الأمر يقوم به إذا أجراه في جهة الاستقامة . وقال قتادة : صحفاً مطهرة يعني من الباطل وهو القرآن يذكره بأحسن الذكر ويثني عليه بأحسن الثناء .

وقوله « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة » اخبار من الله تعالى أن هؤلاء الكفار لم يختلفوا في نبوة النبي صلى الله عليه وآله لأنهم مجمعين على نبوته بما وجدوه في كتبهم من صفاته ، فلما أتاهم بالبينة الظاهرة والمعجزة القاهرة تفرقوا واختلفوا ، فآمن بعضهم وكفر بعضهم . وفي ذلك دلالة على بطلان قول من يقول : إن الكفار خلقوا كفاراً في بطون إمهاتهم ، لأنه تعالى بين أنهم لم يختلفوا في ذلك قبل مجيء معجزاته وأدلته ، ولا يلزم على ذلك أن يكون مجيء الآيات مفسدة من حيث وقع الفساد عندها ، لانه ليس حد المفسدة ما يقع عنده الفساد ، بل حده ما يقع عنده الفساد ولولاه لم يقع ،من غير أن يكون تمكيناً ، وههنا المعجزات تمكين فلم يكن مفسدة.

ثم قال تعالى « وما أمروا » أي لم يأمرهم الله تعالى « إلا ليعبدوا الله » وحده ولا يشركوا بعبادته غيره « مخلصين له الدين » لا يخلطون بعبادته عبادة سواه .

وقوله « حنفاء » جمع حنيف ، وهو المائل إلى الحق ، والحنفية الشريعة المائلة إلى الحق . وأصله الميل ، ومن ذلك الاحنف : المائل القدم إلى جهة القدم الاخرى . وقيل : أصله الاستقامة ، وإنما قيل للمائل القدم أحنف على وجه التفاؤل . وقوله

« ويقيموا الصلاة » أي يدوموا عليها ويقوموا بحدودها « ويؤتوا الزكاة » المفروضة من أموالهم. ثم قال « وذلك دين القيّمة » أي ذلك الذي تقدم ذكره دين القيمة وتقديره ذلك دين الملة القيمة والشريعة القيمة .

وقوله « وما أمروا إلا ليعبدوا الله » دليل على فساد مذهب المجبرة : ان الله خلق الكفار ليكفروا به ، لانه صرح ههنا أنه خلقهم ليعبدوه . وليس في الآية دلالة على أن أفعال الجوارح من الايمان ، ولا من الدين ، لأنه يجوز أن يكون المراد « وذلك » إشارة إلى الدين ، وتقديره والدين بذلك هو دين القيمة ، لأن من لا يعتقد جميع ذلك ويؤمن بجميع ما يجب عليه فليس بمسلم . وقد تقـــدم قوله « مخلصين له الدين » ثم قال « وذلك » يعني وذلك الدين « دين القيمة » وليس يلزم أن يكون راجعاً إلى جميع ما تقـدم ، كما لا يلزم على مذهبهم في قوله « ومن يفعل ذلك يلق أثاماً » (١) أن يكون راجعاً إلى الشرك ، وقتل النفس والزنا ، بل عندهم يرجع إلى كل واحد من ذلك . فكذلك ـ ههنا ـ وقد أستوفينا ما يتعلق بذلك في كتاب الاصول .

وفي الآية دلالة على وجوب النية في الطهارة ، لأنه بين تعالى أنه أمرهم بالعبادة على الاخلاص ، ولا يمكن ذلك إلا بالنية والقربة ، والطهارة عبادة لقوله صلى الله عليه وآله (الوضوء شطر الايمان) وما هو شطر الايمان لا يكون إلا عبادة .

ثم اخبر تعالى عن حال الكفار والمشركين فقال « إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين» يعني من جحد توحيد الله وأنكر نبوة نبيه وأشرك معه إلهاً آخر في العبادة « في نار جهنم » معاقبين فيها جزاء على كفرهم « خالدين فيها » أي مؤبدين لا يفنى عقابهم . ثم قال « أولئك هم شر البرية » أي شر الخليقة ، والبرية

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٨

(فعيلة) من برأ الله الخلق إلا أنه ترك فيها الهمز ، ومن همز فعلى الاصل . ويجوز أن يكون (فعيلة) من البري وهو التراب .

ثم أخبر عن حال المؤمنين فقال « إن الذين آمنوا » بالله وأقروا بتوحيده واعترفوا بنبوة نبيه « وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » أي هم أحسنهم حالة . وإنما أطلق بأنهم خير البرية ، لان البرية هم الخلق ، ولا يخلوا أن لا يكونوا مكلفين ، فالمؤمن خير منهم لا محالة . وإن كانوا مكلفين : فاما أن يكونوا مؤمنين أو كافرين أو مستضعفين ، فالمؤمن خيرهم أيضاً لا محالة بما معه من الثواب .

وقوله « جزاؤهم عند ربهم » يعني جزاء إيمانهم وطاعاتهم عندالله يوفيهم الله يوم القيامة . ثم فسر ذلك الجزاء فقال « جنات عدن » أي بساتين إقامة « خالدين فيها » أى مؤبدين فيها « أبداً رضي الله عنهم » أي رضي أفعالهم « ورضوا عنه » بما فعل بهم من الثواب . والرضا هو الارادة ، إلا أنها لا تسمى بذلك إلا إذا وقع مرادها ، ولم يتعقبها كراهية ، فتسمى حينئذ رضا ، فأما الارادة لما يقع في الحال او فيما يفعل بعد ، فلا تسمى رضا ، فرضى الله عن العباد إرادته منهم الطاعات التي فعلوها ، ورضاهم عنه إرادتهم الثواب الذى فعله بهم ، ثم قال « ذلك لمن خشي ربه » أي ذلك الرضا والثواب والخلود في الجنة لمن خاف الله فترك معاصيه وفعل طاعاته .

٩٩ ـ سورة الزلزال

مدنية في قول ابن عباس وقال الضحاك مكية ، وهي ثمان آيات في الكوفي والمدني الأول ، وتسع آيات في البصري والمدني الأخير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا * لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٨) ثمان آيات .

قرأ عاصم في رواية أبان عنه « خيراً يره وشراً يره » بضم الياء فيهما بمعنى انه يريه غيره . الباقون بفتح الياء بمعنى أنه يراه ويبصره . وقرأ ابن عامر ـ في رواية هشام ـ وابن عامر والكسائي عن أبي بكر ـ بسكون الهاء ـ في قوله « خيراً يره ، وشراً يره » الباقون بالاشباع فيهما . قال ابو علي : الاشباع هو الأصل ، وهو الوجه ، كما تقول : اكرمهو ، وضربهو . وإنما يجوز إسكانها في الشعر . وقد حكى ابو الحسن أنها لغة رديئة فمن سكن فعلى هذه اللغة . وقرأ ابو جعفر من طريق

ابن العلاف وروح ـ بضم الياء ـ من غير صلة بواو فيهما وقد بينا الوجه فيه .

يقول الله تعالى مخوفاً لعباده أهوال يوم القيامة ومنذراً لهم بالآيات الباهرة بأن قال « إذا زلزلت الأرض زلزالها » فالزلزلة شدة الاضطراب بما يهدم البنيان زلزل يزلزل زلزالا ، فكأنه مكرر (زل ، يزل) للتكثير والتعظيم، والزلزال ـ بكسر الزاي ـ المصدر . وبالفتح الاسم . وقال الحسن : زلزلت ورجت ورجفت بمعنى واحد

وقوله « وأخرجت الأرض أثقالها » قال ابن عباس ومجاهد : معناه أخرجت موتاها . وأثقال الارض ما فيها مدفون من الموتى وغيرها ، فان الأرض تلفظ بكل ما فيها عند انقضاء أمر الدنيا ، وتجديد أمر الآخرة .

وقوله « وقال الانسان مالها » معناه يقول الانسان : أي شيء اصارها إلى هذه الحالة التي ترى بها ، يقول الانسان ذلك متعجباً من عظم شأنها وأنه لأمر عظيم لفظت بما فيها ، وتخلت من جميع الامور التي استودعها . وقوله « يومئذ تحدث أخبارها » قيل معناه يظهر بالدليل الذي يجعله الله فيها ما يقوم مقام اخبارها بأن أمر الدنيا قد انقضى وأمر الآخرة قد أتى ، وإنه لابد من الجزاء وأن الفوز لمن اتقى وأن النار لمن عصى . وقيل : معناه تحدث أخبارها بمن عصا عليها إما بأن يقلبها حيواناً قادراً على الكلام فتتكلم بذلك أو يحدث الله تعالى الكلام فيها ، ونسبه اليها مجازاً او يظهر فيها ما يقوم مقام الكلام فعبر عنه بالكلام ، كما قال الشاعر :

امتلأ الحوض وقال قطني   مهلا رويداً قد ملأت بطني(١)

وقال آخر :

---

(١) مر في ١ / ٢٣١ و ٨ | ٨٥ ، ٣١٩ ، ٤٧ و ٩ | ٤١١ ، ٣٦٩

وقالت له العينان سمعاً وطاعة (١)

ويقولون عيناك تشهد لسهرك ، وغير ذلك مما قد مضى نظائره . وقال ابن مسعود : الارض تتكلم يومئذ ، فتقول أمرني الله بهذا . وقوله « بأن ربك أوحى لها » معناه إن الارض تحدث بهذا ، فتقول : إن ربك يا محمد أوحى اليها . قال العجاج :

وحى لها القرار فاستقرت (٢)

أي أوحى اليها بمعنى ألقى إليها من جهة تخفى يقال : أوحى ووحى بمعنى واحد ، ثم قال تعالى « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم » اخبار من الله تعالى بأن ذلك اليوم يصدر الناس اشتاتاً أي مختلفين « ليروا أعمالهم » أي ليجازوا على أعمالهم او ليريهم الله جزاء أعمالهم وقيل : معنى رؤية الأعمال المعرفة بها عند تلك الحال ، وهي رؤية القلب ، ويجوز أن يكون التأويل على رؤية العين بمعنى ليروا صحائف أعمالهم يقرؤن ما فيها لقوله « وقالوا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها » وقيل ليروا جزاء اعمالهم حسب ما قدمناه . وقيل يرى الكافر حسناته فيتحسر عليها ، لانها محبطة ، ويرى المحسن سيئاته مكفرة وحسناته مثبتة

ثم قال تعالى على وجه الوعيد « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » قال ابو عبيدة : مثقال ذرة شراً يره أي يرى ما يستحق عليه من العقاب ، ويمكن أن يستدل بذلك على بطلان الاحباط ، لان عموم الآية يدل أنه لا يفعل شيئاً من طاعة أو معصية إلا ويجازي عليها وعلى مذهب القائلين بالاحباط بخلاف ذلك ، فان ما يقع محبطاً لا يجازى عليه ولا يدل على أنه لا يجوز

(١) مر في ١ / ٢٣١ و ٦ / ٤٥ و ٨ / ٤٧٢ ، ٤٧٩

(٢) مر في ٢ / ٤٥٩ و ٣ / ٨٤ و ٤ / ٦١ و ٦ / ٤٠٣

أن يعفى عن مرتكب كبيرة ، لأن الآية مخصوصة بلا خلاف ، لأنه ان تاب عفي عنه وقد شرطوا أن لا يكون معصية صغيرة ، فاذا شرطوا الامرين جاز أن نخص من يعفو الله عنه .

١٠٠ ـ سورة العاديات

مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك : هي مدنية ، وهي إحدى عشرة آية بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (٥) إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾ (١١) احدى عشرة آية .

قوله « والعاديات ضبحاً » قسم من الله تعالى بالعاديات . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وعطاء : يعني الخيل تضبح ضبحاً ، فضبحاً نصب على المصدر . وقال

عبد الله بن مسعود : يعني الابل ، فعلى قول ابن عباس أراد ضبح الخيل في الجهاد والحرب . وقال ابن مسعود : أراد ضبح الابل في طريق الحج . وروي عن علي عليه السلام أن المراد به الابل ، لانه لم يكن يومئذ خيل المسلمين . والضبح في الخيل اظهر عند أهل اللغة . وروي عن علي عليه السلام أن الضبح في الخيل الحمحمة عند العدو وقيل الضبح شدة النفس عند العدو . وضبحت الخيل تضبح ضبحاً وضباحاً . وقال أبو عبيدة :ضبح وضبع بمعنى واحد أي تمد أضباعها في السير .

وقوله « فالموريات قدحاً » معناه المظهرات بسنابكها النار قدحاً ، يقال : أورى القادح النار يوري ايراء إذا قدح قدحاً ، وتسمى تلك النار نار الحباحب لضعفها ، قال النابغة :

تجذ السلوقي المضاعف نسجه   ويوقدن بالصفاح نار الحباحب(١)

وهو رجل بخيل كانت ناره ضعيفة لئلا يراها الاضياف . وقال قتادة والضحاك وعطاء « فالموريات قدحاً » الخيل حين توري النار بسنابكها . وقال ابن عباس : هم الذين يورون النار بعد إنصرافهم من الحرب ، وقال مجاهد : يعني ابطال الرجال . وقال عكرمة : الاسنة .

وقوله « فالمغيرات صبحاً » قال ابن عباس: يعني الخيل في سبيل الله . وقيل: إنما ذكر (صبحاً) لانهم كانوا يسيرون إلى العدو ليلا فيأتوهم صبحاً ، وقيل : إنهم لعزهم أغاروا نهاراً . وقيل إنما أقسم بالمغيرات صبحاً لعظم شأنها في الغارة على أعداء الله من المشركين ومعناه أمر الغارة عظيم ، وإنما القسم تنبيه على عظم الشأن وتأكيد للاخبار .

وقوله « فأثرن به نقعاً » إخبار منه تعالى أن هذه الخيل تثير الغبار بعدوها

(١) مر في ٦ \ ٧١

وسمي الغبار النقع ، لانه يغوص فيه صاحبه كما يغوص في الماء يقال : نقعه ينقعه نقعاً ، فهو ناقع ، وأستنقع إستنقاعاً وانتقع انتقاعاً . وقال قتادة : النقع الغبار . وقيل : الهاء في قوله « به » عائد إلى معلوم أي بالمكان أو بالوادي

وقوله « فوسطن به جمعاً » قال قتادة : يعني وسطن بذلك المكان جمع العدو . وقال مجاهد : يعني جمع الفريقين . وقوله « إن الانسان لربه لكنود » جواب القسم ومعناه ـ في قول ابن عباس وقتادة والحسن ومجاهد وابن زيد ـ لكفور ، فالكنود الكفور ومنه الارض الكنود التي لا تنبت شيئاً ، وأصله منع الحق والخير ، قال الاعشى :

احدث لها تحدث لوصلك إنها كند لوصل الزائر المعتاد (١)

وقيل : إنها سميت كندة لقطعها إياها عن سماك .

وقوله « وإنه على ذلك لشهيد » قال الحسن : معناه إن حسن الانسان على ذلك لشاهد . وقال قتادة . تقديره وإن الله على ذلك لشهيد . وقوله « وإنه لحب الخير لشديد » قيل تقديره وإنه لشديد الحب للخير . وقيل : معناه وإنه لشديد الحب المال ، فهو يظلم الناس بمنعه . وقال الحسن : لشديد معناه لشحيح يمنع منه حق الله . وقال المبرد والربيع : معناه من أجل حب الخير الذي هو المال أو الملك لبخيل ثم قال على وجه التنكير على الانسان والوعيد له « أولا يعلم » يعني الانسان الذي وصفه « إذا بعثر ما في القبور » معناه اثير ما في القبور وأخرج ، ومثله بحثر . وقوله « وحصل ما في الصدور » قال سفيان : معناه ميز الحق من الباطل . وقال غيره : معناه جمع وأبرز .

وقوله « إن ربهم بهم يومئذ لخبير » اخبار من الله تعالى واعلام لخلقه أن الذي خلقهم ودبرهم في ذلك اليوم بهم لعالم خبير بأحوالهم لا يخفى عليه شيء .

---

(١) مجاز ٢ / ٣٠٧

من ذلك .

وكان سبب نزول هذه السورة أن النبي ﷺ بعث سرية إلى حيين من كنانة واستعمل عليهم أحد النقباء : المنذر بن عمرو الأنصاري . فغابت عن النبي ﷺ ولم يعلم لها بخبر فأنزل الله تعالى السورة وأخبر بحال القوم .

١٠١ ـ سورة القارعة

مكية في قول ابن عباس والضحاك ، وهي إحدى عشرة آية في الكوفي وعشر في المدنيين وثمان في البصري



﴿ أَلْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ (١١) احدى عشر آية .

قرأ حمزة ويعقوب ﴿ما هي﴾ بحذف الهاء في الوصل . الباقون باثباتها ، ولم

يختلفوا في الوقف أنه بالهاء ومعنى (القارعة) البلية التي تقرع القلب بشدة المخافة تقول : قرع يقرع قرعاً وهو الصوت بشدة اعتماد ، ومنه انشقت القرعة ، وتقارع القوم في القتال إذا تضاربوا بالسيوف ، وقرع رأسه إذا ضرب في أعلى الشعر حتى يذهبه ، والقرعة كالضرب بالفال . وقال وكيع : القارعة ، والواقعة ، والحاقة القيامة .

وقوله « وما أدراك ما القارعة » تعظيم لشأنها ، وتفخيم لامرها وتهويل لشدتها . ومعناه وأي شيء القارعة . ومعناه إنك يا محمد ﷺ لا تعلم كبر وصفها وحقيقة أمرها على التفصيل وإنما تعلمها على طريق الجملة . ثم وصفها الله تعالى فقال « يوم تكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » والمعنى إن القارعة التي وصفها وذكرها تقرع القلوب يوم تكون الناس بهذه الصفة . والفراش الجراد الذي ينفرش ويركب بعضه بعضاً ، وهو غوغاء الجراد ـ في قول الفراء ـ وقال ابو عبيدة : هو طير يتفرش وليس بذباب ، ولا بعوض . وقال قتادة : الفراش هو هذا الطير الذي يتساقط في النار والسراج . والمبثوث المتفرق في الجهات ، كأنه محمول على الذهاب فيها ، يقال : بثه يبثه إذا فرقه ، وأبثثته الحديث إذا ألقيته اليه ، كأنك فرقته بأن جملته عند اثنين .

وقوله « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » فالعهن الصوف الالوان ـ في قول أبي عبيدة ـ قال زهير :

كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم (١)

ويقال : عهن وعهنة . وقيل : إن الخلائق لعظم ما يرونه من الاهوال ويغشاهم من العذاب يهيم كل فريق على وجهه ، ويذهب في غير جهة صاحبه .

وقوله « فاما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية » قال الفراء الموازين

---

(١) ديوانه ٧٧ (دار بيروت)

والاوزان واحد ، يقولون : هل لك في درهم بميزان درهمك ، ووزن درهمك . وقال الحسن : في الآخرة ميزان له كفتان . وهو قول الجبائي وأكثر المفسرين . ثم اختلفوا . فمنهم من قال : يجعل الله تعالى في احدى الكفتين نوراً علامة للطاعات وفي الآخرى ظلمة علامة للمعاصي فأيهما رجح على الآخر حكم لصاحبه به . وقال آخرون : إنما يوزن صحف الاعمال فما فيها الطاعات تجعل في كفة وما فيها المعاصي في كفة أخرى فايهما رجح حكم لصاحبه به . وقال قوم : الميزان عبارة عن العدل ومقابلة الطاعات بالمعاصي ، فايهما كان اكثر حكم له به وعبر عن ذلك بالثقل مجازاً لان الاعمال أعراض لا يصح وزنها ولا وصفها بالثقل والخفة ، قال الشاعر :

لقد كنت قبل لقائكم ذا مرة   عندي لكل مخاصم ميزانه (١)

يريدون كلامه في معارضته ، فبين الله تعالى أن من كانت طاعته أكثر كان ثوابه أعظم ، فيكون صاحبها « في عيشة راضية » أي مرضية ، ففاعل ـ ههنا ـ بمعنى المفعول ، لان معناه ذو رضا كقولهم (نابل) أي ذو نبل ، قال النابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصب   وليل اقاسيه بطيء الكواكب (٢)

أي ذو نصب وقال آخر :

وغررتني وزعمت أنك   لابن بالصيف تامر (٣)

أي ذو لبن وذو تمر .

وقال مجاهد « ثقلت موازينه » على جهة المثل ، ثم بين من كانت معاصيه أكثر وقلت طاعاته « فأمه هاوية » أي مأواه هاوية يعني ، جهنم ، وإنما سماها

---

(١) القرطبي ٢٠ / ١٦٦ والشوكاني ٥ / ٤٧٢
(٢) في س ٥ / ٣٦٨ و ٦ / ٩٥ ، ٣٢٩ و ٨ / ١٢٢ ، ٥٦٧
(٣) مر في ٨ / ٤٦٨

(أمه) لانه يأوي اليها كما يأوي الولد إلى أمه ، وسميت هاوية ـ لما قال قتادة وابو صالح ـ من أن العاصي يهوي إلى أم رأسه في النار .

ثم قال على وجه التفخيم والتعظيم لامرها « وما أدراك » يا محمد ﷺ « ما هيه » أي انك تعلمها على الجملة ولا تعلم تفصيلها وأنواع ما فيها من العقاب . والهاء في قوله « ماهيه » للسكت إلا أنه اجري الوصل معها مجرى الوقف ، ويجوز فيها الحذف ، ثم فسر الله تعالى فقال « نار حامية » أي هي نار حامية شديدة الحرارة

١٠٢ ـ سورة التكاثر

مكية في قول ابن عباس والضحاك وهي ثمان آيات بلا خلاف



﴿ أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (٨) ثمان آيات .

قرأ ابن عامر « آلهاكم » ممدوداً، وروي عن الكسائي ـ بهمزتين ـ والمراد به الانكار

وقرأ ابن عامر والكسائي « لترون » مضمومة التاء « ثم لترونها » مفتوحة التاء . الباقون بالفتح فيهما . قال أبو علي : وجه الضم أنهم يحشرون اليها فيرونها فى حشرهم إليها فيرونها ، ولذلك قرأ الثانية بالفتح ، كأنه أراد لترونها . ومن فتح فعلى انهم يرونها . وقوله « ثم لترونها » مثل الأول فى أنه من إبصار العين . وقيل : إن هذه السورة نزلت فى حيين من قريش ، وهما بنو أسهم وبنو عبد مناف ، تفاخروا حتى ذكروا الأموات ، فقال الله تعالى مخاطباً لهم « ألهاكم التكاثر » فالالهاء الصرف إلى اللهو واللهو الانصراف إلى ما يدعو اليه الهوى ، يقال : لها يلهو لهواً ، ولهى عن الشيء يلهي لهياً ، ومنه قوله (إذا استأثر الله بشيء فاله عنه) والتكاثر التفاخر بكثرة المناقب ، يقال : تكاثروا إذا تعادّوا مالهم من كثرة المناقب ، والمتفاخر متكبر لأنه تطاول بغير حق . فالتكاثر التباهي بكثرة المال والعدد . وقيل : ما زالوا يتباهون بالعز والكثرة حتى صاروا من أهل القبور وماتوا ـ ذكره قتادة ـ .

وقوله « حتى زرتم المقابر » فالزيارة إتيان الموضع ، كاتيان المأوى فى الالفة على غير اقامة ، زاره يزوره زيارة ، ومنه زوّر تزويراً إذا شبه الخط فيما يوهم أنه خط فلان وليس به ، والمزورة من ذلك اشتقت . وقيل فى معناه قولان : احدهما حتى ذكرتم الأموات . وقال الحسن : معناه حتى متم .

وقوله « كلا سوف تعلمون ، ثم كلا » معناه ارتدعوا وانزجروا « سوف تعلمون » فى القبر « ثم كلا سوف تعلمون » بعد الموت ـ روي ذلك عن علي عليه السلام ـ وقيل إنه يدل على عذاب القبر .

وقوله « كلا لو تعلمون علم اليقين » نصب « علم اليقين » على المصدر ، ومعناه ارتدعوا وانزجروا لو تعلمون علم اليقين ، وهو الذي يثلج الصدر بعد اضطراب الشك ولهذا لا يوصف الله بأنه متيقن .

وقوله « لترون الجحيم » يعني قبل دخولهم اليها فى الموقف .

وقوله « ثم لترونها » بعد الدخول اليها .

وقوله « عين اليقين » كقولهم هـذا محض اليقين . والمعنى إنكم لو تحققتم وتيقنتم أنكم ترون الجحيم وأنكم إذا عصيتم وكفرتم عوقبتم، لشغلكم هذا عن طلب التكاثر فى الاموال فى الدنيا ، ولا يجوز همز واو « لترون » لأنها واو الجمع ومثله ، واو « لتبلون » لا تهمز . وقوله « ثم لتسئلن » يعني معاشر المكلفين « يومئـذ عن النعيم » قال الحسن : لا يسأل عن النعيم إلا أهـل النار . وقال سعيد بن جبير وقتادة : النعيم فى المأكل والمشرب وغيرهما من المـلاذ . وقال عبد الله بن مسعود ومجاهد : النعيم الصحة . وقال قوم : يسألهم الله عن كل نعمة . والفرق بين النعيم والنعمة أن النعمة كالانعام فى التضمين لمعنى منعم ، أنعم انعاماً ونعمة ، وكلاهما يوجب الشكر . والنعيم ليس كذلك ، لانه من نعم نعيماً فلو عمل ذلك بنفسه لكان نعيماً لا يوجب شكراً . والنعمة ـ بفتح النون ـ من نعم ـ بضم العين ـ إذا لان . وقيل المعنى « لتسألن يومئذ عن النعيم » عن ولاية علي عليه السلام . وقيل : عن شرب الماء البارد . وقيل عن الأمن والصحة . وقيل عن النورة فى الحمام . وروي ذلك عن عمر بن الخطاب .

١٠٣ ـ سورة العصر

مكية في قول ابن عباس والضحاك ، وهي ثلاث آيات بلا خلاف في جملتها وإن اختلفوا في تفصيلها .



﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٣) ثلاث آيات .

هذا قسم من الله تعالى بالعصر . قال ابن عباس : المراد بالعصر ـ ههنا ـ الدهر . وهو قول الكلبي . وقال الحسن وقتادة : هو العشي ، وكلاهما فيه العبرة من جهة مرور الليل والنهار . وأصل العصر عصر الثوب ونحوه ، وهو فتله لاخراج مائه ، فمنه عصر الدهر ، لانه الوقت الذي يمكن فتل الامور كفتل الثوب . قال العجاج :

عصراً وحضناً عيشة المذلجا

أي الناعم ، وقال في العشي :

يروح بنا عمر وقد قصر العصر وفي الروحة الاولى الغنيمة والاجر (١)

وبه سميت العصر ، لانها تعصر بالتأخير ، والعصارة ما يعتصر من العنب

---

(١) القرطبي ٢٠ | ١٧٩ والشوكاني ٥ | ٤٨٨

وغيره ، و « المعصرات » السحائب التي تنعصر بالمطر . والأعصار غبار كالعمود يصعد إلى السماء . والعصر الالتجاء إلى الملجأ . والعصر الجارية التي قد دنا بلوغها لأنه عصر شبابها ، وانعصار ماء الشباب منها . والاعتصار استخراج المال من الانسان ، لانه ينحلب كما ينحلب ما يعصر . والعصران الغداة والعشي ، والعصران الليل والنهار . قال الشاعر :

ولن يلبث العصران يوم وليلة　　إذا طلبا ان يدركا ما تيمما (١)

وقوله ﴿ إن الانسان لفي خسر ﴾ جواب القسم . وفيه اخبار من الله أن الانسان يعني الكافر ﴿ لفي خسر ﴾ أي لفي نقصان بارتكاب المعاصي وكفره بالله والخسر هلاك رأس المال للانسان وبارتكاب المعاصي في هلاك نفسه خسران ، وهو اكبر من رأس ماله .

وقوله ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ استثناء من جملة الناس المؤمنين المصدقين بتوحيـــد الله باخلاص عبادته العاملين بالطاعات ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ أي تواصي بعضهم بعضاً بأتباع الحق وإجتناب الباطل ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ تواصي بعضهم بعضاً بالصبر على تحمل المشاق في طاعة الله . وقال الحسن وقتادة : الصبر على طاعة الله . والصبر حبس النفس عما تنازع اليه من الأمر حتى يكون الداعي إلى الفعل . وقد أمر الله تعالى بالصبر والتواضع . والحق ما دعا اليه العقل .

---

(١) القرطبي ٢٠ \ ١٧٩

١٠٤ ـ سورة الهُمزة

مكية فى قول ابن عباس والضحاك ، وهي تسع آيات بلا خلاف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) أَلَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرٰيكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ (٦) أَلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ (٩) تسع آيات .

قرأ حمزة والكسائي وخلف وابن عامر وابو جعفر وروح ﴿ جمع ﴾ بالتشديد على التكثير . الباقون بالتخفيف ، لأنه يقع على القليل والكثير . ومن شدد أراد جمعه من وجوه شتى شيئاً بعد شيء ﴿ وعدده ﴾ أي جعله عدة . ومن قرأ مخففاً أراد جمع مالا وعدداً أي وقوماً ذوي عدد أنصاراً . وقرأ أهل الكوفة إلا حفصاً ﴿ عمد ﴾ بضمتين جعلوه جمع عمود وعمد ، مثل قدوم وقدم ، وزبون وزبن . الباقون بفتح العين والميم ، لأنهم قد قالوا فى جمع عمود عمد ، كما قالوا فى جمع أديم أدم . وفى جمع أهاب أهب .

هذا وعيد من الله تعالى وتهديد ﴿ لكل همزة لمزة ﴾ فالهمزة الكثير الطعن

على غيره بغير حق،العائب له بما ليس فيه عيب لجهله وسفهه وشدة إقدامه على مكاره غيره ، يقال : همز الناس يهمزهم همزاً ، وهو همزة . ومثله ضحكة أي كثير الضحك وعيبة أي كثير العيب . فكذلك همزة كثير الهمز بالطعن . ومنه الهمزة في الكلام لانها تخرج كالطعنة بقوة اعتماد ، وقال ابن عباس: الهمزة الطعان . واللمزة المغتاب وقال زياد الاعجم :

تدلي بودي إذا لا قيتني كذبا وإن تغيبت فانت الهامز اللمز (١)

وقال ابن عباس : الهمزة اللمزة المشاء بالنميمة ، المفرق بين الاحبة الباغي المبرىء العيب بالمكابرة . وقيل : نزلت في مشرك بعينه كان يعيب الناس ويلمزهم ـ ذكره ابن عباس ـ وقال قوم : نزلت في الوليـد بن المغيرة . وقال السدي : نزلت هذه السورة في الاخنس ابن شريق ، وكان يهمز النبي ﷺ ويلمزه . وقيل : نزلت في جميل بن عامر الجهني . وقال مجاهد وورقاء وابن عباس : ليست خاصة لاحد بل هي عامة .

وقوله ﴿ الذي جمع مالا وعدده ﴾ نعت للهمزة الذي تقدم ذكره في أنه يجمع المال ويحبه ، ولا يخرج حق الله منه .

وقوله ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ معناه يظن هذا الذي جمع المال ، ولا يخرج حق الله منه أنه سيخلده . وقوله ﴿ اخلده ﴾ يخلده كما قيل أهلك إذا حدث به سبب الهلاك من غير أن يقع هلاكه بعد . وإنما ذلك بمعنى أوجب إخلاده وهلاكه وقيل : ليس المراد أنه يظن أنه لا يموت ، ولكن يحب أنه يبقى من ماله إلى أن يموت . وقيل : معناه إنه يعمل عمل من يحسب أن ماله أخلده . وقال الحسن : معناه يحسب أن ماله أخلده حتى يفنيه .

---

(١) مجاز القرآن ٢٥ / ٣١١

وقوله ﴿ كلا لينبذن في الحطمة ﴾ معناه ليقذفن وليطرحن من وصفناه بجمع المال ومنع حق الله في الحطمة . ثم قال ﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ تفخيماً لها . ثم فسرها فقال ﴿ نار الله الموقدة ﴾ أي هي نار الله الموقدة ، والحطمة الكثيرة الحطم أي الاكل ، ورجل حطمة . وحطم الشيء إذا كسره وأذهبه ، وتحطم إذا تكسر وأصله الكسر المهلك .

وقوله ﴿ التى تطلع على الافئدة ﴾ معناه يبلغ ألمها ووجعها الأفئدة ، تقول : اطلعت على أرض كذا إذا بلغتها ، وقوله ﴿ إنها ﴾ يعني النار ﴿ عليهم ﴾ يعني الكفار ﴿ مؤصدة ﴾ أي مطبقة ، يقال اصدت الباب أوصده إذا اطبقته ، وأوصدته إيصاداً لغتان ، ومنه قوله ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ (١) وابو عمرو يهمز (مؤصدة) إذا لين الهمز ، لئلا يخرج من لغة إلى لغة أخرى .

وقوله ﴿ فى عمد ممددة ﴾ فالعمد جمع عمود ، وقيل : جمع عماد ، كقولك : أهاب وأهب ، ويجوز عمد ، والعمود عمود مستدير مستطيل قوي على شدة الاعتماد . وقال ابن مسعود : معناه إن النار مطبقة بعمد ممددة . وقال ابن عباس : فى عمد مغللين بها . وقال قتادة : فى عمد يعذبون بها . وقيل : الاطباق بالعمد الممددة ليتأكد يأسهم من الخروج منها .

---

(١) سورة ١٨ الكهف آية ١٨

١٠٥ - سورة الفيل

مكية في قول ابن عباس والضحاك وهي خمس آيات بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ (٥) خمس آيات

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله ويتوجه إلى جميع المكلفين من قومه، يقول لهم على وجه التنبيه على عظم الآية التي اظهرها والمعجزة التي فعلها، منبهاً بذلك على توحيده ووجوب إخلاص العبادة له ، فقال ﴿ ألم تر ﴾ ومعناه ألم تعلم، فالرؤية - ههنا - بمعنى العلم، لأن رؤية البصر لا تتعلق بما قد تقضى وعدم، كأنه قال : ألم تعلم ﴿ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ الذين قصدوا هدم البيت وهلاك أهله، فاهلكهم الله تعالى، وكان الذي قصد لهدم البيت ابرهة ابن الصباح، وهو المعروف بابرهة الاشرم، ويكنى أبا يكسوم . وقيل : إنه لم يسلم من قومه غيره، فولى إلى أهله فكل ما نزل منزلا تساقط منه عضو فلما وصل اليهم أخبرهم الخبر ثم هلك، وكان ابرهة رجلا من اليمن ملكته الحبشة عليهم، وكان سبب قصده إياها لتخريبها أنه بنى كنيسة عظيمة أراد ان يحج اليها بدل الكعبة . وقال

الحسن : كان السبب في ذلك أن العرب هدمت كنيسة للحبشة ، وهم نصارى ، فأراد تخريب الكعبة في مقابلة ذلك ، فاقبل في جمع كثيف معه أفيلة، فجعل الله كيدهم في تضليل عما قصدوا له من تخريب الكعبة ﴿ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ﴾ فمعنى أبابيل جماعات في تفرقة زمرة وزمرة لا واحد لها ـ في قول ابي عبيدة والفراء ـ كما لا واحد للعباديد والشماطيط . وزعم ابو جعفر الرواسي أنه يسمع في واحدها أبالة . وقال الكسائي : سمعت النحويين يقولون واحده (أبّول) مثل (عجول) وقال بعضهم : (ابيل) وقال ابن عباس معنى أبابيل يتبع بعضها بعضاً . وقال قتادة : معنى أبابيل كثيرة متتابعة . وقيل : إنها كانت سود الجرية تحمل في مناقيرها واكفها الحجارة ـ في قول عبيد بن عمير ـ وقيل : كان مع كل طائر ثلاثة أحجار إثنان في رجليه وواحد في منقاره ، وقال موسى بن أبي عائشة : كانت الحجارة اكبر من العدسة وأصغر من الحمصة . وقيل كان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره

وقيل: إن المعروف بأبرهة الأشرم الذي ملكته الحبشة كان يكنى أبا يكسوم وقيل : إنه لم يسلم من قومه غيره فولى إلى أهله وكلما نزل منزلا تساقط منه عضو فلما وصل اليهم اخبرهم الخبر ثم هلك .

وقيل كان الفيل إذا وجهوه نحو مكة وقف ولم يسر ، وإذا وجهوه إلى جهة غيرها سار إنذاراً من الله لهم وموعظة ، وكان هذا من أعظم المعجزات في ذلك الوقت أظهره الله تعالى ليدل به على وجوب معرفته وإخلاص عبادته . وقال قوم : إنه كان معجزة لنبي كان في ذلك الزمان ، ويجوز أن يكون ذلك خالد بن سنان .

وقيل إنه كان ذلك توطيئاً لنبوة نبينا ﷺ لانه كان ولد في عام الفيل .

وقوله ﴿ ترميهم بحجارة ﴾ أى تقذفهم بحجارة ﴿ من سجيل ﴾ قال ابو عبيدة كل شديد سجيل . قال ابن مقبل :

ضربا تواصى به الابطال سجيلا (١)

وقيل هي حجارة من الجحيم وهي (سجين) ثم ابدلت النون لاماً ، كما قالوا في أصيلان اصيلال . وقيل : معنى من ﴿ سجيل ﴾ أي من طين مطبوخ كالآجر . وقيل : هو (سنل وكل) بلغة الفرس .فأعرب ، وكذلك روي عن ابن عباس

وقوله ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ فالعصف ورق الزرع ـ في قول ابي عبيدة ـ وهو عصيفة ، لان الريح تعصفه أي تذهب به يميناً وشمالا . وقيل : معنى ﴿ كعصف مأكول ﴾ أي مأكول الثمرة كما يقال : فلان حسن أي حسن الوجه ، فاجري مأكول على العصف من أجل اكل ثمرته ، لأن المعنى معلوم الايجاز . وقال قتادة : العصف التبن ، ومعنى مأكول قد أكلت بعضه المواشي وكسرت بعضه . وقال الزجاج : معنى مأكول وقع فيه الاكال . وقيل العصف التبن بلغة بني حنيفة ، وبلسان قريش النخالة .

وقصة أصحاب الفيل من الأدلة الواضحة والحجج اللائحة على الملحدين ، ومن أنكر الصانع ، لأنه لا يمكن نسب ذلك إلى طبيعة ولا موجب كما تأولوا الزلازل والرياح والخسوف وغير ذلك مما أهلك الله به الامم . لأنه ليس في الطبيعة إقبال طير بأحجار وتقصد اقواماً دون غيرهم حتى تهلكهم بما ترميهم به ، ولا تعدى إلى غيرهم ، بل ذلك من أوضح الأدلة على انه من فعل الله تعالى ، وليس لأحد أن يضعف ذلك وينكر الخبر به ، لأن النبي ﷺ لما قرأ على أهل مكة هذه السورة ، كانوا قريبي عهد بالفيل ، فلو لم يكن كذلك ولم يكن له اصل لأنكروه ، فكيف وهم ارخوا به كما أرخوا ببنيان الكعبة وموت قصي وغيره . وقد نظم الشعراء في قصة الفيل الشعر ونقلته الرواة ، فلا يمكن جحد ذلك ، لانه مكابرة .

---

(١) مر في ٦ / ٤٥

١٠٦ ـ سورة قريش

مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك هي مدنية وهي أربع آيات

في الكوفي والبصري وخمس في المدنيين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَاءِ وَٱلصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ (٣) ٱلَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ (٤) اربع آيات .

قرأ ابن عامر ﴿ لالاف قريش ﴾ بقصرها ، ولم يجعل بعد هذه الهمزة ياء على وزن (لعلاف) ، ﴿ إيلافهم ﴾ بياء بعد الهمزة خلاف لفظ الأول . الباقون ﴿ لايلاف قريش إيلافهم ﴾ جميعاً بهمزة بعدها ياء . وقرأ ابو جعفر وابن فليح ﴿ إلافهم ﴾ بهمزة بلا ياء بعدها مثل (علافهم) ورواه ابو الحسن حماد ـ بهمزتين مكسورتين ـ بعدها ياء . الباقون بهمزة بعدها ياء ساكنة مثل (عيلافهم) قال الأزهري : الايلاف الاجارة بالخفارة يقال : آلف يؤلف وألف يؤلف إذا أجار الابل بالخفارة . وألفت المكان ألفة وإلفاً وآلفته إيلافاً بمعنى واحد . وقد قدمنا القول فيما رواه أصحابنا أن ﴿ ألم تر كيف ﴾ و ﴿ لايلاف ﴾ سورة واحدة ، مثل (الضحى وألم

نشرح) فعلى هذا العامل في «لايلاف» قوله﴿فجعلهم كعصف مأكول لايلاف قريش﴾ وهو قول الحسن . ومن قال : هما سورتان لم يجز ذلك ، فقال العامل فيها ، قوله ﴿ فليعبدوا ﴾ فكأنه قال لذلك الانعام ﴿ فليعبدوا ﴾ ومثله في تقديم القول فيه قوله ﴿ أفغير الله تأمروني ﴾ (١) لان تأمروني إعتراض على هذا التفسير ، وإنما جاز أن يعمل ما بعد الفاء فيما قبله لأنها زائدة غير عاطفة ، كقولك زيداً فاضرب ، وتريد فاضربه ، فهي على شبه الجواب الذي يجوز فيه تقديم المعمول كقولك زيداً : إن يأتني زيداً اكرمه . ولو كانت عطفاً لم يجز التقديم ، كما لا يجوز في الواو ، ولا (ثم) . وقيل العامل فيه (اعجبوا) لايلاف قريش إلا انه حذف لدلالة الكلام عليه . وقيل هو على ﴿ ألم تر كيف فعل ربك . . . . لايلاف قريش﴾ أي فعل ذلك لايلافهم والايلاف أصحاب الالف بحسن التدبير والتلطف ، يقال : ألف يألف الفاً ، والفه يؤلفه إيلافاً إذا جعله يألف ، وائتلف القوم ائتلافاً وتآلفوا تآلفاً وألفهم تأليفاً . والايلاف نقيض الايحاش ، ونظيره الايناس . والف الشيء لزومه على عادة في سكون النفس اليه .

وقوله ﴿ رحلة الشتاء والصيف ﴾ قال ابن زيد والكلبي : كانت لهم رحلتان رحلة الصيف إلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن في التجارة . والرحلة حال السير على الراحلة وهي الناقة القوية على السفر ، ومنه الحديث المروي (الناس كابل مئة لايوجد فيها راحلة) والرحل متاع السفر والارتحال احتمال الرحل للمسير في السفر . والشتاء أوان شدة البرد . والصيف زمان شدة الحر . وفصول السنة أربعة : ربيع ، وصيف وخريف ، وشتاء .

وقوله ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ أمر من الله تعالى المكلفين أن يوجهوا عبادتهم إلى الله رب البيت الحرام دون غيره من الاصنام ﴿ الذي أطعمهم من

---

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٦٤

جوع ﴾ بما أعطاهم من الأموال وسبب لهم من الارزاق بالسعي في التجارة في رحلة الشتاء ورحلة الصف ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ الغارة بالحرم الذي جبل قلوب العرب على تعظيمه . وقيل ﴿ آمنهم ﴾ من الجذام . قال سفيان بن عيينة : كان لنا إمام بالكوفة يقرأ ﴿ ألم تر ، ولا يلاف ﴾ ولا يفرق بينهما .

١٠٧ - سورة الماعون

وتسمى سورة (أرأيت) مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك مدنية وهي سبع آيات في الكوفي والبصري وست في المدنيين . عدّ أهل الكوفة والبصري (يراؤن) رأس آية ، يجوز أن يقال ﴿ أريت ﴾ بحذف الهمزة . ولا يجوز ان يقال (ريت) لان ألف الاستفهام يصير غيرها



﴿ أَرَأَيتَ ٱلَّذي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ ٱلَّذي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) ٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُنَ (٦) وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ (٧) سبع آيات .

قوله ﴿ أرأيت ﴾ خطاب للنبي ﷺ على وجه التعجيب له من الكافر ﴿ الذي يكذب بالدين ﴾ وذهابه عن الايمان به مع وضوح الأمر فيه وقيام الدلالة على صحته والمراد بالدين الجزاء من الثواب والعقاب ، فالتكذيب بالجزاء من أضرّ شيء على صاحبه ، لانه يعدم به أكثر الدواعي إلى الخير ، والصوارف عن الشر ، فهو يتهالك في الاسراع إلى الشر الذي يدعوه اليه طبعه لا يخاف عاقبة الضرر فيه .

وقوله ﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ وصف الذي يكذب بالدين ، فبين أن من صفته أنه يدع اليتيم ، ومعناه يدفعه عنفاً ، وذلك لانه لا يؤمن بالجزاء عليه ، فليس له رادع عنه ، كما لمن يقر بأنه يكافىء عليه ، دعّه يدعه دعاً إذا دفعه دفعاً شديداً . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿ يدع اليتيم ﴾ معناه يدفعه عن حقه . وقوله ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ معناه ولا يحث على طعام المسكين بخلا به ، لأنه لو كان لا يحض عليه عجزاً عنه لم يذم به ، وكذلك لو لم يحض عليه من غير قبيح كان منه لم يذم عليه . لأن الذم لا يستحق إلا بما له صفة الوجوب إذا أخل به أو القبيح إذا فعله على وجه مخصوص .

وقوله ﴿ فويل للمصلين ﴾ تهديد لمن يصلي على وجه الرياء والسمعة . وإنما أطلق مع انه رأس آية يقتضي تمام الجملة ، لأنه معرف بما يدل على انه أراد من يصلي على جهة الرياء والنفاق . ثم بين ذلك بقوله ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال ابن عباس ومسروق : معناه يؤخرونها عن وقتها . وقال قتادة : معناه غافلون . وقال مجاهد : لاهون كأنهم يسهون للهوهم عنها واللهو يوجب تأخيرها عن وقتها لانه قال عن صلاتهم . وقيل : ساهون فيها ﴿ الذين هم يراؤن ﴾ معناه إنهم يراؤن بصلاتهم الناس دون أن يتقربوا بها إلى الله . وإنما ذم السهو في الصلاة مع انه ليس من فعل العبد بل هو من فعل الله ، لان الذم توجه في الحقيقة على التعرض للسهو

بدخوله فيها على وجه الرياء وقلبه مشغول بغيرها ، لا يرى لها منزلة تقتضي صرف الهم اليها .

وقوله ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ قال ابو عبيدة : كل ما فيه منفعة ، فهو الماعون ، وقال الاعشى :

باجود منه بماعونه　　　إذا ما سماؤهم لم تغم (١)

وقال الراعي:

قوم على الاسلام لما يمنعوا　　　ماعونهم ويضيعوا التنزيلا (٢)

وقال اعرابي في ناقة : إنها تعطيك الماعون أي تنقاد لك ، والماعون أصله القلة من قولهم : المعن القليل قال الشاعر :

فان هلاك مالك غير معن

أي غير قليل ، فالماعون القليل القيمة مما فيه منفعة من آلة البيت نحو الفاس والمقدحة والابرة والدلو - وهو قول ابن مسعود وابن عباس وإبراهيم وابي مالك وسعيد ابن جبير - وسئل عكرمة فقيل له : من منع ذلك فالويل له ؟ قال : لا ، ولكن من جمع ذلك بأن صلى ساهياً مرائياً ومنع هذا .

وقوله ﴿ فويل للمصلين ﴾ وهو يعني المنافقين ، فدل على أن السورة مدنية لانه لم يكن بمكة نفاق . ويقال : معن الوادي إذا جرت مياهه قليلا قليلا . والماء المعين الجاري قليلا قليلا . وأمعن في الامر إذا أبعد فيه قليلا قليلا . وروي عن علي عليه السلام أنه قال : الماعون الزكاة ، وهو قول ابن عمر والحسن وقتادة والضحاك وقال الشاعر :

(١) ديوانه ١٩٩ واللسان (معن) ومجاز القرآن ٢ / ٣١٣

(٢) اللسان (معن) ومجاز القرآن ٢ / ٣١٥ وقد مر في ٧ / ٣٧٣

بمج صبيره الماعون صبا (١)

فالصبير السحاب . وقال أنس بن مالك : الحمد لله الذي لم يجعلها في صلاتهم وإنما جعلها عن صلاتهم ؛ فتأولها من تركها متعمداً . والمراد بالصلاة هنا الفرض .

١٠٨ ـ سورة الكوثر

مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك مدنية ، وهي ثلاث آيات بلا خلاف



﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (٣) ثلاث آيات .

هـذا خطاب من الله لنبيه ﷺ على وجه تعداد نعمه عليه . يقول ﴿ إنا اعطيناك الكوثر ﴾ فالاعطاء إخراج الشيء إلى آخذ له ، وهو على وجهين : اعطاء تمليك واعطاء غير تمليك . فاعطاء الكوثر إعطاء تمليك ، كاعطاء الاجر ، وأصله التناول من عطا يعطوا إذا تناول . و (الكوثر) الشيء الذي من شأنه الكثرة ، والكوثر الخير الكثير . وهو (فوعل) من الكثرة ، قال عطاء : هو حوض النبي ﷺ الذي

(١) القرطبي ٢٠ | ٢١٩ والشوكاني ٥ | ٤٨٧

يكثر الناس عليه يوم القيامة . وقال ابن عباس : هو الخير الكثير . وروي عن عائشة : أن الكوثر نهر في الجنة جانباه قباب الدر والياقوت . وقال الحسن : الكوثر القرآن . وقال ابن عمر : هو نهر يجري في الجنة على الدر والياقوت وقوله ﴿ فصل لربك ﴾ أمر من الله تعالى لنبيه ويدخل معه جميع المكلفين بأمرهم بالصلاة وأن ينحروا وقال ابن عباس وأنس بن مالك ومجاهد وعطاء: معنى وانحر انحر البدن متقرباً إلى الله بنحرها خلافاً لمن نحرها الاوثان . وقيل : معناه ﴿ فصل لربك ﴾ صلاة العيد ﴿ وانحر ﴾ البدن والاضاحي . وقيل: معناه صل لربك الصلاة المكتوبة واستقبل القبلة بنحرك . تقول العرب : منازلنا نتناحر هذا ينحر هذا أي مستقبلة ،وانشد بعضهم :

ابا حكم ها انت عم مجالد   وسيد أهل الابطح المتناحر (١)

وروي عن علي عليه السلام أن معناه ضع اليمنى على اليسرى حذاء النحر - وهذه الرواية غير صحيحة - والمروي عن ابي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أن معناه وانحر البدن والاضاحي .

وقوله ﴿ إن شانئك هو الابتر ﴾ فالشانىء المبغض تقول : شنئته اشنؤه شناء إذا أبغضته ، وقال ابن عباس : معناه عدوك ، وهو قول سعيد بن جبير . وقال : هو العاص بن وائل السهمي ، فانه قال في النبي صلى الله عليه وآله إنه أبتر لا عقب له ، فقال الله تعالى ﴿ إن شانئك هو الابتر ﴾ يعني الذي انقطع عنه كل خير . وقيل : إنه أراد به انه لا ولد له على الحقيقة ، وأن من ينسب اليه ليس بولد له ، والابتر هو المنقطع عن الخير . وقيل : هو الذي لاعقب له - ذكره مجاهد - وقال قتادة : معناه الاقل الاذل بانقطاعه عن الخير . وقيل : قوله ﴿ إن شانئك هو الابتر ﴾ جواب لقول قريش انه أبتر لا ولد له ذكر إذا مات قام مقامه يدعو اليه ، وقدانقطع أمره .

---

(١) القرطبي ٢٠ / ٢١٩ والشوكاني ٥ / ٤٨٩

فقيل : إن شانئك هو الابتر الذي ينقطع ما هو عليه من كفره بموته ، فكان الامر كما اخبر به . وقيل : الحمار الابتر المقطوع الذنب ، فشبه به . وقيل : في السورة تشاكل المقاطع للفواصل وسهولة مخارج الحروف بحسن التأليف وتقابل المعاني بما هو أولى لان قوله ﴿ فصل لربك ﴾ احسن من صل لنا ، لانه يجب أن يذكر في الصلاة بصفة الربوبية ﴿ وانحر ﴾ ههنا أحسن من قوله (وانسكه) لانه على تربيهم بعد برّيخص ، و (الابتر) احسن من (الاخس) لانه أدل على الكناية في النفس ، فهذه الحروف القليلة قد جمعت المحاسن الكثيرة . وما لها في النفس من المنزلة اكثر بالفخامة والجزالة وعظم الفائدة التي يعمل عليها وينتهي اليها .

١٠٩ ـ سورة الكافرون

مكية في قول ابن عباس ، وقال الضحاك مدنية ، وهي ست آيات بلا خلاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٦) ست آيات .

قرأ ابو عمرو وحمزة والكسائي ﴿ ولي دين ﴾ ساكنة الياء . الباقون بفتحها من فتح الياء فلخفة الفتحة . ومن أسكنها فانه كره الحركة على حرف العلة . وقرأ ﴿ ديني ﴾ بياء في الحالين يعقوب . الباقون بلا ياء فيها . من أثبت الياء ، فلانها الاصل . ومن حذفها اجتزأ بالكسرة الدالة عليها . وقيل : إن هذه السورة نزلت جواباً لقول جماعة من المشركين دعوا النبي صلى الله عليه وآله إلى أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا هم إلهه سنة . وفيهم نزل قوله « أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » (١) هذا قول ابن عباس . وقيل : إنهم قالوا : نشركك فى أمرنا ، فان كان الذي فى أيدينا خيراً كنت قد أخذت بحظ منه . وإن كان الذي فى يدك خيراً قد أخذنا بحظ منه . وقيل : إن الذي قال ذلك الوليد ابن المغيرة والعاص ابن وائل والاسود ابن المطلب وأمية ابن خلف . وقيل : إنهم قالوا : نتداول العبادة ليزول ما بيننا من البغضاء والعداوة ، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله أن يقول لهم « لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد » ومعناه لا أعبد ما تعبدون لفساد عبادة الأوثان ، ولا أنتم عابدون ما أعبد لجهلكم بوجوب اخلاص العبادة لله ، لان العقل يقتضي أنه صلى الله عليه وآله لهذا امتنع وامتنعوا . وإنما كرر ذكر العبادة لتصريفها فى الفوائد المختلفة وقد نفى عبادة المؤمن للوثن كيف تصرفت الحال فى ماض أو حاضر أو مستقبل لقبحها ، ونفى عبادة الكافر لله مع إقامته على الجهل بوجوب إخلاص العبادة له . وقيل : فى وجه التكرير فى السورة أن ظاهر ذلك وإن كان تكريراً، فليس فى الحقيقة تكريراً أصلا ، ولا تكرير فى اللفظ إلا فى موضع واحد سنبينه بعد بيان المعنى إن شاء الله ، وذلك أن قوماً من المشركين سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله مناقلة العبادة سنة يعبدون فيها ما يعبده صلى الله عليه وآله وسنة يعبد هو ما يعبدون لزوال العادة بوقوع العبادة

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٦٤

على هذه الجهلة فجاء الكلام على طريق الجواب لانكار ما سألوا ، فقيل « لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد » وهذا نفي منه لما يعبدون في الاستقبال ثم قال « ولا أنا عابد ما عبدتم » على نفي العبادة لما عبدوا في الماضي ، وهذا واضح في أنه لا تكرير في لفظه ولا معناه . وقوله « ولا أنتم عابدون ما أعبد » فعلى التكرير في اللفظ دون المعنى من قبل أن التقابل يوجب أن معناه ولا أنتم عابدون ما عبدت إلا انه عدل بلفظه إلى اعبد للاشعار أن ما عبدت هو ما أعبد ، واستغني بما يوجبه التقابل من معنى عبدت عن الافصاح به . وعدل عن لفظه لتضمين معنى آخر فيه ، وكان ذلك اكثر في الفائدة وأولى بالحكمة ، لانه دل على (عبدت) دلالة التصريح باللفظ

فان قيل فهلا قال : ما عبدت ليتقابل اللفظ ، كما تقابل المعنى؟ قيل : هو في حكم التقابل في اللفظ من حيث هو دال عليه إلا انه عدل عن الافصاح به للاشعار بأن معبوده واحد كيف تصرفت الحال ، وكان هذا أبعد في الايهام أن معبوده فيما مضى غير معبوده فيما يستقبل . وقد يجوز في الماضي والمستقبل ان يقع أحدهما موقع الآخر إذا كان في الكلام ما يدل عليه ، كما قال « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار » (١) على معنى ينادون ، ومنه قولهم : يدعوهم ابن رسول الله فلا يجيبونه ، ويدعوهم ابن زياد إلى الباطل فيسرعون اليه .

فان قيل : فهلا دل على اختلاف المعنى باختلاف اللفظ إذ هو الاصل في حسن البيان ؟ قيل : إن التقابل في ذلك قد صير اللفظ في حكم المختلف ، لأنه مقيد به ، ودلالة المقيد خلاف دلالة المطلق نحو : زيد قائم بالتدبير على خلاف معنى زيد قائم .

فان قيل : فهلا دل على ذلك من أصول مختلفة إذ هو أدل على خلاف المعنى بصريح الجهة ؟ قيل : إنه لما أريد نفي العبادة على تصريف الأحوال صرف لفظ

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٤٣

العبادة لتصريف المعنى ، ولم يصلح فيه أصول مختلفة ، لئلا يوهم النفي نفي معنى غير تصريف عبادة الله على الوجوه والاسباب كلها ، وكان تصريف لفظ العبادة لتصريف معناها أحق وأولى من تصريف معناها في غير لفظها لما فيه من التشاكل المنافي للتنافر . ولفظة (الكافرون) في السورة مخصوصة بمن علم الله من حاله أنه يموت على كفره . ولا يجوز ان يكون المراد العموم لأنا علمنا دخول كثير ممن كان على الكفر ثم دخل في الاسلام . وقيل : ان الالف واللام في الاية المعهود ، لأن (أيا) لا يوصف إلا بالجنس ، فخرج اللفظ على الجنس من حيث هو صفة لـ (أي) ولكن (أيا) للمخاطبين من الكفار بأعيانهم فآل الى معنى المعهود في انه يرجع إلى جماعة بعينها ، ونحوه ياأيها الرجال ادخلوا الدار ، فلم تأمر جميع الرجال ، ولكن أمرت الذي أشرت اليهم باقبالك عليهم . وقيل : يجوز أن تكون الآية عامة ، والتقدير ولا أنتم عابدون ما أعبد بالشرط الذي ذكرتموه من أني أعبد إلهكم ، لان هذا الشرط لا يكون ابداً ، ولكن يجوز أن يؤمنوا فيما بعد بغير هذا الشرط .

فان قيل : ما فائدة الكلام ؟

قيل الانكار لما لا يجوز من مناقلة العبادة على ما توهمه قوم من الكفار لتقوم الحجة به من جهة السمع كما كانت من جهة العقل مع الاعجاز الذي فيه . فان قال قائل : من أي وجه تضمن الاعجاز ؟ قيل : له من جهة الاخبار بما يكون في مستقبل الأوقات مما لا سبيل إلى علمه إلا بوحي الله إلى من يشاء من العباد ، فوافق المخبر بما تقدم به الخبر ، وفي ذلك أكبر الفائدة وأوضح الدلالة .

فان قيل : ما معنى « لكم دينكم ولي دين » ؟.

قيل معناه لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني وحسبك بجزاء دينهم وبالا وعقاباً كما حسبك بجزاء دينه نعيماً وثواباً .

فان قيل : لم لا ذكرت الحجة في أن ما يدعون اليه لا يجوز .

قيل له: تقبيحاً لها من حيث أخرجت مخرج مقالة يكفي العلم بفسادها، حكايتها مع الاستغناء بما في العقول عن الدلالة على بطلانها .

فان قيل : فهلا أنكر عليهم من طريق أن كل ما دعوا اليه لايجوز للايجاز ؟

قيل : لانه إنكار متصل على حد ما يسألوا ولو أنكر انكاراً مجملا لم يبين به تفصيل ما سألوه إلا بأن يحكى على انفراده . ثم يحمل الانكار به فحينئذ يفهم منه معنى المفصل .

فان قيل : فهلا بين ذكرهم بصفة غير منكر ؟

قيل : قد بين ذلك بعلم التعريف له إلا أنه بصفات الذم التي فيها معنى الزجر وهي دالة على احوالهم فيما دعوا له من الباطل ، وتفحموا من أحوال الجاهل .

فان قيل : فلم قال « لكم دينكم ولي دين » مع ما يقتضي ظاهره التسليم ؟

قيل : مظاهرة في الانكار ، كما قال تعالى « أعملوا ما شئتم » (١) لما صاحبه من الدليل على التمكين وشدة الوعيد بالقبح لانه إذا اخرج الكلام مخرج التسليم الامر دل على أن الضرر لا يلحق إلا المسلم اليه ، فكأنه قيل له : اهلك نفسك إن كان ذلك خيراً لك.

فان قال : فلم قيل : ولا انتم عابدون ما أعبد ، ولم يقل من أعبد ؟

قيل له : لانه مقابل لقوله « ولا أنا عابد ما عبدتم » من الاصنام ، ولا يصلح ههنا إلا (ما) دون (من) لأنه يعني ولا أنا عابد ما عبدتم من الاصنام ثم حمل الثاني على الاول للتقابل حتى لا يتنافر . وقيل : ان معناه ولا أنا عابد عبادتكم ولا انتم عابدون عبادتي ، لان عبادته متوجهة إلى الله ، وعبادتهم متوجهة إلى الاصنام

(١) سورة ٤١ (فصلت) حم السجدة آية ٤٠

ف (ما) ههنا مع ما بعدها بمنزلة المصدر .

فان قيل : فلم أنكر ما لا يجوز في الحكمة بألين التنكير مع خروجه إلى أفحش القبح؟

قيل : ليس ذلك بألين النكير في المعنى وإن خرج لفظه ذلك المخرج ، لأنه إنما عومل تلك المعاملة ليجعل في حيز ما يكفي فيه التنبيه ، حتى يظهر انه أقبح قبيح وهذا ضرب من البلاغة عجيب يفهمه كل عاقل له أدنى فطنة . ويعلم موضعه في الحكم

فان قيل : ما الدليل على ان تأويل السورة ما ذكرتم دون غيره من التأويلات

قيل : الدليل على ان ذلك الكلام إذا احتمل وجهين فصاعداً في اللغة، وأحد الوجهين يجوز، والآخر لا يجوز، وجب ان يكون تأويله ما يجوز عليه تعالى ويليق به دون ما لا يليق به ولا يجوز عليه ، تعالى الله .

١١٠ - سورة النصر

مدنية في قول ابن عباس والضحاك ، وهي ثلاث آيات بلا خلاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ (٣)

ثلاث آيات .

هـذا وعد من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله بالنصر بالفتح قبل وقوع الأمر . وقال الحسن ومجاهد : وعده الله فتح مكة و نصرته على كفار قريش، فيجيء النصر وقوعه على التوقع له ، والنصر المعونة على العدو للظهور عليه ، لان المعونة قد تكون بالمال على نوائب الزمان ، وقد تكون على العدو ، وهي النصر دون المعونة الأخرى . والفتح الفرج الذي يمكن معه الدخول في الامر بملك العدو الناصب للحرب ، وقد يكون الفرج بالفرق فقط ، فلا يكون الفتح بذهاب العدو الذي صار علماً على هذا المعنى .

وقوله تعالى « ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً » يعني في طاعة الله وطاعتك: من الاسلام والتزام الاحكام واعتقاد صحته وتوطين النفس على العمل به . وأصل الدين الجزاء . ثم يعبر به عن الطاعـة التي يستحق بها الجزاء ، كما قال « في دين الملك » (١) أي في طاعته . والفوج جماعة من جماعـة، والافواج جماعات من جماعات . وهكذا كان الناس يدخلون في الدين جماعة بعد جماعة من جملة القبيلة حتى يتكامل اسلام الجميع .

وقوله « فسبح بحمد ربك واستغفره » امر من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله بأن ينزهه عما لا يليق به من صفات النقص، وأن يستغفره . ووجه وجوب ذلك بالنصر والفتح ،أن النعمة به تقتضي القيام بحق النعمة المنافي للمعصية . فكأنه قال قد حدث أمر يقتضي الاستغفار مما جدده الله لك فاستغفره بالتوبة يقبل ذلك منك، ومخرجه مخرج الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وهو تعليم لجميع أمته . ومعنى « فسبح بحمد ربك » نزهه عما لا يجوز عليه مع شكرك إياه . وقيل معناه : صل شكراً له على ما جدد لك من نعمة . والاستغفار قد يكون عند ذكر المعصية بما ينافي الاصرار ، وقد يكون على

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٧٦

وجه التسبيح ، والانقطاع إلى الله .

وقوله « إنه كان تواباً » معناه إنه يقبل توبة من بقي كما قبل توبة من مضى . والتوّاب في صفة الله الكثير القبول للتوبة ، وفي صفة العباد الكثير الفعل للتوبة . وقال قتادة : عاش النبي صلى الله عليه وآله بعد هذا سنتين ثم توفي صلى الله عليه وآله .

١١١ ـ سورة اللهب

مكية في قول ابن عباس والضحاك ، وهي خمس آيات بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ (٥) خمس آيات .

قرأ عاصم : حمالة الحطب » نصباً على الذم . الباقون بالرفع على أنه خبر الابتداء ، ويجوز أن يكون ارتفع (امرأته) على انه فاعل « سيصلى » فكأنه قال سيصلى أبو لهب وامرأته ناراً ذات لهب . وقرأ ابن كثير « يدا ابي لهب » ساكنة الهاء على التخفيف ، كما قالوا في نهر : نهر . الباقون بالتثقيل .

وروي أن أبا لهب كان قد عزم على أن يرمي النبي صلى الله عليه وآله بحجر فمنعه الله

من ذلك . وقال تبت يداه المنع الذي وقع به . ثم قال « وتب » بالعقاب الذي ينزل به فيما بعـــد . وقيل في قوله « تبت يدا أبي لهب » أنه الدعاء عليه نحو قوله « قاتلهم الله انى يؤفكون » (١) فاما قوله « وتب » فانه خبر محض ، كأنه قال : وقد تب . وقيل: إنه جواب لقول أبي لهب : تباً لهذا من دين، حين نادى النبي ﷺ بني عبد المطلب ، فلما اجتمعوا له قال لهم : إن الله بعثني إلى الناس عاماً وإليكم خاصاً ، وأن اعرض عليكم ما إن قبلتموه ملكتم به العرب والعجم . قالوا وما ذاك يا محمد ﷺ قال : أن تقولوا لا إله إلا الله واني رسول الله . فقال أبو لهب تباً لهذا من دين . فأنزل الله تعالى قوله « تبت يدا أبي لهب » والتباب الخسران المؤدي إلى الهلاك تبه يتب تباً ، والتباب الهلاك . وفي « تبت يدا » مع أنه إخبار ذم لابي لهب لعنة الله . وإنما قال : تبت يداه ولم يقل : تب ، مع انه هو الهالك في الحقيقة لأنه جار مجرى قوله كسبت يداه ، لأن اكثر العمل لما كان باليدين أضيف ذلك اليهما على معنى الخسران الذي أدى اليه العمل بهما .

وقوله « ما اغني عنه ماله وما كسب » معناه ما نفعه ماله ولا الذي كسبه من الاموال ، ولا دفع عنه عقاب الله حين نزل به ، فالاغناء عنه الدفع عنه ، فأما الاغناء بالمال ونحوه فهو دفع وقوع المضار به .

وقوله « سيصلى ناراً ذات لهب » خبر من الله تعالى أن أبا لهب سيصلى ناراً ذات لهب ، وهي نار جهنم المتلهبة . وفي ذلك دلالة على صدق النبي ﷺ ، لأنه اخبر بأنه يموت على كفره ، وكان الأمر على ذلك .

وقوله « وامرأته حمالة الحطب » قال ابن عباس والضحاك وابن زيد : إن امرأة ابي لهب كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق النبي ﷺ إذا خرج إلى الصلاة

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣١ وسورة ٦٣ المنافقون آية ٤

وقال عكرمة ومجاهد وقتادة : إنما وصفت بحمالة الحطب ، لأنها كانت تمشي بالنميمة وقيل : حمالة الحطب في النار . وفي ذلك دلالة أيضاً قاطعة على أنها تموت على الكفر . وامرأة أبي لهب أم جميل بنت حرب اخت ابي سفيان عمة معاوية ، وقوله « في جيدها حبل من مسد » فالمسد حبل من ليف ، وجمعه أمساد وإنما وصفت بهذه الصفة تخسيساً لها وتحقيراً والجيد العنق ، قال ذو الرمة :

فعيناك عيناها ولونك لونها وجيدك إلا انه غير عاطل

وقال ابو عبيدة : المسد حبل يكون من ضروب ، قال الراجز :

ومسد امر من أيانق صهب عتاق ذات منح زاهق(١)

والمسد الليف لان من شأنه أن يفتل للحبل . وأصل المسد المحور من حديد ، لانه يدور بالفتل . وقال قوم : هو الليف المفتل .

فان قيل : ما الذي كان يجب على أبي لهب حين سمع هذه السورة ؟ أكان يجب عليه ان يؤمن ؟ فلو آمن لكان فيه تكذيب خبر الله بأنه سيصلى ناراً ذات لهب ، وإن لم يجب عليه الايمان فذلك خلاف الاجماع ؟ ! !

قيل : خبر الله مشروط بأنه سيصلى ناراً ذات لهب إن لم يؤمن ، ويجب عليه أن يعلم ذلك ، وهذا أبين الاجوبة واظهرها. والله أعلم .

---

(١) مجاز القرآن ٢ / ٣١٥

١١٢ ـ سـورة الاخلاص

مكية فى قول ابن عباس ، وقال الضحاك مدنية ، وهي أربع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ (١) ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (٤) اربع آيات .

قرأ ابو عمرو ـ فى رواية هارون عنه ـ « احد الله الصمد » بغير تنوين فى الوصل . وقرأ فى رواية نصر عن أبيه واحمد بن موسى عنه بالتنوين ، وجـه ترك التنوين أنه ينوى به الوقف ، لأنه رأس آية مع انه قد يحـذف التنوين لا لتقاء الساكنين، والوجه تحريكه ، قال الشاعر :

فالفتيه غير مستعتب ولا ذاكر الله إلا قليلا (١)

وقرأ « كفؤاً » بسكون الفاء ـ مهموزاً ـ حمزة ونافع على خلاف عن نافع . الباقون بضم الفاء مهموزاً . وإنما قال فى أوائل هذه السور « قل » وهي أوامر من الله تعالى ، لأن المعنى قال لي جبرائيل « قل هو الله احد » فحكى النبي صلى الله عليه وآله ما قيل له . وقيل لسورة الآخلاص وقل يا ايها الكافرون (المقشقشتان) ومعناها المبرئتان من الكفر والنفاق ، كما يقشقش الهناء الجرب .

---

(١) مر ٢ \ ٧٦ و ٣ / ٢١٥ و ٥ \ ٢٣٩ ، ٣٩٣

وهذا امر من الله تعالى لنبيه ﷺ ان يقول لجميع المكلفين « هو الله » الذي تحق له العبادة « احد » ومعناه واحد . فقوله « هو » كناية عن اسم الرب ، لانهم قالوا ما ربك ؟ قال هو الله احد . وقال الكسائي « هو » عماد ، وقوله « الله » ابتداء ، وخبره (أحد) وانكر الفراء أن يكون العماد مستأنفاً ، واصل (أحد)وحد فقلبت الواو همزة ، كما قيل : وناد وأناه ، لان الواو مكروهة اولا ، وقد جاء وحد على الاصل قال الشاعر :

كأن رحلي وقد زال النهار بنا　　بذي الجليل على مستأنس وحد (١)

وحقيقة الوحد شيء لا ينقسم في نفسه أو معنى صفته ، فاذا أطلق احد من غير تقدم موصوف ، فهو احد نفسه ، فاذا جرى على موصوف ، فهو احد في معنى صفته ، فاذا قيل : الجزء الذي لا يتجزأ واحد ، فهو واحد في معنى صفته ، وإذا وصف تعالى بأنه احد ، فمعناه أنه المختص بصفات لا يشاركه فيها غيره : من كونه قديماً وقادراً لنفسه وعالماً وحياً وموجوداً كذلك ، وأنه تحق له العبادة لاتجوز لأحد سواه . ولا يجوز أن يكون (أحد) هذه هي التي تقع في النفي ، لأنها اعم العام على الجملة أحد ، والتفصيل ، فلا يصلح ذلك في الايجاب ، كقولك ما في الدار احد أي ما فيها واحد فقط ولا اكثر ، ويستحيل هذا في الايجاب . وفي قوله « الله احد » دليل فساد مذهب المجسمة ، لأن الجسم ليس بـ (أحد إذ هو اجزاء كثيرة ، وقد دل الله بهذا القول على أنه احد ، فصح انه ليس بجسم .

وقوله « الله الصمد » معناه الذي تحق له العبادة هو الموصوف بأنه (الصمد) وقيل : في معناه قولان :

احدهما ـ قال ابن عباس وشقيق وابو وائل : إنه السيد المعظم ، كما قال الاسدي :

---

(١) اللسان (وحد ، انس)

الابكر الناعي بخيري بني أسد بعمرو بن مسعودو بالسيدالصمد(١)

وقال الزبرقان :

ولا رهينة إلا السيد الصمد ،

الثاني ـ ان معناه الذي يصمد اليه في الحوائج ليس فوقه أحد ، يقال : صمدت اليه أصمد إذا قصدت اليه إلا أن في الصفة معنى التعظيم كيف تصرفت الحال . ومن قال : الصمد بمعنى المصمت ، فقد جهل الله ، لأن المصمت هو المتضاغط الاجزاء وهو الذي لاجوف له وهذا تشبيه وكفر بالله تعالى .

وقوله « لم يلد » نفي منه تعالى لكونه والد إله ولد .

وقوله « ولم يولد» نفي لكونه مولود إله والد ، لأن ذلك من صفات الاجسام وفيه ردّ على من قال : إن عزير والمسيح أبناء الله تعالى ، وإن الملائكة بنات الله . وقوله « ولم يكن له كفواً أحد »نفي من الله تعالى أن يكون له مثل أو شبيه او نظير ، والكفو والكفاء والكفي واحد ، وهو المثل والنظير ، قال النابغة :

لا تقذفني بركن لا كفاء له ولو تأثفك الاعداء بالرفد

و (أحد) مرفوع لأنه اسم (كان) و (كفواً) نصب ، لانه نعت نكرة متقدمة ، كما تقول : عندي ظريفاً غلام ، تريد عندي غلام ظريف ، فلما قدمت النعت على المنعوت نصبته على الحال ـ في قول البصريين ـ وعلى الظرف في قول الكوفيين ـ والتقدير في الآية ولم يكن له كفواً ، وأخص منه ولم يكن أحد كفواً له ، وإنما قدم الظرف الملغى مع أن تأخير الملغى أحسن في الكلام لانه أفضل بذكر الأنبه الأعرف ، كما يتقدم الظرف الذي هو خبر وموضعه التأخير لهذه العلة في مثل قولهم : لزيد مال وله عبد .

---

(١) مجاز القرآن الشاهد ٩٥٠ : ٢ / ٣١٦

ولا حي من الاحياء إلا وله مثل إلا الله تعالى ، فلذلك قال « ولم يكن له كفواً أحد » وروي أن النبي ﷺ كان يقف عند آخر كل آية من هذه السورة ، وكذلك كان يقرأ ابن مجاهد في الصلاة ابتداء .

١١٣ ـ سورة الفلق

مكية في قول ابن عباس وقال الضحاك هي مدنية ، وهي خمس آيات بلا خلاف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (٥) خمس آيات .

روى قتيبة إمالة (حاسد).

هذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ومتوجه إلى جميع الخلق المكلفين بأن يستعيذوا من شر ما خلق ، فالفلق الصبح ـ في قول ابن عباس والحسن وسعيد ابن جبير وجابر ومجاهد وقتادة وابن زيد ـ وفي رواية عن ابن عباس : إن الفلق

الخلق . وقال قوم من أهل اللغة : الفلق الخلق ، لأنه مفلوق . ومنه « فالق الاصباح » (١) و « فالق الحب والنوى » (٢) وقيل للداهية فلقة ، لانها تفلق الظهر وأصل الفلق الفرق الواسع من قولهم : فلق رأسه بالسيف يفلقه فلقاً إذا فرقه فرقاً واسعاً . ويقال : أبين من فلق الصبح ، لأن عموده ينفلق بالضياء عن وفرق الصبح الظلام . وقيل له فجر لانفجاره بذهاب ظلامه .

وقوله « من شر ما خلق » عام في جميع ما خلقه الله فأنه ينبغى أن يستعاذ من شره ممن يجوز أن يحصل منه الشر ، وقيل : المراد من شر الاشياء التي خلقها مثل السباع والهوام والشياطين وغير ذلك .

وقوله « ومن شر غاسق إذا وقب » قال ابن عباس والحسن ومجاهد : من شر الليل إذا دخل بظلامه . وقيل : الغاسق كل هاجم بضرر كائناً ما كان ، فالغاسق في اللغة هو الهاجم بضرره ، وهو هنا الليل ، لا نه يخرج السباع من آجامها والهوام من مكامنها ، وأصله الجريان بالضرر من قولهم : غسقت القرحة إذا جرى صديدها . والغساق صديد أهل النار اسيلانه بالعذاب ، وغسقت عينه غسقاناً إذا جرى دمعها بالضرر في الخلق . والليل غاسق لجريانه بالضرر في اخراج السباع . وقال كعب : الغسق بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حرّه . ومعنى « وقب » دخل ، وقب يقب وقوباً إذا دخل . ومنه الوقبة النقرة ، لأنه يدخل فيها .

وقوله « ومن شر النفاثات في العقد » قال الحسن وقتادة : يعني السحرة الذين كل ما عقدوا عقداً نفثوا فيه ، وهو شبيه بالنفخ ، فأما التفل فنفخ بريق ،

(١ ، ٢) سورة ٦ الانعام آية ٩٥ ـ ٩٦

فهذا الفرق بين النفث والتفل ، قال الفرزدق :

هما نفثا في فيّ من فمويهما على النابح العاوي أشد رجام (١)

وقيل في شر النفاثات قولان : أحدهما ـ إيهامهم أنهم يمرضون ويعافون ، ويجوز ذلك مما يخيل رأي الانسان من غير حقيقة لما يدعون من الحيلة بالاطعمة الضارة والامور المفسدة . الثاني ـ أنه بضرب من خدمة الجن يمتحن الله تعالى بتخليتهم بعض الناس دون بعض . ولا يجوز أن يكون النبي ﷺ سحر على ما رواه القصاص الجهال ، لأن من يوصف بأنه مسحور ، فقد خبل عقله . وقد أنكر الله تعالى ذلك في قوله « وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً » (٢) ولكن قد يجوز أن يكون بعض اليهود اجتهد في ذلك فلم يقدر عليه ، فأطلع الله نبيه على ما فعله حتى استخرج ما فعلوه من التمويه ، وكان دلالة على صدقه ومعجزة له .

وقوله « ومن شر حاسد إذا حسد » فالحاسد هو الذي يتمنى زوال النعمة عن صاحبها ، وإن لم يردها لنفسه . والغبطة أن يريد من النعمة لنفسه مثل ما لصاحبه وأن لم يرد زوالها عنه ، فالغبطة محمودة والحسد مذموم . وفي السورة ما يستدفع به الشرور باذن الله على تلاوة ذلك بالاخلاص فيه ، والاتباع لأمر الله . وكان النبي ﷺ كثيراً ما يعوّذ به الحسن والحسين بهاتين السورتين . وقيل إن اللواتي سحرن النبي ﷺ بنات لبيد بن أعصم اليهودي، سحرنه في أحدى عشرة عقدة ، فأنزل الله تعالى السورتين ، وهما أحدى عشرة آية فحل بكل آية عقدة .

---

(١) ديوانه ٧٧١ (نشر الصاوى)

(٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٤٧ وسورة ٢٥ الفرقان آية ٨

١١٤ - سورة الناس

وهي ست آيات بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (٦) ست آيات.

كان الكسائي في رواية أبي عمير يميل « الناس » لكسرة السين ، وهو حسن الباقون يتركون الامالة ، وهو الأصل .

هذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله ويدخل فيه المكلفون ، يأمرهم أن يستعيذوا « برب الناس » وخالقهم الذي هو « ملك الناس » ومدبرهم وإلههم « من شر الوسواس » وأن يقولوا هذا القول الذي هو « أعوذ برب الناس ... » إلى آخرها و « رب الناس » هو الذي خلقهم ودبرهم على حسب ما اقتضته الحكمة وقوله « ملك الناس » إنما خص بأنه ملك الناس مع أنه ملك الخلق أجمعين لبيان أن مدبر جميع الناس قادر أن يعيذهم من شر ما استعاذوا منه مع أنه أحق بالتعظيم من ملوك الناس .

والفرق بين (ملك) و (مالك) حتى جازا جميعا في فاتحة الكتاب ولم يجز

ـ ههنا ـ إلا ملك ، لأن صفة ملك تدل على تدبير من يشعر بالتدبير ، وليس كذلك مالك ، لأنه يجوز أن يقال : مالك الثوب ، ولا يجوز ملك الثوب ، ويجوز أن يقال : ملك الروم ، ولا يجوز مالك الروم ، فجرت ـ في فاتحة الكتاب ـ على معنى الملك في يوم الجزاء ، ومالك الجزاء ، وجرت في سورة الناس على (ملك) تدبير من يعقل التدبير ، فكأن هذا أحسن وأولى .

وقوله « إله الناس » معناه أنه الذي يجب على الناس أن يعبدوه ، لأنه الذي تحق له العبادة دون غيره « من شر الوسواس » حديث النفس بما هو كالصوت الخفي وأصله الصوت الخفي من قول الاعشى :

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت　　　كما استعان بريح عشرق زجل (١)

وقال روبة :

وسوس يدعو مخلصاً رب الفلق　　　سراً وقد أوّن تأوين العقق (٢)

والوسوسة كالهمهمة ومنه قولهم : فلان موسوس إذا غلبت عليه الوسوسة لما يعتريه من المرة . وسوس يوسوس وسواساً ووسوسة وتوسوس توسوساً . وفي معنى قوله « من شر الوسواس » ثلاثة أقوال :

احدها ـ من شر الوسوسة التي تكون من الجنة والناس ، فأمر بالتعوذ من شر الجن والانس .

الثاني ـ من شر ذي الوسواس وهو الشيطان ، كما قال في الاثر : انه يوسوس فاذا ذكر العبد ربه خنس ، فيكون قوله « من الجنة والناس » بيان انه منهم ، كما قال « إلا ابليس كان من الجن » (٣) فأما « والناس » فعطف عليه كأنه قيل من الشيطان

(١) مر في ٤ / ٣٩٧

(٢) مر في ٤ | ٣٩٧ و ٩ | ٣٦٣　　　(٣) سورة ١٨ الكهف آية ٥١

الذي هذه صفته والناس الذين هذه صفتهم .

الثالث ـ من شر ذي الوسواس الخناس على العموم ، ثم يفسر بقوله ـ عز وجل ـ من « الجنة والناس » كما يقال : نعوذ بالله من كل مارد : من الجن والانس وقوله « الخناس » معناه الكثير الاختفاء بعد الظهور ، خنس يخنس خنوساً ، ومنه قوله « فلا اقسم بالخنس » (١) أي بالنجوم التي تخفى بعدما تظهر بتصريف الحكيم الذي أجراها على حق حسن التدبير ، ومنه الخنس في الانف لخفائه بانخفاضه عندما يظهر بنتوئه . قال مجاهد : إذا ذكر العبد ربه خنس ، فاذا غفل وسوس اليه وقوله « الذي يوسوس في صدور الناس » قيل : ان الشيطان يعتري الانسان بكلام خفي بفعله يصل مفهومه إلى قلبه من غير سماع صوته ، كانسان يتكلم من وراء حجاب بكلام يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع الصوت ، وهذه حالة معقولة تقع عليها الوسوسة وأما الانسان فانما يوسوس غيره بأن يدعوه إلى الفساد ويحسن ذلك ويغويه به ويسوفه التوبة ويمنيه العفو . وقوله « من الجنة والناس » بيان لمن يكون منه الوسوسة وقد بين الله تعالى أنه يكون من قبيل الجن ومن قبيل الانس . والناس أصله من الاناس ، فحذفت الهمزة التي هي فاء ويدل على ذلك الانس والأناس . واما في تحقيره نويس ، فان الالف لما كانت ثانية زائدة اشبهت الف فاعل ، فلما قلبت واواً شبهة بألف فاعل كذلك جازت الامالة في المواضع التي اميل الاسم فيها لذلك ، ومن سأل عن قوله « قل اعوذ برب . وقل يا أيها الكافرون . وسبح اسم ربك » وما اشبه ذلك من الاوامر المتوجهة إلى النبي ﷺ فقال : كيف جاز من النبي ﷺ أن يقول : قل للأمة ؟ ولو جاز ذلك لجاز أن يقول الانسان لغلامه قل لزيد كذا فيقول غلامه لزيد : قل كذا . وهذا خلاف الغرض .

(١) سورة ٨١ التكوير آية ١٥

قلنا عنه جوابان :

احدها - ان الامر وإن كان متوجهاً إلى النبي صلى الله عليه وآله فالمراد به أمته معه ، فكأنه خاطب الجميع بان يقولوا ذلك وأن يسبحوا وغير ذلك ، فلا سؤال على هذا .

والثاني - ان الله تعالى أمر النبي صلى الله عليه وآله بأن يفعل الذي أمره وامره أيضاً بتلاوة كلامه، فلما كان قوله « قل ، وسبح » من كلام الله وجب عليه أن يتلوه على وجهه ولو كان مأموراً بالفعل دون التلاوة لما وجب أن يأتي بلفظة « قل » في هذه المواضع كلها

وجميع أي القرآن في البصري ست آلاف ومئتان وأربع آيات .

وفي المدني الاول ست آلاف ومئتان وسبع عشرة آية .

وفي الكوفي ست آلاف ومئتان وست وثلاثون آية .

وفي المدني الاخير ست آلاف ومئتان واربع عشرة آية .

وجميع ما نزل بمكة خمس وثمانون سورة لا خلاف في ذلك .

وبالمدينة تسع وعشرون سورة لاخلاف في ذلك .

فذلك مئة وأربع عشرة سورة .

وعلى ما رويناه على أصحابنا وعن جماعة متقدمين مئة واثنتا عشرة سورة .

وعدد جميع كلمات القرآن تسع وسبعون ألفاً ومئتان وسبع وسبعون كلمة . ويقال سبع وثمانون كلمة . ويقال تسع وثلاثون كلمة .

وجميع حروفه ثلثمائة الف حرف وثلاثة وعشرون الفاً وخمسة عشر الفاً .

وعدد نقطه مئة الف وست وخمسون الفاً وإحدى وثمانون نقطة .

تم المجلد العاشر وبه تم الكتاب والحمد لله

فهارس المجلد العاشر من التبيان

١ - فهرس الاحاديث

٢ ـ فهرس الردود والأدلة

٣ ـ فهرس المباحث اللغوية

٤ ـ فهرس السور

تم فهرس المجلد العاشر من التبيان

فهرس القوافي

(أ)

تؤمل رجعة — الغراء — ـــــــ — ١٨/١

أتهجوه ولست — الفداء — (حسان بن ثابت) — ١٠١/١ و ١٩٣/٢

على آثار ما ذهب العفاء — (زهير) — ٢٣٩/١

فاني لو — كفاء)
وابري موضحات — الهناء) — (زهير) — ٣٢٧/١

فصحوت عنها — داء — ـــــــ — ٣٥٤/١

واذا نظرت — نعماء — (جميل بن معمر) — ٢٢٩/١ و ١٩٨/١٠

آذنتنا ببينها أسماء)
ربّ ثاو يملّ منه الثواء) — (الحارث بن حلزة) — ٣٨٠/١ و ١٩٦/٢

كالكلب إن قلت له إخس انخسأ — ـــــــ — ٢٩١/١

ألا أبلغ — هواء) — (حسان بن ثابت) — ٤١٠/١ و ٣٠٤/٦ و
فمن يهجو — سواء) — ١٩٨/٨ و ٥٣٦/٩

تحبين الطلاق — الشناء — ـــــــ — ٤٢١/١

ليس من — الاحياء) — ـــــــ — ٤٣٢،٨٤/٢ و ٤٢٨/٣
إنما الميت — الرجاء) — و ٢٧٩/٤

يا رب غيّر — هباء)
ومشجج أما — المعزاء) — ـــــــ — ١٢٥/٢ و ٤٠/١٠

وقد أغدوا — نشاء — (زهير) — ٢٥٣/٣

يفضله اذا — الذكاء — ـــــــ — ٤٣٣/٣

(ت)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

ولا ينجي	الفرار	(بشر بن ابي خازن)	٤/٤٥٤ و ٥/٥٧٠
لو أسندت	قابر)		
حتى يقول	الناشر)	(الاعشى)	٤/٤٦٠ و ٧/٤٩٦ و ١٠/٢٧٤
كأن المدام	القطر	(امرؤ القيس)	٤/٤٦٠
فرماها في	عقره	————	٤/٤٨٤
عض بما	الغابر	(الاعشى)	٤/٤٩١
وابي الذي	الغابر	(يزيد بن الحكم)	٤/٤٩١
غنينا زماناً	الدهر)		
فما زادنا	الفقر)	(حاتم طي)	٤/٥٠٣
كأن لم	سامر)		
بلى نحن	العواثر)	(عمر بن الحارث أو الحارث الجرهمي)	٤/٥٠٣
يستن في علق وفي مكور		(العجاج)	٤/٥١٣
فألقت عصاها	المسافر	(بن عبد ربه)	٤/٥٢٣
وأصبحت فيهم	مضر	(عمر بن حطان)	٤/٥٣٠
فقلت لهن	فنعذرا	————	٤/٥٣٣
وانت عصا	الساحر	————	٤/٥٣٦
سنيني كلها	الذكور	————	٤/٥٤٩
فقلت غراب	الزجر	————	٤/٥٥١
غير الجدة	المطر	(الحسن بن عرفطة)	٤/٥٥٣
وانت الذي	الاباعر	(غيلان)	٤/٥٨٨
فما ونى محمد مذ أن غفر)			
له الاله ما مضى وما غبر)		(العجاج)	٤/٥٨٨ و ٦/٣٤٤ و
تحت الذي اختار له الله الشجر)			٧/١٧٥ و ٨/٥٥

عسفن على	ازورار	(جرير)	١٨/٧
كلا عقبيه	مباشر	———	٤١/٧
فكيف أنا	عارا	(الاعشى)	٤٤/٧
يهوين في وغوراً غـايرا) فواسقاً عن قصـدها جوائرا)		(رؤبة)	٥٧/٧
لقد لقي الاقران منـه نكرا) داهيـة دهيـاء إداً امرا)		———	٧٣/٧ ، ١٥١
جلاها السيقلون	باثر	———	٧٧/٧
سلم ترى الدالى منـه أزورا) اذا يعج في السـري هرهرا)		———	١١٨/٧
إني أتتني جاءت مرجمة	سخر) الحذر)	(عامر بن الحارث)	١٣١/٧ ــ ١٣٢
وعوت في	خزر	(حاتم)	١٤٤/٧
فليت فلان	الحمار	———	١٤٦/٧
آلا رب من	الصدر	———	١٥٣/٧
وسوف يعتبنيه	اطهار	———	١٦٢/٧
وإن ابانا	والفزر	———	١٨٠/٧
أنا أبو النجم وشعري شعري		———	١٩٤/٧
رأت رجلاً	يخفر	———	٢١٥/٧
باتت تناصي الفلك الـدوارا) حتى الصباح تعمـل الاقتارا)		———	٢٤٦/٧
وانك لا تعطي	ناصره	(الفقعسي)	٢٩٩/٧

في كفه القبس ———— ٧٦/٨

يضيء كفسوء نحاسا (النابغة الجعدي) ٤٧٥/٩

لا تخبزن خبزاً وبساً بسا)
ولا تطيلا مناخ حبسا) ———— ٤٨٩/٩

حتى اذا الصبح لها تنفسا)
وانجاب عنها ليلها وعسعسا) (علقمة بن قرط) ٢٨٥/١٠

(ش)

اليك أشكو شدة العيش)
ومرَّ أيام نتفن ريشي) ———— ٦٥/٧

أقحمني جار أبي الجاموش)
اليك نأش القدر المنؤش) (رؤبة) ٤٠٩/٨

(ص)

كذلك زيد المرىء بعد انتقاصه ———— ٧١/١

كلوا في خميص ———— ٩٧/١

تبيتون في خماصا (أعشى ثعلبة) ٤٣٧/٣

ان يمس رأسى اشمط العناصي)
كأنما فرقه مناصي) (ابو النجم) ١٢/٦

كأن سراته دليص (امرؤ القيس) ٤٢٧/٨

أمن ذكر تبوص (امرؤ القيس) ٥٤٢/٨

فما ذنبنا الدعامصا (الاعشى) ٣٦٨/١٠

(ض)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(ن)

ونغضت من هـــرم اسنانها ——— ٦/٤٨٧

عجبت لمولود   أبوان ——— ٧/٤ ، ٤٥٢

تظل جياده   صفونا   (عمرو بن كلثوم)   ٧/٤٧

إن دهراً   الاحسان ——— ٧/٧٧

قد أخذت ما بين عرض الصدفين)

ناحيتهـــا واعالي الـــركنين) ——— ٧/٩٣

واعرضت اليمامة   مصلتينا   (عمرو بن كلثوم)   ٧/٩٦ و ٨/٥٦٠

ويسنعها بنو   الحنان   (امرؤ القيس)   ٧/١١١

هبت جنوباً   حورانا   (جرير)   ٧/١١٤

بواديمان   الشبهان ——— ٧/١١٨ ، ٣٠٦

ان السفاهة   الملاعين ——— ٧/١٥٨

بذي فرفير   يحرقونا ——— ٧/٢٠٥

فجاءت به   حصين   (حسان)   ٧/٣٥٣ و ٨/٢٩٧

مثل العصافير   وزنوا ——— ٧/٤٨٧

ان يسمعوا   دفنوا ——— ٧/٤٨٧

علام يعبد   عيدان ——— ٨/١٤

برأس من   الحزونا   (عمرو بن كلثوم)   ٨/٦٢

فقلت لها   داعيان ——— ٨/١٩١

كـــأن عيني وقـــد بانوني)

غربا نصـــوح غير محنوني) ——— ٨/١٩٨

يغاشيهن اخضر   الدنان   (النابغة الجعدي)   ٨/٢٨٨

(ي)

ى (الالف اللينة)